موسوعة العلامة الكبير

الشيخ محمد حسن آل ياسين رحمه الله

المؤلفات

من المؤمنين رجال

القسم الأول

المجلد السادس

دار المؤرخ العربي
بيروت

موسوعة العلامة الكبير الشيخ محمد حسن آل ياسين

والكاظمين الغيظ
الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

موسوعة العلامة الكبير

الشيخ محمد حسن آل ياسين رحمه الله

المؤلفات

(٦)

موسوعة العلامة الكبير

الشيخ محمد حسن آل ياسين رحمه الله

المؤلفات

من المؤمنين رجال

القسم الأول

المجلد السادس

دار المؤرخ العربي
بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م

دار المؤرخ العربي

بيروت - بئر العبد - مقابل بنك بيروت والبلاد العربية - بناية نخلة
تلفاكس: ٥٤١٤٣١ - ٠١ - هاتف: ٥٤٤٨٠٥ - ٠١ - ص.ب: ١٢٤/٢٤
البريد الإلكتروني al_mouarekh@hotmail.com
www.al-mouarekh.com

دليل موسوعة العلامة الكبير
الشيخ محمد حسن آل ياسين
المؤلفات

المجلد صفر (٠): سيرته الدراسية والعلمية

المجلد الأول: أصول الدين

- ألله بين الفطرة والدليل
- العدل الإلهي بين الجبر والاختيار
- النبوة
- الإمامة
- المعاد

المجلد الثاني: في رحاب الرسول (ص)

المجلدات الثالث والرابع والخامس: (سيرة الأئمة الاثني عشر عليهم السلام)

المجلدان السادس والسابع: من المؤمنينَ رجالٌ (سيرة ٢٩ صحابياً).

المجلد الثامن: مفاهيم إسلامية

- في رحاب القرآن
- عباد الرحمن
- نهج البلاغة.. لمن؟
- المهدي المنتظر(عج) بين التصور والتصديق

المجلد التاسع: في رحاب الإسلام

- المادة بين الأزلية والحدوث
- الإنسان بين الخلق والتطور
- هوامش على كتاب نقد الفكر الديني

المجلد العاشر: الأعمال الفقهية

- على هامش كتاب العروة الوثقى
- مذكرات في الفقه الإستدلالي (١ و٢)
- مناسك العمرة المفردة
- بين يدي «المختصر النافع»

المجلد الحادي عشر: اعلام من التراث

- الصاحب بن عبّاد حياته وأدبه
- محمد بن محمد بن النعمان (الشيخ المفيد)
- منهج الطوسي في تفسير القرآن
- السيد علي بن طاووس (حياته، مؤلفاته، خزانة كتبه)

المجلد الثاني عشر: دراسات وصنعات

● **شعر تراثي:**

- ديوان أبي طالب بن عبد المطلب في صنعتين
- من المستدرك على ديوان الخبزارزي المتوفى سنة ٣٣٠ هـ
- ديوان متمم بن نويرة
- ديوان مالك بن نويرة

● **الأعمال اللغوية:**

- صيغة (فَعَّلَ) في العربية
- (فَيْعِلٌ) أم (فَعِيْل)
- ملاحظات في المعجمات المحققة المطبوعة
- المعجم الذي نطمح إليه
- جوهرة الجمهرة للصاحب إسماعيل بن عبّاد ٣٢٦ ـ ٣٨٥ هـ
- مسائل لغوية في مذكرات مجمعية
- (إبريق) لفظ عربي فصيح
- السلسبيل لفظ عربي فصيح

المجلد الثالث عشر: دراسات تاريخية

- تاريخ المشهد الكاظمي
- المعمى والأحاجي والألغاز
- تاريخ الحكم البويهي في العراق
- الأرقام العربية : فوائدها، نشأتها، تطورها
- تاريخ الصحافة الكاظمية
- لمحات من تاريخ الكاظمية
- لمحات من تاريخ الطبري

المجلدان الرابع عشر والخامس عشر: تاريخ الشعر الكاظمي ١/ ٢

المجلدان السادس عشر والسابع عشر: معجم النبات ١/ ٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم
مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ .

«صَدَق الله العظيم»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه وخاتم أنبيائه محمد؛ وآله الطيبين الطاهرين.

وبعد:

فهذه صفحات متواضعة تُعنى بالحديث عن فوارس من فرسان العقيدة، وجنود شجعان من جنود الحق، وفتيان من أولياء الله المخلصين، ومن صحب رسول الله (ص) وأتباعه الأُمناء الصادقين، من المجاهدين في ساحات الوغى ضد المشركين والمنحرفين والناكثين والقاسطين.

وما أشدَّ حاجة العرب خاصةً؛ والمسلمين عامةً؛ في ظروفهم الحاضرة، وقد تكالبتْ عليهم قوى الجور والضلال والعدوان، فبطشت بهم في أكثر من مكان، وهَزَمَتْهم في أكثر من جولةٍ وميدان، وما زالت في نهمٍ إلى المزيد من الوقيعة بهم والتسلُّط عليهم وامتصاص ما حباهم الله تعالى من نِعَم الأرض وبركات السماء.

أقول: ما أشدَّ حاجة هؤلاء اليوم؛ وحاجة أجيالهم الناشئة بالخصوص، إلى وقفةٍ ذكيَّة فاحصة، بل عودة متفتِّحة واعية، إلى دراسة التاريخ بعمق، واستلهام التراث بتدبُّر، والتفاعل مع الماضي المشرق بفهمٍ وقدرةٍ على الفرز والتمييز، لتقتبس من كل ذلك ما يُعينها على صنع الغدِ المنتظر المنشود، الذي لا يهدِّد أَمْنَه طامع، ولا يدنِّس ترابَه معتدٍ أثيم، ولا يقف أمامَ زحفِه الحضاريِّ الخَلاّق مُشَرِّقٌ أو مُغَرِّب.

وليس من مجالٍ لذلك الدرس والاستلهام والتفاعل، أفضل من معرفة سِيَر أولئك الروّاد الأفذاذ الذين آمنوا بالله فاطمأنَّتْ قلوبهم، وعاهدوا على الفداء والوفاء فصدقوا في عهودهم، وبذلوا الجهود المضنية والدماء الزكية تحت لواء الحق، ليجعلوا كلمة الله هي العليا؛ وراية القرآن هي الخفّاقة؛ وصوت العقيدة هو الصوت المُدَوِّي في أرجاء الأرض؛ كلِّ الأرض.

وكلُّ أملي أن تكون هذه الصفحات اليسيرة قادرة على إيضاح الصورة المطلوبة، في التعريف بسيرة هؤلاء الرجال، فيما بلغنا خبرُه من جوانب حياتهم، ومجالات جهدهم وجهادهم، وفي إبراز مواقفهم البطولية الشجاعة وأعمالهم النضالية الفذة، في الدفاع عن عقيدتهم السامية وحمايتها من كيد الكائدين؛ وعدوان الناكثين والقاسطين؛ وتزييف المزيِّفين.

والله المسؤول أن يتقبّل ذلك بِقَبُولِهِ الحسن الجميل، وأن يوفِّق للمزيد من هذه الدراسات المعنيَّة بأولئك المجاهدين المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، إنه ـ تعالى ـ نِعْمَ المسدِّد والموفِّق والمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

محمد حسن آل ياسين

مِنَ المُؤمنين رِجَالٌ

[١]

حَمْزَةُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ

حمزة بن عبد المطلب

حياته

هو: حمزة بن عبد المطَّلب بن هاشم بن عبد منَاف بن قُصَيّ بن كلاب بن مرَّة بن كعب بن لُويّ بن غالب بن فِهْر بن مالك بن النَّضْر بن كنِانة بن خُزَيمة بن مُدرِكة بن إلياس بن مُضَر بن نزار بن مَعَدِّ بن عدنان[1].

وجدُّه: هاشم بن عبد مَناف زعيم مكة وسيد قريش، ومَنْ بيده أمر السقاية والرفادة للحجيج[2]، وأول مَنْ أنقذ الجياع بمكة بإطعام الطعام وهشم الثريد[3]، وأول مَنْ سَنَّ الرحلتين والإيلاف؛ ووضع أُسس تلك الروابط الاقتصادية المهمة بين قريش وملوك اليمن والحبشة والشام[4]، فأصبح واضعَ أول معاهدة تجارية في تاريخ البشرية.

وأبوه: عبد المطلب بن هاشم وارث الأمجاد وسليل المكرمات، «سيد الوادي غير مُدافَع، أجمل الناس جمالاً، وأظهرهم جوداً، وأكملهم كمالاً، وهو صاحب الفيل والطير الأبابيل، وصاحب زمزم، وساقي الحجيج»[5]، بل «شرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه،

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/١ ـ ٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ١/١٤٣.

(٣) سيرة ابن هشام: ١/١٤٣ وتاريخ الطبري: ٢/٢٥٢.

(٤) سيرة ابن هشام: ١/١٤٣ وتاريخ الطبري: ٢/٢٥٢ وشرح نهج البلاغة: ١٥/٢٠٢.

(٥) شرح نهج البلاغة: ١٥/٢٠٠.

وأحبَّه قومه، وعظم خطَره فيهم»[١]، «فلم يكن يُعْدَل به منهم أحد»[٢].

وأُمُّه: هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب[٣]، ابنة عم آمنة بنت وهب أُم النبيّ (ص)[٤].

نسبٌ كأنَّ عليه من شمس الضحى نوراً ومن فَلَقَ الصباح عمودا

❀ ❀ ❀

وُلد قبل عام الفيل بسنتين في الأصح، وقيل: قبله بأربع سنوات، وهو قول لا يعتدُّ به. ويعود الخلاف في ذلك إلى الخلاف في عدد السنين التي يكبر بها ابنَ أخيه محمداً؛ بعد الاتفاق على ولادة النبيّ (ص) في عام الفيل؛ وعلى أن حمزة أكبر من محمد[٥]، فذهب بعض إلى أنه أسنُّ من النبيّ (ص) بسنتين[٦]؛ وذهب آخرون إلى أربعٍ أو نحوها[٧]. ولكن رواية الأربع لا تصح، لإجماع المؤرخين على أنّ حمزة كان أخا رسول الله (ص) من الرضاعة[٨]، وأنَّ «أول مَن أرضع رسول الله (ص) ثُويبة؛ بلبِن ابنٍ لها يُقال له مسروح؛ أياماً قبل أن تقدم حليمة، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب»[٩]، وبسبب هذا

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ١٥٠.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ٢٥١.

(٣) طبقات ابن سعد: ١/ق ١/ ٥٦ و٨/ ٢٧.

(٤) طبقات ابن سعد: ١/ ق ١/ ٥٨.

(٥) أسد الغابة: ٢/ ٤٩.

(٦) الاستيعاب: ١/ ٢٧١ وأسد الغابة: ٢/ ٤٦ والإصابة: ١/ ٣٥٣.

(٧) أنساب الأشراف: ١/ ٧٩ والاستيعاب: ١/ ٢٧١ وأسد الغابة: ٢/ ٤٦ والإصابة: ١/ ٣٥٣.

(٨) طبقات ابن سعد: ١/ ق ١/ ٥٨ و٦٧ و٦٨ و٣/ق ١/ ٦ و٨/ ١١٣ و١١٤ والتبيين: ١٢٠ ونهاية الأرب: ١٨/ ٢١٦.

(٩) أنساب الأشراف: ١/ ٩٤ وتاريخ الطبري: ٢/ ١٥٨ والاستيعاب: ١/ ٢٧١.

الرضاع امتنع رسول الله (ص) من الزواج بابنة عمه حمزة لأنها بنت أخيه من الرضاعة[١].

ونشأ حمزة نشأةً لم يحظ بمثلها إلا الأوحديُّ من فتيان مكة، فقد كان غرس بيت عبد المطلب سيد قريش، وربيب الحجور الطاهرة التي لم تعرف الأدناس والأرجاس، فشبَّ على صفحات النبل والطهارة والمجد، ونما في أحضان الشرف والإباء والسؤدد، فأصبح ذلك الفتى الألمعي المؤهَّل للغد الكبير والمستقبل العظيم.

وتوفي عبد المطلب ولابنه حمزة من العمر عشر سنوات، ولكنها ـ فيما يبدو ـ ليست عشراً كما نفهمها اليوم، فقد كان هذا الفتى ملء السمع والبصر من بني قومه، ومثار الإعجاب والاحترام من أهل بلده، ولعلَّ من أوضح ما يرشدنا إلى ذلك ما نقرؤه في قصيدة حُذَيفة ـ أو حذافة ـ بن غانم أخي بني عَديّ بن كعب بن لؤي؛ التي رثى بها عبد المطلب؛ فلم يفته أن يذكر حمزة بين البارزين من أبنائه، فقال:

وحمزة مثل البدر يهتزُّ للندى   نقيُّ الثياب والذمام من الغَدْرِ[٢]

❀ ❀ ❀

وتلقَّفت حمزةَ في مطلع شبابه المتفتح ضواحي مكة والأطراف؛ ببواديها الرملية السمراء؛ وجبالها الصخرية السوداء؛ ووديانها الممتدة امتداد الأفق. فحببتْ إليه ركوب الخيل وحياة الفروسية، وأثارت في نفسه هواية الصيد والقنص، وبَنَتْ جسمه الغض أصلب بناء وأمتنه،

---

(١) صحيح البخاري: ٥/ ١٨٠ وأنساب الأشراف: ١/ ٤٦٢ والمعجم الكبير: ٣/ ١٥٠ـ ١٥١ ونهاية الأرب: ١٨/ ٢٠٦.

(٢) سيرة ابن هشام: ١/ ١٨٥.

وأرهفت حسه الأصيل أيّما إرهاف، وخلقت منه ذلك الفارس الشجاع المتدفق بالحيوية والنشاط والعنفوان.

وأصبح لحمزة من صيده وقنصه؛ وتصويبه ورميه؛ ومصاحبته الدائمة لقوسه؛ ومرافقته الأثيرة للخيل والصحراء، ما اشتره على كل لسان، وانتشر في كل نادٍ ومجمع. ممّا دلّ دلالة واضحة على براعته التامة وإجادته الفائقة في هذه المجالات أو البطولات، حتى صارت له بمثابة السمة الثابتة والعنوان الخاص والعلامة المميّزة.

فابن إسحاق ـ مثلاً ـ لم يذكر من أوصاف حمزة وخصاله البارزة إلاّ أنه كان «صاحب قنص يرميه، ويخرج له» وأنه كان يتوشح قوسه كثيراً[(١)].

ولم يورد الطبراني ـ وهو مثلٌ آخر ـ في هذا الصدد إلا أنه «كان رجلاً رامياً، وكان يخرج من الحرم فيصطاد»[(٢)].

وترشدنا بعض النصوص التاريخية إلى أن شهرة حمزة بذلك قد تجاوزتْ حدود بلده وأهله؛ فبلغت مسامع القبائل العربية خارج مكة، فقد روى محمد بن حبيب في شرح سبب الحلف المعقود بين حمزة ومرثد بن أبي مرثد الغنوي قال: «إن كَنّاز بن حُصَين الغنوي ثم أحد بني حِلّان ـ وهو أبو مرثد ـ وكان صاحبَ قنص، قتل رجلاً من غنيّ من بني عِتريف، فأسلمته بنو حِلّان إلى بني عتريف، فبات عندهم أسيراً، فدبَّ إليه مرثد بشعلةٍ من نار فأحرق بها إسارَه، ثم خرجا من ليلتهما حتى تغيَّبا في غار. ثم لحقا بمكة فحالفا حمزة بن عبد المطلب، وكان حمزة صاحب قنص»[(٣)].

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٣١١.
(٢) المعجم الكبير: ٣/ ١٥٢.
(٣) المنمق: ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

وإذا كانت هذه الحادثة قد دلّتنا على معرفة القبائل العربية خارج مكة ببراعة حمزة في قنصه واشتهاره في هذا الفن من فنون الفروسية، فإنها لَتدلُّنا على جانب آخر ربما يزيد أهمية على الجانب السابق، وهو علم هذه القبائل بما يمثّل حمزة من عزة ومنعة وبسطة ساعد، حتى صح أن يكون الملجأ والملاذ للفارّين والمطارَدين، والطرفَ القوي الذي يُركَن إليه في التحالف الذي يضمن الأمان؛ والتعاهد الذي يكفل السلامة والاطمئنان.

ولا عجب في ذلك ولا غرو، فقد وصفته المصادر الرئيسة: بأنه «أعزُّ فتىً في قريش؛ وأشدُّ شكيمة»[1].

وهكذا أصبح حمزة «الأعزُّ» و«الأشدُّ» فرداً بارزاً من أفراد بني هاشم وآل شيبة الحمد، وسيداً محترماً من سادات قريش، ورجلاً نابهاً من رجالات مكة.

وقد أهّلتْه تلك الخصال الفاضلة والمزايا الحميدة للمشاركة في المهمات الجليلة والشؤون الكبيرة التي لا يقوم بها إلا الرجال المتميزون من الرؤساء والزعماء يومذاك .

وإذا كان التاريخ لم يدوِّن ذلك كله بالتفصيل، فقد علمنا أنه سافر إلى الشام برفقة تجارة قريش في إحدى رحلاتها إلى تلك البلاد، وقد صحب ابنَ أخيه محمداً (ص) في هذه الرحلة يوم سافر يتَّجر بأموال خديجة، وكان حمزة يرعى ابن أخيه حق الرعاية ويوليه العناية القصوى، طيلة المدة التي استغرقتها الرحلة[2].

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٣١١ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٣٤.

(٢) بحار الأنوار: ١٦/ ٣٠ ـ ٤٩.

وعلمنا ـ أيضاً ـ أن حمزة كان في الطليعة من خاطبي خديجة لمحمد (ص) وحضّار تلك المناسبة السعيدة(١).

وعلى هذين المَثَلَين نقيس غيرهما ممّا أهمل التاريخ سطره وذكره.

❀ ❀ ❀

وكان لا بدَّ لهذا الشاب الفارس الشجاع من زوجةٍ تدير أمره وتشد أزره؛ وحليلةٍ تشاركه الأعباء وتواسيه في السرّاء والضرّاء. وقد علمنا من المصادر التاريخية أن له ثلاث أزواج:

الأولى ـ بنت الملَّة بن مالك بن عُبادة بن حجر بن فائد بن الحارث بن زيد بن عبيد بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف، من الأوس(٢).

الثانية ـ «خولة بنت قيس بن فَهْد بن قيس بن ثعلبة بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجّار.. وأُمُّها الفريعة بنت زرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجّار»(٣). وقد أسلمت خولة هذه وبايعت رسول الله (ص)، وخلف عليها ـ بعد شهادة حمزة ـ حنظلةُ بن النعمان بن عمرو بن مالك(٤).

الثالثة ـ «سلمى بنت عُمَيْس بن مَعدّ بن تميم بن الحارث بن كعب بن مالك بن قُحافة بن عامر بن ربيعة بن عامر بن معاوية بن زيد بن مالك بن نسر بن وهب الله بن شهران بن عفرس بن أفتل ـ وهو جماع

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٢٠١ والمحبَّر: ٧٨ وأنساب الأشراف: ١/ ٩٧ ـ ٩٨ وتاريخ الطبري: ٢/ ٢٨١.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٣.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٣ و٨/ ٣٢٥.

(٤) طبقات ابن سعد: ٨/ ٣٢٥، ولخولة ترجمة في الاستيعاب: ٤/ ٢٨١ وأسد الغابة: ٥/ ٤٤٦ والإصابة: ٤/ ٢٨٥.

خثعم ـ. وأُمُّها هند ـ وهي خولة ـ بنت عوف بُن زهير بن الحارث بن حماطة بن جُرَش»[١]، وقد بادرت سلمى إلى الإسلام في السابقات الأوَّليات مع أختها أسماء بنت عميس[٢]، وخلف عليها ـ بعد استشهاد حمزة ـ شَدّادُ بن أُسامة بن الهاد الليثي فولدتْ له عبد الله بن شداد من أصحاب علي (ع)[٣].

❁ ❁ ❁

وأنجب حمزة من الذرية عدةً من الأولاد، هم:

يَعْلى:

وبه كان يكنى حمزة[٤]، ووردت هذه الكنية في مقطَّعة لأبي طالب يخاطب بها أخاه[٥]، ولعله أول أولاده. و«كان ليعلى بن حمزة أولاد: عمارة والفضل والزبير وعقيل ومحمد، درجوا، فلم يبق لحمزة بن عبد المطلب ولدٌ ولا عقب»[٦].

عامر:

توفي ولم يعقب[٧].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٠٩.

(٢) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٠٩.

(٣) طبقات ابن سعد: ٦/ ٨٦ و٨/ ٢٠٩ والاستيعاب: ٤/ ٣٢٠ وأسد الغابة: ٥/ ٤٧٩ والإصابة: ٤/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٣ والاشتقاق: ٧٠ وجمهرة أنساب العرب: ١٧ والتبيين: ١١٩ والاستيعاب: ١/ ٢٧١ وأسد الغابة: ٢/ ٤٦ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٢٧ ونهاية الأرب: ١٨/ ٢١٦.

(٥) شرح نهج البلاغة: ١٤/ ٧٦ ـ ٧٧.

(٦) طبقات ابن سعد: ٣/ ق ١/ ٤.

(٧) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٣.

عُمارة:

وبه كان يكنى حمزة أيضاً[١].

أُمامة:

هذا هو اسمها الصحيح كما نصَّ عليه غير واحد من المؤرخين[٢]، وسُمِّيت في بعض الروايات: عُمارة[٣]، وهو اشتباه بأخيها عمارة المتقدم الذكر[٤]، وكانت تكنى أو تلقَّب: أمة الله[٥]. وقد زوَّجها رسول الله (ص) سلمة بن أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي[٦].

وروى الرواة أنَّ بنتاً لحمزة كانت تسكن مكة، وأن النبيّ (ص) لما أراد مغادرة مكة في عمرة القضية «تبعته ابنة حمزة تنادي يا عمِّ يا عم، فتناولها عليٌّ فأخذ بيدها وقال لفاطمة (ع): دونكِ ابنة عمك احمليها. فاختصم فيها عليٌّ وزيد وجعفر (أي أراد كلُّ واحدٍ منهم أخْذَها إليه)، قال عليّ: أنا أخذتُها وهي بنت عمي، وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي (لأن النبيّ (ص) آخى بين حمزة وزيد بن حارثة). فقضى بها النبيّ (ص) لخالتها وقال: الخالة بمنزلة الأمّ، وقال

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ق ١/ ٣ و٨/ ١١٣ والاشتقاق: ٧٠ والاستيعاب: ١/ ٢٧١ والتبيين: ١١٩ وأسد الغابة: ٢/ ٤٦ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٢٧ والإصابة: ١/ ٣٥٣ ونهاية الأرب: ١٨/ ٢١٦.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ق ١/ ٣ و٨/ ٣٣ و١١٣ والمحبَّر: ٦٤ وأسد الغابة: ٥/ ٣٩٩ والتبيين: ١٢٢ والإصابة: ٤/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠ ونهاية الأرب: ١٨/ ٢٠٦.

(٣) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٨٨ و٦/ ٨٦ و٨/ ١١٤ و٢٠٩ وأسد الغابة: ٥/ ٤٠٠ والإصابة: ٤/ ٢٢٩ ونهاية الأرب: ١٨/ ٢٠٦.

(٤) طبقات ابن سعد: ٨/ ١١٣.

(٥) المحبر: ١٠٧ وأنساب الأشراف: ١/ ٤٤٧ والاستيعاب: ٤/ ٣٢٠ والتبيين: ١٢٢.

(٦) المحبر: ٦٤ و١٠٧ وأنساب الأشراف: ١/ ٤٣٠ وتاريخ الطبري: ٣/ ١٦٤ وجمهرة أنساب العرب: ١٧ والتبيين: ١٢٣ والإصابة: ٤/ ٣٦٩.

لعليّ: أنت مني وأنا منك، وقال لجعفر: أشبهتَ خَلْقي وخُلُقي، وقال لزيد أنت أخونا»[١].

أقول: بنت حمزة هذه هي أُمامة نفسها في الأرجح، ويؤيد ذلك ما ورد: من أن أُمامة بنت حمزة «طفقت حين قدمت المدينة تسأل عن قبر أبيها ومصرعه»، فقال حسان بن ثابت:

تُسائل عن قَرمٍ هِجانٍ سميدع ... لدى البأس مغرار الصباح جسورِ
فقلتُ لها: إن الشهادة راحةٌ ... ورضوانُ ربٍ - يا أُمامَ - غفورِ
فإن أباكِ الخيرَ حمزةَ فاعلمي ... وزيرُ رسول الله خير وزيرِ الخ[٢]

فاطمة:

وتكنى أمَّ الفضل[٣] وأُمَّ أبيها[٤]، وقال ابن الأثير: «وقيل: اسمها أُمامة»[٥]، وروى ابن حجر في ترجمة أمامة: أنه «قيل إن اسمها فاطمة»[٦].

أُمُّ حبيبة:

ذكرها بعض المؤرخين المتأخرين[٧]، ولم نجد في المصادر الأولى ما يؤيد ذلك سوى روايةٍ تقول: إن خولة ولدت لحمزة «ابنتين

(١) صحيح البخاري: ٥/ ١٨٠، وطبقات ابن سعد: ٢/ ق ١/٨٨ و٨/ ٣٣ و١١٤ و٢٠٩ والتبيين: ١٢٣ وأسد الغابة: ٥/٣٩٩ ـ ٤٠٠.
(٢) ديوان حسان بن ثابت: ١٣٣ ـ ١٣٤.
(٣) التبيين: ١٢٣ ـ ١٢٤ وأسد الغابة: ٤/٥١٨ والإصابة: ٤/ ٣٦٩.
(٤) الإصابة: ٤/ ٣٦٩ نقلاً عن الدارقطني.
(٥) أسد الغابة: ٤/٥١٨.
(٦) الإصابة: ٤/ ٢٣٠.
(٧) نهاية الأرب: ١٨/٢٠٦.

لم تُدرِكا»[١]، ولعلهما فاطمة وأم حبيبة، وفي رواية النويري في ترجمة حمزة قال: «ولم يكن له إلاّ ابنة واحدة، وقيل: ابنتان»[٢].

والله تعالى هو العالم.

❀ ❀ ❀

ولم يبق لدينا من شيء نرويه ممّا يتعلق بحياة حمزة الأولى وسيرته الذاتية؛ إلاّ الوقوف ـ باستطلاع وتدبُّر ـ على ما روى الرواة له من شعرٍ كان قد قاله في بعض المناسبات العابرة، تسجيلاً لحدثٍ معين مرَّ به فأثَّر في نفسه، أو تعبيراً عن خاطرةٍ سنحت له فتركت لها صدى خاصاً في أعماقه.

وعلى الرغم من أن حمزة لم يكن شاعراً بالمعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة، فإنّا نراه قد أعرب عن بعض مشاعره بالقصيد المنظوم والكَلِم المقفّى الموزون، فجاء ذلك ـ إن صحّت الرواية وثبتت النسبة ـ شعراً مقبولاً لا يقل شاعرية وفنّاً عن كثير من النظم المأثور المتداول في عصره، وإن كان لا يرقى إلى مستوى الشعر الجيد الذي أبدعه الشعراء المعروفون.

ونورد ـ فيما يأتي ـ كلَّ ما وقفنا عليه من شعرٍ منسوب لحمزة، نرجو أن يكون مسك ختام هذا الفصل المعنيّ بحياته الخاصة ومواهبه الشخصية وملامحه الذاتية المتميزة:

---

(١) طبقات ابن سعد: ٨/ ٣٢٥.

(٢) نهاية الأرب: ١٨/ ٢١٦.

١

«قال حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه:

بكَفّيْ ماجدٍ لا عَيْبَ فيه ... إذا لَقِيَ الكريهةَ مُسْتميتِ[١]

٢

«قال حمزة يمدح محمداً (ص):

ما نالتِ الحُسّاد فيك مرادَهم ... طلبوا نقوصَ الحال منك فزادا
كادوا وما خافوا عواقبَ كيدِهم ... والكيدُ مرجعُه على مَنْ كادا
ما كلُّ مَنْ طلب السعادةَ نالها ... بمكيدةٍ أو أن يروم عنادا
يا حاسدين محمداً يا ويلكم ... حسداً يُمزِّق منكم الأكبادا
الله فضَّل أحمداً واختاره ... ولسوف يُمْلِكه الورى وبلادا
ولَيَمْلأنَّ الأرضَ من إيمانه ... وليهدينَّ عن الغوى مَنْ حادا[٢]

٣

«لحمزة بن عبد المطلب:

أنتَ المُظلّل بالغمام وقد رأى الـ ... رُهْبانُ أنّك ذاك وانكشف الخَبَرْ
رُبِّيتَ في بحبوح مكة حيثما ... وضع الخليل وفاق فخرك مَنْ فخرْ
ورضعتَ في سعدٍ لثدي حليمةٍ ... كرماً ففاض الثديُ نحوك وانحدرْ[٣]

❀ ❀ ❀

---

(١) الفائق: ٢/٣٤٥.
(٢) بحار الأنوار: ١٦/٣٨.
(٣) بحار الأنوار: ١٦/٤٣.

٤

«قال حمزة بن عبد المطلب في يوم بدر:

ألم تَرَ أمراً كان من عَجَب الدهرِ — وللحَيْن أسبابٌ مبيَّنة الأمرِ
وما ذاك إلاّ أنَّ قوماً أفادهم — فحانوا تواصٍ بالعقوق وبالكفرِ
عشية راحوا نحو بدرٍ بجمعهم — فكانوا رهوناً للركيَّة من بدرِ
وكُنّا طلبنا العيرَ لم نَبْغِ غيرها — فساروا إلينا فالتقينا على قدرِ
فلّما التقينا لم تكن مَثْنويَّةٌ — لنا غير طعنٍ بالمُثَقَّفة السُّمرِ
وضَربٍ ببيضٍ يختلي الهامَ حدُّها — مُشهَّرة الألوان بيِّنة الأُثْرِ
ونحن تركنا عُتبةَ الغيِّ ثاوياً — وشيبةَ في القتلى تَجَرْجَمُ في الجَفْرِ
وعمرو ثوى فيمن ثوى من حُماتهم — فشُقَّت جيوبُ النائحات على عمرو
جيوبُ نساءٍ من لؤيِّ بن غالب — كرام تفرَّعنَ الذوائب من فهرِ
أولئك قومٌ قُتِّلوا في ضلالهم — وخلَّوا لواءً غير محتضر النصر
لواء ضلالٍ قاد إبليسُ أهلَه — فخاس بهم إن الخبيث إلى غدرِ
وقال لهم إذ عاين الأمرَ واضحاً: — برئتُ إليكم ما بيَ اليوم من صبرِ
فإني أرى ما لا ترون وإنني — أخاف عقابَ الله والله ذو قسرِ
فقدَّمهم للحَينِ حتى تورَّطوا — وكان بما لم يخبر القومُ ذا خُبْرِ
فكانوا غداةَ البئر ألْفاً وجمعُنا — ثلاثُ مئينٍ كالمُسَدَّمة الزُّهرِ
وفينا جنود الله حين يُمدُّنا — بهم في مقامٍ ثَمَّ مُستوضَح الذِّكرِ
فشدَّ بهم جبريل تحت لوائنا — لدى مأزقٍ فيه مناياهُمُ تجري[1]

❀ ❀ ❀

(١) عُزيت القصيدة في رواية ابن إسحاق لحمزة بن عبد المطلب، وقال ابن هشام تعليقاً على ذلك: وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها» سيرة ابن هشام: ٣/ ٨ ـ ٩.

٥

«قال حمزة بن عبد المطلب حين أسلم:

حمدتُ الله حين هدى فؤادي ... إلى الإسلام والدين الحنيفِ
لدينٍ جاء من ربّ عزيز ... خبير بالعباد بهم لطيفِ
إذا تُليَتْ رسائلُه علينا ... تحدَّر دمعُ ذي اللبِّ الحصيفِ
رسائل جاء أحمد من هداها ... بآياتٍ مبيّنة الحروفِ
وأحمد مصطفى فينا مطاعٌ ... فلا تغشوه بالقول العنيفِ
فلا والله نُسلمُه لقومٍ ... ولَمّا نَقْضِ منهم بالسيوفِ[1]

٦

وقال حمزة بن عبد المطلب لمّا بعثه النبيّ (ص) إلى سيف البحر في سَرِيَّة:

ألا يا لقومي للتحلُّم والجهلِ ... وللنَّقص من رأي الرجال وللعقْلِ
وللراكبينا بالمظالم لم نَطَأْ ... لهم حُرُماتٍ من سَوامٍ ولا أهلِ
كأنّا تَبَلْناهم ولا تَبْلَ عندنا ... لهم غير أمرٍ بالعفاف وبالعدلِ
وأمْرٍ بإسلام فلا يقبلونه ... وينزل منهم مثلَ منزلة الهَزْلِ
فما برحوا حتى انتدبتُ لغارةٍ ... لهم حيث حلُّوا أبتغي راحةَ الفضلِ
بأمر رسول الله أوّل خافقٍ ... عليه لواء لم يكن لاح من قبلي
لواءٌ لديه النصر من ذي كرامةٍ ... إلَهٍ عزيزٍ فعلُه أفضلُ الفعلِ
عشية ساروا حاشدين وكُلُّنا ... مراجلُه من غيظ أصحابه تَغلي
فلمّا تراءَيْنا أناخوا فعقَّلوا ... مطاياً وعقَّلْنا مدى غرَض النَّبلِ

(١) تاريخ الخميس: ١/٢٩٣ ـ ٢٩٤ والدرجات الرفيعة: ٦٤ ـ ٦٥. وورد البيت الأول بمفرده في العباب والتاج (حنف) معزوّاً للخليفة عمر بن الخطاب.

فقلنا لهم: حبل الإلّه نصيرُنا ... وما لكمُ إلاّ الضلالة من حبلِ
فثار أبو جهلٍ هنالك باغياً ... فخاب وردَّ اللهُ كيدَ أبي جهلِ
وما نحن إلاّ في ثلاثين راكباً ... وهم مئتان بعد واحدةٍ فضلِ
فيا للُؤيّ لا تُطيعوا غُواتكم ... وفيئوا إلى الإسلام والمنهج السهلِ
فإني أخافُ أن يُصَبَّ عليكم ... عذابٌ فتدعوا بالندامة والثكلِ(١)

٧

«وفرس حمزة بن عبد المطلب ـ(ع) ـ يُقال له: الوَرْد، وفيه يقول حمزة:

ليس عندي إلاّ سِلاحٌ ووَرْدٌ ... قارحٌ من بنات ذي العُقّالِ
أتَّقي دونه المنايا بنفسي ... وهو دوني يغشى صدور العوالي
جُرْشُعٌ ما أصابتِ الحربُ منه ... حين تحمى أبطالها لا يُبالي
وطريرٍ كأنّه قرن ثورٍ ... ذاك لا غير ذاكم جلُّ مالي
فإذا ما هلكتُ كان تراثي ... وسجالاً محمودة من سجالي(٢)

٨

اللّيَاح ـ بفتح اللام وكسرها ـ: سيف حمزة بن عبد المطلب، وقال يذكره يوم أُحُد لمّا قتل عثمان بن أبي طلحة حامل لواء قريش:

قد ذاق عثمانُ يوم الجَرِّ من أُحُدٍ ... وَقْعَ اللّيَاح فأودى وهو مذمومُ

---

(١) عُزيت القصيدة لحمزة في رواية ابن إسحاق، وعلق على ذلك ابن هشام قائلاً: «وأكثر أهل العلم بالشعر ينكر هذا الشعر لحمزة». سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

(٢) المنمّق: ٥١٢ ـ ٥١٣. ووردت الأبيات ١ ـ ٣ و٥ معزوّة لحمزة في أنساب الخيل: ٢٠ ـ ٢١، والبيتان الأولان لحمزة في لسان العرب (عقل) وتاج العروس (ورد) و(عقل).

وذاق عتبةُ في بدرٍ وقيعته ... تَبّاً لمصرع شيخٍ ثَمّ مذموم[(١)]
وجمع فهرٍ وقد جاءت مُسوّمةً ... لو ذاد عنها وقاعَ الموت تسويمُ[(٢)]

٩

وقال حمزة يرد على قريش في تكذيبهم النبيّ (ص):

لقد عجبتُ لأقوامٍ ذوي سَفَهٍ ... من القَبيليْن من سَهْمٍ ومخزومِ
القائلين لما جاء النبيُّ به ... هذا حديث أتانا غير ملزومِ
فقد أتاهم بحقّ غير ذي عوجٍ ... ومُنْزلٍ من كتاب الله معلومِ
من العزيز الذي لا شيء يعدله ... فيه مصاديق من حقّ وتعظيمِ
فإنْ تكونوا له ضدّاً يكن لكُمُ ... ضدّاً بغلباء مثل الليل علكومِ
فآمِنُوا بنبيٍّ لا أباً لكم ... ذي خاتم صاغه الرحمن مختومِ[(٣)]

---

(١) كذا في الأصلين المنقول عنهما.
(٢) المنمقّ ٥١٨ والعباب الزاخر (لوح)، وورد الأول بمفرده معزواً لحمزة في اللسان والتكملة وتاج العروس (لوح).
(٣) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٤٠ وبحار الأنوار: ١٨/ ٢٠٤.

جِهادُه

بعث الله تعالى محمداً (ص) برسالة الإسلام الخالدة، فتحمَّل ثقلها راضياً مطمئناً. وبدأ مهمَّتَهُ الشاقة بعَرْض الأمر على من يثق به سراً وهمساً، وبالدعاء إلى الله عزَّ وجلَّ متخفياً متكتماً، فآمن به ذلك النفر القليل الضئيل عدداً وعُدَّة، وإن كان أكثر من الكثير في حسابات الاعتقاد الصادق والإيمان الراسخ؛ والاستعداد المطلق للبذل والتضحية في سبيل الله والحق والهدف الكبير.

وبعد سنين ثلاث من البعثة الشريفة نزل قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] فعلم النبيّ (ص) أن وقت الجهر بالدعوة قد حان، وأنَّ هذه الآية أمرٌ إلهيّ صريح بإعلان ذلك على رؤوس الأشهاد، مهما كانت الصعاب والعقبات.

ثم تلا ذلك نزولُ أول أمرٍ إلهيّ تفصيلي في هذا الصدد، ممثّلاً في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ * وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٤ ـ ٢١٦]، فلم يكن للنبيّ (ص) بُدٌّ من تنفيذ هذا الأمر، فبادر إلى تهيئة طعامٍ دعا إليه عشيرته الأقربين بني عبد المطلب، «وهم يومئذٍ أربعون رجلاً، يزيدون رجلاً أو ينقصونه، فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب»، فأكلوا وشربوا، ثم قام فيهم خطيباً فقال: «يا بني عبد المطلب، إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومَه بأفضل ممّا قد جئتُكم به،

إني قد جئتُكم بخير الدينا والآخرة، وقد أمَرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم»؟.

فأحجم القوم جميعاً عن الجواب، فقام عليّ (ع) قائلاً: أنا يا نبيَّ الله.

فقال النبيّ (ص): إنَّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا».

«فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع»[(١)].

❁ ❁ ❁

كانت هذه هي المرة الأولى التي يعلن فيها محمد دعوته؛ ويطلق صرخته، ويُجْمِل كلَّ تفاصيل رسالته وأهدافها في فقرة قليلة اللفظ هائلة المعنى؛ هي «خير الدنيا والآخرة».

وخرج القوم وكلٌّ واحدٍ منهم يتأمَّل بمنظوره الخاص خطابَ رسول الله (ص)؛ ويدقِّق في ألفاظه الظاهرة وفيما وراء الألفاظ من دلالات. وإنهم أعرف الناس بهذا الرجل وأخْبَرُهم بسلامة عقله وحصافة فكره واستقامة خُلُقه وصدقه في حديثه وإخلاصه لعشيرته.

وإذن، لم يكن ما سمعوه من محمد (ص) كلامَ رجلٍ مشعوذ؛ أو مخَرِّف؛ أو مجنون؛ أو أبله؛ أو كذّاب، وإنّما هو كلام الإنسان النبيه المدرك الصادق الخبير.

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٣٢٠ ـ ٣٢١. وأورد الخبَر الطبريُّ نفسه في تفسيره: ١٩/ ١٢٢؛ ولكنه حذف كلمتي (وصيي) و(خليفتي) ووضع مكانهما كلمتي (كذا وكذا)!!.

ولقيت هذه الجمل النبويّة المخلصة الواعية الخارجة من القلب؛ هوىً في نفوس عدد من الحاضرين من بني عبد المطلب، وظني أن حمزة كان من جملة هؤلاء المصدِّقين المؤمنين، وأنّه قد أسلم في قرارة نفسه على أثر هذا الاجتماع، أي في السنة الثالثة من البعثة، ولكنه لم يعلن ذلك على الملأ ولم يكاشف قومه به. ولعل من أقوى القرائن على تأييد هذا الظن وتأكيده ما ورد في عدد من الروايات التاريخية من إسلام حمزة في السنة الثانية من المبعث الشريف[١].

ولم يكن حمزة في كتمان إسلامه وعدم الجهر به خائفاً أو جباناً أو منافقاً، وإنّما أراد بذلك الإبقاءَ على روابطه المتينة وعلائقه الطيبة بقومه وذوي قرباه، لما في ذلك من نفع كبير وفائدة جليلة للرسالة والرسول؛ في الحماية والرعاية ودفع الأذى والشرور. وقد أوهم هذا الكتمان بعضَ الرواة فذهبوا إلى إسلامه في السنة السادسة من البعثة[٢].

ولعل هذا الذي نظنه أو نكاد نتيقَّنه هو الحل المنطقي لتضارب الروايات واختلافها في تحديد تاريخ إسلام حمزة، حيث يكون إسلامه الحقيقي في السنة الثالثة ـ وليست الثانية ـ عندما دعا النبيّ (ص) عشيرته إلى ذلك، ويكون إعلان إسلامه ومجاهرته به على رؤوس الأشهاد في السنة السادسة، على أثر حادثةٍ وقعت للنبيّ (ص) لم يجد حمزة فيه مناصاً من إعلان ما انطوى عليه قلبه.

وكانت خلاصة هذه الحادثة كما رواها ابن إسحاق:

«إنَّ أبا جهل مرَّ برسول الله (ص) عند الصَّفا، فآذاه وشتمه ونال منه بعضَ ما يكره؛ من العَيْب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلِّمه

---

(١) الاستيعاب: ١/ ٢٧١ والتبيين: ١١٩ وأسد الغابة: ٢/ ٤٦ والإصابة: ١/ ٣٥٣.
(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ق ١/ ٤ والاستيعاب: ١/ ٢٧١ والتبيين: ١١٩.

رسول الله (ص). ومولاةٌ لعبد الله بن جدعان بن عمرو في مسكنٍ لها تسمع ذلك. ثم انصرف عنه فعمد إلى نادٍ من قريش عند الكعبة فجلس معهم.

«فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ أن أقبل متوشحاً قوسَه، راجعاً من قَنَصٍ له، . . . وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمرّ على نادٍ من قريش إلاّ وقف وسلَّم وتحدَّث معهم، وكان أعزَّ فتىً في قريش وأشدَّ شكيمة.

«فلمّا مرَّ بالمولاة، وقد رجع رسول الله (ص) إلى بيته، قالت له: يا أبا عُمارة، لو رأيتَ ما لقي ابن أخيك محمدٌ آنفاً من أبي الحكم بن هشام؟ . . . فاحتمل حمزة الغضب، لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على أحدٍ. . . . فلما دخل المسجد نظر إلى أبي جهل جالساً في القوم فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوسَ فضربه بها فشجَّه شجةً منكَرة، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول، فرُدَّ ذلك علي إن استطعت.

«فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، (فقالوا: ما نراك يا حمزة إلاّ قد صبأتَ، فقال حمزة: وما يمنعني وقد استبان لي منه ذلك، أنا أشهد أنه رسول الله وأن الذي يقول الحقُّ، فوالله لا أنزع، فامنعوني إن كنتم صادقين)[١]، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة؛ فإني قد سببتُ ابن أخيه سبّاً قبيحاً»[٢].

هكذا أعلن حمزة إسلامه؛ وبهذه الغضبة الهاشمية الهادرة التي صبَّها على رأس كبير من كبراء الشرك هو أبو جهل.

---

(١) ما بين القوسين المعقوفين زيادة من أسد الغابة: ٢/٤٧ نقلاً عن ابن إسحاق تتمةً للخبر، ويبدو أن ابن هشام قد حذفها.

(٢) سيرة ابن هشام: ١/٣١١ ـ ٣١٢ والمنمق: ٤٢٢ ـ ٤٢٤ وتاريخ الطبري: ٢/٣٣٣ ـ ٣٣٤ والتبيين: ١١٩ ـ ١٢٠ ونهاية الأرب: ١٦/٢٠٨.

وينص المؤرخون مؤكدين: أن مجاهرة حمزة بإسلامه قد أرعبت أعداء الله وغرست الخوف في نفوسهم، فـ «عرفت قريش أن رسول الله (ص) عزَّ وامتنع.... فكفُّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه»[١].

وسمع شيخ الأبطح أبو طالب نبأ ثورة أخيه فسُرَّ سروراً عظيماً، وسرعان ما تحوَّلت البهجة في نفس هذا الشيخ العظيم إلى أبيات من الشعر يخاطب بها أخاه قائلاً:

فصبراً أبا يَعْلى على دين أحمدٍ وكُنْ مُظهراً للدين وُفِّقْتَ صابرا
وحُطْ مَنْ أتى بالحق من عند ربِّه بصدقٍ وعزمٍ لا تكن ـ حَمْزَ ـ كافرا
فقد سرَّني إذْ قلتَ أنك مؤمنٌ فكُن لرسول الله في الله ناصرا
وبادِ قريشاً بالذي قد أتيتَه جهاراً وقُلْ: ما كان أحمد ساحرا[٢]

ويستفاد من المصادر التاريخية أن حمزة قد صمَّم ـ بعد الجهر بإسلامه ـ على مطاردة رؤساء قريش إذا ما مَسُّوا محمداً بسوء، وكما فعل بأبي جهل فيما مرَّ بيانه فعل بأخيه أبي لهب في حادثة أخرى رواها البلاذري فقال:

«كان أبو لهب يطرح القذر والنتن على باب النبيّ (ص)، فرآه حمزة بن عبد المطلب ـ رحمه الله ـ وقد طرح من ذلك شيئاً، فأخذه وطرحه على رأسه، فجعل أبو لهب ينفض رأسه ويقول: صابىء أحمق. وأقصر عمّا كان يفعل، ولكنه كان يدسُّ من يفعله»[٣].

وعلى ذلك درجت أيام وشهور.

❀ ❀ ❀

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٣١٢ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٣٤.
(٢) شرح نهج البلاغة: ١٤/ ٧٦ ـ ٧٧.
(٣) أنساب الأشراف: ١/ ١٣١.

ولـمّـا رأتْ قريش أن كل محاولاتها في صدِّ المد الإسلامي الزاحف قد ذهبت أدراج الرياح؛ وأن الإسلام قد فشا وعمَّ، وهذا أبو طالب وحمزة وسائر المؤمنين المحتفين برسول الله (ص) قد تجرَّأوا على إعلان أمرهم، وتضامنوا فيما بينهم يشدُّ بعضهم أزر بعض. اجتمع رؤساء الضلال واتفقوا فيما بينهم ـ بعد تدارس الخطر المحدق بهم ـ على كتابة كتابٍ يتعاهدون على الالتزام بتنفيذ كل ما جاء فيه، على أن يتضمن الامتناع المطلق عن التعامل مع بني هاشم بيعاً وشراءً؛ وعن الاتصال بهم والمصاهرة معهم، ليتم بذلك عزلهم الكامل عن المجتمع وضرب الحصار عليهم بأقسى أشكاله وأعنفها، وعلى أن يستمر العمل بذلك بكل صرامة ودقة حتى يرضخوا للأمر الواقع؛ فيدعوا محمداً إليهم لقتله والتخلص منه.

«فلمّا اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علَّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم».

«فلمّا فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطَّلب إلى أبي طالب بن عبد المطلب، فدخلوا معه في شِعبه واجتمعوا إليه، وخرج من بني هاشمٍ أبو لهب عبد العُزّى بن عبد المطلب إلى قريش فظاهرهم».

«فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جُهِدوا، لا يصل إليهم شيء إلاّ سرّاً مستخفياً به مَنْ أراد صلتهم من قريش»[(١)].

وكان حمزة ـ رضوان الله عليه ـ من جملة أولئك المغضوب عليهم ممن انحازوا إلى أبي طالب وحجزوا أنفسهم معه في الشعب، وقد عانى ـ كغيره من المحاصرين ـ من آلام النصب والأذى والجوع والحرمان ما

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٣٧٥ ـ ٣٧٩ وتاريخ الطبري: ٣٣٦.

لا يبلغه بيان ولا يدركه وصف، حتى فرج الله تعالى عنهم في آخر الأمر بأكل الأرضة لتلك الصحيفة المشؤومة، في تفصيل لا مجال لسرده في هذا الكتاب.

ولقد استقبل حمزة ومن معه كل تلك الابتلاءات بنفس راضية مطمئنة لا تعرف الضجر والكسل والتراجع، مؤمنين ـ كل الإيمان ـ بأن الله عز وجل سينصر عبده ويعز أولياءه ويمنحهم الفتح المبين والغد المشرق السعيد.

وهكذا كان.

❀ ❀ ❀

ولما شاء الله تعالى لدينه المزيد من الظهور والانتشار؛ ولرسوله المنعة والقوة، قيض لنصرة الحق أولئك المؤمنين الصادقين المجاهدين المخلصين الذين آووا ونصروا وأرخصوا الغالي والنفيس وبذلوا المهج والدماء في سبيل إعلاء كلمة الله، وهم الأنصار من سكان المدينة المنوَّرة من الأوس والخزرج، وكانوا قد قدموا مكة وبايعوا رسول الله (ص) سراً، فاختار لهم اثني عشر نقيباً منهم، وأرسل معهم البطل المجاهد مصعب بن عمير، يعلّمهم القرآن ويفقههم في الدين.

وكان ذلك بداية مرحلةٍ جديدة في تاريخ المسيرة الإسلامية، هي مرحلة تأسيس الدولة وبناء قاعدتها الرئيسة صلبة متينة قادرة على الصمود والثبات أمام الأعاصير والعواصف المقبلة.

وأصدر النبيّ (ص) أمْرَه لأصحابه الذين كانوا بمكة أن يهاجروا إلى المدينة، ليصبحوا ـ مع إخوانهم الأنصار ـ نواة جيش الإسلام؛ وبُناة العقيدة؛ وحُماة أمن الدولة؛ ورافعي راية الحق والعدل.

وخرج المسلمون من مكة متسللين، بعضهم في أثر بعض، متجهين إلى المدينة حيث تنتظرهم المهمات الصعبة والواجبات الخطيرة، واستقبل الأنصار إخوانهم المهاجرين بأروع مباهج الفرح والسرور، وفتحوا بيوتهم لاستضافة إخوانهم في الدين، عاقدين العزم على مقاسمتهم لقمة العيش ومشاركتهم في السراء والضراء، حتى يأذن الله لهم بالتوفيق والسعة.

وكان سيدنا حمزة ـ رضوان الله عليه ـ من جملة هؤلاء المهاجرين.

ونزل ـ هو وحليفاه أبو مرثد كنّاز بن حِصْن أو حُصَين وابنه مرثد الغنويّان وزيد بن حارثة وأنَسَة وأبو كبشة مولياً رسول الله (ص) «على كلثوم بن هِدْم أخي بني عمرو بن عوف بقُباء، ويقال: بل نزلوا على سعد بن خيثمة، ويقال: بل نزل حمزة بن عبد المطلب على أسعد بن زرارة أخي بني النجّار»[١].

ثم كانت الهجرة النبويّة الشريفة بعد ذلك، واجتمع شمل المسلمين بالمدينة، فدوّى صوت الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية كلها.

وبادر رسول الله (ص) في أول خطوة نحو تدعيم وحدة الكلمة وتضامن المسلمين فيما بينهم إلى إعلان المؤاخاة، فآخى بين المهاجرين بعضهم لبعضٍ، كما آخى بين المهاجرين والأنصار أيضاً[٢]، فدعاهم إلى ذلك قائلاً ـ واللفظ لابن إسحاق ـ:

«تآخوا في الله أخَوَيْن أخوين، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٢١ ـ ١٢٢ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٤.

(٢) نهاية الأرب: ١٦/ ٣٤٧.

فقال: هذا أخي، فكان رسولُ الله (ص) سيدُ المرسلين وإمامُ المتقين ورسولُ رب العالمين الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد؛ وعليٌّ بن أبي طالب (رض) أَخَوَيْن. وكان حمزة بن عبد المطلب أسدُ الله وأسد رسوله وعمُّ رسول الله (ص) وزيدُ بن حارثة مولى رسول الله (ص) أخوين»[١].

❀ ❀ ❀

ومرَّت الأيام تلو الأيام، والنبيّ (ص) منهمك في تنظيم أمور الدولة في عاصمته الجديدة، وتعبئة صفوف أصحابه بأعلى درجات التعبئة؛ من خلف العزم الراسخ؛ وبعث الهمة العالية؛ وتأجيج نار الإقدام والفداء في نفوسهم، لعلمه أن يوم اللقاء مع الأعداء آتٍ لا ريب فيه، ولا بدَّ أن يكون الجميع على مستوى الأحداث المترقبة والأوضاع المنتظرة.

وكان لا مناص للنبيّ (ص) من أن يُشعر قريشاً بخطورة وضعه الجديد عليهم، عسى أن يعيدوا النظر في موقفهم منه فتلين عريكتهم نحوه، أو يخففوا من غلواء حقدهم عليه وعلى أصحابه، فيأمن جانبهم ولو إلى حين.

وجاءت الفرصة المناسبة لذلك حينما علم أنَّ رأس المشركين أبا جهل بن هشام قد قفل راجعاً من الشام إلى مكة، ومعه عِير قريش وتجارتهم في ثلاثمائة رجل منهم. فرأى النبيّ (ص) ضرورة الاعتراض لأبي جهلٍ ومَنْ معه وما معه، عسى أن يكون في ذلك بعض الصدى المطلوب والأثر المنشود، بما يعطيه من دلالةٍ على ما آل إليه أمر

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٥٠ ـ ١٥١ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٣٠ وأسد الغابة: ٢/ ٤٦.

المسلمين من قوة وشأن، وبما يمكن أن يترتَّب عليه من تهيُّب قريش لهذه القوة وعدم المجازفة مستقبلاً بأذى أيّ مسلم أو الاعتداء عليه.

ولم يجد النبيّ (ص) مَنْ يختاره من بين أصحابه لقيادة هذه العملية العسكرية ـ وهي الأولى من نوعها في تاريخ الإسلام ـ سوى حمزة بن عبد المطلب.

يقول المؤرخون ـ واللفظ لابن سعد ـ:

«كان أول لواءٍ عقده رسول الله (ص) لحمزة بن عبد المطلب بن هاشم، في شهر رمضان، على رأس سبعة أشهر من مهاجر رسول الله (ص)، (وهو) لواء أبيض، فكان الذي حمله أبو مرثد كناز بن الحُصَين الغنوي حليف حمزة بن عبد المطلب. وبعثة رسول الله (ص) في ثلاثين رجلاً من المهاجرين... يعترض لعِير قريش... وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاثمائة رجل. فبلغوا سِيف البحر ـ يعني ساحله ـ من ناحية العِيص، فالتقوا حتى اصطفُّوا للقتال. فمشى مجديُّ بن عمرو الجُهَني ـ وكان مُوادعاً للفريقين جميعاً ـ إلى هؤلاء مرةً وإلى هؤلاء مرةً حتى حجز بينهم ولم يقتتلوا، فتوجَّه أبو جهل في أصحابه وعِيره إلى مكة، وانصرف حمزة بن عبد المطلب في أصحابه إلى المدينة»[1].

ويؤكد ابن سعد: أن «الخير المجمع عليه عندنا أنَّ أول لواء عقده رسول الله (ص) لحمزة بن عبد المطلب»[2].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ق١/٢ وسيرة ابن هشام: ٢/ ٢٤٥ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٠٢ والاستيعاب: ١/ ٢٧١ وأسد الغابة: ٢/ ٤٧ وتاريخ الإسلام: ١/ ٨٢ و٨٦ ونهاية الأرب: ١٧/ ٢ والإصابة: ١/ ٣٥٣.

(٢) الطبقات: ٣/ ق١/ ٤ و٣٥، وأنساب الأشراف: ١/ ٢٨٦ و٣٧١.

ولحمزة قصيدة من الشعر قالها في هذه السرية رواها ابن إسحاق، وقد أوردناها في الشعر المنسوب إليه.

❀ ❀ ❀

وانطلاقاً من فكرة التحرش بقريش رغبةً في تخفيف غلوائها والحدِّ من خيلائها، غزا رسول الله (ص) الأبواء ـ وهي قرية لا تبعد عن المدينة كثيراً ـ، في شهر صفر، من السنة الثانية للهجرة، على رأس اثني عشر شهراً من مُهاجَرِه، وكانت أول غزوة يقودها هو نفسه، «وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب، وكان لواءً أبيض. . . وخرج في المهاجرين ليس فيهم أنصاري. . . يعترض لِعِير قريش، فلم يلق كيداً» ولم تقع حرب، وعاد إلى المدينة[١].

وفي شهر جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة، على رأس ستة عشر شهراً من مُهاجَرِه، غزا رسول الله (ص) العُشَيرةَ أو ذا العشيرة، «وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب، وكان لواءً أبيض، . . . وخرج في خمسين ومائة ـ ويقال في مائتين ـ من المهاجرين. . . خرج يعترض لِعِير قريش حين أبدأتْ إلى الشام، وكان قد جاءه الخبر بفصولها من مكة فيها أموال قريش، فبلغ ذا العشيرة ـ وهي لبني مُدْلج بناحية ينْبُع، وبين ينبع والمدينة تسعة بُرُد ـ، فوجد العِير التي خرج لها قد مضتْ قبل ذلك بأيام. . . وفي هذه الغزوة وادع بني مُدْلج وحلفاءهم من بني ضمرة، ثم رجع إلى المدينة»[٢].

❀ ❀ ❀

(١) طبقات ابن اسعد: ٢/ق١/٣ وتاريخ الطبري: ٢/٤٠٧ ونهاية الأرب ١٧/٤.
(٢) طبقات ابن اسعد: ٢/ق١/٤ وتاريخ الطبري: ٢/٤٠٨ ونهاية الأرب ١٧/٥.

وفي شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة، كانت وقعة بدر الكبرى، وهي أول حرب مباشرة بين المسلمين والمشركين، نصر الله فيها أولياءه أتَمَّ النصر، وأذلَّ قريشاً أشنع الذل، وكانت نتائجها ـ في نصر هؤلاء وهزيمة أولئك ـ ذات آثار خطيرة على المسيرة الإسلامية وهي تتقدم صعداً إلى أمام؛ وعلى الخطّ البياني للشرك وهو يتقهقر أسفل سافلين.

وأعدَّ لها الطرفان ما استطاعا من بأس وقوة؛ وعدد وعُدَّة؛ أعدَّ لها الرسول (ص) ثلاثمائة رجل وخمسة نفر أو يزيدون قليلاً وسبعين من الإبل وفَرَسَين أو ثلاثة، يضاف إليها كلُّ ما عرفه تاريخ الرجال من إيمان وعزم وتصميم.

وأعدَّت لها قريش: قرابة ألف رجل؛ وما لا يُعَدُّ كثرةً من الخيل والإبل والسلاح؛ وكلَّ فخرها وخيلائها وأفلاذ أكبادها، يضاف إليها أعنف ما عرفته البشرية من عداء وضغينة وحقد.

وحطَّت قريش ركائبها خلف الكثيب من بدر. وسار النبيّ (ص) باتجاه القوم حتى نزل عند أدنى بئر من منازل أعدائه، ثم أمر بالآبار الأخرى فأُفسِدَ أمرها كي لا ينتفع بها المشركون، وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه فملىء ماءً.

وتقدَّم الأسود بن عبد الأسد المخزومي من بين صفوف أهل مكة ـ وكان رجلاً شرساً سيء الخُلُق ـ فقال: «أعاهد الله لأشربنَّ من حوضهم أو لأهدمنَّهُ أو لأموتنَّ دونه. فلما خرج خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة فأطنَّ قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دماً.... ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، وأتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض»[1].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/٢٧٦ ـ ٢٧٧ وتاريخ الطبري: ٢/٤٤٥ وتاريخ الإسلام: ١/ ٩٦ ونهاية الأرب: ١٧/٢٣.

ثم خرج من صفوف قريش عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة مبارزين، ودعوا المسلمين إلى مبارزتهم، فخرج إليهم ثلاثة من المسلمين، فلما عرفوا أنهم من الأنصار رفضوا المبارزة معهم قائلين: إنما نريد قومنا، أي المهاجرين. فبرز لهم حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث، وسرعان ما صرع حمزة خصمه وتركه مجدَّلاً على الأرض يخور بدمه.

واشتد سعار الحرب بعد ساعات من بدئها، والمسلمون يخوضون غمارها بكل ضراوة وبسالة، وبطلنا حمزة يجول فيها جولة الأسد الهادر، وهو مُعْلِمٌ ـ كعادته في الحرب ـ بريشة نعامة[١]، وممسك في كل كف بسيفٍ[٢]؛ كي لا يفوته فائت ولا يفلت من بين يديه فالت، حتى أدخل الرعب في صدور أعدائه وأطار صوابهم ببطولته وشجاعته. ولما التقى أمية بن خلف بعبد الرحمن بن عوف بادره إلى السؤال قائلاً: مَنِ الرجل المعلم بريشة نعامة في صدره؟ فقال له عبد الرحمن: ذاك حمزة بن عبد المطلب، قال أمية: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل[٣].

وما أن انتهى ذلك اليوم حتى كانت المعركة قد وصلت إلى نهايتها السعيدة، بهزيمة منكرة لقريش؛ ونصرٍ مؤزَّر للنبيّ (ص) وأصحابه.

وبلغ إجماليُّ حصادها: مقتل سبعين رجلاً من المشركين وأسر سبعين منهم.

وكان لحمزة من أولئك القتلى حصة جليلة ذات شأن، وإن كانت

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٤ والمعجم الكبير: ٣/ ١٦٥ وأسد الغابة: ٢/ ٤٧.

(٢) الاستيعاب: ١/ ٢٧٤ وأسد الغابة: ٢/ ٤٧ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٣١.

(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٨٤ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٥٢ والمعجم الكبير: ٣/ ١٦٥ والتبيين: ١٢٠ وأسد الغابة: ٢/ ٤٧ وتاريخ الإسلام: ١/ ٩٩.

حصة عليّ (ع) هي الأجلّ والأكبر. وتذكر الروايات التاريخية من بين قتلى حمزة: شيبة بن ربيعة، وطعيمة بن عدي، وأبا قيس بن الوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد الأسد المخزومي، وعائذ بن السائب بن عويمر، والعاص بن سعيد بن العاص في رواية البلاذري. كما تذكر مشاركته في قتل: عتبة بن ربيعة، وحنظلة بن أبي سفيان، وزمعة بن الأسود، وعقيل بن الأسود، ونبيه بن الحجاج[١].

وهكذا حقق الله لنبيه الغلبة وكتب له النصر، فعلت كلمة الحق، ورفرفت ألوية التوحيد، في أول معركة طاحنة بين أنصار الإسلام وعبيد الأصنام.

وصدق الله تعالى في محكم كتابه ـ وهو أصدق القائلين ـ إذ أوحى إلى رسوله فيما أوحى:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]. ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [سورة آل عمران: ١٢٦].

❀ ❀ ❀

وفي يوم السبت للنصف من شوال، في السنة الثانية من الهجرة، أي بعد بدرٍ بأقل من شهر، غزا رسول الله (ص) بني قَينقاع حلفاء زعيم المنافقين عبد الله بن أُبَيّ بن سلول.

وكان بنو قينقاع قوماً من اليهود معروفين بالشجاعة، يسكنون

(١) يراجع في قتل حمزة وفي غزوة بدر كما أوردناها: سيرة ابن هشام: ٢/٢٧٦ ـ ٣٧٣ وأنساب الأشراف: ١/١٤٦ وتاريخ الطبري: ٢/٤١٨ ـ ٤٧٩ والاستيعاب: ١/٢٧٣ وأسد الغابة: ٢/٤٧ والإصابة: ١/٣٥٣ ونهاية الأرب: ١٧/١٦ ـ ٥٠.

بالقرب من المدينة، ويحترفون الصياغة، وسبق لهم أن عاهدوا النبيّ (ص) عند قدومه المدينة، واتفقوا معه على السلم والموادعة في كل الأحوال.

ولما كانت وقعة بدر ولم تبِن نتائجها بعدُ؛ أظهر هؤلاء البغي والحسد؛ ونبذوا العهد، فأنزل الله عزَّ وجل على نبيه قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، فقال رسول الله (ص) «أنا أخاف بني قينقاع» وقد أذن الله تعالى بحربهم وتأديبهم على نبذ العهد والإخلال بما سبق الاتفاق عليه.

وحمل لواءه يومئذٍ حمزة بن عبد المطلب، وكان لواءً أبيض، «ثم سار إليهم فحاصرهم خمس عشرة ليلة إلى هلال ذي القعدة، فكانوا أول من غدر من اليهود وحاربوا وتحصَّنوا في حصنهم، فحاصرهم أشد الحصار حتى قذف الله في قلوبهم الرعب، فنزلوا على حكم رسول الله (ص)»(١).

❀ ❀ ❀

وفي السنة الثالثة من الهجرة دقَّت قريش طبول الحرب للانتقام من محمد (ص) وصحبه.

وكان المؤمَّل أن يكفيها درس هزيمتها في بدر مؤونة التكرار؛ وأن تقتبس منه أعظم العبر والعظات، ولكن الحقد الأعمى لم يدع لها مجالاً لاستيعاب الدروس واقتباس العبر؛ ولم يقنعها بضرورة الرضوخ للحق والاعتراف بالأمر الواقع.

واجتمع جمعهم في مكة لتدارس الموقف بعد اتضاح خطر محمد (ص) وتنامي قوته.

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ق١/١٩ وتاريخ الطبري: ٢/٤٨١ ونهاية الأرب: ١٧/٦٨.

وقرَّ قرارهم على العودة إلى الحرب مرة أخرى؛ لطلب الثأر وإدراك الوتر، «وبعثوا رُسُلَهم يسيرون في العرب يدعونهم إلى نصرهم؛ فأوعبوا، وتألَّب مَنْ كان معهم من العرب وحضروا»(١).

وكان حمزة بن عبد المطلب ـ بالنصِّ والتعيين ـ أحد أهدافهم الرئيسة في حربهم المقبلة.

قال ابن إسحاق: إن جُبَير بن مُطعم دعا «غلاماً له حبشياً يقال له وحشيٌّ ـ يقذف بحربةٍ له قَذْفَ الحبشة قلَّما يخطىء بها ـ فقال له: اخرج مع الناس، فإن أنت قتلت حمزة عمَّ محمد بعمي طعيمة بن عديّ فأنت عتيق»(٢).

وقال الواقدي: إن ابنة الحارث بن عامر بن نوفل ـ من قريبات جبير بن مطعم ـ قالت لوحشي: «إن أبي قُتِل يوم بدر، فإن أنت قتلتَ أحد الثلاثة فأنت حُرّ: محمد؛ وعلي بن أبي طالب؛ وحمزة بن عبد المطلب، فإني لا أرى في القوم كفؤاً لأبي غيرهم»(٣).

وكانت هند بنت عتبة (زوج أبي سفيان وأمُّ معاوية) كلما مرَّت بوحشي أو مرَّ بها قالت: «وَيْهاً أبا دَسْمة، اشفِ واستشفِ، وكان وحشي يكنى بأبي دسمة»(٤).

وأعدَّت قريش العُدَّة، وأقبل جمعهم يقطع الفيافي الشاسعة، حتى نزلوا بجبلٍ ببطن السَّبخة من قناةٍ على شفير الوادي، خارج المدينة المنوّرة، وكانوا ثلاثة آلاف رجلاً، فيهم سبعمائة دارع، ومعهم ثلاثة آلاف بعير ومئتا فرسٍ.

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ق١/ ٢٥.
(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٦٥.
(٣) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ١١.
(٤) سيرة ابن هشام: ٣/ ٦٦.

وكانت أخبار تحرّكهم تصل رسول الله (ص) أولاً بأوّل، حتى بلغه خبر نزولهم حيث نزلوا عند أُحد.

وعبَّأ رسول الله (ص) أصحابه ـ بعد المداولة والمشاورة وتبادل الرأي ـ، وخرج بهم إلى لقاء أعدائه، فنزل في عدوة الوادي إلى جانب الجبل، وكان كلُّ من معه سبعمائة رجلاً.

ورتَّب النبيّ (ص) مجموعات جيشه، فجعل «على الميمنة علياً (رض)، وعلى الميسرة المنذر بن عمرو الساعدي، والزبير بن العوّام على الرُّجّال؛ ويقال المقداد بن عمرو، وحمزة بن عبد المطلب على القلب»[١].

والتقى الطرفان، وبدأت المعركة، وكان ذلك صباح يوم السبت للنصف من شوال.

«واقتتل الناس حتى حميت الحرب. وقاتل أبو دجانة حتى أمعن في الناس؛ وحمزة بن عبد المطلب؛ وعلي بن أبي طالب، في رجالٍ من المسلمين. فأنزل الله عز وجل نصره، وصدقهم وعده، فحسُّوهم بالسيوف حتى كشفوهم»[٢].

وكان من جملة قتلى حمزة في جولاته الجريئة: عثمان بن أبي طلحة العبدري ـ وهو أحد النفر الذين يحملون اللواء ـ، وأرطأة بن عبد شُرَحبيل العبدري ـ وهو من حملة اللواء أيضاً ـ، وسِباع بن عبد العُزّى الغبشاني.

وذكر بعض المؤرخين أنّه قتل أكثر من ثلاثين مشركاً[٣]، ولكننا لم نقف على أسمائهم.

(١) تاريخ الإسلام: ١/ ٢١١.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ٥١٣.

(٣) أسد الغابة: ٢/ ٤٧ والإصابة: ١/ ٣٥٣.

وبلغت المعركة ذروتها ضراوة وشدَّة.

وكان وحشي[١] خلال ذلك الوقت دائب الحركة والتوثُّب بحثاً عن اللحظة المواتية لقتل حمزة، فلما وجد الفرصة سانحة سارع إلى قذفه بحربته فأرداه إلى الأرض صريعاً، وقد حدَّث وحشي بعد ذلك بتفصيل ما حدث فقال:

«فلّما التقى الناس، خرجت أنظر حمزة وأتبصَّره، حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأورق (يعني الجمل الذي لونه بين الغبرة والسواد، سمّاه كذلك لما عليه من الغبار)، يهدُّ الناس بسيفه هداً ما يقوم له شيء، فوالله إني لأتَهَيّأ له أريده وأستتر منه بشجرة أو حجر، إذ تقدَّمني إليه سِباع بن عبد العزى، فلما رآه حمزة ضربه ضربةً كأن ما أخطأ رأسه. وهززتُ حربتي، حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه، فوقعت في ثنته حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء (أي ينهض متثاقلاً) نحوي، فغُلِب، وتركته وإياها حتى مات»[٢].

---

(١) كان وحشي يسكن مكة، فلما فتح النبيّ (ص) مكة فر إلى الطائف، ثم جاء متنكراً في وفد الطائف فأعلن إسلامه أمام النبيّ (ص)، فقال له رسول الله ـ بعد أن اضطر إلى الصفح عنه لمبادرته إلى التلفظ بالشهادتين نجاة بحياته من السيف ـ: «ويحك غَيِّبْ عني وجهك فلا أرَيَنَّك»، فغيب وجهه عنه (صحيح البخاري: ٥/ ١٢٩). وروى ابن هشام «أن وحشياً لم يزل يحد في الخمر حتى خلع من الديوان، فكان عمر بن الخطاب يقول: قد علمت أن الله تعالى لم يكن ليدع قاتل حمزة» (سيرة ابن هشام: ٣/ ٧٦ ـ ٧٧). ومع ذلك فإن بعض مؤلفي السلف قد ذكره في عداد الصحابة، وإن بعضاً آخر لا يذكره إلا ويتبع اسمه بالترضي عنه!! بزعم أنّه صحابي».
ويبدو من النصوص التاريخية أنَّ وحشياً السكّير لم يجد له مكاناً ينعم فيه بالاستقرار ولذة العيش وحرية شرب الخمر إلا في ظل دولة أصحابه الأولين الذين حكموا بلاد الشام بعد ذلك باسم الإسلام!!! (سيرة ابن هشام: ٣/ ٧٥).

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٧٦ ونهاية الأرب: ١٧/ ١٠٠.

وفي نقلٍ آخر عن وحشي أنّه قال:

«إذ رأيت حمزة يفري الناس فرياً، فكمنت له إلى صخرة، وهو مكبّس له كتيت (أي صوت)، فاعترض له سباع.... فاحتمله، حتى إذا برقت قدماه رمى به فبرك عليه فشحطه شحط الشاة، ثم أقبل عَلَيّ مُكِبّاً حين رآني، فلما بلغ المسيلَ وطىء على جُرفٍ فزلت قدمه، فهززت حربتي حتى رضيت منها، فضربت بها في خاصرته حتى خرجت من مثانته»[١]، فذهب إلى ربه شهيداً سعيداً.

وأثارت شهادة حمزة ـ خاصَّةً ـ من ألوان الشماتة والفرح والتشفي اللئيم في نفوس المشركين ما لا تستطيع الكلمات شرحه وتفصيله، على الرغم من كثرة عدد الشهداء في هذه المعركة؛ وفيهم من لا يستهان به من الرواد والقادة كمصعب بن عمير وسعد بن الربيع رضي الله عنهما.

ونورد فيما يأتي مَثَلَين من أمثلة ذلك التشفي الحقير بمقتل حمزة؛ لم نجد مناصاً من إيرادهما وإطلاع القارىء عليهما لما يحملان من تعريف بليغ واعتراف صارخ بأهمية هذا البطل ودوره البارز في إدارة الحرب وصنع النصر، ولما يدلان عليه من مدى خسّة هؤلاء الأعداء وخبث سرائرهم وتجردهم من كل نبضٍ تنبض به الإنسانية في أعماق إنسانها الشريف النبيل.

المثل الأول: ما ذكره المؤرخون واجمعت كلمتهم عليه من عمل هند ابنة عتبة ـ زوج أبي سفيان وأم معاوية ـ والنسوة اللآتي كُنَّ معها، مما لم يرو الرواة له مثيلاً في تاريخ العرب الأقدمين؛ ولم يرد له نظير في أساطير الأولين. وأحاشي المرأة العربية الأصيلة ـ حتى في جاهليتها الأولى ـ من أن تستسيغ ذلك وترضاه.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ١١ ـ ١٢.

وخلاصة هذه الفعلة النكراء: أنّ هنداً وصويحباتها وقعن على القتلى من أصحاب رسول الله (ص) في أحد «يجدِّعْنَ الآذان والأُنُفَ، حتى اتَّخذت هند من آذان الرجال وأنفهم خَدَماً (أي خلاخيل) وقلائد» للزينة.

ويبدو أن غليل هند لم يبرد بهذا كله، فزادت عليه ما لم يعرفه تاريخ الإنسان إلا عند أكلة لحوم البشر في مجاهل الأرض في سالف الزمان، فـ «بقرت عن كبد حمزة، فلاكتها، فلم تستطع أن تُسيغها فلفظَتْها، ثم علتْ على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها فقالت فيما قالت:

نحن جزيناكم بيوم بدرِ والحرب بعد الحرب ذات سُعرِ
شفيت نفسي وقضيت نذري شفيتَ وحشي غليل صدري.. إلخ

وقالت في رجز آخر:

شفيت من حمزة نفسي بأُحُدْ حتى بقرت بطنه عن الكبدْ.. إلخ[1]

وأضاف ابن سعد والواقدي إلى ما سلف ذكره: أنَّ هنداً اتخذت من أعضاء حمزة المقطعة «مَسَكَتَيْنِ ومعضدَيْن وخَدَمَتَيْن، حتى قدمت بذلك وبكبده مكة»[2].

وقال ابن عبد البَرِّ: «لم يُمَثَّل بأحد ما مُثِّل بحمزة، قطعت هند كبده وجدعت أنفه وقطعت أذنيه وبقرت بطنه»[3].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٩٦ ـ ٩٨. ولما بلغ فعل هند وأراجيزها سمع حسان بن ثابت الأنصاري انفجر راداً عليها قولها، فهجا وأفرط حتى اتهمها بالفجور وزعم أن ولدها معاوية مجهول الأب، مما لا يسعنا ذكره وإيراده. ديوان حسان بن ثابت: ٣٨٤ و٣٩٦ و٣٩٧.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ق ١/ ٥ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ١٢.

(٣) الاستيعاب: ١/ ٢٧٤.

المثل الثاني: ما رواه الرواة من مرور الحليس بن زبّان أخي بني الحارث بن عبد مناة على مصرع حمزة، فرأى هناك أبا سفيان بن حرب بن أمية (زوج هند المتقدمة الذكر)، وهو «يضرب في شدق حمزة بن عبد المطلب بزُجِّ الرمح ويقول: ذُقْ عُقَق»، فنادى الحليس بني كنانة أن يروا فعل أبي سفيان بحمزة، وهو ميت لا يقدر على الرد، فخجل أبو سفيان وقال للحليس: «اكتمها عني فإنها كانت زلة»[(١)].

وهكذا يكون الجبناء الخبثاء؛ كما يقول المثل العراقي السائر على ألسنة العامة.

❀ ❀ ❀

وعندما وضعت الحرب أوزارها بعد ذلك الجلاد الدامي، وجمع المشركون حقائبهم منصرفين إلى مكة، أمر النبيّ (ص) بالبحث عن القتلى والجرحى في ساحة المعركة.

«وخرج رسول الله (ص) يلتمس حمزة بن عبد المطلب، فوجده ببطن الوادي، قد بقر بطنه عن كبده، ومُثِّل به»[(٢)]، فلما «رأى النبيّ (ص) حمزة قتيلاً بكى، فلما رأى ما مُثِّل به شهق»[(٣)]، فقال معبراً عن عظيم حزنه وألمه: «لن أصاب بمثلك أبداً، ما وقفت موقفاً قط أُغَيظ إليَّ من هذا. ثم قال: جاءني جبريل فأخبرني أن حمزة مكتوب في أهل السماوات السبع: حمزة أسد الله وأسد رسوله»[(٤)]، وأردف قائلاً:

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٩٩ ونهاية الأرب: ١٧/ ١٠٢.
(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٠١.
(٣) المعجم الكبير: ٣/ ١٥٥ والاستيعاب: ١/ ٢٧٤ وأسد الغابة: ٢/ ٤٨ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٣٤.
(٤) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٠١.

«رحمك الله أي عَم، فلقد كنتَ وصولاً للرحم فعولاً للخيرات»[١].

وأمر (ص) بحمزة فسُجِّي ببردةٍ، ثم صلّى عليه فكبر ـ في رواية ابن إسحاق ـ «سبع تكبيرات، ثم أُتي بالقتلى فيوضعون إلى حمزة فصلّى عليهم وعليه معهم»[٢]، وفي رواية الواقدي: «حتى صلّى عليه سبعين مرة، لأن الشهداء سبعون»[٣]، وفي رواية ابن سعد: «فكبّر عليه تسعاً، ثم جيء بأخرى فكبَّر عليها سبعاً، ثم جيء بأخرى فكبَّر عليها خمساً، حتى فرغ من جميعهم، غير أنّه وَتَرَ»[٤].

ثم «أقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إليه ـ وكان أخاها لأبيها وأمها ـ، فقال رسول الله (ص) لابنها الزبير بن العوام: ألقها فأرْجِعْها لا ترى ما بأخيها، فقال لها: يا أُمَّه؛ إن رسول الله (ص) يأمركَ أن ترجعي، قالت: ولمَ؟ وقد بلغني أن قد مُثل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحْتَسِبَنَّ ولأصْبِرَنَّ إن شاء الله. فلما جاء الزبير إلى رسول الله (ص) فأخبره بذلك قال: خل سبيلها، فأتته فنظرت إليه»[٥]، «وجلست عنده، فجعلت إذا بكت يبكِي رسول الله (ص) وإذا نشجت ينشج رسول الله (ص)»[٦]، «وصلّت عليه واسترجعت، واستغفرت له»[٧].

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ق ١/ ٧ والاستيعاب: ١/ ٢٧٤ والتبيين: ١٢٢ وأسد الغابة: ٢/ ٤٨ والإصابة: ١/ ٣٥٣.
(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٠٢.
(٣) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ٣٨.
(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ٩.
(٥) سرة ابن هشام: ٣/ ١٠١ ـ ١٠٣ وتاريخ الإسلام: ١/ ٢٢٠.
(٦) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ١٧.
(٧) نهاية الأرب: ١٧/ ١٠٣.

ثم أمر رسول الله (ص) بحمزة فدُفِن.

وانصرف رسول الله (ص) راجعاً إلى المدينة، فمر بدار من دور الأنصار «فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم، فذرفت عينا رسول الله (ص) فبكى، ثم قال: لكن حمزة لابواكي له» فانبرى بعض الأنصار فأمر النساء «أن يتحزمن ثم يذهبن فيبكين على عم رسول الله (ص)... ولمّا سمع رسول الله (ص) بكاءهن على حمزة خرج عليهن وُهنَّ على باب مسجده يبكين عليه، فقال: ارجعن يرحمكن الله.... رحم الله الأنصار فإن المواساة منهم لقديمة»[1].

۞ ۞ ۞

وهكذا ذهب حمزة مضمخاً بأريج الشهادة، وصعدت روحه إلى السماء في أعلى عليين، ورجعت نفسه المطمئنة إلى ربها راضية مرضية. وبادر رسول الله (ص) ـ تكريماً لجهاد حمزة وتفانيه في سبيل الله ـ إلى تخليده في التاريخ وتعريف الأجيال الإسلامية المقبلة به وبدوره الخطير في بناء هذا الصرح الشامخ، فأضفى عليه من أوسمة السماء وقلائدها الرفيعة ما لا تستطيع الحسابات المادية معرفة شأنه وتحديد قيمته، فقال (ص):

حمزة سيد الشهداء[2].

وخير الشهداء[3].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٠٤ ـ ١٠٥، وطبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ٥ و١٠ وأسد الغابة: ٢/ ٤٨ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٢٧.

(٢) المعجم الكبير: ٣/ ١٦٥ والاستيعاب: ١/ ٢٧٣ والتبيين: ١٢١ وذخائر العقبى: ١٧٦ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٢٨ والإصابة: ١/ ٣٥٣.

(٣) الاستيعاب: ١/ ٢٧٣ والتبيين: ١٢١ وذخائر العقبى: ١٧٦.

وأسد الله وأسد رسوله[١].

وأصبح قبر هذا الشهيد البطل بمثابة الرمز الإسلامي المقدس لانتصار التوحيد على الشرك، والنصب التذكاري البارز لغلبة الحق على الباطل، فكان المزار والمحج؛ والمشهد والمقصد.

وكان رسول الله (ص) ـ وهو بصدد التنبيه على هذا المعنى الرمزي المتمثل في قبر حمزة ـ يزوره وقبور الشهداء المجاورة له؛ في كل حول مرة، ويقول: «إن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فَأْتُوهم فزوروهم وسلموا عليهم. والذي نفسي بيده لا يسلِّم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه»[٢].

وإقراراً بهذا المعنى الرمزي الجليل «كانت فاطمة تأتي قبر حمزة ترمه وتصلحه»[٣]، «وكان أبو سعيد الخدري يقف على قبر حمزة فيدعو ويقرأ»[٤].

وانطلاقاً من هذا المعنى الرمزي ـ أيضاً ـ سارع أبو سفيان إلى المرور بقبر حمزة ـ لما آلت الخلافة إلى عثمان ـ فضربه برجله وقال: «يا أبا عُمارة؛ إن الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمسى في يد غلماننا اليوم يتلعَّبون به»[٥].

وتأكيداً لهذا المعنى الرمزي في نفوس المسلمين جيلاً بعد جيل،

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٥١ و٣/ ١٠٢ والمعجم الكبير: ٣/ ١٦٣ والاستيعاب: ١/ ٢٧٠ وذخائر العقبى: ١٧٣ و١٧٦ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ١٧ والإصابة: ١/ ٣٥٣.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ٤٠.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ١١.

(٤) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ٤٠.

(٥) شرح نهج البلاغة: ١٦/ ١٣٦.

ذهب الفقهاء إلى استحباب زيارة قبر حمزة وقبور الشهداء في أحد؛ والدعاء إلى الله تعالى عندها، وذكر الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان ألفاظاً خاصة في هذه الزيارة؛ جاء فيها فيما يخص حمزة ما نصه:

«السلام عليك يا عم رسول الله؛ السلام عليك يا خير الشهداء، السلام عليك يا أسد الله وأسد رسوله، أشهد أنك قد جاهدت في الله عز وجل، وجُدْتَ بنفسك، ونصحت رسول الله، وكنت فيما عند الله سبحانه راغباً.

بأبي أنت وأمي.... أتيتك من شقة بعيدة طالباً فكاك رقبتي من النار، وقد أوقرت ظهري ذنوبي وأتيتُ ما أسخط ربي، ولم أجد أحداً أفزع إليه خيراً لي منكم أهل بيت الرحمة. فكن لي شفيعاً يوم فقري وحاجتي، فقد سرت إليك محزوناً، وأتيتك مكروباً، وسكبت عبرتي عندك باكياً، وصرت إليك مفرداً، وأنت ممن أمرني الله بصلته، وحثني على بره، ودلني على فضله، وهداني لحبه، ورغّبني في الوفادة إليه، وألهمني طلب الحوائج عنده. وأنتم أهل بيت لا يشقى من تولاكم، ولا يخيب من أتاكم، ولا يخسر من يهواكم، ولا يسعد من عاداكم»(١).

❀ ❀ ❀

وكان للشعر - والشعر ديوان العرب - دور مأثور في تأبين حمزة وتكريمه؛ والإشادة ببسالته وبطولته، وقد هزت شهادته قرائح أصحابه وأحبابه، فقالوا في هذه الفاجعة ما وسعهم القول، وعبروا عما يجول في أعماقهم أصدق تعبير. ونورد فيما يأتي جميع ما وقفنا عليه من مراثي الصحابة لشهيدهم العظيم:

---

(١) بحار الأنوار: ١٠٠/ ٢٢٠.

«قال حسان بن ثابت يبكي حمزة بن عبد المطلب ومن أُصيب من أصحاب رسول الله (ص) يوم أحد:

يا ميَّ قومي فانْدُبِنْ ... نَ بسُحرةٍ شجوَ النَّوائحْ
كالحاملات الوقْر بالثْـ ... ـقل الملحّات الدَّوالحْ
المعولات الخامشا ... تِ وجوه حرّاتٍ صحائحْ
وكأنَّ سيل دموعها الـ ... أنصاب تُخْضَب بالذَّبائحْ
ينقضنَ أشعاراً لَهُنْ ... نَ هناك بادية المسائحْ
وكأنَّها أذناب خيْـ ... لٍ بالضحى شُمْسٍ رَوامِحْ
من بين مَشْرورٍ ومَجْـ ... زورٍ يُذَعْذَع بالبَوارحْ
يبكينَ شجو مُسَلَّبا ... تٍ كدَّحَتْهُنَّ الكوادحْ
ولقد أصاب قلوبَها ... مَجَلٌ له جُلَبٌ قَوارحْ
إذْ أقصد الحَدثانُ مَنْ ... كُنَّا نُرجّي إذْ نُشايحْ
أصحاب أحدٍ غالهم ... دهرٌ ألَمَّ له جوارحْ
مَنْ كان فارسَنا وحا ... مينا إذا بُعِث المسالحْ
يا حَمْزَ لا والله لا ... أنساك ما صُرَّ اللقائحْ
لِمناخ أيتامٍ وأضْـ ... ـيافٍ وأرملةٍ تُلامحْ
ولما ينوب الدهرُ في ... حربٍ لحربٍ وهي لاقحْ
يا فارساً يا مدرهاً ... يا حَمْزَ قد كنتَ المُصامحْ
عنّا شديداتِ الخطو ... ب إذا ينوب لهنَّ فادحْ
ذكَّرْتَني أسَدَ الرَّسو ... ل وذاك مِدْرهنا المُنافحْ
عنّا وكان يُعَدُّ إذْ ... عُدَّ الشَّريفون الجحاجحْ
يعلو القماقمَ جهرةً ... سَبْط اليدين أغرَّ واضحْ
لا طائش رَعِشٌ ولا ... ذو علَّةٍ بالحمل آنحْ
بحر فليس يُغِبُّ جا ... راً منه سَيْبٌ أو منادحْ

أودى شبابُ أُولي الحفا ... ئظ والثَّقيلون المراجحْ
المطعمون إذا المَشا ... تي ما يُصفِّقُهنَّ ناضحْ
لَحْمَ الجلاد وفوقه ... من شحمه شُطَبٌ شرايحْ
ليدافعوا عن جارهم ... ما رام ذو الضِّغن المُكاشحْ
لهفي لشُبّانٍ رُزِئـ ... ـناهم كأنَّهم المَصابِحْ
شُمٌّ بطارقةٌ غطا ... رفةٌ خضارمة مَسامِحْ
المشترون الحمدَ بالـ ... أموال إنَّ الحمد رابحْ
والجامزون بلُجمهم ... يوماً إذا ما صاح صائحْ
مَنْ كان يُرمى بالنَّوا ... قرِ من زمانٍ غير صالحْ
ما إن تزال رِكابُه ... يَرْسِمْنَ في غُبْرٍ صحاصِحْ
راحت تَبارى وهو في ... ركبٍ صدورُهُمُ رواشحْ
حتى تؤوب له المعا ... لي ليس من فوز السَّفائحْ
يا حَمْزَ قد أوحدتني ... كالعود شذَّبه الكوافحْ
أشكو إليك وفوقك التْـ ... ـتُرْب المكوَّر والصفائحْ
من جندلٍ نُلقيه فَوْ ... قك إذْ أجاد الضرحَ ضارحْ
في واسعٍ يحشونه ... بالترب سَوَّته المَماسحْ
فعزاؤنا أنّا نقو ... ل وقولنا بَرحٌ بوارحْ
مَنْ كان أمسى وهو عَمْـ ... ـما أوقع الحدثانُ جانحْ
فلْيَأْتِنا فلتبكِ عَيْـ ... ـناه لهَلْكانا النوافحْ
القائلين الفاعليـ ... ـن ذوي السماحة والممادحْ
مَنْ لا يزال ندى يَدَيْـ ... ـه له طوالَ الدهر مائحْ[1]

❀ ❀ ❀

(١) ديوان حسان بن ثابت: ٤٥٠ ـ ٤٥٢.

وقال حسان بن ثابت ـ أيضاً ـ يرثيه:

هل تعرف الدارَ عفا رسمَها بعدك صوبُ المُسبِل الهاطلِ
بين السَّراديح فأُدْمانةٍ فمَدفع الرَّوحاء في حائل
سألتُها عن ذاك فاستعجمتْ لم تدر ما مرجوعة السائل
دعْ عنك داراً قد عفا رسمُها وابكِ على حمزة ذي النائلِ
المالىء الشِّيزي إذا أعصفتْ غبراءُ في ذي السنة الماحلِ
التارك القِرْن لدى قرنه يعثر في ذي الخُرُص الذابلِ
واللابس الخيل إذا أحجمتْ كالليث في غاباته الباسلِ
أبيض في الذروة من هاشم لم يَمْرِ دون الحق بالباطلِ
ما لشهيدٍ بين أرماحكم شلَّتْ يدا وحشيٍّ من قاتلِ
إنَّ امْرَأً غودِر في ألَّةٍ مطرورةٍ مارنة العاملِ
أظْلمتِ الأرضُ لفقدانه واسودَّ نورُ القمرِ الناصلِ
صلّى عليك الله في جنّةٍ عاليةٍ مُكْرَمةِ الداخلِ
كنّا نرى حمزةَ حرزاً لنا من كل أمرٍ نابَنا نازلِ
وكان في السلام ذا تُدْرَإ لم يكُ بالواني ولا الخاذلِ
لا تفرحي يا هند واستحلبي دمعاً وأذري عبرةَ الثاكلِ
وابكي على عتبة إذ قطَّهُ بالسيف تحت الرَّهج الجائلِ
إذْ خرَّ في مشيخةٍ منكم من كلِّ عاتٍ قلبه جاهلِ
أرداهُمُ حمزةُ في أُسرةٍ يمشون تحت الحَلَق الذائلِ
غداة جبريلُ وزيرٌ له نِعْمَ وزير الفارس الحاملِ(١)

وقالت صفية بنت عبد المطلب تبكي أخاها حمزة:

أسائلة أصحاب أُحْدٍ مخافةً بنات أبي من أعجم وخبيرِ

(١) ديوان حسان بن ثابت: ٣٢١ ـ ٣٢٢.

فقال الخبيرُ: إنَّ حمزة قد ثوى وزيــر رســول الله خـيــر وزيــرِ
دعاه إلهُ الحق ذو العرش دعوةً إلى جنَّة يحيا بها وسرورِ
فذلك ما كُنّا نرجّي ونرتَجي لحمزة يوم الحشر خير مصيرِ
فوالله لا أنساكَ ما هبَّتِ الصَّبا بكاءً وحزناً محضري ومسيري
على أسد الله الذي كان مِدْرَهاً يذود عن الإسلام كلَّ كفورِ
فيا ليت شِلوي عند ذاك وأعظمي لدى أضبُعٍ تعتادني ونسورِ
أقول وقد أعلى النعيُّ عشيرتي: جزى الله خيراً من أخٍ ونصيرِ[1]

و«قال كعب بن مالك الأنصاري يبكي حمزة بن عبد المطلب وقتلى أُحُدٍ من المسلمين:

نشجتَ وهل لك من منشجٍ وكنت متى تذَّكرْ تلجَجِ
تَذَكُّرَ قومٍ أتاني لهم أحاديث في الزَّمن الأعوجِ
فقلبُك من ذكرهم خافقٌ من الشوق والحَزَن المُنضجِ
وقتلاهم في جنان النعيم كِرامُ المداخل والمخرجِ
بما صبروا تحت ظلِّ اللواء لوَاء الرسول بذي الأضْوُجِ
غداة أجابت بأسيافها جميعاً بنو الأوس والخزرجِ
وأشياع أحمد إذ شايعوا على الحقِّ ذي النور والمنهجِ
فما برحوا يضربون الكُماةَ ويمضون في القسطل المُرْهَجِ
كذلك حتى دعاهم مليكٌ إلى جنَّةٍ دَوحةِ المَوْلجِ
فكلهم مات حُرَّ البلاء على مِلَّة الله لم يَخْرَجِ
كحمزة لمّا وفى صادقاً بذي هبَّةٍ صارمٍ سَلْجَجِ
فلاقاه عبدُ بني نوفلٍ يُبَرْبِرُ كالجمل الأدعجِ

(١) سيرة ابن هشام: ٣/١٧٦، وعزاها بعضهم لحسان بن ثابت، ولكن محقق الديوان رجح أن تكون لصفية بنت عبد المطلب.

فأوْجَرَه حربةً كالشهاب ... تلهَّبُ في اللهب المُوهجِ
ونعمان أوفى بميثاقه ... وحنظلة الخير لم يحنجِ
عن الحقِّ حتى غدتْ روحه ... إلى منزلٍ فاخر الزِّبرج
أولئك لا مَنْ ثوى منكمُ ... من النار في الدرك المُرْتجِ(١)

وقال كعب بن مالك أيضاً يرثي حمزة:

طرقتْ هَمومُك فالرقاد مُسَهَّدُ ... وجزعتَ أنْ سُلِخَ الشباب الأغيدُ
ودَعَتْ فؤادَكَ للهوى ضَمْرِيَّةٌ ... فهواك غوريٌّ وصحوك منجِدُ
فدع التمادي في الغواية سادراً ... قد كنتَ في طلب الغواية تفنَدُ
ولقد أنى لك أنْ تناهى طائعاً ... أو تستفيق إذا نهاك المرشدُ
ولقد هُدِدْتُ لفقد حمزة هَدَّةً ... ظلَّتْ بناتُ الجوف منها ترعدُ
ولو أنه فُجِعت حِراءُ بمثله ... لرأيت رأسي صخرها يتبدَّدُ
قَرْمٌ تمكَّنَ في ذؤابة هاشم ... حيث النبوة والندى والسؤددُ
والعاقر الكُومَ الجلادَ إذا غدتْ ... ريح يكاد الماء منها يجمدُ
والتارك القِرْنَ الكميَّ مجدَّلاً ... يوم الكريهة والقِنا يتقصَّدُ
وتراه يرفل في الحديد كأنّه ... ذو لبدةٍ شثنُ البراثن أربدُ
عمّ النبيّ محمدٍ وصفيه ... ورد الحمامَ فطاب ذاك الموردُ
وأتى المنيَّة مُعْلماً في أُسرةٍ ... نصروا النبيَّ ومنهم المُسْتَشهَدُ
ولقد إخال بذاك هنداً بُشِّرتْ ... لتُميت داخلَ غصَّةٍ لا تبردُ
ممّا صبحنا بالعقنقل قومَها ... يوماً تغيَّب فيه عنها الأسعدُ
وببئر بدرٍ إذ يردُّ وجوههم ... جِبريل تحت لوائنا ومحمدُ
حتى رأيتُ لدى النبيِّ سَراتهم ... قسمين: يقتل مَنْ يشاء ويطردُ
فأقام بالعطن المعطَّن منهم ... سبعون عُتْبةُ منهم والأسودُ

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٤٦ ـ ١٤٧.

وابن المغيرة قد ضربنا ضربةً فوق الوريد لها رشاش مزبدُ
وأُميةُ الجُمحيُّ قوَّم مَيْلَهُ عضبٌ بأيدي المؤمنين مهنَّدُ
فأتاك فَلُّ المشركين كأنهم والخيل تثفِنُهم ـ نعامٌ شُرَّدُ
شتّان مَنْ هو في جهنم ثاوياً أبداً ومَنْ هو في الجنان مخلَّدُ(١)

وقال كعب بن مالك ـ أيضاً ـ يبكي حمزة:

صفيَّةُ قومي ولا تعجزي وبكّي النساءَ على حمزةِ
ولا تسأمي أن تطيلي البُكا على أسد الله في الهزَّةِ
فقد كان عزّاً لأيتامنا وليث الملاحم في البزَّةِ
يريد بذاك رضا أحمدٍ ورضوانَ ذي العرش والعزَّةِ(٢)

وقال كعب ـ أيضاً ـ يرثيه:

بكت عيني وحُقَّ لها بكاها وما يغني البكاء ولا العويلُ
على أسد الإله غداة قالوا أحمزة ذاكم الرجل القتيلُ
أصيب المسلمون به جميعاً هناك وقد أُصيب به الرسولُ
أبا يَعْلى لك الأركان هُدَّتْ وأنت الماجد البَرُّ الوصولُ
عليك سلام ربِّك في جنانٍ مُخالِطها نعيمٌ لا يزولُ
ألا يا هاشمُ الأخيارُ صبراً فكلُّ فعالكم حسَنٌ جميلُ
رسول الله مصطبرٌ كريمٌ بأمر الله ينطق إذ يقولُ
ألا مَنْ مُبلغٌ عني لؤياً فبعد اليوم دائلةٌ تدولُ
وقبل اليوم ما عرفوا وذاقوا وقائعَنا بها يشفي الغليلُ
نسيتم ضَرْبنا بقليب بدرٍ غداة أتاكم الموتُ العجيلُ
غداة ثوى أبو جهلٍ صريعاً عليه الطير حائمة تجولُ

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٦٥ ـ ١٦٦.
(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٦٦.

وعتبة وابنه خرا جميعاً وشيبة عضَّه السيف الصقيلُ
ومَتْرَكنا أميَّةَ مُجلَعِبّاً وفي حيزومه لَدْنٌ نبيلُ
وهامَ بني ربيعة سائلوها ففي أسيافنا منها فلولُ
ألا يا هندُ فابكي لا تملّي فأنتِ الواله العبرى الهبولُ
ألا يا هندُ لا تُبْدي شماتاً بحمزة إنَّ عزَّكُمُ ذليلُ[1]

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٧١ ـ ١٧٢، والأبيات ١ ـ ١٢ و١٥ ـ ١٦ في الاستيعاب: ١/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦ وأسد الغابة: ٢/ ٤٨، والبيتان الأولان في الإصابة: ١/ ٣٥٣.

[٢]

مُصعَب بن عُمير

مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ

هو: مُصْعَب (الخير) بن عُمَير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي[(1)] بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فِهْر بن مالك بن النَّضْر بن كنانة بن خُزَيمة بن مُدْرِكة بن إلياس بن مُضَر بن نزار بن مَعَدِّ بن عدنان.

وأُمُّه: خناس بنت مالك المُطَرِّف (المُضَرِّب) بن وُهَيْب (وَهْب) بن عمرو بن حجير بن عبد بن معيص بن عامر[(2)]، إحدى نساء بني مالك بن حِسل[(3)]، وكانت ثرية مليئة كثيرة المال[(4)].

وقبيلتُه: بنو عبد الدار، من كبريات قبائل قريش، وفي الطليعة من ذوات الشأن والمقام فيها، ولذلك أودعت إليها مهمة حمل لوائها في حروبها، وجعلت لها حجابة البيت الحرام[(5)]، تقديراً وتكريماً.

❁ ❁ ❁

---

(1) سيرة ابن هشام: ١/ ٣٤٤ و٣٤٧ و٢/ ٣ ـ ٤ ونسب قريش: ٢٥٤ وطبقات ابن سعد: ١/ ق١/ ١٣٦ و٣/ ق١/ ٨١ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٣٠.

(2) نسب قريش: ٢٥٤ والمحبر: ٤٠٠ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٨١، وفي رواية ابن حبيب: «ابن مضرب واسمه وهب بن عمرو» إلخ.

(3) سيرة ابن هشام: ٣/ ٦٦.

(4) طبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ٨٢.

(5) المحبر: ١٦٧.

وُلِد بمكة قبل البعثة النبوية بخمس وعشرين سنة تقريباً، وبعد عام الفيل بخمس عشرة من السنين. ولم نجد في المصادر نصاً صريحاً يحدد تاريخ الميلاد، ولكن التقدير الذي يمكن استنباطه من قول المؤرخين أنه استشهد وله من العمر أربعون سنة أو يزيد قليلاً[١].

وكان له من الألقاب: لقب (الخَير) الذي اشتهر به حتى أصبح جزءاً من اسمه، فلا يقال في التعريف به إلا (مصعب الخير). ولم يتضح أنه لُقِّب به منذ صباه وأول نشأته، أو أطلق عليه بعد إسلامه.

وكان له من الكنى كنيتان: أبو عبد الله[٢]، وأبو محمد[٣].

❀ ❀ ❀

نشأ وشبَّ في مكة المكرمة حيث بيته وأسرته، ولكنه لم يذق من صعاب الحياة وحرمانها ما ذاق غيره من فتيان قريش وولدان الحجاز، بل لم يعرف منذ نعومة أظفاره سوى العيش الفاره والرخاء المترف والبذخ الذي لا يعرف القيود، وقد أوتي من حب أبويه ورعايتهما، وثرائهما وسخائهما عليه، ما جعل منه مضرب المثل ومطمح النظر. وهو ـ إلى ذلك ـ على جانب عظيم من الجمال والرقة وغضوضة الإهاب ووسامة الشباب، وفي الصميم من قريش مجداً وعلاءً إذا جُليت الأنساب ونشرت الأحساب، فكان ـ حقاً ـ كما وصفه مترجموه:

«فتى مكة شباباً وجمالاً وسيباً»[٤]، «رقيق البشرة، حسن اللمة،

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/٨٦ وأنساب الأشراف: ١/٢٠٣ والاستيعاب: ٣/٤٤٩ والتبيين: ٢١٣ وأسد الغابة: ٤/٣٦٩.

(٢) الاستيعاب: ٣/٤٤٨ والتبيين: ٢١٣ وأسد الغابة: ٤/٣٦٨.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/٨١ وأنساب الأشراف: ١/٢٠٣.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/٨٢ والاستيعاب: ٣/٤٥٠ والتبيين: ٢١٣ وأسد الغابة: ٤/٣٦٩.

ليس بالطويل ولا القصير»[١]، يكتسي أحسن الثياب وأرقَّها، ويلبس الحضرميَّ من النعال[٢]، ويتغذى بأطايب الطعام والشراب[٣]، ويتعاهد شعر رأسه تصفيفاً وترجيلاً[٤]، ويتعطر بأغلى أنواع الطيب وأجودها حتى قيل فيه: «كان أعطر أهل مكة»[٥].

ولقد أجمل رسول الله (ص) الحديث عن هذه النشأة المترفة في فقرة من فقره البليغة يذكر فيها مصعباً وما تحمله في سبيل الإسلام، فقال:

«ما رأيتُ بمكة أحداً أحسن لمَّةً ولا أرقَّ حلَّةً ولا أنعم نعمةً من مصعب بن عمير»[٦].

هكذا كانت نشأة مصعب وحياته في ظلال أبويه: «أنعَم غلام بمكة»[٧]، و«ما بمكة فتىً من قريش أنعَم عند أبويه نعيماً منه»[٨]، فكان ـ بذلك ـ مثالاً فريداً بين الأخدان والأقران، يُزلق بالأبصار حسداً وغبطة، ويشار إليه بالبنان إعجاباً وغيظاً.

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٨٦.
(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٨٢.
(٣) حلية الأولياء: ١/ ١٠٨.
(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٨٦ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٣٦.
(٥) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٨٢.
(٦) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٨٢ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٣٦ والاستيعاب: ٣/ ٤٥٠ والتبيين: ٢١٣ وأسد الغابة: ٤/ ٣٧٠ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٣٩.
(٧) أسد الغابة: ٤/ ٣٦٩، واللفظ مرويٌّ عن سعد بن أبي وقاص.
(٨) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٨٢، واللفظ نص حديث نبوي شريف.

وبلغت سمع هذا الفتى الغض المترف الأنيق، تلك الصرخة الكبرى التي هزت مكة فعجَّت بها المجالس والمحافل، وضجّت بأصدائها كل الندوات والخلوات، ونعني بها صرخه محمدٍ (ص) وهو يصدع برسالته الخالدة رسالة التوحيد والمحبة والعدل، ويعلن حربه على الظلم والأثر وعبادة الأوثان والفساد في الأرض، ويدعو الناس إلى الخروج من الظلمات إلى النور، واتّباع دين الله القويم وصراطه المستقيم.

لقد سمع مصعب نبأ هذه الصرخة المثيرة، فلم يشغله نعيمه وشبابه ـ وهو لم يبلغ الثلاثين بعد ـ عن العناية بها والإصاخة إليها، فهفت نفسه إلى استكشاف جلية الأمر ومعرفة التفاصيل، رغبة في الوقوف على الحقيقة.

وعلم ـ بعد استخبارٍ وبحث وطول فحص ـ أنَّ رسول الله (ص) مستخفٍ في دار الأرقم بن أبي الأرقم ـ وكان ذلك في بداية البعثة الشريفة ـ، فاستطاع أن يصل إليه ويحظى بلقائه هناك، وأن يسمع منه ما يريد سماعه، ويستعلم عما يودُّ علمه، فسارع إلى الايمان والتصديق وتشهد الشهادتين، ووعى أسس الرسالة وأهدافها وعياً أخذ بمجامع قلبه ولبِّه.

وخرج من دار الأرقم مسلماً صادق النية ثابت اليقين، غير أن ظروفه العائلية الخاصة لم تسمح له بالجهر والإعلان، «فكتم إسلامه خوفاً من أُمِّه وقومه»، ولكنه لم يقطع صلته بالنبيّ (ص) وتردُّدَه عليه حيث يقيم، «فكان

يختلف إلى رسول الله (ص) سراً» يسمع منه القرآن، ويتعلَّم قواعد الشريعة، ويتفقه في الدين، ويزداد على مَرِّ الأيام ثباتاً وإصراراً.

ويفاجَأ مصعب في أحد الأيام ـ وهو قائم يصلّي ـ بدخول أحد كبار أسرته عليه، وهو عثمان بن أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار، فلما رآه في صلاته ذهب إلى أمه وقومه فأخبرهم بذلك، فلم يكن منهم من ردّ فعل بإزاء ذلك إلا أن يأخذوه فيضيقوا عليه ويحبسوه عن الذهاب إلى محمد (ص) ويمنعوه من أداء شعائر الإسلام[١].

ومرت الأيام، والضغط القرشي على محمد (ص) وأصحابه في تصاعد مستمر، حتى تجاوز حدود التحمل والطاقة.

«ولما رأى رسول الله (ص) ما يصيب أصحابه من البلاء... وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه... قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلَم عنده أحد... حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه».

«فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله (ص) إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام».

«وكان من أوائل المهاجرين من المسلمين: مصعب بن عمير»[٢].

ووصل مصعب إلى الحبشة فاراً بدينه، فبقي هناك حيناً من الدهر، بعيداً عن أهله وأترابه، نائياً عن بلده وملاعب صباه، محروماً من كل ما

---

(١) يراجع في بدء إسلام مصعب: طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٨٢ والاستيعاب: ٣/ ٤٥٠ والتبيين: ٢١٣ ـ ٢١٤ وأسد الغابة: ٤/ ٣٦٩ والإصابة: ٣/ ٤٠١.

(٢) سيرة ابن هشام: ١/ ٣٤٤/ ٣٤٧ ـ والألفاظ منها ـ وطبقات ابن سعد: ١/ ق١/ ١٣٦ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٣٠ والاستيعاب: ٣/ ٤٤٨ والتبيين: ٢١٣.

كان يتمتع به من ألوان النعمة والثراء وسعة العيش. وعانى في مهجره ذاك من شظف العيش وجشوبة المأكل وخشونة الملبس وصعوبة الحياة ما لا يعلمه إلا الله، ولكنه كان يستقبل ذلك كله بقلب هادىء صبور ونفس راضية مطمئنة، فلم تُؤثرْ عنه ـ رغم كل الآلام ـ كلمة تضجُّر وأنَّةُ توجع، أو أيّ تصرف يدل على الضيق والبرم بما هو فيه، بل كان ـ على العكس من ذلك ـ من أوسع أولئك المهاجرين صدراً، وأسمحهم خلقاً وأكثرهم تحملاً، وأبعدهم عن العصبية والمشاكسة والانفعال الغاضب، وقد وصفه أحد رفاقه في هذه الغربة فقال: «لم أرَ رجلاً قط كان أحسن خلقاً؛ ولا أقل خلافاً منه»[1].

❀ ❀ ❀

وبقي المسلمون في الحبشة ـ رغم طول المدة ـ يعدون الأيام ويحسبون الساعات، وكلهم تطلُّع إلى معرفة ما يقع في مكة عامةً؛ وإلى ما آلت إليه حال النبيّ (ص) وأصحابه خاصة.

وكانت تصلهم هذه الأخبار مستمرة متوالية، يحملها التجار والمسافرون والعاملون في المراكب المبحرة بين البلدين، ولكنها لم تكن ـ في مجموعها ـ صادقة المحتوى وموثوقة السند، بل فيها النبأ الصحيح والآخر الكاذب والثالث المبالَغ فيه.

وتلقّى أولئك الغرباء ذات يوم ـ فيما يتلقون من الأنباء ـ بشرى هزَّتهم من الأعماق هزّاً وملأتهم فرحاً وأُنساً، فقد ورد المسافرون يحملون خبر إسلام أهل مكة وأدائهم للصلاة، وأكَّد أحدهم أنّه شاهدهم ساجدين مع النبيّ (ص) في المسجد الحرام، فكان لهذا النبأ من أصداء

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٨٢.

السرور والبهجة، والحبور والفرحة، ما يفوق التصور ويسمو على الوصف، لما يعنيه ذلك لديهم ـ فيما يعني ـ أنَّ الإسلام قد تجاوز مرحلته الأولى بتراجع مناوئيه وخضوعهم له؛ وأنه سيتخذ سبيله نحو أرجاء الجزيرة العربية باندفاع فعّال لا تحده ـ بعد اليوم ـ ما كانت تضع قريش في طريق انطلاقه من قيود وسدود، ولما يعنيه أيضاً ـ فيما يعني ـ أنَّ المهاجرين المشرَّدين سيعودون إلى بلدهم وأهليهم آمنين مطمئنين؛ وأنَّ ساعة التخلص من عذاب الغربة وآلامها المريرة قد حانت وآن أوانها السعيد.

وظلُّوا ـ وهم في غمرة الفرح والابتهاج ـ على أحرَّ من الجمر في انتظار ما يصلهم من النبيّ (ص) نفسه في هذا الحدث الكبير الخطير...

ولكنَّ أفراداً منهم لم يطيقوا الصبر والانتظار ـ ريثما يصل الإخبار النبوي المرتقب ـ، فخرجوا من الحبشة متوجهين إلى مكة، «حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أنَّ ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً» وأنَّ العنف والإرهاب الذي كان يمارسه المشركون ضدَّ المسلمين ما زال على حاله الأولى، وأنَّ الخطر يتهدَّد حياة هؤلاء القادمين إنْ عرفت قريش أمرهم، «فلم يدخل منهم أحدٌ إلاّ بجوارٍ أو مستخفياً»[١].

وكان من جملة هؤلاء القادمين: مصعب بن عمير[٢].

وعندما انتهى مصعب إلى مكة لم يجد بدّاً ـ فراراً من الأذى والخطر المحدق ـ من الدخول «بجوار النضر بن الحارث بن كلدة، ويقال: بجوار أبي عزيز بن عمير؛ أخيه»[٣].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/٣.
(٢) سيرة ابن هشام: ٢/٣ ـ ٤.
(٣) أنساب الأشراف: ١/٢٢٧.

وكان أبرز ما أثار الانتباه ولفت الأنظار في مصعب ـ بعد عودته من غربته ـ أنَّه «رجع متغيِّر الحال..... قد غلُظ»[1] وخشُن، فلم يبق من معالم ذلك الترف والنعيم عين أو أثر، بل ارتسمت على قسماته ـ بدلاً منه ـ ملامح الجهد الإرهاق، ونفحت من جسده المكدود روائح العرق والنَّصَب والفراق الممضّ.

وانقلب كل شيء في حياة هذا الفتى فصار شيئاً آخر.

واتَّجه كلّ هوى نفسه اليوم؛ وكلُ نبضات قلبه ومشاعر لذته وعزمات بأسه وآمال عمره، نحو الرسالة الجديدة وضرورة حياطتها والعمل على انتشارها وانتصارها واندحار أعدائها.

وأمّا ما عدا ذلك فهو ـ عنده ـ تافه لا يؤبه به وحقير لا يستحق الاهتمام.

❁ ❁ ❁

ومكث مصعب في مكة بعد عودته من الحبشة ردحاً غير قليل من الزمن.

ولم نعلم من أخباره خلال هذه المدة إلاّ زواجه[2] من تلك المرأة المؤمنة الصالحة «حمنة بنت جحش بن رئاب (رباب) بن يعمر بن صبرة بن مُرَّة بن كبير (كثير) بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة»[3]، أُخت زينب

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٨٢.

(٢) لم يحدد المؤرخون تاريخ زواج مصعب، ولكننا استنبطنا من القرائن المتوفرة وقوعه في هذه الحقبة ـ أي فيما بين السنة السادسة والثانية عشرة من البعثة الشريفة ـ، ولعل من أوضح تلك القرائن أنه هاجر إلى الحبشة مفرداً ليست معه زوجة، وأن حمنةَ زوجته قد ذكرت «يتم ولده» لما بلغها استشهاده، مما يشعر بصغر عمر ابنته يومذاك.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٨١ و٨/ ١٧٥.

بنت جحش أُم المؤمنين[١]، وأُمُّها أُميمة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف[٢]، وكانت حمنة من النساء الصادقات والمهاجرات، وقد شهدت معركة أُحد فكانت تسقي العطشى وتداوي الجرحى[٣].

وولدت حمنة من مصعب بنتاً واحدة سمّاها زينباً، وقد ذكرها بعضهم في عداد الصحابة[٤]، وتزوَّجها عبد الله بن عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فولدتْ له[٥]، وعاشت زينب بعد النبيّ (ص) دهراً[٦].

ويبدو أن الرابطة الزوجية بني هذين الزوجين كانت من أوثق الروابط الزوجية وأمتنها، فقد روى الرواة: أنَّ النبيّ (ص) قال لحمنة بعد انتهاء معركة أُحدٍ وهو يريد إخبارها بما أصاب أحبّاءها:

«يا حمنة احتسبي أخاك عبد الله بن جحش، قالت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، رحمه الله وغفر له، ثم قال: يا حمنة احتسبي خالك حمزة بن عبد المطلب، قالت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، رحمه الله وغفر له، ثم قال: يا حمنة احتسبي زوجك مصعب بن عمير، فقالت: يا حَرَباه، فقال النبيّ (ص): «إنَّ للرَّجُلِ لَشُعَبةً من المرأة»[٧]، وفي لفظ ابن إسحاق:

---

(١) نسب قريش: ٢٥٤ والمحبَّر: ١٠٣ والاستيعاب: ٤/ ٢٦٢ وأسد الغابة: ٥/ ٤٢٨ والإصابة: ٤/ ٢٦٦.

(٢) طبقات ابن سعد: ٨/ ١٧٥.

(٣) طبقات ابن سعد: ٨/ ١٧٥ وأسد الغابة: ٥/ ٤٢٨ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٣٦ والإصابة: ٤/ ٢٦٦.

(٤) أسد الغابة: ٥/ ٤٧٠ والإصابة: ٤/ ٣١٢.

(٥) نسب قريش: ٢٥٤ وأنساب الأشراف: ١/ ٤٣٧ والمحبر: ١٠٣ وجمهرة أنساب العرب: ١٢٦ وأسد الغابة: ٤/ ٣٧٠.

(٦) الإصابة: ٤/ ٣١٢.

(٧) طبقات ابن سعد: ٨/ ١٧٥.

«فقال رسول الله (ص): إن زوج المرأة منها لَبِمَكانٍ»[١]، «وقال لها النبيّ (ص): كيف قلتِ على مصعب ما لم تقولي على غيره؟ قالت: يا رسول الله؛ ذكرتُ يتم وَلَدِه»[٢].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٠٤ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٣٢.

(٢) طبقات ابن سعد: ٨/ ١٧٥ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ١٨.

ومرَّت الأيام.

وكان من ديدن النبيّ (ص) أن يحضر المواسم التي تجتمع فيها العرب بمكة، فيتصل بالقبائل القادمة إليها؛ «يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنَّه نبيّ مرسل، ويسألهم أن يصدِّقوه ويمنعوه حتى يبيِّن لهم ما بعثه الله به»[1].

وبينما هو عند العقبة في موسم من هذه المواسم «لقي رهطاً من الخزرج.... فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن..... فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدَّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام.... ثم انصرفوا عن رسول الله (ص) راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدَّقوا»[2].

«حتى إذا كان العام المقبل؛ وافى الموسمَ من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوه بالعقبة ـ وهي العقبة الأولى ـ فبايعوا رسول الله (ص)»[3].

«ولما انصرف أهل العقبة الأولى الاثنا عشر، وفشا الإسلامُ في دور الأنصار، أرسلتِ الأنصارُ رجلاً إلى رسول الله (ص) وكتبتْ إليه

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٦٤.
(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٠ ـ ٧١.
(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٣.

كتاباً: ابعث إلينا رجلاً يفقّهنا في الدين ويقرئنا القرآن، فبعث إليهم رسول الله (ص) مصعب بن عمير»[١]، «وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلّمهم الإسلام ويفقّهم في الدين»[٢].

وهكذا أصبح ـ أيضاً ـ أول مقرئ للقرآن في الإسلام، ولذلك لقبته المصادر التأريخية بـ«المُقْرِىء»[٣].

ووصل مصعب إلى المدينة حاملاً مهمته الكبرى ومسؤوليته الخطيرة، ونزل في أول قدومه على أسعد بن زرارة[٤] سيد الأنصار ومن أوائل المبايعين للنبيّ (ص) في مكة، ثم انتقل إلى دار سعد بن معاذ حين أسلم[٥] فبقي فيها ضيفه طوال أيامه الباقية في المدينة.

وقام مصعب بأداء ما حُمّل أفضل قيام، فدعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وبذل كل وسعه ومنتهى جهده في حث الناس على التصديق بالرسالة والرسول، «وكان يأتي الأنصارَ في دورهم وقبائلهم فيدعوهم إلى الإسلام، ويقرأ عليهم القرآن. فيسلم الرجل والرجلان، حتى ظهر الإسلام وفشا في دور الأنصار كلها والعوالي»[٦]، و«كان يصلّي بهم»[٧] ويقيم بنفسه العبادات الإسلامية ليتعلم منه الباقون.

(١) طبقات ابن سعد: ١/ق١/١٤٨ و٣/ق١/ ٨٣ و٣/ق٢/ ٢ و١٣٦ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٣٩.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٦ ونسب قريش: ٢٥٤ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٥٧ والتبيين: ٢١٣ وأسد الغابة: ٤/ ٣٦٩.

(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٦ ونسب قريش: ٢٥٤ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٥٧.

(٤) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٦ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٨٣ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٥٧ والتبيين: ٢١٣.

(٥) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٢ و١٣٦.

(٦) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٨٣، و١/ق١/ ١٤٨ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٣٩.

(٧) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٧ وطبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ١٤٠ وأسد الغابة: ٤/ ٣٦٩.

و«كتب إلى رسول الله (ص) يستأذنه أن يجمِّع بهم (أي يصلّي الجمعة) فأذن له. . . فجمع بهم. . . في دار سعد بن خيثمة ـ وهم اثنا عشر رجلا ـ»، فكان «أول من جمَّع في الإسلام جمعة»[١].

و«أسلم على يده خلق كثير»[٢]، عرفنا منهم: الزعيمين سعد بن معاذ وأُسَيْد بن الحُضَير[٣]، وعباد بن بشر الأنصاري[٤]، ومحمد بن مسلمة الأنصاري[٥].

❀ ❀ ❀

و«خرج مصعب بن عمير من المدينة، مع السبعين الذين وافوا رسول الله (ص) في العقبة الثانية، من حاجِّ الأوس والخزرج. . . فقدم مكة، فجاء منزل رسول الله (ص) أولاً ولم يقرب منزله، فجعل يُخبر رسولَ الله (ص) عن الأنصار وإسراعهم إلى الإسلام واستبطائهم (قدوم) رسول الله (ص). فَسُرّ رسول الله (ص) بكل ما أَخْبَرَه»[٦].

وتمت على أثر ذلك بيعة العقبة الثانية، وانتخب المبايعون نقباءهم الاثني عشر بمحضر رسول الله (ص)، وأصبحت المدينة المنورة ـ بعد إسلام غالب أهلها واستعدادهم للبذل والفداء ـ مؤهَّلةً لاستقبال

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/٨٣، و١/ق١/١٤٨ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٣٩ والاستيعاب: ٣/٤٤٨ والتبيين: ٢١٣ وأسد الغابة: ٤/ ٣٦٩.
(٢) نسب قريش: ٢٥٤ والتبيين: ٢١٣.
(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٨ ـ ٨٠ وطبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٢ و١٣٦ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٥٧ ـ ٣٥٩ والتبيين: ٢١٣.
(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ١٦.
(٥) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ١٩.
(٦) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٨٤، وسيرة ابن هشام: ٢/ ٨١ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٦٠.

النبيّ (ص) وأصحابه؛ وحياطتهم من الأذى؛ وحمايتهم من كل مكروه.

ورجع الأنصار بعد البيعة إلى بلدهم ليعدوا العدة للمستقبل الكبير.

وبقي مصعب في مكة ينتظر إذنَ النبيّ (ص) بالعودة إلى المدينة للاستمرار في أداء مهمته.

وعلمت أم مصعب ـ في خلال ذلك ـ بخبر قدوم ابنها مكة، «فأرسلت إليه: يا عاق أتقدم بلداً أنا فيه ولا تبدأ بي؟ فقال: ما كنت لأبْدأ بأحدٍ قبل رسول الله (ص).

«فلما سلّم على رسول الله (ص) وأخبره بما أخبره، ذهب إلى أمه، فقالت: إنك لعلى ما أنت عليه من الصبأة بعدُ؟.

قال: أنا على دين رسول الله (ص)، وهو الإسلام الذي رضي الله لنفسه ولرسوله.

قالت: ما شكرتَ ما ربيتك، مرةً بأرض الحبشة ومرةً بيثرب، فقال: أفرُّ بديني إن تفتنوني.

فأرادت حبسه، فقال: لئن أنتِ حبستِني لأحرصنَّ على قتل من يتعرض لي.

قالت: فاذهب لشأنك. وجعلت تبكي.

فقال مصعب: يا أُمَّه؛ إنّي لك ناصح وعليل شفيق، فاشهدي أنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

قالت: والثواقب؛ لا أدخل في دينك... ولكني أدعك وما أنت عليه، وأقيم على ديني»[1].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٨٤.

بقي مصعب في مكة ينتظر الإذن ـ كما أسلفنا ـ وامتدت مدة بقائه إلى عدة شهور.

ولما أذن الله تعالى لرسول (ص) بالهجرة إلى المدينة، أمر أصحابه بالخروج إليها «واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وقال: إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها. فخرجوا إرسالاً»[1] أي جماعة في أثر جماعة.

وكان مصعب بن عمير أول القادمين إلى المدينة من المهاجرين[2]، وقدمها «قبل مقدم رسول الله (ص) باثنتي عشرة ليلة»[3]، ونزل منذ مقدمه على سعد بن معاذ[4].

ثم قدم رسول الله (ص) بعد ذلك، فاجتمع شمل المسلمين هناك، وشعروا بشيء من القوة والأمان والاطمئنان، وبدأوا ـ جميعاً ـ عملهم الدؤوب لإقامة كيانهم المتميز المنشود.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١١١.

(٢) أنساب الأشراف: ١/ ٢٥٧ والاستيعاب: ٣/ ٤٤٨ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٦١ والإصابة: ٣/ ٤٠٢.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٨٤.

(٤) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٢٣ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٨٣.

وكان من أول مساعي النبيّ (ص) نحو تأمين السلامة لهذا المجتمع الجديد؛ هو بناء وحدته الراسخة وتآخي أبنائه الصادق في الله وفي الدين، فآخى ـ أولاً ـ بين المهاجرين بعضهم لبعض، وآخى ـ ثانياً ـ بينهم وبين الأنصار، وقد أكد ذلك وشدد عليه حتى ظنوا أنهم سيتوارثون في ضوئه؛ لولا نزول آية الميراث.

وكان من أمثلة هذا المسعى أنَّه (ص) آخى بين مصعب وسعد بن أبي وقاص ـ إخاء المهاجرين فيما بينهم ـ، وبين مصعب وأبي أيوب الأنصاري ـ إخاء المهاجرين والأنصار[1] ـ.

ولكن هذه المؤاخاة ـ وإن ضمنت شيئاً من الحد الأدنى لضروريات الحياة ـ لم تكفل السداد الكامل والوفاء التام بالحاجات الأساسية للأفراد؛ وبخاصة المعيلين منهم، فأصاب مصعباً في مهجره من العوز والفقر والفاقة ما لا يتحمله إلا الأوحد من الناس، ولكنه لم يجزع ولم يتأفف ولم ينفد صبره؛ وهو يرى حالته البائسة التي عليها وحالة زوجته وابنته، بل استقبل ذلك كله بالرضا التام والتسليم المطلق والاحتساب الواعي، لأنه في سبيل الله وفي سبيل الإسلام.

ولا نريد أن نطيل في بيان ما ابتُلي به ربيب الترف والنعمة والرخاء من الشظف والعسر والحرمان، بل نكتفي بإيراد بضعة نصوص في هذا الشأن؛ هي أصدق قيلاً وأكثر قدرة على إجلاء هذه الحقيقة من أي شرح وتفصيل:

١ ـ جاء في الحديث النبويّ الشريف:

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٥٢ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٨٤ و٩٩ و٣/ق٢/ ٤٩ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٧٠.

أن مصعباً أقبل ذات يوم «والنبيّ ـ (ص) ـ جالس في أصحابه، وعلى مصعب قطعة نمرةٍ قد وصلها بإهابٍ قد ردَّنه ثم وصله إليها، فلما رآه أصحاب النبيّ (ص) نكسوا رؤوسهم رحمةً له، ليس عندهم ما يغيِّرون عنه، فسلّم فردَّ عليه النبيّ (ص) وأحسن عليه الثناء وقال:

«الحمد لله، ليَقْلِب الدنيا بأهلها، لقد رأيتُ هذا ـ يعني مصعباً ـ وما بمكة فتىً من قريش أنعم عند أبويه نعيماً منه، ثم أخرجه من ذلك الرغبة في الخير في حب الله ورسوله»[1].

٢ ـ وفي الحديث النبويّ أيضاً:

«نظر النبيّ ـ (ص) ـ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبشٍ قد تنطَّق به، فقال النبيّ (ص):

«انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نور الله قلبه، لقد رأيتُه بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون»[2].

٣ ـ وفي حديث علي (ع) قال:

«إنا لجلوس مع رسول الله (ص) في المسجد إذ طلع علينا مصعب بن عمير، وما عليه إلا بردة له مرقوعة بفروة، فلما رآه رسول الله (ص) بكى للذي كان فيه من النعمة والذي هو فيه اليوم»[3].

٤ ـ وفي خبر طويل عن سعد بن مالك قال:

«فأما مصعب بن عمير فإنه كان أترف غلام بمكة بين أبويه، فلما

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٨٢.

(٢) حلية الأولياء: ١/ ١٠٨.

(٣) أسد الغابة: ٤/ ٣٧٠ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٠٣ والإصابة: ٣/ ٤٠٢.

أصابه ما أصابنا لم يقو على ذلك، فلقد رأيته وإن جلده ليتطاير عنه تطاير جلد الحية، ولقد رأيته ينقطع به فما يستطيع أن يمشي؛ فنعرض له القسي ثم نحمله على عواتقنا»[١].

٥ ـ وفي رواية عن سعد بن أبي وقاص قال:

«كان مصعب بن عمير أنعم غلام بمكة وأجود حلة؛ مع أبويه، ثم لقد رأيته جُهِد في الإسلام جهداً شديداً، حتى لقد رأيت جلده يتحسف (أي يتمعط ويتطاير) كما يتحسف جلد الحية»[٢].

(١) سير أعلام النبلاء: ١/ ١٠٣.

(٢) الفائق: ٢/ ٣٧٩ وأسد الغابة: ٤/ ٣٦٩ والعباب: (حسف).

ودخلت المسيرة الإسلامية ـ بعد الهجرة النبويّة إلى المدينة ـ مرحلة جديدة من مراحل تاريخها النضالي المقدس، تلك هي مرحلة الحرب والجهاد بالسيف.

ولم يجد هذا المسلم المتحمس الذي لم يكن يعرف الوغى ولم يمارس القتال أيام شبابه ونعمته؛ في طبول الحرب وضجيجها الصاخب؛ إلا النغم الجميل الممتع، واللحن الملذ المطرب. فامتطى الصهوات، واقتحم المخاطر، وخاض المعارك الضارية، ولا همَّ له إلا نصر الإسلام وإعلاء كلمة التوحيد.

وكانت معركة بدر الكبرى أولى التجارب التي شارك فيها مصعب مشاركة جادة مشرِّفة، فنهض بالأمر نهضة الرجال، واستبسل في مقاتلة أعداء الله ـ ومنهم بعض أهله وأخص خاصته ـ استبسال الأبطال، وتحمل بشجاعة واقتدار تلك المسؤولية الصعبة؛ مسؤولية حمل اللواء الأعظم، بكل ما يعنيه اللواء في الجيش من رمزٍ مادي خطير؛ وشأن معنوي كبير.

وكانت للنبيّ (ص) في بدرٍ ـ كما روى المؤرخون ـ ثلاث رايات:

الراية الكبرى، وهي بيد مصعب بن عمير[1].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٦٤ وطبقات ابن سعد: ٢/ق١/ ٨ و٣/ ق١/ ٨٥ وأنساب الأشراف: ١/ ٥٣ و٢٩٣ والاستيعاب: ٣/ ٤٥١ والتبيين: ٢١٣ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ١٢٠.

وراية المهاجرين، وهي بيد علي بن أبي طالب[١].

وراية الأنصار، وهي بيد سعد بن معاذ أو سعد بن عبادة[٢].

ولم يكن اختيار مصعب ـ دون غيره من المهاجرين والأنصار ـ لهذه المهمة الحساسة والخطيرة؛ وفي هذه المعركة الأولى والكبرى في تاريخ الإسلام؛ عملاً عشوائياً لا يمكن تعليله، أو لغزاً محيراً يعسر حله، بل إنه يرجع فيما نظن إلى علم النبيّ (ص):

أولاً ـ بما يتمتع به هذا الرجل من كفاية فائقة وأهلية تامة؛ عمل في تكوينها وصقلها عزم صلب ودين راسخ وإخلاص صادق وإيمان عميق.

وثانياً ـ أن بني عبد الدار ـ أسرة مصعب ـ هم حملة راية قريش في كل وقائعها وحروبها[٣]، بل يعدون ذلك من أبرز أمجادهم وأسمى مفاخرهم، فلم يرد النبيّ (ص) حرمان مصعب من هذا الشرف العبدري الموروث.

وثالثاً وأخيراً ـ رغبة النبيّ (ص) في أن تكون الواجهة العسكرية أمام قريش قرشية أيضاً، لحماً ودماً، وشكلاً ومظهراً، لما في ذلك من التأثير النفسي والمعنوي العميق؛ في مجتمع قبلي متغطرس شديد التعصب؛ كمجتمع مكة يومذاك.

وقام مصعب بمهمته خير قيام وأفضله، وأعطى اللواء الأعظم حقه من السمو والرفعة والعلاء، «فقتل الله تعالى مَنْ قتل من صناديد قريش،

---

(١) و(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٦٤ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٣١.

(٣) سيرة ابن هشام: ١/ ١٤٠.

وأُسِر من أسر من أشرافهم»[١]، وأسفرت المعركة عن مصرع «سبعين رجلاً من المشركين وأسر سبعين منهم»[٢].

وكان من جملة من وقع في الأسر منهم: أبو عزيز بن عمير؛ أخو مصعب، أسره أحد الأنصار في ميدان الحرب وربط يده بيده، فنادى مصعب صاحبه الأنصاري وهو ممسك أخاه أبا عزيز: أحسِنْ شدَّ يديك به كيلا يفلت منك؛ فإنَّ له أُمّاً موسرة ذات مال وثراء؛ ولعلها تفديه منك بمال وفير، فقال له أخوه أبو عزيز: يا أخي هذه وصاتك بي!، فقال له مصعب: إن هذا الأنصاري أخي دونك[٣]. يشير بذلك إلى أخوَّة الدين التي تضاءل أمامها ما سواها من الوشائج والروابط.

كما كان من جملة الأسرى أيضاً: النضر بن الحارث بن كلدة من بني عبد الدار أرحام مصعب، وقد أمر النبيّ (ص) بضرب عنقه جزاء ما كان فعله بالإسلام والمسلمين في مكة، فلم يجد النضر بُدّاً من الاستنجاد بمصعب، فلما رآه قال له مسترحماً: «يا مصعب؛ أنت أقرب مَنْ هاهنا إليَّ وأمسُّهم رحماً بي، فكلِّمْ صاحبك في أن يجعلني كرجلٍ من أصحابي، فقال له: إنك كنت تقول كذا وتفعل كذا، فقال: يا مصعب؛ ليس هذا بحين عتاب، فسله أن يجعلني كرجلٍ من أصحابي، فلو أسَرَتْك قريش لدافعتُ عنك، فقال مصعب: أنت صادق، ولست مثلك، إن الإسلام قد قطع العهود بيننا وبينكم»[٤].

وهكذا انتهت المعركة بالفوز المبين للمسلمين، وعاد موكب النصر

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٨٠.

(٢) طبقات ابن سعد: ٢/ق١/ ١١.

(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٠٢ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٦٠.

(٤) أنساب الأشراف: ١/ ١٤٣.

إلى المدينة يتقدمه رسول الله (ص) مظلَّلاً بلواء الحق المرفرف بيد مصعب، كما عاد موكب الحقد والهزيمة إلى مكة يلعق جراحه ويندب حظه.

❁ ❁ ❁

ولم تستطع وقعة بدر ـ برغم نتائجها المذهلة ـ أن تحسم الصراع بين الحق والباطل؛ لأنه سنّة الحياة.

وبدأ الشرك يجمع أشتاته ليعاود الكرَّة من جديد.

وتحمست قريش كل الحماس لهذه الجولة المرتقبة، أملاً في إدراك الثأر واستعادة الهيبة المحطمة، واستنفرت كل أعوانها وأنصارها وحلفائها وتابعيها داخل مكة وخارجها؛ لضمان الغلبة والانتصار على المسلمين.

وأقبل جمعهم يقطع البيداء حتى نزل على مشارف المدينة المنورة، وعبأ النبيّ (ص) أصحابه، وخرج بهم إلى مقابلة القوم. وأعطى الرايات من اختاره لها، فكان اللواء الأعظم لمصعب بن عمير أخي بني عبد الدار[١]، ولواء المهاجرين لعلي بن أبي طالب (ع)، ولواء الأوس لأُسَيْد بن الحضير، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر أو سعد بن عبادة[٢].

وبدأت الحرب.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٧٠ ونسب قريش: ٢٥٤ وطبقات ابن سعد: ٢/ ق١/ ٢٧ و٢٨ و٣/ ق١/ ٨٥ وأنساب الأشراف: ١/ ٥٥ و٣١٧ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٠٨ والاستيعاب: ٣/ ٤٥١ والتبيين: ٢١٣ وأسد الغابة: ٤/ ٣٦٩ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ٢٣٥.

(٢) طبقات ابن سعد: ٢/ ق١/ ٢٧.

وقاتل مصعب في هذا اليوم قتال الأبطال، وثبت باللواء ثبات الجبال، وكان من القلة التي صمدت مع رسول الله (ص)[١] عندما اشتد البأس ووقعت الواقعة. فكمن له ابن قميئة الليثي ـ وهو من فرسان المشركين ـ ينتظر اللحظة المناسبة، فلما واتته الفرصة أهوى على يد مصعب اليمنى بالسيف فقطعها، فصاح مصعب: (وما محمدٌ إلاّ رسولٌ قد خلت من قبله الرُّسُلُ) وأخذ اللواء باليسرى وحنا عليه، فضرب ابن قميئة اليسرى فقطعها، فحنا على اللواء وضمَّه بعضديه إلى صدره وهو يقول: (وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل)، ثم حمل عليه الليثي الثالثة بالرمح فأنفذه فيه، فوقع مصعب، وتناول عليٌّ (ع) اللواء من يده بأمر النبيّ (ص)[٢] حفاظاً على كرامة الجيش ورمز صموده.

ولفظ مصعب أنفاسه الأخيرة على صعيد الشهادة في أُحدٍ، فذهب إلى عالم الخلود الأبدي مضمَّخاً بأريج دمه المندّى الزكيّ، وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها لتنعم بروحه وريحانه؛ ورحمته ورضوانه، ورجعت نفسه المطمئنة إلى ربها راضية مرضية؛ تعيش في رحاب الجنان (مع الذين أَنْعَمَ الله عليهم من النِّبيين والصِّدِّيقين والشُّهداءِ والصّالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقا).

❀ ❀ ❀

وأثارت شهادة مصعب ورفاقه الأبطال في أُحد من الأصداء وردود الفعل لدى الطرفين المتحاربين، ما دل أصدق دلالة على سمو مقام هؤلاء القادة وجلالة أمرهم وضخامة دورهم الرائد في الزحف الإسلامي المقدس.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٨٧ وطبقات ابن سعد: ٨/ ٣٠٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٧٧ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٨٥ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥١٦ وشرح نهج البلاغة: ٤/ ٢٤٧ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٠٣.

فعلى صعيد الشرك وأتباعه كانت ردود الفعل تحكي اعتقادهم بأن شهادة هؤلاء الصناديد قد سددت ضربة قاصمة لمحمد ودينه، وأعادت لهم كرامتهم الملطخة بوحل الهزيمة والفشل، وأطفأت ـ من ثَمَّ ـ بعض سعار حقدهم وثأرهم لأشياخهم المجزَّرين في صحراء بدر، وفي ذلك يقول شيخهم أبو سفيان:

وسَلّى الذي قد كان في النفس أنَّني
قتلتُ من النجّار كلَّ نجيبِ
ومن هاشم قرماً كبيراً ومصعباً
وكان لدى الهيجاء غير هيوبِ
ولو أنني لم أشفِ نفسيَ منهم
لكانت شجاً في القلب ذات ندوبِ[1]

ويقول آخر منهم وهو ضرار بن الخطاب من جملة قصيدة له:

فياليت عمراً وأشياعه وعُتبة في جمعنا السَّوْرَجِ
فيشفوا النفوس بأوتارها بقتلى أصيبت من الخزرجِ

إلى أن يقول:

وحيث انثنى مصعب ثاوياً بضربة ذي هبَّةٍ سَلْجَجِ[2]

ويقول ضرار أيضاً في قصيدة أخرى:

فغودرتْ منهم قتلى مجدّلةً كالمعز أصردهُ بالصردح البَرَدُ
قتلى كرام بنو النجار وسطهم ومصعب من قنانا حوله قِصَدُ

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٨٠.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٤٧.

وحمزة القرم مصروع تطيف به   ثكلى وقد حُزَّ منه الأنف والكبدُ[(١)]

وعلى صعيد الإيمان وأنصاره كانت الأصداء تمثل عمق أسى المسلمين وبالغ حزنهم وألَمِهم على رفاقهم، وقد عبَّر النبيّ (ص) عن ذلك أبلغ تعبير؛ لمّا جاء بعد المعركة إلى حيث سقط مصعب بن عمير، فوقف عليه «وهو منجعفٌ على وجهه، فقرأ هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] إلى آخرها، ثم قال: «إنَّ رسول الله يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة».

ثم أقبل على الناس فقال:

«أيها الناس، زوروهم وأُتوهم وسلِّموا عليهم، فوالذي نفسي بيده لا يُسلِّم عليهم مُسَلِّمٌ إلى يوم القيامة إلاّ ردُّوا عليه السلام»[(٢)].

ثم قال مخاطباً مصعباً نفسَه وهو مُسجّى أمامه ملفوف في بردة:

«لقد رأيتُك بمكة وما بها أحدٌ أرقَّ حُلَّةً ولا أحسن لمة منك، ثُمَّ أنت شعث الرأس في بردة»[(٣)].

«ثم أمَرَ به فقُبِر»[(٤)].

⊛ ⊛ ⊛

وجاءت الأجيال الإسلامية بعد ذلك؛ فوقفت أمام هؤلاء الأفذاذ مزهوَّة مبهورة، تتصفح تاريخهم النضالي المشرق بفخر واعتزاز، وتروي

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٧٣.
(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٨٥ وحلية الأولياء: ١/ ١٠٨ وأسد الغابة: ٤/ ٣٧٠ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٤٠.
(٣) و(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٨٦ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٣٦ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٣٩.

الأحاديث النبويّة الشريفة فيهم باحترام وتقدير، فرأتْ استحباب زيارتهم؛ وإتيان مقابرهم؛ والسلام عليهم، تحقيقاً لرغبة رسول الله (ص) واستجابة لطلبه. وقد ذكر الفقيه الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان ألفاظاً خاصة بهذه الزيارة نثبتها فيما يأتي، لما فيها من مزيد تعريفٍ بهؤلاء الشهداء السعداء الأحياء عند الله، قال:

«تأتي قبور الشهداء بأُحد ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ فتزورهم فتقول:

السلام على رسول الله، السلام على نبيّ الله، السلام على محمد بن عبد الله، السلام على أهل بيته الطاهرين. السلام عليكم أيها الشهداء المؤمنون، السلام عليكم يا أهل بيت الإيمان والتوحيد، السلام عليكم يا أنصار دين الله وأنصار رسوله، سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار.

أشهدُ أن الله اختاركم لدينه، واصطفاكم لرسوله. وأشهد أنكم قد جاهدتم في الله حقَّ جهاده، وذببتم عن دين الله وعن نبيه، وجُدْتم بأنفسكم دونه. وأشهد أنكم قُتِلْتُم على منهاج رسول الله، فجزاكم الله عن نبيِّه وعن الإسلام وأهله أفضل الجزاء، وعَرَّفَنا وجوهَكم في محل رضوانه وموضع إكرامه، مع النبيين والصِّدِّيقين والشّهداء والصالحين؛ وحسن أولئك رفيقاً.

أشهد أنكم حزب الله، وأنَّ مَنْ حاربكم فقد حارب الله، وأنكم لَمِن المُقرَّبين الفائزين الذين هم أحياء عند ربهم يُرزَقون، فعلى مَنْ قتلكم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

أتيتُكم يا أهل التوحيد زائراً، وبحقكم عارفاً، وبزيارتكم إلى الله

متقرباً، وبما سبق لكم من شريف الأعمال ومرضيِّ الأفعال عالماً، فعليكم سلام الله ورحمته وبركاته.

اللهمّ انفعني بزيارتهم، وثَبِّتْني على قصدهم، وتوفَّني على ما توفَّيْتَهم عليه، واجمع بيني وبينهم في مستقرٌ دار رحمتك. أشهد أنكم لنا فرط، ونحن بكم لاحقون»(١).

(١) بحار الأنوار: ١٠٠/ ٢٢١ ـ ٢٢٢.

[٣]

سعد بن الربيع

سعد بن الربيع

هو: سعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير بن مالك بن امرىء القيس بن مالك الأغرِّ بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو مُزَيقِياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد[(١)].

وقبيلته: الخزرج أنصار رسول الله (ص)، من الذين آووا ونصروا وجاهدوا في الله حقَّ الجهاد، حتى جلجلت كلمة التوحيد قوية النداء والأصداء، ورفرفت رايات الإسلام ثابتة الدعائم والأركان.

وأمُّه: هُزَيلة بنت عُتْبة (عِنَبة) بن عمرو بن خديج بن عامر بن جشم بن الحارث بن الخزرج[(٢)]، ونسبها بعض المؤرخين: هزيلة بنت عمرو بن عتبة بن خديج...[(٣)]، وأُمُّها أُميمة بنت سحيم بن الأسود بن حرام من بني مالك بن النجار[(٤)]. وقد أسلمت هذه السيدة الجليلة وكانت ممَّن بايعن رسول الله (ص)[(٥)].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٠١ وطبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٧٧ و١٤١ والمحبر: ٢٦٩ و٢٧٧ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٣٠ والاستيعاب: ٢/ ٣١ وجمهرة أنساب العرب ٣٣٢ و٣٦٣ وأسد الغابة: ٢/ ٢٧٧ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٣٠ والإصابة: ٢/ ٢٤.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٧٧ و٧٨ و١٤١ و٨/ ٢٦١ و٢٦٤ والإصابة: ٤/ ٤٠٦.

(٣) المحبر: ٤٢١ وأسد الغابة: ٥/ ٥٥٨.

(٤) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٦٤.

(٥) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٦٤ والمحبر: ٤٢١ وأسد الغابة: ٥/ ٥٥٨ والإصابة: ٤/ ٤٠١ ـ ٤١٦.

أمّا أبوه الربيع فلم يصلنا من أخباره شيء، ويرجح في الظن أن تكون وفاته قبل إسلام الأنصار وبيعة العقبة، لأننا لم نجد له ذكراً في هذه المواقف، لا فيمن سبق إلى الإيمان ولا فيمن قعد به حظُّه وشوطه عن شرف السبق.

وُلد في المدينة المنوَّرة، ولكننا لم نعلم متى وُلِد، وليس لدينا من القرائن ما يعين على تحديد تاريخٍ تقريبيّ لسنة مولده، وإذا كانت الظروف الاجتماعية السائدة حينذاك قد تُشْعِر بكبر سنّه يوم انتخابه نقيباً في بيعة العقبة كما يأتي؛ فإنها ليست بالضرورة كذلك في كل الأحوال وبالنسبة لكل الرجال.

ونشأ سعد في مسقط رأسه يثرب بين أهله وبني قومه، وفي مجتمعٍ لم يتوفَّر له في تلك الحقبة من الزمن من وسائل ملء الفراغ وشغل الوقت؛ ومن سبل الرزق وتهيئة لقمة العيش؛ سوى العمل في حقول الزراعة والثروة الحيوانية عند الإقامة والاستقرار، وسوى احتضان الصحراء وركوب أهوالها إذا ما مُلَّت الإقامة وأُريد التخلص من أسلوب الحياة اليومية ومنهجها المعتاد الرتيب.

وتلقَّفت هذا الصبيَّ مجالاتُ العمل في مدينته تعلُّماً وتدريباً ومتابعة، وأعماق الصحارى في إقليمه رياضة وصيداً وفروسيَّة، فإذا به ـ بعد سنوات معدودات ـ ذلك الرجل الرائع الشباب، المكتمل الصفات، المتدفق حيوية وغضارة ونشاطاً، والمؤهَّل للغد مجداً وزعامةً وشأناً، والمتميز بين الأقران والأخدان بالخصال الفاضلة والأخلاق الكريمة.

وإذا كُنّا لا نعلم من تاريخ سعد قبل إسلامه ما يُشبع تطلُّع الباحث ويسدُّ فجوات البحث؛ فلم يصلنا من أخباره وآثاره ما يعرِّفنا بمواهبه الشخصية وملامحه الذاتية وسماته الخاصة، فإنَّ ما تسرَّب إلينا علمه بين

السطور والحواشي ـ على شكل خبرين صغيرين ـ قد يحمل من الدلالات والإمارات ما يوضح لنا ـ على الإجمال ـ بعضاً ممّا نبحث عنه ونودُّ الوقوف عليه.

الخبر الأول:

ذكر المؤرخون في أثناء ترجمة سعد: أنّه كان «يكتب في الجاهلية، وكانت الكتابة في العرب قليلة»[١].

وتلك ميزة كبرى قد لا نستطيع إدراك قيمتها وأداء حقِّها في التقويم والتقدير؛ إذ نقرأ خبرها اليوم؛ بعد انتشار التعليم وتناقص عدد الأميين، ولكنها كانت يومذاك على جانب عظيم من الشأن والجلالة ورفعة الدرجة، لقلة معرفة العرب عموماً بالكتابة، ولأنها أقلُّ من القليل وأندر من النادر في يثرب على وجه الخصوص.

ويكفينا دلالة على ذلك ما رواه السلف من أن النبيّ (ص) قد جعل فداء الأسرى المشركين الذين أسرهم المسلمون في بدر ولم يكن لديهم من المال ما يفدون به أنفسهم؛ أن يُعلِّم كلّ أسير يُحسن الكتاب عشرةً من غلمان الأنصار أهل المدينة بدل الفداء النقدي[٢]، وكان النبيّ (ص) يهدف من ذلك إلى زيادة عدد المتعلمين من أنصاره في هذه المرحلة؛ ليقوم هؤلاء بتعليم إخوانهم في مرحلة تالية.

فمعرفة سعدٍ بالكتابة في مثل ذلك المجتمع وفي مثل تلك الظروف إن دلَّت على معنى فإنما تدلُّ على إدراكٍ واعٍ لقيمة المعرفة والتعلُّم، وعلى شيء من الاستعداد الذهني للتلقي والاستيعاب، وعلى قدرٍ من

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/٧٧ والاستيعاب: ٢/ ٣١ وأسد الغابة: ٢/ ٢٧٧.

(٢) طبقات ابن سعد: ٢/ق١/ ١٤.

القدرة المالية ـ وإنْ يكن يسيراً ـ للوفاء بتكاليف ذلك. وتؤلف هذه الجوانب في مجملها مجموعة من الحقائق أو المؤشرات التي تمكّن الباحث من أن يستنبط منها الكثير ويفترض في ضوئها الكثير.

الخبر الثاني:

انتخاب سعدٍ (في السنة الأولى من إسلامه، وهي السنة الثانية عشرة من البعثة النبويّة) نقيباً من نقباء الأنصار الاثني عشر كما يأتي تفصيله. ولقد دلّنا هذا الاختيار على سموّ مقام سعدٍ في قومه ومجيئه في عداد الرعيل الأول من رجالهم البارزين ذوي الزعامة والرئاسة والشأن الرفيع؛ أمثال سعد بن عبادة وأسعد بن زرارة والبراء بن معرور، رضي الله عنهم أجمعين.

۞ ۞ ۞

تزوّج سعد بن الربيع وأعقب، ولم نقف على تاريخ ذلك، ولكنه لم يكن مبكّراً فيما يبدو، كما يُشعر بذلك عمر ابنته أو ابنتيه يوم استشهاده.

وزوجته: هي «عمرة بنت حزم بن زيد بن لوذان بن عمرو بن عبد بن عوف بن غنم بن مالك بن النّجار»[١]، «وهي أخت عمارة وعمرو ومعمر بني حزم لأبيهم وأمّهم... وأمُّهم جميعاً خالدة بنت أبي أنس بن سنان بن وهب بن لوذان من بني ساعدة»[٢]. وقد أسلمت عمرة وكانت من المبايعات لرسول الله (ص)[٣].

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٧٧ و٨/ ٣٢٨.

(٢) طبقات ابن سعد: ٨/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

(٣) طبقات ابن سعد: ٨/ ٣٢٩ والمحبر: ٤٣١ وأسد الغابة: ٥/ ٥٠٩ والإصابة: ٤/ ٣٥٥.

وجاء في بعض الروايات أنَّ لسعدٍ امرأتين[١]، لكننا لم نعرف منهما غير عمرة هذه. أمّا خلّادة بنت أنس بن سنان بن وهب بن لوذان بن عبد ودّ الساعدي، التي ذكرها ابن سعد في ترجمة أمِّ سعد ابنة سعد ابن الربيع ونصَّ على أنها أمُّها[٢]، فالظاهر أنه التباس بخالدة بنت أبي أنس أُمِّ عمرة زوج سعد ـ كما مرَّ آنفاً.

❀ ❀ ❀

أمّا عقبه فقد اختلفت فيه كلمات الرواة والمؤرخين؛ بعد إجماعهم على أنه لم يرزق ولداً ذكراً: فمنهم من ذهب إلى انحصار عقبة في بنت واحدة مع التصريح بأنه لم يكن له ولد غيرها[٣]؛ وأنها تُدعى «جميلة» وتكنى «أمَّ سعد»[٤]. ومنهم مَن روى أنَّ له ابنتين تسمَّى إحداهما «جميلة» والثانية «أمَّ سعد»[٥]، مع تأكيد بعضهم على أن أم سعد هي أخت أُمِّ خارجة بن زيد بن ثابت[٦]. ومنهم مَن روى أنَّ له ابنتين وكانت امرأته حاملاً بالثالثة يوم شهادته؛ وهي أم سعد زوج زيد بن ثابت[٧]. أما قولهم له «أبو الربيع» فلم يكن تكنية باسم أحد أولاده، وإنما هي محض كنيةٍ يكنى بها[٨].

---

(١) صحيح البخاري: ٥/ ٣٩ و٨٨ والمعجم الكبير: ٦/ ٣١ و٣٢ و٣٣ وأسد الغابة: ٢/ ٢٧٨ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٦١ و٢٣٠.

(٢) طبقات ابن سعد: ٨/ ٣٥٠.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٧٧ و٨/ ٢٦١.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٧٧ و٨/ ٢٦١ و٣٥٠ والإصابة: ٤/ ٤٣٧.

(٥) الاستيعاب: ٢/ ٣٢ وأسد الغابة: ٢/ ٢٧٨.

(٦) أسد الغابة: ٥/ ٥٨٦.

(٧) أنساب الأشراف: ١/ ٣٣٨.

(٨) أنساب الأشراف: ١/ ٢٤٤.

وأخرج ابن إسحاق بسنده إلى جابر بن عبد الله قال: «جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد إلى رسول الله (ص) فقالت: يا رسول الله؛ هاتان ابنتا سعد، قُتِل أبوهما يوم أحدٍ شهيداً، وإنَّ عَمَّهما أخذ مالهما فاستفاءه فلم يدع لهما مالاً. . . . فقال رسول الله (ص): يقضي الله في ذلك، فأنزل الله عليه آية الميراث»(١).

ولكن الخبر الذي أخرجه ابن حجر يقول: «إن عمرة بنت حزم كانت تحت سعد بن الربيع، فقُتِل عنها بأحد، وكان له منها ابنة، فأتت النبيَّ (ص) تطلب ميراث ابنتها، ففيها نزلتْ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ١٢٧] الآية»(٢).

وفي رواية ابن هشام: «إن رجلاً دخل على أبي بكر الصدِّيق، وبنت لسعد بن الربيع جارية صغيرة على صدره يرشفها ويقبِّلها، فقال له الرجل: مَنْ هذه؟ قال: هذه بنت رجلٍ خيرٍ مني؛ سعد بن الربيع»(٣).

وفي رواية أخرى أخرجها الطبراني: «إن أمَّ سعدٍ بنت سعد بن الربيع دخلتْ على أبي بكر فألقى لها ثوبه حتى جلستْ عليه، فدخل عليه عمر فسأله عنها، فقال: هذه ابنة مَنْ هو خير مني ومنك»(٤).

ومهما يكن من أمر؛ فالمظنون ـ والعلم عند الله ـ أنها بنت واحدة لا بنتان، وأن الالتباس قد نشأ من كونها تسمى «جميلة» تارة وتدعى أمَّ سعدٍ تارة أخرى، ويؤيِّد ذلك ما نصَّ عليه بعضهم من أن أم سعدٍ هي أمُّ

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/٧٨ وسير أعلام النبلاء: ١/٢٣١.
(٢) الإصابة: ٢/٢٥.
(٣) سيرة ابن هشام: ٣/١٠١.
(٤) المعجم الكبير: ٦/ ٣٠ ـ ٣١ والإصابة: ٢/ ٢٥.
(٥) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٧٧ و٨/ ٢٦١.

خارجة نفسها[١]، وسعد ـ كما ذكر النسابون ـ أخو خارجة، وكانت جميلة قد «تزوجها زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن لوذان بن عمرو بن عبد بن عوف بن غنم بن مالك بن النجار، فولدتْ سعداً وخارجة ويحيى وإسماعيل وسليمان وأم عثمان وأم زيد»[٢].

ولمّا استشهد سعد بن الربيع بأُحد كانت جميلة حاملاً، «فولدتْها أمها بعد قتل سعد بأشهر»[٣]، وكانت يوم الخندق ابنة سنتين[٤].

وعلى الرغم من صغر سنِّها في عصر النبوّة فقد عدَّها المؤرخون في جملة الصحابيات والمبايِعات؛ وذكروا أنها روتْ عن النبيّ (ص)[٥].

(١) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٦١ و٣٥٠.

(٢) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٦١ و٣٥٠ والإصابة: ٤/ ٢٥٥.

(٣) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٦١.

(٤) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٦١ والمحبر: ٤٢١ والاستيعاب: ٤/٢٥٧ وأسد الغابة: ٥/٤١٨ والإصابة: ٤/٢٥٥.

وبعث الله تعالى محمداً (ص) برسالة الإسلام بشيراً ونذيراً ورحمة للعالمين، لينقذ الناس من الضلال، ويطهرهم من أدران الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم صراط الحق المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

وبذل النبيّ (ص) كل طاقته ووسعه؛ وقصارى جدِّه وجهده، في سبيل تبليغ الرسالة وأداء الأمانة، وإسماع الناس كلام الله المجيد ودستوره الحكيم وشريعته السمحة الغراء، وتحمل في هذه السبيل من ضروب الأذى والشرور؛ وألوان العذاب والبلاء، ما تعجز عن حمله الجبال؛ وتنوء بمثله الصمُّ الصلاب.

وكان من التزام رسول الله (ص) ـ وبخاصة بعد وفاة عمه وناصره أبي طالب رضي الله عنه ـ أن يحضر المواسم التي تجتمع فيها العرب بمكة، فيتصل بالقبائل «يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنَّهُ نبيّ مُرسَل، ويسألهم أن يصدّقوه ويمنعوه؛ حتى يبيِّن لهم ما بعثه الله به»[1]، بل كان «لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب؛ له اسم وشرف؛ إلاّ تصدّى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده»[2].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٦٤.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٦٧.

«فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه وإعزاز نبيّه (ص)؛ وإنجاز موعده له، خرج رسول الله (ص)... فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم.

«فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج... فقال لهم: مَنْ أنتم؟.

قالوا: نَفَرٌ من الخزرج..

قال: أفلا تجلسون أُكلِّمكم؟.

قالوا: بلى.

فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن».

«وكان ممّا صنع الله لهم في الإسلام أنَّ يهود كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتابٍ وعلم، وكانوا هم أهلَ شركٍ وأصحاب أوثان، وكانوا قد غَزَوْهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيءٌ قالوا لهم: إنَّ نبيّاً مبعوثٌ الآن؛ قد أظلَّ زمانُه، نتَّبعه...».

«فلما كلَّم رسول الله (ص) أولئك النفر ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلموا والله إنه لَلْنَبيُّ الذي توعدكم به يهود...»[١].

«فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدَّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومَنا، ولا قومَ بينهم من العداوة والشرِّ ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنُقدم عليهم فندعوهم إلى

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٠.

أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدِّين، فإنْ يجمعهم الله عليه فلا رجلٌ أعزّ منك.

«ثم انصرفوا عن رسول الله (ص) راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدَّقوا»[١].

«حتى إذا كان العام المقبل، وافى الموسَم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوه بالعقبة ـ وهي العقبة الأُولى ـ فبايعوا رسول الله (ص)»[٢].

وكان من جملة هؤلاء الاثني عشر حُضّار هذه العقبة والبيعة: سعد بن الربيع[٣].

وعلى الرغم من جهلنا بتاريخ إسلامه على وجه الضبط والدقة؛ فإننا نحتمل أن يكون سعدٌ أحد حُضّار الاجتماع التمهيدي السالف الذكر، وأن يكون إسلامه قد تمَّ يومذاك، ثم تابعه فيه أهل بيته فأقروا بالإسلام إذ دعاهم إليه بعد عودته من مكة.

وفي العام التالي «خرج مَنْ خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم... حتى قدموا مكة، فواعدوا رسول الله (ص) العقبة، من أوسط أيّام التشريق، حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته والنصر لنبيِّه، وإعزاز الإسلام وأهله؛ وإذلال الشرك وأهله»[٤].

ويحدِّث كعب بن مالك وكان أحد هؤلاء الأنصار القادمين إلى مكة فيقول:

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧١.
(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٣.
(٣) الاستيعاب: ٢/ ٣١ وأسد الغابة: ٢/ ٢٧٧.
(٤) سيرة ابن هشام: ٢/ ٨١.

«فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلةُ التي واعدنا رسول الله (ص) لها... فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلثُ الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله (ص)، نتسلَّل تسلُّل القطا مُسْتَخْفين، حتى اجتمعنا في الشِّعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نُسَيْبة بنت كعب؛ أم عمارة؛ إحدى نساء بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عديّ بن نابي، إحدى نساء بني سلمة؛ وهي أمُّ منيع».

«فاجتمعنا في الشِّعب ننتظر رسول الله (ص) حتى جاءنا... فتكلَّم رسول الله (ص) فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغَّب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم».

«فأخذ البَراء بن مَعْرور بيده ثم قال: نعم؛ والذي بعثك بالحق نبيّاً، لنمنعنَّك مما نمنع منه أزُرَنا (أي نساءنا)، فبايِعْنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة (يعني السلاح)، ورثناها كابراً عن كابر».

«فاعترض القولَ ـ والبَراءُ يكلِّم رسولَ الله (ص) ـ أبو الهيثم بن التيّهان فقال: يا رسول الله؛ إنَّ بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيتَ إنْ نحن فَعَلْنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتَدَعَنا؟.

«فتبسَّم رسول الله (ص) ثم قال: بل الدم الدم؛ والهَدْم الهَدْم، أنا منكم وأنتم منّي، أحارب مَنْ حاربتم وأسالم من سالمتم»[1].

ثم طلب رسولُ الله (ص) من الحاضرين أن يختاروا منهم اثني

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٨٣ ـ ٨٥ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٦١ ـ ٣٦٣.

عشر نقيباً «ليكونوا عل قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس»[١].

وكان من جملة مَن حضر هذا الاجتماع وهذه البيعة وأصبح أحد النقباء المختارين: سعد بن الربيع[٢].

وهكذا سطع اسم سعد بين الأسماء الرائدة المخلَّدة في التاريخ؛ نير القسمات مشرق الأسارير فواح الشذا مضمَّخ الأردان، وذلك بفضل ما دلَّ عليه هذا الاختيار من اعتراف بني قومه بما لَهُ من كفاية ودراية ونفوذ وشأن؛ وتقديمهم إياه إلى الصف الأول من الزعماء والقادة في العهد الإسلامي الجديد.

❀ ❀ ❀

ثم أذن الله تعالى لنبيِّه في العام الثالث عشر من البعثة الشريفة؛ بمقارعة الأعداء وانتهاء عهد المسالمة واللِّين، بل أجاز له إعلان الحرب عليهم إذا اقتضت الضرورة وفرض الموقف ذلك، ولم يعد من مسوِّغ لتحمل الأذى والصبر على المكاره بعد أن زاد عدد المسلمين وأصبحت يثرب مُهيأةً لأن تكون مركزاً حصيناً للتجمع والإعداد؛ وقاعدة صلبة للثورة والانطلاق؛ ومقراً كريماً لنشر الإسلام وإعلان كلمته المدوية، فـ «أمر رسول الله (ص) أصحابه من قومه ومَنْ معه بمكة من المسلمين، بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار...

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٨٥ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٦٣.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٨٦ وطبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٧٧ و١٤١ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٤٤ و٢٥٢ والمعجم الكبير: ٦/ ٢٩ و٣٠ والاستيعاب: ٢/ ٣١ وأسد الغابة: ٢/ ٢٧٧ والإصابة: ٢/ ٢٤ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٣٠ ونهاية الأرب: ١٦/ ٣٢٠.

وأقام رسول الله (ص) بمكة ينتظر أن يأذن له ربُّه في الخروج... والهجرة»[١].

وتوافد المسلمون على المدينة يقفو بعضهم أثر بعض، وفتح زعماء الأنصار بيوتهم ودورهم لاستقبال ضيوفهم وإخوانهم، فنزل كل فرد أو مجموعة من هؤلاء المهاجرين عل واحدٍ من أولئك الزعماء، «ونزل عبد الرحمن بن عوف في رجال من المهاجرين على سعد بن الربيع أخي بلحارث بن الخزرج»[٢].

ثم قدم النبيّ (ص) المدينة مهاجراً إليها، وكان في الطليعة من مهماته العجلى تشييد المسجد الأعظم فيها، فتبارى الرؤساء في تقديم المكان المناسب لهذا المسجد المبارك، كلٌّ يريد بناء المسجد في حَيِّه؛ ويعلن الاستعداد لتهيئة ما يحتاج ذلك الصرح من عدَّة وعدد ومال، وكان منهم سعد بن الربيع[٣].

ولما أمر النبيّ (ص) بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار تدعيماً للوحدة وتعميقاً للروابط، آخى بين سعد بن الربيع وضيفه عبد الرحمن بن عوف[٤].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١١١.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٢٢.

(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٤٠.

(٤) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٥١ وصحيح البخاري: ٩/ ٨٨ وطبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٧٧ والمحبر: ٧٢ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٧١.

وسارت الأمور في المدينة المنوَّرة على أفضل ما يرام، واستطاع المجتمع الجديد ـ مجتمع المهاجرين والأنصار ـ أن يكون في مستوى التطلّعات المطلوبة والآمال المنشودة، ترابطاً وتضامناً؛ وحماساً وإخلاصاً؛ واستعداداً عالياً للبذل والفداء.

وبعد أن تحقق الاطمئنان على صلابة هذه القاعدة وتماسكها الرصين الثابت، بدأت حروب الإسلام مع الأعداء، لترسيخ دعائم الدعوة، والدفاع عن الكرامة، والمطالبة بالحقوق المشروعة.

وكانت «غزوة بدر» أُولى تلك المعارك الرئيسة البارزة في تاريخ صراع الإسلام مع الشرك والوثنية.

وشارك فيها من المسلمين ثلاثمائة ونيِّف؛ بإمكاناتهم المادية الضئيلة وعُدَدهم البدائية القليلة، قبالة ما يقرب من ألفٍ من المشركين المدجَّجين بكل وسائل الحرب المعروفة يومذاك وأسلحتها الماضية وأُهبتها الضخمة.

وتهيَّأ الطرفان للمعركة ـ وكانا قد نزلا عند آبار بدر ـ ثم وقعت الواقعة وحمي الوطيس يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان، فنصر الله رسوله النصر العظيم، وآتاه الفوز الكبير، وانهزمت قريش تتعثر بأذيال الخزي والعار، بعد أن قُتِل من رجالها سبعون؛ وأُسِر منهم سبعون آخرون.

وكان لصاحبنا سعد بن الربيع في ذلك اليوم دور بارز ومقام مشهود، فقد قاتل قتال الشجعان، وصمد صمود الأبطال، وصال صولة الأُسد الضارية. وكان من جملة قتلاه من جيش الشرك في هذه المعركة الضروس: رفاعة بن أبي رفاعة بن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم[(١)].

❀ ❀ ❀

وفي العام التالي لبدر كانت المعركة الكبرى الثانية بين الإيمان والكفر في أُحد.

وقد استنفر الشرك فيها كلَّ أفخاذ قريش وأحلافها ومنَ يرتبط بها من قبائل كنانة وأهل تهامة، لأخذ الثأر من محمد؛ واستعادة الهيبة الممزَّقة والكرامة الممرَّغة بوحل الهزيمة.

وكانت أخبار الإعداد المكّي للحملة تتوالى على النبيّ (ص) أولاً فأولاً، كي لا يُفاجأ في الأمر ولا يؤخذ على حين غرَّة، حتى جاءه الخبر بتحرك الموكب بكل ما يضم من عدَّة وعديد باتجاه المدينة، فبدأ النبيّ (ص) في دراسة الموقف في كل احتمالاته، ليعدَّ له ما يستطيع من أهبة وقوة، وليتخذ للطوارىء المستجدة قراراتها المناسبة، ولم يجد بين أصحابه من الأنصار ـ وهم عماد جيشه وعمود عاصمته ـ مَنْ يخبره بذلك ويشركه في البحث والتخطيط والإعداد ويطلب منه كتمان ذلك سوى سعد بن الربيع[(٢)].

(١) يراجع في حضور سعد ومشاركته في بدر: سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٤٨ و٣٦٩ وطبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٧٧ و١٤١ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٤٤ و٢٩٩ والاستيعاب: ٢/ ٣١ وأسد الغابة: ٢/ ٢٧٧ ونهاية الأرب: ١٧/ ٣٨ و٤٩.

(٢) طبقات ابن سعد: ٢/ق١/ ٢٥ وأنساب الأشراف: ١/ ٣١٤ ونهاية الأرب: ١٧/ ٨١.

ثم شاع بعد ذلك خبر توجُّههم وقدومهم، فتهيَّأ النبيّ (ص) لذلك، وخرج إلى حيث نزل أعداء الله على مشارف المدينة في أحد، وعبَّأ أصحابه للقتال وكانوا سبعمائة، قبالة ثلاثة آلاف رجل فيهم سبعمائة دارع.

وكانت المعركة ضارية طاحنة، تبادل فيها الطرفان الكرَّ والفرَّ، واستبسل فيها المسلمون بما لم يعرف تاريخ الحروب له نظيراً من قبل، واستُشهد عدد من القادة المؤمنين الميامين؛ بعد أن قاموا بواجبهم خير قيام، ووفوا بعهودهم أصدق وفاء، ووهبوا لله تعالى غاية جهدهم وزكيَّ دمائهم وكريم أعمارهم، وكان في طليعة هؤلاء: حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وحنظلة بن أبي عامر وصاحبنا سعد بن الربيع(١).

ولمّا انتهت المعركة وانصرف المشركون من أرضها قاصدين مكة، «قال رسول الله (ص):

مَنْ رجلٌ ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع أفي الأحياء هو أم في الأموات؟»، «فإني رأيتُ الأسنَّة قد أُشرعتْ إليه»، وفي نص آخر: «فإني رأيتُه ـ وأشار بيده إلى ناحية من الوادي ـ قد شُرع فيه اثنا عشر سناناً».

«فقال رجل من الأنصار: أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد.

«فنظر، فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق»، فقال له: «إن رسول الله (ص) أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات»، وفي نص آخر على لسان الأنصاري قال: «فأنا وسط القتلى لتعرُّفهم، إذ مررتُ به صريعاً في الوادي، فناديتُه، فلم يجب. ثم قلتُ: إن رسول

(١) يراجع في حضور سعد أحداً وشهادته فيها: سيرة ابن هشام: ٣/ ١٣٢ وطبقات ابن سعد ٣/ ق٢/ ٧٧ و١٤١ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٤٤ والاستيعاب: ٢/ ٣١ وأسد الغابة: ٢/ ٢٧٧.

الله (ص) أرسلني إليك، قال: فتنفَّس كما يتنفَّس الطير قال: وإن رسول الله (ص) لَحَيٌّ!، قلتُ: نعم؛ وقد أخبرنا أنه شُرع لك اثنا عشر سناناً».

فقال سعد بن الربيع: «أنا في الأموات، أبلغ رسولَ الله (ص) عني السلامَ وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنّا خير ما جزى نبياً عن أمَّته».

ثم أضاف سعد قائلاً: «أبلغ قومَك الأنصار السلام وقل لهم: الله الله وما عاهدتم عليه رسول الله (ص) ليلة العقبة. والله ما لكم عذر عند الله إنْ خُلِص إلى نبيّكم ومنكم عين تطرف».

قال الأنصاري: «فلم أرِمْ (أي لم أبرح) من عنده حتى مات»[1]، وكانت به ـ كما حدَّث زيد بن ثابت ـ: «سبعون ضربة»[2]، وفي رواية البلاذري: «اثنتا عشرة جراحة»؛ وأنّه «اشترك في قتله جماعة»[3].

ثم نُقِل إلى مقابر الشهداء في أُحد فدفن هناك رضي الله عنه.

وتألَّم رسول الله (ص) لشهادة سعدٍ ورفاقه الأبطال أشدَّ الألم، فجاء إلى مدافنهم ووقف عليها وقفة الواله الحزين، ثم أقبل على الناس فقال:

«أيها الناس؛ زوروهم وأْتوهم وسلِّموا عليهم، فوالذي نفسي بيده لا يسلِّم عليهم مُسَلِّم إلى يوم القيامة إلاّ رَدّوا عليه السلام»[4].

---

(١) يراجع في النصوص المذكورة: سيرة ابن هشام: ٣/ ١٠٠ ـ ١٠١ وطبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٧٧ ـ ٧٨ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٢٨ والاستيعاب: ٢/ ٣١ ـ ٣٢ وأسد الغابة: ٢/ ٢٧٧ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٣٦ ـ ٣٧ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٣٠ ـ ٢٣١ والإصابة: ٢/ ٢٥.

(٢) تاريخ الإسلام: ١/ ٢٠٢ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٣١.

(٣) أنساب الأشراف: ١/ ٣٢٦ و٣٢٧ و٣٣٠.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ٨٥ وأسد الغابة: ٤/ ٣٧٠ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٤٠.

ولم يكتف النبيّ (ص) بقوله هذا تكريماً لهؤلاء الشهداء العظماء، فخصَّ سعداً ـ بالذات ـ بوسامٍ كريم، من تلك الأوسمة السماوية الرفيعة، التي تخلد في الأرض خلود الإسلام، وتبقى على مرِّ العصور بقاء الشمس، فقال (ص) فيه ما لفظه:

«رحمه الله، نصح لله ولرسوله حيّاً وميتاً.

ثم استقبل القبلة رافعاً يديه يقول:

«اللهّم الْقَ سعدَ بن الربيع وأنت عنه راضٍ»[1].

❀ ❀ ❀

ونسل المسلمون بعد ذلك جيلاً بعد جيل، فقرأوا وسمعوا رغبة الرسول (ص) في زيارة أولئك الشهداء وإتيان مقابرهم والسلام عليهم، فبادروا إلى تحقيق ذلك كلما زاروا المدينة المنوَّرة وأسعدهم الحظ بالتشرف برحابها الطاهرة، وقد أورد بعض الفقهاء ألفاظاً خاصة يستحب زيارتهم بها وقراءتها عند قبورهم، ومنها هذه الفقرات:

«السلام عليكم أيها الشهداء المؤمنون، السلام عليكم يا أهل بيت الإيمان والتوحيد، السلام عليكم يا أنصار دين الله وأنصار رسوله، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار.

أشهد أنَّ الله اختاركم لدينه، واصطفاكم لرسوله. وأشهد أنكم قد جاهدتم في الله حقَّ جهاده، وذببتم عن دين الله وعن نبيِّه، وجُدتُم بأنفسكم دونه. وأشهد أنكم قُتِلتم على منهاج رسول الله، فجزاكم الله عن نبيِّه وعن الإسلام وأهله أفضل الجزاء، وعَرّفنا وجوهكم في محل

(١) الاستيعاب: ٢/ ٣٢ وأسد الغابة: ٢/ ٢٧٧ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ٢٧٧ و١٥/ ٣٧.

رضوانه وموضع إكرامه، مع النبيِّين والصدِّيقين والشّهداء والصالحين؛ وحسن أولئك رفيقاً.

أتيتُكم يا أهل التوحيد زائراً، وبحقكم عارفاً، وبزيارتكم إلى الله متقرباً، وبما سبق لكم من شريف الأعمال ومرضيِّ الأفعال عالماً، فعليكم سلام الله ورحمته وبركاته.

اللهمَّ انفعني بزيارتهم، وثَبِّتْني على قصدهم، وتوفَّني على ما توفَّيْتَهم عليه، واجمع بيني وبينهم في مستقر دار رحمتك، أشهد أنكم لنا فرط، ونحن بكم لاحقون»[١].

---

(١) بحار الأنوار: ١٠٠/ ٢٢١ ـ ٢٢٢، وقد مر نص الزيارة بتمامها في «مصعب بن عمير» ص: ٨٨ ـ ٨٩.

مِنَ المؤمنين رجال

[٤]

سَعْدُ بْنُ مُعَاذ

سَعْدُ بْنُ مُعَاذ

اسمه وقبيلته

هو: سعد بن معاذ بن النعمان بن امرىء القيس بن زيد بن عبد الأشهل بن جُشَم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو مُزَيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد[١].

وقبيلته: الأوس أنصار رسول الله (ص)، ممن آووا ونصروا؛ وبذلوا الغالي والنفيس دماً ومالاً، قرباناً لراية القرآن؛ وفداءً للإسلام والمسلمين؛ وإعلاءً لكلمة الله في الأرض.

وكان بنو عبد الأشهل ـ قربى سعدٍ الأقربون ـ في الطليعة من المبادرين إلى الإسلام لما بلغتهم دعوته وقرع أسماعَهم نداؤه السماويُّ الأخّاذ، فقد روى الرواة أنَّ سعد بن معاذ لما أسلم «وقف على قومه فقال: يا بني عبد الأشهل؛ كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا فضلاً وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلامكم عليَّ حرام ـ رجالكم ونسائكم ـ حتى تؤمنوا بالله ورسوله. فوالله ما بقي من دار بني عبد الأشهل رجل أو امرأة إلاّ وأسلموا»، فكان سعد «من أعظم الناس بركةً في الإسلام»[٢]،

---

(١) المحبر: ٢٧٦ وجمهرة أنساب العرب: ٣٣٩ والمعجم الكبير: ٦/٥ والاستيعاب: ٢/٢٦ وأسد الغابة: ٢/٢٩٦ والإصابة: ٢/٣٥.

(٢) أسد الغابة: ٢/٢٩٦ وسير أعلام النبلاء: ١/٢٠٣ والإصابة: ٢/٣٥.

و«كانت دار بني عبد الأشهل أول دارٍ من الأنصار أسلموا جميعاً رجالهم ونساؤهم»(١)، وربما كان ذلك هو السبب في أن الخليفة عمر بن الخطاب لما بدأ بـ «تدوين الديوان . . . بدأ ببني هاشم. . . . حتى انتهى إلى الأنصار. . . . فبدأ برهط سعد بن معاذ الأشهلي؛ ثم الأقرب فالأقرب بسعد بن معاذ»(٢).

وقد عرفنا من هؤلاء الأقربين من المسلمين الصادقين والمستشهدين الخالدين:

١ ـ إياس بن معاذ، أخا سعد، وكان من سباقي أهل المدينة إلى الإسلام إن لم يكن أسبقهم جميعاً، وروى الرواة في خبر إسلامه: أنَّ أبا الحيسر أنس بن رافع قدم مكة «ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، فسمع بهم رسول الله (ص) فأتاهم، فجلس إليهم فقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم به؟ فقالوا له: وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله، بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل عَليَّ الكتاب. ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ ـ وكان غلاماً حَدَثاً ـ: أي قوم؛ هذا والله خير مما جئتم له. فأخذ أبو الحَيْسَر أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء فضرب بها وجهَ إياس بن معاذ وقال: دعنا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا. فصمت إياس، وقام رسول الله (ص) عنهم».

«ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك، قال محمود بن لبيد (وهو راوي الخبر): فأخبرني من حضره من قومه عند موته أنهم لم يزالوا

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ق٢/ ٢.
(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ٢١٣.

يسمعونه يهلل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبِّحه؛ حتى مات، فما كانوا يشكُّون أن قد مات مسلماً»[١].

٢ ـ عمرو بن معاذ، أخا سعدٍ، وقد شهد بدراً وأُحُداً، واستشهد يوم أُحد، وكان له من العمر اثنتان وثلاثون سنة[٢].

٣ ـ الحارث بن أوس بن معاذ، ابن أخي سعد، وقد شهد بدراً وأُحداً، وقتل يومئذ شهيداً، وله من العمر ثمان وعشرون سنة[٣].

٤ ـ الحارث بن أنس بن رافع بن امرىء القيس، من أبناء عمومة سعد، بدريٌّ؛ استشهد بأحد[٤].

٥ ـ زياد بن السكن بن رافع بن امرىء القيس، من أبناء عمومته أيضاً، من شهداء أُحد[٥].

٦ ـ عمار بن زياد بن السكن المتقدم الذكر، من شهداء بدر[٦].

وعدداً آخر غير قليل منهم ذكرهم ابن إسحاق وابن سعد وغيرهما في جرائد أسماء الشهداء في العهد النبويّ.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٦٩ ـ ٧٠ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٢٩ وطبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ١٣ ـ ١٤ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٢٨ وجمهرة أنساب العرب: ٣٣٩.

(٣) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٢٩ وطبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ١٤ وجمهرة أنساب العرب: ٣٣٩.

(٤) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٢٩ وجمهرة أنساب العرب: ٣٣٩.

(٥) جمهرة أنساب العرب: ٣٣٩.

(٦) جمهرة أنساب العرب: ٣٣٩، وسماه في سيرة ابن هشام: ٣/ ١٢٩ «عمارة بن زياد بن السكن» وعده في شهداء أُحد.

وأُمُّه:

كبشة بنت رافع بن معاوية بن عبيد بن الأبجر ـ وهو خدرة ـ بن عوف بن الحارث بن الخزرج[١]. وأمها أمُّ الربيع بنت مالك بن عامر بن فهيرة بن بياضة[٢].

تزوَّج كبشة معاذُ بن النعمان، فولدتْ له سعداً وعمراً وإياساً وأوساً وعقرباً وأمَّ حزام بني معاذ بن النعمان[٣].

وبادرت ـ رضي الله عنها ـ إلى الإسلام، فكانت أول من بايع النبيّ (ص) من النساء[٤]، وكانت لها صحبة[٥].

وتوفيت بعد شهادة ابنها سعد[٦] بزمنٍ لم يعينه الرواة؛ وإن لم يكن طويلاً في أكثر الظن.

وكان النبيُّ (ص) يجلُّها ويحترمها، وقد خصَّها بالتعزية في شهادة ابنها عمرو في أُحد[٧]. ولما توفي ولدها سعد وقامت تندبه قال لها عمر بن الخطاب: «مهلاً يا أمَّ سعد لا تذكري سعداً»[٨] أو «انظري ما تقولين يا أُمَّ سعد»[٩]، فقال النبي (ص): «مهلاً يا عمر؛ فكلُّ باكيةٍ

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٦٤ وطبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٢ و١٣.

(٢) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٦٩.

(٣) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٦٩ والاستيعاب: ٤/ ٣٨٣ وأسد الغابة: ٥/ ٥٣٧ والإصابة: ٤/ ٣٨٢.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٢ و٨/ ٦ والمحبر: ٤٢٢ والاستيعاب: ٤/ ٣٨٣ وأسد الغابة: ٥/ ٥٣٧ والإصابة: ٤/ ٣٨٢.

(٥) الاستيعاب: ٢/ ٢٦ وأسد الغابة: ٢/ ٢٩٦ والإصابة: ٢/ ٣٥.

(٦) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٦٩ والاستيعاب: ٤/ ٣٨٣ وأسد الغابة: ٥/ ٥٣٧ والإصابة: ٤/ ٣٨٢.

(٧) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ٤١.

(٨) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٨.

(٩) الاستيعاب: ٤/ ٣٨٣.

مُكذَّبةٌ إلا أُم سعد»[١] أو: «دعها يا عمر؛ كلُّ باكيةٍ مكثرةٌ إلا أم سعد»[٢] أو: «كل نادبةٍ تكذب إلا نادبة سعد»[٣] أو «كل نائحةٍ تكذب إلا نائحة سعد»[٤].

ولما علم النبيّ (ص) بطول وجدها واستمرار بكائها على ولدها سعد رق لحالها فقال لها مسلّياً: «ألا يرقأ دمعُكِ ويذهب حزنكِ!»، ثم بشرها بعلو مقام ابنها في الآخرة ورفعة درجته[٥].

❀ ❀ ❀

ولد سعدٌ في المدينة المنورة في سنةٍ لم يحددها المؤرخون، ولكن النص على أنّه كان يوم شهادته «ابن سبع وثلاثين سنة»[٦] يفيدنا أنّه وُلد قبل البعثة النبويّة بـ (١٩) عاماً.

ونشأ في يثرب كما ينشأ لداته وأقرانه، لهواً ولعباً؛ وحركة ودأباً، وأتيح له ـ منذ نعومة أظفاره ـ أن يحضر نوادي قومه ومجتمعاتهم الحافلة حيث السمر البريء والقصص المثير؛ وحيث تطرح المشاكل وتبحث الحلول وتُقَرَّر المواقف، ثم كان للصحراء نصيبها الوافر وسهمها الكبير في تربية سعدٍ؛ حيث أتقن في أحضانها فنون الفروسية وألوانها، وأساليب الحرب في مختلف ظروفها وميادينها.

وهكذا تهيأ لهذا الفتى من مجموع هذه (المجالات) أو (المدارس) التعليمية ما أعانه على تنمية مواهبه وإنضاج فكره وشدِّ ساعِدَيه وسداد

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/٨.
(٢) الاستيعاب: ٤/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤.
(٣) أسد الغابة: ٢/ ٢٩٨ و٥/ ٥٣٧ والإصابة: ٢/ ٣٥ و٤/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣.
(٤) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٦٤.
(٥) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ١٢ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢١٣.
(٦) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ١١ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢١٥.

أصغَرَيه. ثم زاده كمالاً وتوهجاً تلك الصفات الجسدية البارزة التي تميَّز بها فلفتت الأنظار إليه، فقد كان ـ كما وصفه معاصروه ـ: رجلاً جسيماً؛ جزلاً؛ أبيض؛ جميلاً؛ أعين؛ طوالاً؛ حسن الوجه، وكان من طوله يركب الفرس الجُسَام فتخط إبهاماه في الأرض[١].

وبهذا كله أصبح سعد ذلك الشاب اللامع المتميز؛ جمالاً ووسامة، وعقلاً وحصافة، وشجاعة وإقداماً.

❀ ❀ ❀

وتزوَّج سعد ـ وتلك سُنَّة الحياة ـ: هندَ بنت سماك بن عتيك بن امرىء القيس بن زيد بن عبد الأشهل[٢]، وهندٌ ـ هذه ـ هي بنت جندب بن رفاعة بن زَنْبَر بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف؛ من الأوس[٣].

وكانت هند في الطليعة من المسلمات الصحابيات المبايعات لرسول الله (ص)[٤].

ورزق سعدٌ من الذرية:

١ ـ عمرو بن سعد[٥]، وبه كان يكنى أبوه[٦]، وتزوج عمرو هذا

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٥٠ وطبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٤ و٩ و١١ والمحبّر: ٢٣٣ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٨٧ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢١٥.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٢ و٨/ ٢٣١ وأسد الغابة: ٥/ ٥٦١ والإصابة: ٤/ ٤٠٩.

(٣) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٣١.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٢ و٨/ ٢٣١ وأسد الغابة: ٥/ ٥٦١ والإصابة: ٤/ ٤٠٩.

(٥) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٢ و٨/ ٢٣١ وجمهرة أنساب العرب: ٣٣٩ وأسد الغابة: ٥/ ٥٦١ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢١٦ والإصابة: ٤/ ٤٠٩.

(٦) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٢ والمعجم الكبير: ٦/ ٥ والاستيعاب: ٢/ ٢٦ والإصابة: ٢/ ٣٥.

هند بنت محمود بن مسلمة بن سلمة بن خالد بن عدي بن مجدعة بن حارثة، وكانت من المسلمات اللواتي بايعن رسول الله (ص)[١]، كما تزوج امرأتين أخريين. ورزق من الأولاد تسعة[٢]، منهم عبد الله بن عمرو الذي استشهد يوم الحرة[٣].

٢ ـ عبد الله بن سعد[٤]، وقد تزوج عبد الله هذا خليدةَ بنت الحباب بن جزء بن عمرو بن عامر بن عبد رزاح بن ظفر، وهي من المسلمات المبايعات لرسول الله (ص)[٥].

٣ ـ عبد الرحمن. وقد تفرد بذكره ابن حزم[٦]، ولعله عنى به عبد الله السالف الذكر، إن لم يكن في الاسم تصحيفُ ناسخٍ أو غلط طابع.

---

(١) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٤٣ وأسد الغابة: ٥/ ٥٦٣ والإصابة: ٤/ ٤١٠.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ق٢/ ٢ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢١٦.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ق٢/ ٢.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ ق٢/ ٢ و٨/ ٢٣١ و٢٥٠ وأسد الغابة: ٥/ ٥٦١ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢١٦ والإصابة: ٤/ ٤٠٩.

(٥) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٥٠.

(٦) جمهرة أنساب العرب: ٣٣٩.

بعث الله محمداً (ص) برسالة الإسلام، فأشرقت الأرض بنور ربِّها بعد ظلام دامس رهيب، وجلجل في أرجائها صوت القرآن بشيراً ونذيراً، وأطلَّ على الدنيا فجر جديد يحمل للبشرية أسمى ما تطلَّعت إليه من سلام ورغد وأمن ورفاه.

وصدع النبيّ (ص) بما أمره الله به من إعلان الدعوة وشرح أسس الرسالة وأركانها، فكان يحضر المواسم التي تجتمع فيها العرب بمكة، فيتصل بالقبائل «يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنّهُ نبي مرسل، ويسألهم أن يصدّقوه ويمنعوه حتى يبيّن لهم ما بعثه الله به»[1].

وخرج في أحد هذه المواسم للقيام بما ألزم به نفسه، «فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج... فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.... فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدَّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام... ثم انصرفوا عن رسول الله (ص) راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدَّقوا»[2].

«فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله (ص)، ودعوهم إلى الإسلام... حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسمَ من

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٦٤.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٠ ـ ٧١.

الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوه بالعقبة ـ وهي العقبة الأولى ـ فبايعوا رسول الله (ص)[١].

وطلب منه القوم أن يبعث إليهم من يعلمهم القرآن وأحكام الشريعة، فأرسل مصعب بن عمير «وأمره ان يُقْرِئهم القرآن ويعلّمهم الإسلام ويفقّههم في الدين»[٢]، فنزل على أسعد بن زرارة، وقام بمهمته أفضل قيام، على ما فصّلناه في رسالة سابقة من هذه السلسلة عُنيتْ بـ«مصعب بن عمير».

وفي أثناء إقامة مصعب في المدينة خرج به أسعد بن زرارة يوماً لزيارة بني عبد الأشهل في دارهم؛ وبني ظَفَر في دارهم، فدخل به بستاناً من بساتين بني ظفر، فجلسا في ذلك البستان، واجتمع إليهما رجال من مسلمي هذه العشيرة.

وسمع بمقدمه سعدُ بن معاذ وأُسَيْد بن حُضَير ـ وهما يومئذٍ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه ـ، فقال سعدٌ لأُسيد: انطلق إلى هذين الرجلين الذين قد أتيا دارَيْنا ليُسَفِّها ضعفاءنا فازجُرهما وانهَهُما أن يأتيا دارَيْنا؛ فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمتَ لكفيتُك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مُقَدَّماً.

فأخذ أُسَيْدٌ حَربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة مقبلاً قال لمصعب: هذا سيّد قومه قد جاءك فاصْدُقِ الله فيه، فقال له مصعب: إنْ يجلِسْ أكلِّمْه.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٢ ـ ٧٣.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٦ ـ ٧٧.

فوقف أسيدٌ عليهما وقال: ما جاء بكما إلينا؟ تسفِّهان ضعفاءنا! اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

فقال له مصعب: أوَ تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلتَه، وإن كرهتَه كُفَّ عنك ما تكره.

قال أُسيدٌ: أنصفتَ، ثم ركّز حربته وجلس إليهما.

فكلمه مصعب بالإسلام؛ وقرأ عليه القرآن.

فقال أُسَيد: ما أحسن هذا الكلام وأجمله، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟

فقال مصعب وأسعد: تغتسل فَتَطَهَّر وتُطَهّر ثوبَيْك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تُصلّي.

فقام أُسيد فاغتسل وطهَّر ثوبَيْه وتشهَّد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتَّبعكما لم يتخلَّف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن: سعد بن معاذ.

ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعدٍ وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أُسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلتَ؟.

قال: كلّمتُ الرجلين، فوالله ما رأيتُ بهما بأْساً، وقد نهيتُهما فقالا: نفعل ما أحببتَ. وقد حُدِّثتُ أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنّه ابنُ خالتك، ليُخفِروك ويَسِموك بنقض العهد والغَدْر.

فقام سعد مغضَباً مبادراً، تخوُّفاً للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده ثم قال له: والله ما أراك أغنيتَ شيئاً. ثم خرج إليهما، فلما رآهما سعدٌ مطمئنَّين، عرف أن أُسيداً إنّما أراد منه أن يأتي إليهما ويسمع منهما.

فوقف عليهما، قال مخاطباً أسعد: يا أبا أمامة، أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمتَ هذا مني، أتغشانا في دارَيْنا بما نكره؟!.

فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع، فإن رضيتَ أمراً ورغبت فيه قبلتَه، وإن كرهتَه عزلنا عنك ما تكره.

قال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس، فعرض مصعب عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن.

فأشرق وجهه وتهلل، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتهم ودخلتم في هذا الدين؟.

قالا: تغتسل فتطهَّر، وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلّي.

فقام سعد فاغتسل وطهَّر ثوبيه وتشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين.

ثم إن سعداً أقبل إلى نادي قومه، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟.

قالوا: سيدنا وأوْصَلُنا وأفضلُنا رأياً وأيمنُنا نقيبة.

قال سعد: فإنَّ كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

قال الرواة: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة[١].

ودوى على أثر ذلك نذير الخطر ينذر أهل مكة بما سيؤول إليه الأمر بعد إسلام سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، ونادى منادٍ مجهول بمكة قائلاً:

فإنْ يُسْلم السَّعدانِ يصبح محمدٌ بمكة لا يخشى خلافَ المخالفِ

فقال أبو سفيان: مَنِ السَّعدانِ؟ سعد بن بكر، سعد تميم، سعد هُذَيم؟ فنادى المنادي مرة أخرى قائلاً:

أيا سعدُ سعد الأوس كن أنت ناصراً
ويا سعدُ سعد الخزرجين الغطارفِ
أجيبا إلى داعي الهدى وتمنَّيا
على الله في الفردوس منيةَ عارفِ
فإن ثواب الله للطالب الهدى
جنانٌ من الفردوس ذات رفارفِ

فقال أبو سفيان: هو سعد بن معاذ وسعد بن عبادة[٢].

ثم «حوّل سعدٌ مصعبَ بن عمير وأبا أمامة أسعدَ بن زرارة إلى داره، فكانا يدعوان الناس إلى الإسلام في دار سعد بن معاذ»[٣].

وأسلم أهل المدينة على أثر ذلك زرافات ووحدانا، وتمت بيعة

(١) الخبر بطوله وتفاصيله في سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٧ ـ ٨٠ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٥٧ ـ ٣٥٩.

(٢) المنمق: ١٧٠ ـ ١٧١ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٨٠ والبداية والنهاية: ٣/ ١٦٥ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٠٢.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ق٢/ ٢.

العقبة الثانية، وتعهّد الجميع بالنصرة للنبيّ (ص) ومن اتّبعه من المؤمنين، فـ «أمر رسول الله (ص) أصحابه من قومه ومَنْ معه بمكة من المسلمين، بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأنصار»[١]، فخرجوا متسلّلين متكتمين، وأقام هو بمكة ينتظر إذن ربّه له في الهجرة.

واستقبل الأنصار إخوانهم المهاجرين بالحب الصادق والود الخالص والترحاب الكريم، ونزل كلٌ وافدٍ أو أكثر من واحدٍ ـ منزل الأخوة والضيافة ـ على زعيم من زعماء المدينة، «ونزل مصعب بن عمير بن هاشم أخو بني عبد الدار على سعد بن معاذ»[٢].

ثم قدم النبيّ (ص) بعد ذلك مهاجراً، فاجتمع شمل المسلمين بقائدهم، وبدأ النبيّ (ص) منذ يوم وصوله المدينة عمله البنّاء الضخم في تشييد الصرح الجديد، صرح دولة السماء في الأرض.

وكانت أُولى الخطوات وأكثرها أهمية قيام الرسول (ص) بعملية المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، تدعيماً لوحدتهم، ورصّاً لصفوفهم، وإشعاراً لهم بالمسؤولية التضامنية فيما بينهم، وإلغاءً للفروق والعنعنات والانقسامات الموروثة.

وآخى في هذا الصعيد ـ كما روى بعضهم ـ بين أبي عبيدة ابن الجراح وسعد بن معاذ بن النعمان[٣]، وروى آخرون أنَّ المؤاخاة كانت بين سعد بن أبي وقاص وسعد بن معاذ[٤].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١١١.
(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٢٣ وطبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ٨٣.
(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٥١.
(٤) المحبر: ٧٢ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٧١ وطبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ٩٩ و٣/ ق٢/ ٢.

وفي خلال هذه المدة رغب سعد أن يعتمر بالبيت مسلماً صادق الإيمان، فشد الرحال إلى مكة، ونزل هناك «على أمية بن خلف أبي صفوان، وكان أمية إذا انطلق إلى الشام فمر بالمدينة نزل على سعد، فقال أمية لسعد: انتظر حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس انطلقت فطفتَ. فبينا سعد يطوف إذا أبو جهل، فقال: من هذا الذي يطوف بالكعبة؟ فقال سعد: أنا سعد، فقال أبو جهل: تطوف بالكعبة آمناً وقد آويتم محمداً وأصحابه!، فقال: نعم، فتلاحيا بينهما... فقال سعد: والله لئن منعتَني أن أطوف بالبيت لأقطعنَّ متجرك بالشام»[1].

---

(١) صحيح البخاري: ٤/٢٤٩ ـ ٢٥٠ والمعجم الكبير: ٦/١٦ وسير أعلام النبلاء: ١/٢٠٣.

وأذن الله لرسوله في حرب المشركين واستخلاص الحقوق منهم قسراً وعنوة، بعد أن تهيَّأ له ولأصحابه المستقَرُّ الأمين، والمنطلق القويُّ الحصين.

وإن سعد بن معاذ ـ ببطولته الفائقة وزعامته المطاعة وحنكته النافذة ـ ساعداً ونصيراً للنبيّ (ص) في كل ما يستجد من أحداث ومواقف وحروب منذ اليوم، وقد مثَّل بشرفٍ وصدقٍ سلوكَ الجندي الوفي المطيع إزاء أوامر القائد وتعليماته وتوجيهاته، فكان على أتمِّ الاستعداد في كل آنٍ لتلبية ما يؤمر به وتنفيذ ما يوكّل إليه، بل عدَّه بعض المؤرخين «أولَ من ارتبط فرساً في سبيل الله»[1].

وكان أول تكريمٍ نبويّ لسعدٍ استخلافه إياه على المدينة، في شهر ربيع الأول من السنة الثانية من الهجرة، لما «غزا رسول الله (ص) في مائتين من أصحابه، حتى بلغ بُواط»[2].

❀ ❀ ❀

وفي شهر رمضان من تلك السنة (الثانية للهجرة) بدأ الإعداد

---

(١) المنمق: ٥١٣.

(٢) طبقات ابن سعد: ٢/ ق١/٣ ـ ٤ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٨٧ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٠٧.

الواسع لأولى المعارك الرئيسة الفاصلة في تاريخ الإسلام، معركة بدر الكبرى.

وكانت قبل ذلك مناوشات ومصادمات متفرقة بين المسلمين والمشركين، قُتِل فيها من قُتِل، وأُسِر من قريش من أُسِر[١]. فلما بلغ النبيَّ (ص) نبأُ عودة قوافل قريش من الشام، وفيها أنفس أموالها وأثمن تجارتها، ندب المسلمين إلى الخروج إليها والانقضاض عليها «لعلَّ الله ينفلكموها»[٢].

وعلم أبو سفيان بعزم المسلمين على التعرض له فأرسل رسولاً إلى مكة يستصرخ قريشاً ويستنفرها إلى حماية تلك الأموال والذود عنها، فتجهز الناس سراعاً، «وأوعبتْ قريش فلم يتخلَّف من أشرافها أحدٌ»[٣]، وسارت نحو المدينة.

«وخرج رسول الله (ص) في ليالٍ مضت من شهر رمضان»، «وضرب عسكره ببئر أبي عنبة ـ وهي على ميلٍ من المدينة ـ فعرض أصحابه، وردَّ من استصغر» عمره، وكان جميع مَن معه «ثلاثمائة رجل وخمسة نفر، كان المهاجرون منهم أربعة وسبعين رجلاً، وسائرهم من الأنصار»[٤]، وأعطى اللواء الأعظم مصعب بن عمير، وراية المهاجرين عليّاً (ع)، وراية الأنصار أو الأوس خاصةً سعد بن معاذ[٥].

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٤٢١.
(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٥٨.
(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٦١.
(٤) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٦٣ وطبقات ابن سعد: ٢/ق١/ ٦.
(٥) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٦٤ وطبقات ابن سعد: ٢/ ق١/ ٨ و٣/ق٢/ ٢ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٩٣ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ١٢٠.

وبعث النبيّ (ص) في أثناء الطريق رجلين إلى بدرٍ يتحسَّسان له الأخبار عن أبي سفيان وقومه، فأتاه الخبر بمسير قريش من مكة لحماية أموالها وضمان سلامة عيرها، فعلم (ص) أنّها الحرب مع قريش كلها، وليست مع أبي سفيان ورفقته فحسب، فجمع أصحابه للمشورة وتدارس الموقف.

وطرح النبيّ (ص) المسألة على بساط البحث، وطلب من الجميع إبداء الرأي، فانبرى عدد من الحاضرين إلى تشجيع النبيّ على المضي في نيته، وإلى إعلان الاستعداد المطلق للبذل والفداء والنصرة، وكان الصحابي البطل المقداد بن عمرو الكندي أبلغ الجميع وأشدَّهم حماساً وإخلاصاً، فقال له رسول الله (ص) خيراً ودعا له به.

ولم يكتف النبيّ (ص) بما سمع من هؤلاء لأنهم كانوا بأجمعهم من المهاجرين، فطلب المشورة مرة أخرى، ليسمع ما يقول الأنصار في ذلك، لأنه كان «يتخوَّف ألاّ تكون الأنصار ترى عليها نَصْرَه إلاّ ممن دهمه بالمدينة من عدوِّه، وأنْ ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوّ» خارج بلدهم، وكانوا قد صارحوه لمّا بايعوه قائلين: «إذا وصلتَ إلينا فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا»[(١)].

فلما كرَّر رسول الله (ص) طلب المشورة أدرك سعد بن معاذ مراد النبيّ ومرامه من هذا التكرار، فقال: «والله، لكأنك تريدنا يا رسول الله؟.

«قال: أجل.

«قال سعد: لقد آمنّا بك وصدَّقناك، وشهدنا أنَّ ما جئتَ به هو

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٦٧ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٣٥.

الحق، وأعطيناك على ذلك عهودَنا ومواثيقَنا، على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردتَ فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخُضْتَه لخُضْناه معك، ما تخلّف منّا رجلٌ واحدٌ، وما نكره أن تلقى بنا عدوَّنا غداً. إنا لَصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء، لعل الله يريك منّا ما تقرُّبه عينك فسِرْ بنا على بركة الله».

«فسرَّ رسول الله (ص) بقول سعدٍ، ونشَّطه ذلك، ثم قال: سيروا وأبشروا»[1].

وتهيأ الطرفان للحرب.

وجاء سعد بن معاذ إلى النبيّ (ص) فقال:

«يا نبيّ الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونُعِدُّ عندك ركائبك، ثم نلقى عدوَّنا، فإنْ أعزَّنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلستَ على ركائبك فلحقتَ بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلَّف عنك أقوام يا نبيَّ الله ما نحن بأشدَّ لك حُبّاً منهم، ولو ظنوا أنَّك تلقى حرباً ما تخلّفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك».

«فأثنى عليه رسول الله خيراً، ودعا له بخير، ثم بُنيَ لرسول الله (ص) عريش فكان فيه»[2].

وبدأ النزال، والتحم الجيشان.

و«قتل الله تعالى مَن قتل من صناديد قريش، وأُسِر من أُسِرَ من

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٦٧ وطبقات ابن سعد: ٢/ ق١/ ٨ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٣٥.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٤٠ وطبقات ابن سعد: ٢/ ق١/ ٩.

أشرافهم. فلما وضع القوم أيديهم يأسِرون، ورسول الله (ص) في العريش، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذي فيه رسول الله (ص)، متوشح بالسيف، في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله (ص) يخافون عليه كرة العدو. رأى رسول الله (ص) في وجه سعد الكراهية لما يصنع الناس، فقال له رسول الله (ص): والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم؟، قال: أجل والله الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل أحبَّ إليَّ من استبقاء الرجال»[١].

وانتهت المعركة بهزيمة قريش، إذ ولَّت على الأدبار تجر أذيال خيبتها وعارها، تاركة وراءها سبعين من القتلى وسبعين آخرين من الأسرى، وما النصر إلاّ من عند الله[٢].

❀ ❀ ❀

ولم تطق قريش صبراً على مرارة الهزيمة، فعزمت على العودة إلى الحرب للانتقام وأخذ الثأر.

«وبعثوا رسلهم يسيرون في العرب يدعونهم إلى نصرهم، فأوعبوا، وتألَّب مَنْ كان معهم من العرب وحضروا»[٣].

و«خرجت قريش بحدِّها وجدِّها وحديدها وأحابيشها ومَن تابعها من بني كنانة وأهل تهامة، وخرجوا معهم بالظعن (أي النساء في هوادجهنَّ) التماس الحفيظة وألّا يفروا»[٤].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٨٠ ـ ٢٨١ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٤٩.

(٢) يراجع في شهود سعد بدراً: المعجم الكبير: ٦/ ٥ والاستيعاب: ٢/ ٢٦ وأسد الغابة: ٢/ ٢٩٦ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٠٣ والإصابة: ٢/ ٣٥ ونهاية الأرب: ١٧/ ٣٧.

(٣) طبقات ابن سعد: ٢/ق١/ ٢٥.

(٤) سيرة ابن هشام: ٣/ ٦٥ ـ ٦٦.

وأقبل جمعهم يقطع الصحراء حتى نزلوا بالقرب من أُحُد، على مشارف المدينة.

وتأهَّب المسلمون للخروج إليهم، و«بات سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة في عدة، ليلة الجمعة، عليهم السلاح، في المسجد بباب رسول الله (ص)، وحرست المدينة حتى أصبحوا»[١].

وصلّى رسول الله (ص) الجمعة بالمسلمين، ووعظهم وأمرهم بالجدّ والجهاد والتهيؤ للقاء العدو، وأخبرهم أنّ لهم النصر ما صبروا. ثم دخل بيته فلبس لأْمَةَ الحرب، وخرج في أصحابه، «وخرج السَّعدانِ أمامهُ يَعْدُوان: سعد بن معاذ وسعد بن عُبادة، وكلٌ واحدٍ منهما دارع، والناس عن يمينه وشماله»[٢].

وقامت الحرب، وكانت ضروساً ضارية إلى أبعد الحدود.

ولما اشتد البلاء، وحمي الوطيس، وتبادل الطرفان الكرَّ والفرَّ، كان سعد بن معاذ من تلك الفئة القليلة الصابرة التي ثبتت في مواقعها[٣] فلم تنثن أو تتزحزح، وصدقت في قراعها ودفاعها عن الإسلام والرسول (ص) فلم تتراخ أو تنقلب على الأعقاب.

ثم وضعت الحرب أوزارها بعد ذلك الجلاد الدامي الطحون،

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ق١/٢٦ وأنساب الأشراف: ١/ ٣١٤ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ٢٢١ ونهاية الأرب: ١٧/ ٨٣.

(٢) طبقات ابن سعد: ٢/ق١/٢٧ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ٢٢٧ ونهاية الأرب: ١٧/ ٨٥.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ق٢/ ٢ وأنساب الأشراف: ١/ ٣١٨، ويراجع أيضاً في شهود سعد أحداً:
المعجم الكبير: ٦/ ٥ والاستيعاب: ٢/ ٢٦ وأسد الغابة: ٢/ ٢٩٦.

وجمع المشركون حقائبهم منصرفين. ولكن النبيّ (ص) لم يكن متأكداً من نيتهم، إذ ربما كانوا يريدون خداع المسلمين واستغفالهم كي يعيدوا الكرة فيهجموا على المدينة نفسها سلباً ونهباً وتقتيلاً، «فأحبَّ ـ (ص) ـ أن يريهم قوةً، فصلّى الصبح يوم الأحد ومعه وجوه الأوس والخزرج، وكانوا باتوا تلك الليلة في بابه يحرسونه من البيات، فيهم سعد بن عبادة وسعد بن معاذ والحباب بن المنذر. . . . فلما انصرف من صلاة الصبح أمر بلالاً أن ينادي في الناس أنَّ رسول الله (ص) يأمركم بطلب عدوكم، ولا يخرج معنا إلاّ مَنْ شهد القتال بالأمس، فخرج سعد بن معاذ راجعاً إلى قومه يأمرهم بالمسير، والجراح في الناس فاشيةٌ، عامَّةُ بني عبد الأشهل جريح، بل كلها، فجاء سعد بن معاذ فقال: إن رسول الله (ص) يأمركم أن تطلبوا عدوكم. . . . فوافوا النبيّ (ص)»[١].

وخرج رسول الله (ص) خارج المدينة يرقب الموقف، وأرسل علياً (ع) في آثار القوم ينظر ما يصنعون وما يريدون، فرجع عليٌّ يخبره بتوجُّه القوم إلى مكة[٢]، فانصرف النبيّ (ص) إلى المدينة، وأقبل «حتى طلع على بني عبد الأشهل وهم يبكون على قتلاهم، . . . فخرج النساء ينظرن إلى سلامة رسول الله (ص). . . . وخرجت كبشة بنت عتبة بن معاوية بن بَلْحارث بن الخزرج تعدو نحو رسول الله (ص) وهو واقف على فرسه وسعد بن معاذ آخِذٌ بعنان فرسه، فقال سعد: يا رسول الله، أُمي، فقال: مرحباً بها. فدنتْ منه حتى تأمَّلَتْه وقالت: إذ رأيتُك سالماً فقد شَقَّتْ (أي هانت) المصيبة، فعزّاها بعمرو بن معاذ ثم قال: يا أُمَّ

(١) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ٥٥.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٠٠.

سعد، أبشري وبَشّري أهليهم أن قتلاهم قد ترافقوا في الجنة جميعاً، وهم اثنا عشر رجلاً، وقد شفعوا في أهليهم. فقالت: رضينا يا رسول الله. . . . ومضى سعد بن معاذ مع رسول الله ﷺ (ص) إلى بيته[١].

ولما سمع النبيّ (ص) بكاء نساء الأنصار ونواحهنَّ على قتلاهنَّ، ذرفت عيناه «فبكى ثم قال:

لكنَّ حمزة لا بواكي له. فلما رجع سعد بن معاذ وأُسَيد بن حُضَير إلى دار بني عبد الأشهل؛ أمرا نساءهم أن يتحزَّمْنَ ثم يذهبن فيبكين على عمِّ رسول الله (ص). . . ولما سمع رسول الله (ص) بكاءهنَّ على حمزة خرج عليهن وهنَّ على باب مسجده يبكين عليه فقال: ارجعنَ يرحمكنَّ الله. . . رحم الله الأنصار، فإن المواساة منهم لقديمة»[٢]، و«لم تبك امرأةٌ من الأنصار بعد ذلك اليوم على ميتٍ إلاّ بدأتْ بالبكاء على حمزة؛ ثم بكتْ على ميتها»[٣].

❁ ❁ ❁

ومرَّت الأيام.

وما زالت الأحقاد المكية الدفينة تنزُّ قيحاً وصديداً.

ولم يكن درس بدرٍ بما أسفر عنه من مرارة الهزيمة؛ ودرس أُحُدٍ بما حمل من صدمة الفشل، كافيين في ردع قريش وصرفها عن ملاحقة محمد وصحبه.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ٤١ ـ ٤٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٠٤ ـ ١٠٥ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٣٢ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٤٢.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ق١/ ٥ و١٠.

وهكذا تحزّبت الأحزاب ـ وللمرة الثالثة ـ لحرب الإسلام.

وشاركت فيها قريشاً كلٌّ من غطفان وبني مرة وأشجع، وحالفهم على ذلك يهود يثرب؛ اعتقاداً منهم بنجاح الحملة ـ هذه المرة ـ وحتمية النصر.

وخرج الجميع ـ كلٌّ من مكمنه ـ باتجاه المدينة المنورة.

«فلما سمع بهم رسول الله (ص) وما أجمعوا له من أمر، ضرب الخندق على المدينة، وعمل فيه رسول الله (ص) ترغيباً للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون فيه، فدأب فيه ودأبوا»[١] حتى أحكموه.

و«أقبلت قريش... في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا.. إلى جانب أحد».

«وخرج رسول الله (ص) والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع (جبل بالمدينة) في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هنالك عسكره، والخندقُ بينه وبين القوم»[٢].

ونقض اليهود عهدهم ـ وكانوا قد وادعوا الرسول (ص) وعاقدوه على المسالمة ـ فانضموا إلى ملأ قريش وأحلافها، وكان في ذلك من الخطر المهدِّد لأمن المدينة وسلامتها ما يزيد على خطر العدو الآخر القادم من مكة.

فلما انتهى إلى رسول الله (ص) خبرُ غدرِ اليهود «بعث سعد بن معاذ بن النعمان ـ وهو يومئذٍ سيد الأوس ـ وسعد بن عبادة بن دُلَيم ـ وهو يومئذٍ سيد الخزرج ـ ومعهما عبد الله بن رواحة وخَوّات بن جبير،

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٢٦.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٣٠ ـ ٢٣١.

فقال: انطلقوا حتى تنظروا أحَقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه (أي لا تعلنوا ذلك لئلا يؤثر على معنويات المقاتلين)؛ ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس».

«فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم... وقالوا: لا عهد بيننا وبين محمدٍ ولا عقد. فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه... ثم أقبل سعدٌ وسعدٌ ومَن معهما إلى رسول الله (ص) فسلَّموا عليه ثم قالوا: عَضَلٌ والقارة (كناية عن غدرهم)...»[١].

وسرعان ما انتشر الخبر بين الناس؛ فـ«عظم عند ذلك البلاء، واشتد الخوف، وأتاهم عدوُّهم من فوقهم ومن أسفل منهم... فأقام رسول الله (ص)... والمشركون بضعاً وعشرين ليلة؛ قريباً من شهر لم تكن بينهم حرب» إلاّ الحصار والمراماة بالنبل[٢].

وأسرَّ رسول الله (ص) في نفسه أمراً يضمن تفكيك هذا الحلف اللئيم وإثارة الانقسام في صفوف الأعداء، وذلك بأن يعطي ثلث ثمار المدينة لزعيمي غطفان على أن يرجعا بمن معهما. ولكنَّ تنفيذ ذلك منوط برضا أصحابه الأنصار وموافقتهم عليه؛ لأن ثمار المدينة تعود لهم، فـ «بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه، فقالا له:

«يا رسول الله؛ أمراً تحبُّه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به لا بدَّ لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟».

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٧١ ـ ٥٧٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٣٣.

«وقال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلاّ لأنني رأيتُ العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدة وكالبوكم من كل جانب، فأردتُ أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ مّا».

«فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله؛ قد كنّا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرةً إلاّ قِرىً أو بيعاً، أفَحينَ أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزَّنا بك وبه؛ نعطيهم أموالنا، والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم».

«قال رسول الله (ص): فأنت وذاك»[١].

ثم بدأت المعركة والتحم الفريقان.

وشارك سعدٌ فيها مشاركة القادة الأبطال فصدق ما عاهد الله عليه.

وحدَّثت أمُّ المؤمنين عائشة و«كانت في حصن بني حارثة يوم الخندق، وكان من أحرز حصون المدينة، وأمُّ سعد بن معاذ معها في الحصن. قالت عائشة: فمرَّ سعدٌ وعليه درع له مقلَّصة (أي قصيرة) قد خرجت منها ذراعه كلها، وفي يده حربته..، وهو يقول:

لَبِّثْ قليلاً يشهد الهيجا حَمَلْ لا بأس بالموت إذا حان الأجَلْ

«فقالت له أُمُّه: الحقْ يا بُنيَّ فقد ـ والله ـ أخَّرتَ. قالت عائشة: فقلتُ لها: والله لوددتُ أنَّ درع سعدٍ كانت أسبغَ ممّا هي، وخفتُ عليه حيث أصاب السهم منه»[٢].

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٣٤ وطبقات ابن سعد: ٢/ ق١/ ٥٢ ـ ٥٣ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٧٣.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٣٨ وطبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٣ و٥ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٧٥ و٥٧٦ وأسد الغابة: ٢/ ٢٩٦ وتاريخ الإسلام: ١/ ٢٥٥ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٠٣ والإصابة: ٢/ ٣٥.

فرماه حبّانُ بن العَرِقة بسهمٍ فقطع منه الأكحل (وهو عِرقٌ في الذراع) وقال متبجِّحاً: «خذها وأنا العَرِقة، فقال رسول الله (ص): عرَّق الله وجهك في النار»[١].

واستقبل سعد هذه الإصابة المؤثرة الخطيرة؛ بقلب ثابت مطمئن؛ ونفس مؤمنة راضية، وبادر على أثر ذلك إلى التعبير عن خلاصة نظرته لمسألتي الموت والحياة في تلك الساعة الحاسمة بأبلغ لفظٍ وأروع معنىً وأرسخ اعتقادٍ فقال:

«اللهمَّ إنْ كنتَ أبقيتَ من حرب قريشٍ شيئاً فأبقِني لها؛ فإنّه لا قوم أحبّ إليَّ أن أُجاهدهم من قومٍ آذوا رسولك وكذَّبوه وأخرجوه، اللهمَّ وإنْ كنتَ قد وضعتَ الحربَ بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة، ولا تُمِتْني حتى تقرَّ عيني من بني قريظة»[٢].

وبلغت الحرب نهايتها المنتظرة، فردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وعادت جيوش الشرك تجر أذيال الفشل والخيبة، وانتصرت جحافل الإسلام ذلك الانتصار الباهر والفوز المبين.

«ولمّا أصبح رسول الله (ص) انصرف عن الخندق راجعاً إلى المدينة والمسلمون، ووضعوا السلاح»[٣].

ورجع المشركون إلى مكة محمَّلين بمشاعر الألم المرِّ والاكتئاب الحزين، وإنْ خفَّفت من ذلك بعضَ الشيء علمُهم بجرح سعدٍ المميت

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ق١/٤٨.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/٢٣٨ وطبقات ابن سعد: ٣/ق٢/٣ و٥ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٧٦ وأسد الغابة: ٢/٢٩٦ وتاريخ الإسلام: ١/٢٥٦ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٠٤ والإصابة: ٢/٣٥.

(٣) سيرة ابن هشام: ٣/٢٤٤.

وشماتَتهم اللئيمة بل بهجتُهم الغامرة بهذا (المكسب) الكبير، وقد عبَّر عن ذلك بصريح القول شاعرهم ضرار بن الخطّاب في جملة قصيدة له فقال:

فإنْ نرحلْ فإنّا قد تركنا لدى أبياتكم سعداً رهينا
إذا جنَّ الظلام سمعتَ نَوْحى على سعدٍ يرجِّعْنَ الحنينا

وقد أجابه كعب بن مالك بقصيدة مثلها في الرويِّ والقافية جاء فيها:

فإمّا تقتلوا سعداً سفاهاً فإن الله خير القادرينا
سيُدخله جناناً طيباتٍ تكون مقامةً للصالحينا
كما قد ردَّكم فَلّاً شريداً بغيظكم خزايا خائبينا[1]

❀ ❀ ❀

ولمّا كان اليهود قد جاهروا بالعداء؛ ونقضوا عهود السلم في أخطر ساعات المواجهة وأحرجها؛ ونكثوا بكل مواثيق الموادعة التي أعطوها النبيَّ، رأى (ص) ضرورة المبادرة إلى تصفية هذا الخطر قبل استفحاله؛ وإلى الإسراع في القضاء عليه قضاءً تاماً، ضماناً لأمن المدينة وسلامتها من الداخل إن غزاها غازٍ أو دهمها عدو.

ولذلك أمَرَ ـ وهو راجع من الخندق ـ «مؤذِّناً فأذَّن في الناس: مَنْ كان سامعاً مطيعاً فلا يصلينَّ العصر إلاّ ببني قريظة»[2].

«وقدَّم رسولُ الله (ص) عليَّ بن أبي طالب برايته إلى بني قريظة، وابتدرها الناس... وحاصرهم رسول الله (ص) خمساً وعشرين ليلة

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨.
(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب»[١].

«ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله (ص) أن ابعثْ إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر؛ أخا بني عمرو بن عوف، ـ وكانوا (أي بنو قريظة) حلفاء الأوس ـ لنستشيره في أمرنا، فأرسله رسول الله (ص) إليهم، فلمّا رأوه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرقَّ لهم، وقالوا له: يا أبا لبابة؛ أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم...»[٢].

«فلمّا أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله (ص)، فتواثبت الأوس فقالوا: يا رسول الله؛ إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلتَ في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمتَ. وقد كان رسول الله (ص) قبل بني قريظة قد حاصر بني قينقاع وكانوا حلفاء الخزرج، فنزلوا على حكمه، فسأله إياهم عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول، فوهبهم له»[٣].

«فلمّا كلَّمته الأوس قال رسول الله (ص): ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجلٌ منكم؟ قالوا: بلى، قال رسول الله (ص): فذاك إلى سعد بن معاذ»[٤].

فلمّا بلغ اليهود ذلك قالوا: «ننزل على حكم سعد بن معاذ»[٥].

وفي نصِّ الطبراني: أن اليهود هم الذين سألوا النبيّ (ص): «أن

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٨٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٤٧ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٨٤.

(٣) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٨٦ ونهاية الأرب: ١٧/ ١٩١.

(٤) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٥٠ وطبقات ابن سعد: ٢/ق١/ ٥٤ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٨٦ ونهاية الأرب: ١٧/ ١٩١.

(٥) طبقات ابن سعد: ٢/ ق١/ ٥٦ و٣/ ق٢/ ٤ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٨٣.

يجعل بينه وبينهم حكماً ينزلون على حكمه، فقال رسول الله (ص): اختاروا من أصحابي مَن أردتم فلنستمع لقوله، فاختاروا سعد بن معاذ، فرضي به رسول الله (ص)»[١].

«وكان رسول الله (ص) قد جعل سعد بن معاذ في خيمةٍ لامرأةٍ من أسْلَم يُقال لها رُفَيْدة[٢]، في مسجده، كانت تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة مَن كانت به ضيعة من المسلمين، وكان رسول الله (ص) قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق: اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب»[٣]، «فكان يعوده في كل يوم»[٤]، فيقول له في المساء: «كيف أمسيتَ؛ وإذا أصبح قال: كيف أصبحتَ، فيخبره»[٥]، وفي رواية البخاري: «أن النبيّ (ص) هو الذي أمر بضرب خيمته في المسجد ليعوده من قريب»[٦].

«فلمّا حكَّمه رسول الله (ص) في بني قريظة أتاه قومه... ثم أقبلوا معه إلى رسول الله (ص) وهم يقولون: يا أبا عمرو؛ أحْسِنْ في مواليك، فإن رسول الله (ص) إنما ولاّك ذلك لتُحْسِن فيهم، فلمّا أكثروا عليه قال: لقد أنى لسعدٍ أن لا تأخذه في الله لومةُ لائم»[٧].

(١) المعجم الكبير: ٦/ ٨ ـ ٩.
(٢) هذا هو اسمها الذي سمّاها به معظم المؤرخين، وسُمِّيت «كعيبة بنت سعد الأسلمية» في طبقات ابن سعد: ٨/ ٢١٣ والإصابة: ٤/ ٣٨٤.
(٣) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٥٠ وطبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٦ ـ ٧ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٨٦ والاستيعاب: ٤/ ٣٠٤ وأسد الغابة: ٢/ ٢٩٧ و٥/ ٤٥٣ ـ ٤٥٤ والإصابة: ٤/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٠٨.
(٤) الاستيعاب: ٢/ ٢٦ ـ ٢٧.
(٥) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٧ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٠٨.
(٦) صحيح البخاري: ٥/ ١٤٣ والاستيعاب: ٢/ ٢٦ ـ ٢٧.
(٧) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٥٠ وطبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٤ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٨٧.

«فلمّا انتهى سعد إلى رسول الله (ص) والمسلمين، قال رسول الله (ص): قوموا إلى سيدكم»[1]، «فقاموا إليه؛ فقالوا: يا أبا عمرو؛ إن رسول الله (ص) قد ولاّك أمر مواليك لتحكم فيهم».

«فقال سعد بن معاذ: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم لَمَا حكمتُ؟».

«قالوا: نعم»[2].

فقال النبيّ (ص) لسعدٍ: أحكم فيهم.

فقال سعد: «إني أخشى يا رسول الله أن لا أُصيب فيهم حكم الله». فقال له النبيّ (ص): «احكم فيهم»[3].

وفي رواية أخرى:

«فأُتِيَ به محمولاً... فجاء فجلس إلى رسول الله (ص)، فقال له: أشِرْ عليّ في هؤلاء»، قال سعد: «إني أعلم أنَّ الله قد أمرك فيهم بأمرٍ وأنت فاعلٌ ما أمرك الله به»، قال: «أجلْ، ولكن أشِرْ عليّ فيهم»، قال سعدٌ: «فإني أحكم فيهم أن تُقْتَل الرجال؛ وتُقَسَّم الأموال؛ وتُسبْى الذراري والنساء»[4].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٥٠ وصحيح البخاري: ٥/ ٤٤ و١٤٣ ومسند أحمد: ٣/ ٢٢ و٧١ وطبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٤ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٨٧ والمعجم الكبير: ٦/ ٦ و٧ وأسد الغابة: ٢/ ٢٩٧ والإصابة: ٢/ ٣٥ ونهاية الأرب: ١٧/ ١٩١.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٥٠ ـ ٢٥١ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٤ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٨٧.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ق٢/ ٥.

(٤) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٥١ وصحيح البخاري: ٥/ ٤٤ و١٤٣ وطبقات ابن سعد: ٢/ ق١/ ٥٤ و٥٦ و٣/ق٢/ ٤ و٥ ومسند أحمد: ٣/ ٢٢ و٧١ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٨٧ والمعجم الكبير: ٦/ ٦ وأسد الغابة: ٢/ ٢٩٧ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٠٩.

فقال رسول الله (ص) لسعد: «لقد حكمتَ فيهم بحكم الله»[١]، أو قال: «أصبتَ حكم الله ورسوله»[٢]، أو قال: «لقد أشرتَ عليَّ فيهم بالذي أمرني الله به»[٣].

ثم أمر النبيّ (ص): بتنفيذ حكم سعدٍ فيهم[٤].

وفي هذه الحادثة يقول حسان بن ثابت:

لقد لقيتْ قريظةُ ما عَظاها ... وحلَّ بحصنها ذُلٌّ ذليلُ
وسعدٌ كان أنْذَرهم نصيحاً ... بأنَّ إلَهَهم ربٌّ جليلُ
فما برحوا بنقض العهد حتى ... غزاهم في ديارهم الرسولُ
أحاط بحصنهم منّا صفوفٌ ... له من حرِّ وقعتها صليلُ
فصار المؤمنون بدار خلدٍ ... أقام لها بها ظلٌّ ظليلُ[٥]

❁ ❁ ❁

وكان سعدٌ قد تحجَّر كَلْمُه للبرء وتماثل للشفاء، فلمّا أنهى حكمه في بني قريظة دعا الله فقال:

«اللهمَّ إنك تعلم أنّه ليس أحدٌ أحبَّ إليَّ أن أُجاهدهم فيك من قومٍ كذَّبوا رسولك وأخرجوه. اللهم فإني أظنُّ أنك قد وضعتَ الحربَ بيننا وبينهم، فإنْ كان بقي من حرب قريش شيءٌ فأبقني له؛ حتى أجاهدهم فيك. وإن كنتَ وضعت الحربَ فافْجُرْها واجعل موتتي فيها»[٦].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٥١ وطبقات ابن سعد: ٢/ق١/ ٥٤ و٣/ق٢/ ٤ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٨٨.
(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٥ والاستيعاب: ٢/ ٢٧.
(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٦ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٠٩.
(٤) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٥١ ـ ٢٥٣.
(٥) ديوان حسان بن ثابت: ٣٢٧.
(٦) صحيح البخاري: ٥/ ١٤٤ وطبقات ابن سعد: ٢/ق١/ ٥٦ و٣/ق٢/ ٤ و٦ ـ ٧ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٩٢ والمعجم الكبير: ٦/ ٧ وأسد الغابة: ٢/ ٢٩٦.

«فانفجر بسعد بن معاذ جرحُه، فمات منه شهيداً»[(١)]، وكان ذلك «بعد الخندق بشهر وبعد قريظة بليالٍ»[(٢)].

ولمّا انفجر الجرح ـ وكان قد رجع إلى قبته التي ضرب عليه رسول الله (ص)[(٣)] ـ بلغ النبيَّ (ص) ذلك، فأتاه «فاعتنقه، والدم ينفح في وجه رسول الله (ص) ولحيته، لا يريد أحدٌ أن يقي رسولَ الله (ص) الدمَ إلاّ ازداد منه رسول الله قرباً»[(٤)]، ثم «أخذ رأسه فوضعه في حجره... وقال:

«اللهمَّ إن سعداً قد جاهد في سبيلك، وصدَّق رسولك، وقضى الذي عليه، فتقبَّلْ روحَه بخير ما تقبَّلتَ به روحاً».

«فلمّا سمع سعدٌ كلام رسول الله (ص) فتح عينيه ثم قال: السلام عليك يا رسول الله، أما إني أشهد أنك رسول الله»[(٥)].

وأضاف النبيّ (ص) إلى ما سبق قائلاً: «جزاك الله خيراً من سيد قوم؛ فقد أنجزتَ الله ما وعدته، ولَيُنْجِزنَّك الله ما وعدك»[(٦)].

ثم نقله قومه ليلاً إلى منازل بني عبد الأشهل، فجاء جبرائيل إلى النبيّ (ص) فقال: «مَنْ رجلٌ من أمتك مات الليلة استبشر بموته أهل السماء؟»[(٧)]، أو «مَن هذا الميت الذي فُتِحَتْ له أبواب السماء؟»[(٨)].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٦٢.
(٢) الاستيعاب: ٢/ ٢٦ ـ ٢٧.
(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ق٢/ ٤.
(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ ق٢/ ٧.
(٥) طبقات ابن سعد: ٣/ ق٢/ ٧ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٠٧.
(٦) طبقات ابن سعد: ٣/ ق٢/ ٩ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٠٨.
(٧) طبقات ابن سعد: ٣/ ق٢/ ٤.
(٨) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٦٢ والاستيعاب: ٢/ ٢٩ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢١٣.

«قال: لا اعلم إلاّ أنَّ سعداً أمسى دنفاً»، فخرج رسول الله (ص) وخرج معه أصحابه، «فأسرع المشيَ ـ كما حدَّث بعض الحاضرين ـ حتى تقطعتْ شسوع نعالنا؛ وسقطتْ أرديتنا عن أعناقنا. فشكا ذلك إليه أصحابه: يا رسول الله؛ أتعبتَنا في المشي، فقال: إني أخاف أن تسبقنا الملائكة إليه»(١).

«وانتهى رسول الله (ص) إلى البيت (بيت سعدٍ) وهو يُغَسَّل، وأمّه تبكيه، وهي تقول:

ويلُ أمِّ سعدٍ سعدا حزامةً وجدّا

فقال رسول الله (ص): «كلُّ نائحةٍ تكذب إلاّ أُمّ سعد»(٢). وفي رواية ابن إسحاق: «قالت أم سعد حين احْتُمِل نعشه وهي تبكيه:

ويلُ أمِّ سعدٍ سعدا صرامةً وجدّا
وسؤدداً ومجدا وفارساً معدّا
سدَّ به مسدّا يقدُّ هاماً قدّا(٣)

وقام بتغسيله «الحارثُ بن أوس بن معاذ وأسيد بن حُضَير، وسلمة بن سلامة بن وقش يصبُّ الماء، ورسول (ص) حاضر. فغُسِّل... ثم كُفِّن... وأُتيَ بسرير يُحْمَل عليه الموتى فوُضِع على السرير... ثم إن رسول الله (ص) حمل جنازة سعدٍ من بيته، بين العمودين، حتى خرج به من الدار... والدار تكون ثلاثين ذراعاً»(٤).

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٤ و٧ ـ ٨ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٠٨.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٧ ـ ٨ والمعجم الكبير: ٦/ ١٠ وأسد الغابة: ٢/ ٢٩٨ و٥/ ٥٣٧ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٠٨ والإصابة: ٢/ ٣٥ و٤/ ٣٨٢، وفي بعضها: (جلادة وجدّاً)، وفي بعض آخر: (صرامة وجدّا).

(٣) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٦٣.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ١٠ و١١.

ثم جاء به رسول الله (ص) «فوضعه عند قبره، ثم صلّى عليه» ثم دُفن، وحضر معظم الصحابة شعائر التشييع والصلاة والدفن؛ حتى ملأ الناسُ البقيع[١].

وتقدَّم رسول الله (ص) نحو أمّ سعدٍ وهي واقفة على قبره؛ فعزّاها «وجلس ناحية، وجعل المسلمون يردُّون تراب القبر ويسوُّونه. وتنحّى رسول الله فجلس حتى سُوِّي عليه قبره ورُشَّ عليه الماء، ثم أقبل فوقف عليه فدعا له»[٢].

وكان ممّا أُثر عن النبيّ (ص) في تكريم سعدٍ وتأبينه قوله: «هنيئاً لك أبا عمرو، هنيئاً لك أبا عمرو»[٣].

«كان واللهِ ما علمتُ حازماً، وفي أمر الله قويّاً»[٤].

«لقد نزل الملائكة في جنازة سعد بن معاذ؛ سبعون ألفاً»[٥].

«اهتزَّ العرش ـ أو: عرش الرحمن عزَّ وجل ـ لموت سعد بن معاذ»[٦]، وقد نظم ذلك شاعر من الأنصار، فقال يرثي سعداً:

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ١٠.
(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ١١.
(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٨.
(٤) الإصابة: ٢/ ٣٥.
(٥) طبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٩ والاستيعاب: ٢/ ٢٧ وأسد الغابة: ٢/ ٢٩٨ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢١٣ ـ ٢١٤.
(٦) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٦٣ وصحيح البخاري: ٥/ ٤٤ وصحيح مسلم: ٧/ ١٥٠ وسنن ابن ماجه: ١/ ٥٦ وسنن الترمذي: ٥/ ٦٨٩ ومسند أحمد: ٣/ ٢٤ و٢٩٦ و٣١٦ و٣٤٩ وطبقات ابن سعد: ٣/ق٢/ ٩ و١٢ والمعجم الكبير: ٦/ ١١ـ ١٤ وجمهرة أنساب العرب: ٣٣٩ وأسد الغابة: ٢/ ٢٩٨ والإصابة: ٢/ ٣٥ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٠٥ و٢١٢ و ٢١٣ـ ٢١٤.

وما اهتزَّ عرشُ الله من موت هالكٍ سمعنا به إلاّ لسعدٍ أبي عمرو[١]

وقال النضر بن شميل في تفسير الحديث: إن اهتزَّ بمعنى فَرِحَ[٢]. وقال ابن عبد البر بعد إيراده: «وهو حديثٌ رُوِي من وجوه كثيرة متواترة»[٣].

و«انصرف رسول الله (ص) من جنازة سعد بن معاذ؛ ودموعه تحادر على لحيته»[٤].

وعاش سعدٌ حيّاً ـ وإن مات ـ في ضمير النبيّ (ص) ووجدانه، بل كان يلهج باسمه بين الحين والآخر ليذكِّر به مَن نسيه من أصحابه وإخوانه، ويحدثنا الصحابي أنس بن مالك أنه رأى قباءَ أُكيدر ملك كندة حين قُدِم به على رسول الله (ص)، وكان ذلك بعد شهادة سعدٍ بأربع سنين، «فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه، فقال رسول الله (ص): أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لَمناديلُ سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا»[٥].

❀ ❀ ❀

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٦٣ والاستيعاب: ٢/ ٢٩ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢١٣.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١/ ٢١٢.

(٣) الاستيعاب: ٢/ ٢٧.

(٤) المعجم الكبير: ٦/ ١١.

(٥) سيرة ابن هشام: ٤/ ١٧٠، ويراجع في الحديث صحيح البخاري: ٥/ ٤٤ وصحيح مسلم: ٧/ ١٥٠ ـ ١٥١ وسنن ابن ماجه: ١/ ٥٦ وسنن الترمذي: ٥/ ٦٨٩ ومسند أحمد: ٣/ ١١١ و١٢١ ـ ١٢٢ و٢٠٧ و٢٠٩ و٢٢٩ و٢٣٤ و٢٣٨ و٢٥١ و٢٧٧ وطبقات ابن سعد: ١/ ق٢/ ١٥١ و٢/ ق١/ ٥٦ و٣/ ق٢/ ١٣ وتاريخ الطبري: ٣/ ١٠٩ والمعجم الكبير: ٦/ ١٥ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٨٣ والاستيعاب: ٢/ ٢٨ وأسد الغابة: ٢/ ٢٩٨ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢١١.

وكان للشعر ـ كالمعتاد ـ دوره المنتظر في تأبين سعدٍ وتجليله؛ والتعبير عن بالغ الفجيعة به والحزن عليه، فقال حسان بن ثابت يرثيه:

لقد سفحتْ من دمع عَيْنَيْك عبرةٌ
وحقَّ لعيني أن تفيض على سعدِ
قتيل ثوى في معركٍ فُجِعتْ به
عيونٌ ذواري الدمع دائمة الوجدِ
على ملَّة الرحمن وارث جنَّةٍ
مع الشّهداء وفدُها أكرم الوفدِ
فإنْ تكُ قد ودَّعتَنا عن مودَّةٍ
وأمسيتَ في غَبراء مظلمة اللحدِ
فأنتَ الذي يا سعدُ أُبْتَ بمشهدٍ
كريم وأثوابِ المكارم والحمدِ
بحكمك في حَيَّيْ قريظة بالذي
قضى الله فيهم ما قضيتَ على عمدِ
فوافق حكمَ الله حكمُك فيهم
ولم تعفُ إذْ ذُكِّرْتَ ما كان من عهدِ
فإنْ كان ريبُ الدهر أمضاك في الأُلى
شَرَوْا هذه الدنيا بجنّاته الخلدِ
فنِعْمَ مصيرُ الصادقين إذا دُعُوا
إلى الله يوماً للوجاهة والقصدِ[1]

وقال حسان أيضاً «يبكي سعدَ بن معاذ ورجالاً من أصحاب رسول الله (ص) من الشهداء:

(١) ديوان حسان بن ثابت: ٤١٥.

ألا يا قومي هل لِما حُمَّ دافِعُ
وهل ما مضى من صالح العيش راجعُ
تذكَّرتُ عصراً قد مضى فتهافَتَتْ
بناتُ الحشى وانهلَّ مني المدامعُ
صبابة وجدٍ ذكَّرتْني أحبَّةً
وقتلى مضوا فيهم نُفَيْعٌ ورافعُ
وسعدٌ فأضحوا في الجنان وأوحشتْ
منازلُهم والأرض منهم بلاقعُ
وفوا يوم بدرٍ للرسول وفوقهم
ظلال المنايا والسيوف اللوامعُ
دعا فأجابوه بحقّ وكلُّهم
مطيع له في كل أمرٍ وسامعُ
فما بدَّلوا حتى توافوا جماعةً
ولا يقطع الآجالَ إلاّ المصَارعُ
لأنهم يرجون منه شفاعةً
إذا لم يكن إلاّ النبيين شافعُ
وذلك يا خيرَ العباد بلاؤنا
ومَشهدُنا في الله والموتُ ناقعُ
لنا القَدَمُ الأولى إليك وخلفنا
لأوَّلنا في طاعة الله تابعُ
ونعلم أنَّ الملك لله وحده
وأن قضاء الله لا بدَّ واقعُ[1]

(١) ديوان حسان بن ثابت: ٢٦٧.

مِنَ المؤمنين رجال

[٥]

زيد بن حارثة

زيد بن حارثة

اسمه وقبيلته

هو: زيد بن حارثة بن شراحيل (أو شُرحبيل) بن كعب بن عبد العُزّى بن امرىء القيس بن عامر بن النُّعمان بن عامر بن عبدوَدّ (وهو بضمة) بن عوف بن كنانة بن (بكر بن) عوف بن عذرة بن زيد اللّات (أو زيد الله) بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ـ واسمه عمرو ـ بن مالك بن عمرو بن مُرَّة بن مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان[1].

«وربما اختلفوا في الأسماء وتقديم بعضها على بعض وزيادة شيءٍ ونقص شيء»[2].

وأُمُّه: سعدى بنت ثعلبة بن عَبْد (بن) عامر بن أفْلَت بن سلسلة، من بني معنٍ، من طَيِّىءٍ[3].

وكانت أُمُّه سعدى قد زارتْ قومَها «وزيدٌ معها، فأغارتْ خيلٌ لبني

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٢٦٤ و٢/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٢٧ و٤/ ق ١/ ٤٢ وأنساب الأشراف: ١/ ٤٦٧ والمعجم الكبير: ٥/ ٨٢ و٨٣ والاستيعاب: ١/ ٥٢٥ وأسد الغابة: ٢/ ٢٢٤ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٦٠ والإصابة: ١/ ٤٦ و٢٩٧.

(٢) الاستيعاب: ١/ ٥٢٥ وأسد الغابة: ٢/ ٢٢٤.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٢٧ وأنساب الأشراف: ١/ ٤٦٧ والاستيعاب: ١/ ٥٢٥ ـ ٥٢٦ وأسد الغابة: ٢/ ٢٢٤ والإصابة: ١/ ٥٤٥.

القَيْن بن جسر في الجاهلية، فمرُّوا على أبيات بني معنٍ رهطِ أُمِّ زيد، فاحتملوا زيداً ـ إذْ هو يومئذٍ غلامٌ يَفَعة قد أوْصَف ـ، فوافوا به سوق عكاظ[١] فعرضوه للبيع، فاشتراه منهم حكيم بن حِزام بن خويلد بن أسَد بن عبد العُزّى بن قصيٍّ، لعمته خديجة بنت خويلد، بأربعمائة درهم. فلمَّا تزوَّجها رسول الله (ص) وهبَتْه له، فقبضه رسول الله (ص)»[٢].

وفي رواية أخرى: أن حكيم بن حزام بن خويلد كان «قدم من الشام برقيقٍ فيهم زيد بن حارثة وصيف. فدخلتْ عليه عمته خديجة بنت خويلد وهي يومئذٍ عند رسول الله (ص)، فقال لها: اختاري يا عمَّة أي هؤلاء الغلمان شئتِ فهو لكِ. فاختارتْ زيداً فأخَذَتْه، فرآه رسول الله (ص) عندها فاستوهبه منها، فوهبته له، فأعتقه رسول الله (ص)وتَبَنَّاه، وذلك قبل أن يوحى إليه»[٣].

وفي رواية ثالثة: «يقال أن رسول الله (ص) كان ابتاع زيداً بالشام لخديجة حين توجَّه مع ميسرة قَيِّمها، فوهبته له»[٤].

ولمَّا خُطِف زيد وضاعت أخباره جزع عليه أبوه جزعاً شديداً، وبكى عليه حين فقده فقال:

---

(١) وفي الاستيعاب: ١/ ٥٢٦ «في سوق حباشة وهو سوق بناحية مكة كان مجمعاً للعرب يتسوقون بها في كل سنة»، ومثله في الروض الأنف: ١/ ٢٨٦.

(٢) طبقات ابن سعد: ١/ق ٢/ ١٧٩ ـ ١٨٠ و٣/ ق ١/ ٢٧ وأنساب الأشراف: ١/ ٤٦٧ والاستيعاب: ١/ ٥٢٦ والإصابة: ١/ ٥٤٥.

(٣) سيرة ابن هشام: ١/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥ والمعجم الكبير: ٥/ ٨٣.

(٤) أنساب الأشراف: ١/ ٤٦٧.

بــكــيــتُ عــلــى زيــدٍ ولــم أدْرِ مــا فَــعَــلْ
أحَــيٌّ فــيُــرجــى أم أتــى دونــه الأجَــلْ
فـــوالله مـــا أدري وإنـــي لَـــســـائـــلٌ
أغـالـكَ بـعـدي الـسَّـهْـلُ أمْ غـالـكَ الـجـبـلْ
ويـا لـيـت شـعـري هـل لـك الـدهـرَ أوبـةٌ
فـحـسـبـي مـن الـدنـيـا رجـوعـك لـي بَـجَـلْ
تُـذَكِّـرُنِـيْـه الـشـمـسُ عـنـد طـلـوعـهـا
وتـعـرض ذكـراه إذا غَـرْبُـهـا أفَـلْ
وإنْ هَـبَّـتِ الأرواحُ هَـيَّـجْـنَ ذِكْـرَهُ
فـيـاطـول مـا حُـزنـي عـلـيـه ومـا وَجَـلْ
سأُعْـمِـل نَـصَّ الـعـيـس فـي الأرض جـاهـداً
ولا أسـأم الـتَّـطـوافَ أو تـسـأم الإبـلْ
حـيـاتـيَ أو تـأتـي عَـلَـيَّ مـنـيَّـتـي
فـكـلُّ امـرىءٍ فـانٍ وإنْ غـرَّه الأمـلْ
وأُوصـي بـه قـيـسـاً وعَـمْـراً كـلـيـهـمـا
وأُوصـي يـزيـداً ثـم مـن بـعـدهـم جَـبَـلْ»[١]

«يعني جَبَلَة بن حارثة أخا زيدٍ وكان أكبر من زيد، ويعني يزيد أخا زيدٍ لأُمِّه؛ وهو يزيد بن كعب بن شراحيل»[٢]، و«يعني بعمرو وقيس أخويه»[٣].

(١) الأبيات: ١ ـ ٧ في سيرة ابن هشام: ١/ ٢٦٥ واللفظ له. والأبيات كلها في أنساب الأشراف: ١/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨ والاستيعاب: ١/ ٥٢٧ وأسد الغابة: ٢/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥. والأبيات ١ ـ ٤ في طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٢٧. والأبيات ٥ ـ ٨ في الطبقات أيضاً: ٣/ق ١/ ٢٨. والبيتان الأول والأخير في الإصابة: ١/ ٥٤٥، وفي ألفاظ بعض الأبيات خلاف بين المصادر المذكورة.
(٢) الاستيعاب: ١/ ٥٢٧.
(٣) الإصابة: ١/ ٥٤٥.

ثم قدم ناسٌ من كلبٍ مكة «فرأوا زيداً، فعرفهم وعرفوه، فقال لهم. أبلغوا أهلي هذه الأبيات فإني أعلم أنهم قد جزعوا عَلَيَّ، فقال:

أحنُّ إلى قومي وإنْ كنتُ نائياً
فإني قعيد البيت عند المشاعرِ
فكفُّوا من الوجد الذي قد شجاكم
ولا تُعمِلوا في الأرض نَصَّ الأباعرِ
فإني بحمد الله في خير أُسرةٍ
كرامِ مَعَدٍّ كابراً بعد كابرِ[1]

«فانطلق الكلبيون فأعلموا أباه فقال: ابني وربِّ الكعبة. ووصفوا له موضعَه وعند مَنْ هو، فخرج حارثة وكعب ابنا شراحيل لفدائه، وقدما مكة، فسألا عن النبي (ص) فقيل: هو في المسجد، فدخلا عليه فقالا: يا ابن عبد المطلب؛ يا ابن هاشم؛ يا ابن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه، تفكُّون العاني، وتُطعِمون الأسير، جئناك في ابننا عبدك فامنُن علينا وأحسِن إلينا في فدائه.

قال: مَنْ هو؟

قالوا: زيد بن حارثة.

فقال رسول الله (ص): «فهلّا غير ذلك».

قالوا: ما هو؟

قال: أدعُوه فأخبروه (فخَيِّروه)، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء،

(١) الأبيات الثلاثة في طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/٢٨ والاستيعاب: ١/٥٢٧ والروض الأنف: ١/٢٨٦ وأسد الغابة: ٢/٢٢٥، والأول بمفرده في الإصابة: ١/٥٤٥، مع خلاف بين المصادر في بعض الألفاظ.

وإن اختارني فواللهِ ما أنا بالذي أختار على مَن اختارني أحداً.

قالا: قد زدتَنا على النَّصف وأحسنتَ.

فدعاه فقال: هل تعرف هؤلاء؟ قال: نعم، قال: مَنْ هما؟ قال: هذا أبي وهذا عمي. قال: فأنا مَنْ قد علمتَ ورأيتَ صحبتي لك؛ فاخترني أو اخترهما. قال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني مكان الأب والعم. فقالا: ويحك يا زيد! أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟. قال: نعم؛ قد رأيتُ من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً».

فلمَّا رأى رسول الله (ص) أخرجه إلى الحِجْر فقال: «يا مَنْ حضر؛ اشهدوا أن زيداً ابني يرثني وأرثه. فلمَّا رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما، فانصرفا. ودُعِي زيد بن محمد حتى جاء الله بالإسلام فنزلتْ: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، فدُعي يومئذٍ زيد بن حارثة»[١].

---

(١) الاستيعاب: ١/٥٢٧ ـ ٥٢٨، وقريب منه في طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/٢٨ ـ ٢٩ وأنساب الأشراف: ١/٤٦٨ ـ ٤٦٩ والروض الأنف: ١/٢٨٧ وأسد الغابة: ٢/٢٢٥ والإصابة: ١/٥٤٥ ـ ٥٤٦.

ولد زيد قبل البعثة النبوية بثلاثين عاماً في أشهر الروايات. فقد ذكر بعض المؤرخين أنه «كان بين رسول الله (ص) وبين زيد بن حارثة عشر سنين، رسول الله (ص) أكبر منه[1]»، وذكر بعضهم ذلك ثم قال: «وقيل بعشرين سنة»[2]، وقيل بستّ سنوات كما هو مقتضى تحديد عمره حين استشهاده بخمس وخمسين سنة[3]، وقيل: استُشهد وله خمسون سنة[4].

ونشأ ـ كما أسلفنا ـ في حضن محمد بن عبد الله قبل بعثته، فقد ملكه أوّلاً وهو ابن ثمان سنين[5]، ثم تبنّاه «وطاف به حين تبنَّاه على حلق قريش يقول: هذا ابني وارثاً وموروثاً، ويُشْهِدهم على ذلك»[6]، وبقي يُدعى زيد بن محمد حتى نزل قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

وقد أحبَّه النبيّ حبّاً شديداً، ورعاه رعاية فائقة، وأولاه من الحنان

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٣٠ وأنساب الأشراف: ١/ ٤٧٠ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٦١.
(٢) الاستيعاب: ١/ ٥٢٦ والإصابة: ١/ ٥٤٥.
(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٣١ والإصابة: ١/ ٥٤٦.
(٤) أنساب الأشراف: ١/ ٤٧٣ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٦٥.
(٥) الاستيعاب: ١/ ٥٢٦ والإصابة: ١/ ٥٤٥.
(٦) الاستيعاب: ١/ ٥٢٦ والإصابة: ١/ ٥٤٥.

والعطف والوداد الصادق أعظم ما عرفت البشرية من ذلك، حتى أصبح يُلقَّب «حِبَّ رسول الله (ص)»[١]، وحتى قال له النبي مرةً في ضمن حديث طويل: «أنت أخونا»[٢].

وروى المحدثون والمؤرخون «أن عمر بن الخطاب... فَضَّل أُسامة بن زيد على عبد الله بن عمر، فقال عبد الله... فضَّلتَ عَلَيَّ مَنْ ليس هو بأقدم مني سناً ولا أفضل مني هجرة ولا شهد من المشاهد ما لم أشهد. قال: ومَنْ هو؟ قال: أسامة بن زيد. قال: صدقتَ، لَعَمْر الله فعلتُ ذلك، لأن زيد بن حارثة كان أحبَّ إلى رسول الله (ص) من عمر، وأسامة بن زيد كان أحبَّ إلى رسول الله (ص) من عبد الله بن عمر، فلذلك فعلتُ»[٣].

وشبَّ زيد في هذا البيت السامي الرفيع، واكتملت ملامح نضجه وشبابه تحت ذلك الظلّ الظليل، ولم تصلنا من أخبار سماته وصفاته في بدنه وخَلْقه ما فيه غنى ومقنع، بل تضاربت في ذلك الروايات تضارباً كبيراً، فقد وُصِف في بعضها أنه «كان أبيض أحمر»[٤]، وفي بعضها أنه «شديد البياض»[٥]، وفي أخبار أخرى أنه «كان رجلاً قصيراً، آدم شديد الأدمة، في أنفه فطس»[٦].

وانطلاقاً من ذلك الحب الذي حبا به رسول الله (ص) زيداً،

---

(١) أنساب الأشراف: ١/ ٤٦٩ والاستيعاب: ١/ ٥٢٩ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٦٠.
(٢) صحيح البخاري: ٥/ ١٨٠ وأنساب الأشراف: ١/ ٤٧٠.
(٣) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ٤٩ وسنن الترمذي: ٥/ ٦٧٥ ـ ٦٧٦ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٦٥.
(٤) أسد الغابة: ٢/ ٢٢٧.
(٥) سير أعلام النبلاء: ١/ ١٦١.
(٦) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٣٠ وأنساب الأشراف: ١/ ٤٧٠ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٦١.

وإتماماً لتلك الرعاية المحمدية الكريمة، تصدّى النبي (ص) بنفسه إلى تزويج زيد، وذكر الذهبي أن ذلك كان «لياليَ بُعِث النبي (ص)»، ويطابق ذلك ما يستفاد من أقوال المؤرخين في تحديد عمر أسامة بن زيد يوم توفي النبي (ص) بعشرين سنة أو تسع عشرة أو ثمان عشرة.

وكانت الزوجة التي حظيتْ باختيار النبي (ص) ورضا زيدٍ: هي السيدة أُم أيمن؛ بَرَكة بنت ثعلبة بن عمرو بن حصن بن مالك بن سلمة بن عمرو بن النعمان، وقد غلبتْ عليها كنيتها بابنها أيمن من زوجها الأول عبيد الحبشي. وهي أمَةٌ من الحبشة تملَّكها عبد الله بن عبد المطلب، وقد حضنت النبي في طفولته حتى كبر، ثم أعتقها رسول الله (ص)، وقيل: بل أعتقها عبد الله قبل وفاته.

وقد أسلمت هذه السيدة الجليلة منذ أوائل البعثة الشريفة، وهاجرت الهجرتين إلى الحبشة - في الهجرة الأولى - وإلى المدينة، وحضرتْ أُحداً وكانت تسقي الماء وتداوي الجرحى، وشهدت خيبراً. وكان يشفق عليها النبي (ص) إشفاقاً عظيماً، ويزورها احتراماً لها.

وهي أُمُّ الصحابي المعروف أُسامة بن زيد(١).

ثم كان له من الزوجات فيما ذكر المؤرخون:

١ - زينب بنت جحش بن رياب بن يعمر بن صبرة بن مرَّة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة، وأُمها أُميمة بنت عبد المطلب بن

(١) يراجع فيما أثبتناه عن أم أيمن: طبقات ابن سعد: ١/ق ٢/١٧٩ - ١٨٠ و٣/ق ١/ ٣٠ و٨/ ١٦٢ وأنساب الأشراف: ١/ ٤٧١ - ٤٧٢ و٤٧٦ والاستيعاب: ١/ ٣٤ - ٣٦ و٥٢٩ و٤/ ٢٤٣ - ٢٤٤ وأسد الغابة: ٥/ ٤٠٨ و٥٦٧ - ٥٦٨ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ١٥٩ والإصابة: ١/ ٤٦ و٤/ ٤١٥ - ٤١٦.

هاشم. وكانت قد هاجرت إلى المدينة، فخطبها النبي (ص) لزيد، فقالت: لا أرضاه لنفسي، قال: فإني قد رضيته لكِ، فتزوَّجها.

ثم إن زيداً شكا زينباً إلى النبي (ص) «وقال: إنها سيئة الخُلُق، واستأمره في طلاقها، فقال له النبي: أمْسِكْ عليك زوجَك يا زيد». ثم إنه «ضاق ذرعاً بما رأى من سوء خلقها، فطلَّقها» فتزوجها النبي (ص) بعد انقضاء عدَّتها. ولم تلد زينب لزيد[١].

٢ ـ أُمُّ بشر أو بشير أو مبشّر، بنت البراء بن معرور، الأنصارية[٢].

٣ ـ دُرَّة بنت أبي لهب. وقد طلَّقها بُعَيْد الزواج[٣].

٤ ـ هند بنت العَوَّام: أُخت الزبير[٤].

٥ ـ حميمة بنت صيفي بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة، وأُمها نائلة بنت قيس بن النعمان بن سنان بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة. وكانت زوجة البراء بن معرور، ثم خلف عليها زيد[٥].

٦ ـ أُم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وكانت قد أسلمتْ بمكة قديماً وأهلُها على الكفر، «وصلَّتِ القِبلَتَيْن، وبايعت رسول الله (ص)، وهاجرت إلى المدينة... عام الحديبية... ولمَّا قدمت المدينة تزوَّجها زيد بن حارثة، فقُتل عنها يوم مؤتة»، وقيل: طلَّقها قبل استشهاده. وروى بعض الرواة أنها ولدت لزيدٍ: ابنه زيداً وابنته

---

(١) طبقات ابن سعد: ٨/ ٧١ و٧٣ وأنساب الأشراف: ١/ ٤٣٤ وأسد الغابة: ٥/ ٤٦٣ ـ ٤٦٥.

(٢) طبقات ابن سعد: ٨/ ٣٣٦ وأسد الغابة: ٥/ ٥٦٩ و٦١٦ ـ ٦١٧.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٣٠ وأنساب الأشراف: ١/ ٤٧١.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٣٠ وأنساب الأشراف: ١/ ٤٧١.

(٥) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٩١ وأسد الغابة: ٥/ ٤٢٩.

رقية، وأن زيداً هلك وهو صغير، وماتت رقية في حجر عثمان[١].

ولم نجد بعد التحقيق سبيلاً لتصديق ذلك، لأن الزواج كان في سنة سبع من الهجرة، واستشهد زيد سنة ثمان، ولم يكن بين الزواج والشهادة من الزمن ما يسع هاتين الولادتين.

والثابت من مجموع النصوص والشواهد التاريخية أنه كان لزيدٍ من الذريَّة:

١ ـ ابنه أُسامة، وبه كان يكنى[٢]، وهو أشهر من أن يُعرَّف، وأُمُّه أم أيمن.

٢ ـ ابنةٌ، ذكرها بعض المؤرخين في أخبار شهادة زيد[٣]، وسميت ـ في إحدى الروايات ـ زينباً[٤]، ولم نعرف اسم أُمِّها.

۞ ۞ ۞

وهنا ـ وبعد الاطلاع على هذا العدد من الزوجات ـ قد يقف القارىء موقف المستغرب المتأمل، ويجد في ذلك ما يثير الانتباه ويلفت النظر، وبخاصة في تلك المرحلة الزمينة الحافلة بأعنف ضروب الجهاد الدامي والعمل الدؤوب على حماية دين الله والدفاع عن كلمة التوحيد، مما لم يكن يدع مجالاً لأولئك المجاهدين العاملين ـ وزيد من طلائعهم البارزة الممتازة ـ لأمثال هذه المتع والملذات!.

---

(١) يراجع فيما أثبتناه في أم كلثوم بنت عقبة: طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٣٠ و٨/ ١٦٧ وأنساب الأشراف: ١/ ٤٧١ والمحبر: ٤٤٦ والتبيين: ١٨٤ وجمهرة أنساب العرب: ١١٥ وأسد الغابة: ٥/ ٦١٤ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ١٩٩ ـ ٢٠٠.

(٢) الاستيعاب: ١/ ٥٢٩.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٣٢ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٦٥.

(٤) أنساب الأشراف: ١/ ٤٧٣.

ولكن النظرة الفاحصة في هذه الزيجات ـ ما علمنا أمره منها وما لم نعلم ـ تجعلنا واثقين من أن بعض ذلك أو معظمه لم يكن زواجاً بالمعنى المتعارف المألوف، أي لم يكن زواجاً قائماً على دوافع اللذة والمتعة والرغبة الجنسية، بمقدار ما كان له من دوافع وأهداف أخرى سامية، منها ما هو إنساني بحت، ومنها ما هو اجتماعي أخلاقي تربوي يراد به إعادة بناء المجتمع وتلاحمه في ضوء العقيدة الجديدة، ومنها ما هو تبيان لحكم شرعي لم يكن من الممكن بيانه وترسيخه في أذهان الناس بغير ذلك.

وقد تمثَّل الجانب الإنساني البحت في زواج زيد من أم كلثوم بنت عقبة، وكانت هذه السيدة قد هجرت جميع أهلها في مكة لكفرهم وضلالهم، وهاجرت وحدها إلى المدينة المنورة، فكان من الضروري المحتَّم أن يقوم أحد المسلمين بواجب إيوائها وحمايتها ورعاية شؤونها، وليست من حمايةٍ ورعايةٍ أفضل من الزواج من كل الجهات؛ وأبعد عن المزالق والشبهات. وربما كان النبي (ص) نفسه هو المقترح على زيدٍ أو الراغب بذلك؛ لتطمئنَّ نفسه على هذه المسلمة المهاجرة الغريبة.

وتمثَّل الجانب الاجتماعي الذي أراد النبي (ص) إحكام أمره وتعميق جذره في دولة الإسلام، في زواج زيدٍ من ابنتي أبي لهب والعَوَّام وهما من سادات مكة؛ وابنة البراء بن معرور وهو من سادات المدينة. وكان الهدف التربوي المنشود من هذه الزيجات أن يعلم الناس ـ وفي مقدمتهم ذوو التعصب للأحساب والأنساب ـ أن الإسلام هو الحسب، وأن الإخلاص لله ولرسوله هو النسب، وأن أكرمهم عند الله أتقاهم، وأن المسلم كفء المسلمة، وأن العنعنات الجاهلية والعصبيات القَبَلِيَّة لم يعد لها مكان في هذا المجتمع الجديد السعيد. وفي ضوء هذه المقاييس السماوية أصبح العبد المملوك المُعْتَق الذي أنعم عليه

النبي (ص) بالحرية كفؤاً لبنات الرؤساء والزعماء. فكان ذلك من أبلغ الدروس العملية في شجب تلك الأفكار العِرقية المقيتة، وإقامة مجتمع العدل والمساواة.

وتمثل الجانب المرتبط ببيان الحكم الشرعي؛ في زواج زيد من ابنة عمة رسول الله (ص)؛ زينب بنت جحش، وهو زواج رفضته السيدة زينب بادىء بدء، ولم توافق عليه إلاّ بعد أن أعلمها النبي (ص) برغبته بذلك وإرادته له فأذعنت ورضيت، وربما كان النبي (ص) ـ مع رغبته وإرادته ـ متوقّعاً فشل هذا الزواج وعالماً بعدم دوامه واستمراره، ولكنه محقِّق حتى في هذه الحالة للهدف المنشود منه، إن لم نقل بأن فشله هو المطلوب بالذات.

وقد سبقت منّا الإشارة إلى أن النبي (ص) قد تبنّى زيداً بعد عتقه فصار يُدعى زيد بن محمد، وأن ذلك قد استمر حتى نزول آية النهي عن التبنّي؛ فدُعي حينذاك زيد بن حارثة. وكانت العرب ترى أن زوجة المُتَبَنّى كزوجة الابن ـ تماماً ـ في كل الأحكام والالتزامات، ومنها أن لا يتزوجها أبو الزّوج وما سيستتبعه أن يتضح للناس عملياً ـ وليس بالقول فقط ـ أنْ لا مانع من ذلك، لأن المُتَبنّى ليس ابناً بأي نحو من الأنحاء، وأن يعلم الجميع أنه لا يترتب على التبنّي الجاهلي في الشريعة الإسلامية أي أثر شرعي من آثار البنوّة الحقيقية، ولذلك تزوَّج النبي (ص) زينباً بعدما طلّقها زيد تطبيقاً لهذا التشريع وإعلاناً له. وقد بيَّن الله تعالى هذه الحكمة أو الهدف بأصرح عبارة وأبلغها فقال عزَّ من قائل: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾[١].

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٧.

ولمَّا دَوَّتْ صيحة السماء في الأرض داعية إلى كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة، وأنزل الله وحيه المقدَّس على نبيِّه الأمين، وأرسله بشيراً ونذيراً ورحمة للعالمين. كان زيد من طليعة المبادرين إلى الإيمان بالرسالة والرسول، وقد أخرج المحدِّثون والمؤرخون عدة روايات تؤكد سبقه إلى الإسلام، وفي معظمها: أنه «أول ذكرٍ أسلم وصلَّى بعد عليٍّ بن أبي طالب»[1].

ومنذ هذا اليوم بدأ عهد جديد في حياة زيد خرج فيه من تبعية البنوَّة لمحمد إلى تبعية النبوَّة، وهو عهد حافل ستكون كل أيامه جهداً وجهاداً وعملاً وتضحية. وقد تحمَّل زيد في بداية هذا العهد من أذى قريش وعَنَتها وإرهابها وتعذيبها ما لا يتحمَّله إلاَّ النخبة الزاكية والصفوة الممتازة من المؤمنين الصادقين الذين نذروا حياتهم لله تعالى، ووهبوا النفس والنفيس لحماية الدين والدفاع عن العقيدة ورسولها وأتباعها المستضعفين.

وكان من أبرز مهماته وواجباته الرئيسة ـ في مكة قبل الهجرة ـ

---

(١) السير والمغازي: ١٣٧ و١٣٩ وسيرة ابن هشام: ١/ ٢٦٤ وطبقات ابن سعد: ٤/ ق ١/ ٤٢ وأنساب الأشراف: ١/ ١١٢ ـ ١١٣ و٤٧١ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣١٦ ـ ٣١٧ والمعجم الكبير: ٥/ ٨٤ وأسد الغابة: ٢/ ٢٢٦ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ٥٣ والبداية والنهاية: ٣/ ٢٤ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٥٧.

مرافقة النبي (ص) ومصاحبته كلما وجد إلى ذلك سبيلاً، يتعلم منه أحكام الله وفقه الشريعة تارة، ويدافع عنه أو يواسيه فيما يصيبه من أذىً ومطاردة وآلام تارة أخرى، وكان ذلك من أبلغ ضروب الجهاد في سبيل الله في تلك المرحلة من مراحل الدعوة.

ونورد ـ فيما يأتي ـ شاهدَيْن أو مَثَلَيْن على هذه الرفقة الوفيَّة والمصاحبة الصادقة والمواساة المخلصة، فيهما من الدلالة والبيان ما يكفي ويغني في إثبات هذه الحقيقة الناصعة:

١ ـ روى المؤرخون أن قريشاً لمَّا مشتْ إلى أبي طالب تكلِّمه في محمدٍ وما فعل بآلهتهم، أرسل أبو طالب إلى النبي (ص) فأحضره، فقال الطرفان ما أرادا قوله ممَّا لا مجال لسرده، ثم تفرَّق الاجتماع بإصرار النبي (ص) على موقفه؛ وبتهديد قريش إياه.

«فلمَّا كان مساء تلك الليلة فُقِد رسول الله (ص)، وجاء أبو طالب وعمومته إلى منزله فلم يجدوه، فجمع فتياناً من بني هاشم وبني المطَّلب ثم قال: ليأخُذْ كلٌّ واحد منكم حديدةً صارمة ثم ليتبعني إذا دخلتُ المسجد... فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحال، فقال: يازيد؛ أحسستَ ابنَ أخي؟ قال: نعم كنتُ معه آنفاً، فقال أبو طالب: لا أدخل بيتي أبداً حتى أراه. فخرج زيد سريعاً حتى أتى رسول الله (ص) وهو في بيتٍ عند الصَّفا ومعه أصحابه يتحدَّثون، فأخبره الخبر، فجاء رسول الله (ص) إلى أبي طالب...»[1].

٢ ـ وروى المؤرخون ـ أيضاً ـ قالوا: «لمّا توفي أبو طالب تناولت قريش من رسول الله (ص) واجترأوا عليه، فخرج إلى الطائف ومعه

(١) طبقات ابن سعد: ١/ق ١/١٣٥.

زيد بن حارثة، وذلك في ليالٍ بقين من شوال سنة عشرٍ من حين نُبِّيءَ (ص)... فأقام بالطائف عشرة أيام، لا يدع أحداً من أشرافهم إلاَّ جاءه وكلَّمه، فلم يجيبوه، وخافوا على أحداثهم، فقالوا: يا محمد اخرجْ من بلدنا... وأغروا به سفهاءهم فجعلوا يرمونه بالحجارة، حتى أن رِجْلَيْ رسول الله (ص) لَتَدْميان، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شُجَّ في رأسه. فانصرف رسول الله (ص) من الطائف راجعاً إلى مكة وهو محزون[1].

❀ ❀ ❀

ولمَّا أذن الله تعالى لرسوله بالهجرة إلى المدينة المنورة بعد إسلام الأوس والخزرج ومبايعتهم النبيَّ على الحماية والنصرة والمؤازرة والفداء، أمر رسول الله (ص) أصحابه بالهجرة إليها قبله، فراراً بأنفسهم من أذى قريش ومطاردتها الرهيبة.

وكان من جملة أولئك المهاجرين الفارّين بدينهم: زيد بن حارثة. وقد نزل هناك على كلثوم بن الهِدْم أخي بني عمرو بن عوف بقُبَاء، وقيل: نزل على سعد بن خَيْثَمة[2].

ثم وصل النبي (ص) إلى المدينة، وكان من أُولى خطواته المباركة لبناء المجتمع الجديد توحيد كلمة المسلمين ورصُّ صفوفهم وتدعيم مشاعر الأخوَّة فيما بينهم، فآخى بين المسلمين مرتين زيادة في إحكام الرابطة وتعميق المودَّة:

---

(١) طبقات ابن سعد: ١/ق ١/١٤٢، وقريب منه في أنساب الأشراف: ١/٢٣٧ والتبيين: ٤٤ وشرح نهج البلاغة: ٤/١٢٧ ـ ١٢٨.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/١٢١ ـ ١٢٢ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ١/٣٠ وأنساب الأشراف: ١/٤٧٢.

آخى بين المهاجرين بعضهم بعضاً، فاختار لكل واحدٍ منهم أخاه، فكان حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة أخَوَيْن. ولذلك أوصى إليه حمزة يوم أُحُد حين حضر القتال إنْ أَلَمَّ به حَدَث الموت(١).

وآخى بين المهاجرين والأنصار، فاختار كذلك، فكان أُسَيْد بن الحُضَي وزيد بن حارثة أخوين(٢).

وبدأتْ منذ ذلك اليوم مرحلة أخرى من مراحل الجهاد والكفاح في سبيل تثبيت دعائم العقيدة وإعلاء كلمة الله، وهي مرحلة ذات جانبين رئيسَيْن أساسيّين: جانب العمل الداخلي الشاقّ بناءً للدولة الجديدة، وجانب الحروب والمعارك الدامية دفاعاً عن الكيان ودحراً للعدوان.

وكان لزيدٍ في كلٍّ من هذين الجانبين دور كبير ووجود فعَّال وشأن لا يُستهان به.

ولأن زيداً ـ كما أسلفنا ـ ربيب رسول الله (ص) وموضع ثقته واطمئنانه، كان أول واجبٍ عهد به إليه بعد الهجرة إلى المدينة والاستقرار فيها: بَعْثه إياه ومعه أبو رافع ـ بعد أن أعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم ـ إلى مكة المكرمة، «فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتي رسول الله (ص) وسَوْدة بنت زمعة زوجته... وحمل زيد بن حارثة امرأته أُمَّ أيمن مع ابنها أسامة بن زيد»(٣).

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٥٠ ـ ١٥١ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٤ و٣٠ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٧٠ و٤٧٢ والمحبر: ٧٠ والمعجم الكبير: ٥/ ٨٥ وأسد الغابة: ٢/ ٢٢٤ والإصابة: ١/ ٥٤٦.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٣٠ و٣/ق ٢/ ١٣٦ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٧٠ و٤٧٢ والمحبر: ٧١ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٤٦.

(٣) طبقات ابن سعد: ١/ق ١/ ١٦١ و٨/ ٤٢ ـ ٤٣ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٦٩ و٤١٤ و٤٧٧ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٠٠.

وانطلاقاً من تلك الثقة والأمانة بعثه النبي مرة أخرى إلى طريق مكة قريباً منها ومعه رجلٌ من الأنصار، وقال لهما: «كُونا ببطن يَأْجج حتى تمرَّ بكما زينب، فتصحباها حتى تأتياني بها. فخرجا مكانهما، وذلك بعد بَدْرٍ شهرٍ أو شَيْعه... فقَدِما بها على رسول الله (ص)[١]».

ولمَّا خرج رسول الله (ص) لطلب كُرز بن جابر الفهري، في شهر ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهراً من مُهاجره، وحمل لواءه عليٌّ بن أبي طالب وكان لواءً أبيض. استخلف على المدينة زيد بن حارثة[٢].

ثم استخلفه عليها مرة أخرى لمَّا خرج إلى غزوة المُرَيْسيع في شعبان سنة خمس من الهجرة، وغاب عنها ثمانية وعشرين يوماً[٣].

وعندما توجَّه المسلمون إلى بدرٍ إحقاقاً لحقِّهم ودفاعاً عن كرامتهم ووجودهم، كان زيد من جملة حُضَّارها، وكان يتعاقب هو والنبي (ص) وعليٌّ على بعير واحد[٤]. وقد صدق ما عاهد الله عليه في هذه المعركة الحاسمة، وشارك في قتل حنظلة بن أبي سفيان ونُبَيْه بن الحجاج بن عامر[٥]. واختاره النبي (ص) بعد انتهاء الحرب بشيراً إلى المدينة يحمل لأهلها فرحة نصر الله وسلامة رسول الله (ص)[٦].

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٠٨ ـ ٣١٠ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٩٧ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٦٩ ـ ٤٧٠ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ١٩١ و١٩٣ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٤٠.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٥١ وطبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٤ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٨٧ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٠٧.

(٣) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٤٥ و٤٧ و٣/ق ١/ ٣١ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٤٢.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٣١ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٨٩ والمحبر: ٢٨٧ والمعجم الكبير: ٥/ ٨٣ والاستيعاب: ١/ ٥٢٩ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ٨٨ والإصابة: ١/ ٥٤٦.

(٥) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٦٥.

(٦) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٩٦ وطبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ١٢ وأنساب الأشراف: =

ثم شهد أُحداً، والخندق، والحديبية، وخيبراً[١].

وكان من الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله (ص)[٢].

ولعلَّ من أبلغ شواهد التكريم النبوي لزيد والإقرار بشجاعته وبطولته أنه كان يحمل لواء المهاجرين في حرب الخندق[٣].

ولمّا كان أمن المدينة وحمايتها من المفاجآت خلال هذه الحرب شغْلَ النبي (ص) الشاغل، خوفاً من غدر اليهود ونقضهم للعهد، كان (ص) يبعث في كل ليلة «سلمة بن أسلم في مائتي رجل؛ وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل، يحرسون المدينة، ويُظهِرون التكبير، وذلك أنه كان يخاف على الذراري من بني قريظة»[٤]، وبقيت الحال على هذا المنوال حتى نهاية الحرب وانسحاب قريش إلى مكة.

❀ ❀ ❀

ولم تكن أدوار زيد في الجهاد والبطولة مقتصرة على المشاركة في المعارك والمساهمة في حروب الدفاع عن الدين، جندياً من جنود الله؛ ومحارباً من جملة المحاربين. بل كان له من الشجاعة والحنكة وقوة الإقدام وحُسْن التصرف ما يؤهِّله لقيادة العمليات وإدارة الحرب، ولذلك أمَّره النبي (ص) في عدة بعوث وغزوات، وأرسله قائداً لأصحابه في عدة مهمات عسكرية ذات شأن.

= ١/ ٢٩٤ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٥٨ و٤٨٧ وأسد الغابة: ٢/ ٢٢٦ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ١٨٤ ـ ١٨٥.

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٣١ والإصابة: ١/ ٥٤٦.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٣١ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٢٣ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ٢٥٠.

(٣) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٤٨.

(٤) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٤٨.

وكانت الإمارة الأولى لزيدٍ في السريَّة التي وجَّهها رسول الله (ص) إلى القَرَدَة «لهلال جمادى الآخرة، على رأس ثمانية وعشرين شهراً من مُهاجَرِ رسول الله (ص)... والقَرَدَة من أرض نجدٍ بين الرَّبَذَةِ والغَمْرَةِ ناحيةَ ذات عِرْقٍ. بعثه رسول الله (ص) يعترض لعِير قريش وفيها صفوان بن أميَّة وحويطب بن عبد العُزّى وعبد الله بن أبي ربيعة ومعه مال كثير وآنية فضة وزن ثلاثين ألف درهم؛ وكان دليلهم فرات بن حيَّان العِجْلي، فخرج بهم على ذات عِرق طريق العراق. فبلغ رسولَ الله (ص) أَمرُهم فوجَّه زيد بن حارثة في مائة راكب، فاعترضوا لها، فأصابوا العِير، وأفلت أعيانُ القوم، وقدموا بالعير على رسول الله (ص)[1]».

وفي شهر ربيع الآخر، سنة ستٍّ من الهجرة، «بعث رسول الله (ص) زيد بن حارثة إلى بني سُليم، فسار حتى ورد الجَمُوم ناحيةَ بطنِ نخل عن يسارها ـ وبطن نخلٍ من المدينة على أربعة بُرُد ـ، فأصابوا عليه امرأة من مزينة يقال لها حليمة، فدلَّتْهم على محلة من محالّ بني سُليم، فأصابوا في تلك المحلَّة نعماً وشاءً وأسرى، فكان فيهم زوج حليمة المُزنية. فلمَّا قفل زيد بن حارثة بما أصاب وهب رسول الله (ص) للمزنية نفسَها وزوجَها»[2].

وفي جمادى الأولى، سنة ستٍّ من الهجرة، «بلغ رسولَ الله (ص) أن عِيراً لقريش قد أقبلت من الشام، فبعث زيد بن حارثة في سبعين ومائة راكب، يتعرَّض لها، فأخذوها وما فيها، وأخذوا يومئذٍ فضةً كثيرة

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٥٣ ـ ٥٤ وطبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٢٤ ـ ٢٥ و٣/ق ١/ ٣١ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٧٤ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٩٢ ـ ٤٩٣ والبداية والنهاية: ٤/ ٤ ـ ٥.

(٢) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٦٢ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٧٧ وتاريخ الطبري: ٢/ ٦٤١.

لصفوان بن أميَّة، وأسروا ناساً ممَّن كان في العِير، منهم أبو العاص بن الربيع، وقدم بهم المدينة»[١].

وفي جمادى الآخرة، سنة ستٍّ من الهجرة، «بعث رسولُ الله (ص) زيد بن حارثة إلى الطَّرَف ـ وهو ماءٌ قريب من المِرَاض دون النُّخَيْل ـ على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة، طريق البَقَرَة على المَحَجَّة. فخرج إلى بني ثعلبة في خمسة عشر رجلاً، فأصاب نعماً وشاءً، وهربت الأعراب، وصَبَّح زيد بالنَّعَم المدينة وهي عشرون بعيراً، ولم يلق كيداً. وغاب أربع ليالٍ»[٢].

وفي جمادى الآخرة، سنة ستٍّ من الهجرة، أقبل دِحيةُ بن خليفة الكلبي من عند قيصر ملك الروم، وكان رسول الله (ص) قد بعثه إليه ومعه تجارة له، «فلقيه الهُنَيد بن عارض (أو عوص) وابنه عارض (أو عوص) بن الهُنَيد، في ناسٍ من جُذام بحِسْمى، فقطعوا عليه الطريق فلم يتركوا عليه إلاَّ سَمَل ثوبٍ، فسمع بذلك نفرٌ من بني الضُّبَيْب فنفروا إليهم فاستنقذوا لدحيَة متاعَه. وقدم دحيةُ على النبي (ص) فأخبره بذلك، فبعثَ زيد بن حارثة في خمسمائة رجل؛ وردَّ معه دحيةَ، فكان زيد يسير الليل ويكمن النهار، ومعه دليل له من بني عُذرة، فأقبل بهم حتى هجم بهم مع الصبح على القوم، فأغاروا عليهم فقتلوا فيهم فأوجعوا، وقتلوا الهنيد وابنه، وأغاروا على ماشيتهم ونعمهم ونسائهم، فأخذوا من النعم ألف

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٦٣ و٨/ ٢١ ـ ٢٢ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٧٧ و٣٩٨ وتاريخ الطبري: ٢/ ٦٤١.

(٢) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٦٥ وطبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٦٣ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٧٧ وتاريخ الطبري: ٢/ ٦٤١.

بعيرٍ ومن الشاء خمسة آلاف شاة ومن السبي مائة من النساء والصبيان»، ثم أمر النبي (ص) زيدَ بن حارثة أن يخلي الحرم والأموال، فردَّ إلى الناس كلَّ ما كان أخذ منهم[١].

وفي رجب، سنة ستٍّ من الهجرة، «خرج زيد بن حارثة في تجارة إلى الشام، ومعه بضائع لأصحاب النبي (ص). فلمَّا كان دون وادي القرى لقيه ناس من فزارة من بني بدر، فضربوه وضربوا أصحابه وأخذوا ما كان معهم»[٢]، «فأُصيب بها ناس من أصحابه، وارتُثَّ زيد من بين القتلى (أي حُمِل جريحاً وبه رمق)... فلمَّا قدم زيد آلى أن لا يمسَّ رأسَه غِسْلٌ حتى يغزو بني فزارة، فلمَّا استبلَّ من جراحته بعثه رسول الله (ص) إلى بني فزارة في جيش»[٣]، «فكمنوا النهار وساروا الليل... ثم صبَّحهم زيد وأصحابه فكبَّروا وأحاطوا بالحاضر» فقتلوهم وأصابوا فيهم، «وأخذوا أُمَّ قِرْفَةَ ـ وهي فاطمة بنت ربيعة بن بدر ـ وابنتها جارية بنت مالك... وقدم زيد بن حارثة من وجهه ذلك فقرع باب النبي (ص) فقام إليه... حتى اعتنقه وقَبَّله وسأله، فأخبره بما ظَفَّرَه الله به»، وكان ذلك في شهر رمضان سنة ستٍّ من الهجرة[٤].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٦٠ ـ ٢٦٢ وطبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٦٤ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٧٧ وتاريخ الطبري: ٢/ ٦٤١ ـ ٦٤٢ و٣/ ١٤٠ ـ ١٤٣.

(٢) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٦٥ ـ ٦٦.

(٣) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٦٥.

(٤) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٦٥ ـ ٦٦ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٧٨ وتاريخ الطبري: ٢/ ٦٤٣ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٦٤ والإصابة: ١/ ٥٤٦.

في جمادى الأولى، سنة ثمان من الهجرة، وعلى أثر مقتل أحد المسلمين ـ وهو الحارث بن عمير الأزدي ـ في بلاد الشام، وكان قد أرسله النبي (ص) من قبله إلى ملك بُصْرى بكتابٍ، ندب النبيُّ الناسَ إلى الحرب.

واجتمع شمل الجيش وكان ثلاثة آلاف من المسلمين، فأمرهم رسول الله (ص) بالتوجُّه إلى تلك المنطقة للثأر وتأديب القتلة، «واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال: إنْ أُصيب زيدٌ فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس»(١).

«وعقد لهم رسول الله (ص) لواءً أبيض، ودفعه إلى زيد بن حارثة، وأوصاهم رسول الله (ص) أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير وأنْ يَدْعُوا مَنْ هناك إلى الإسلام، فإنْ أجابوا وإلاَّ استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم»(٢).

و«خرج القوم، وخرج رسول الله (ص)، حتى إذا ودَّعهم وانصرف

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ١٥ وطبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٩٢ وصحيح البخاري: ٥/ ١٨٢ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٨٠ وتاريخ الطبري: ٣/ ٣٦ ومقاتل الطالبيين: ١١ والمعجم الكبير: ٥/ ٨٤ والاستيعاب: ١/ ٥٢٩ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٦١ والإصابة: ١/ ٥٤٦.

(٢) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٩٢ ـ ٩٣.

عنهم... مضوا حتى نزلوا معان من أرض الشام، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم... ومائة ألف من العرب... فلمَّا بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكّرون في أمرهم... فشجَّع الناسَ عبدُ الله بن رواحة... فمضى الناس، حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب... ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى قريةٍ يقال لها مؤتة، فالتقى الناس عندها، فتعبأ لهم المسلمون»[١].

«ثم التقى الناس واقتتلوا. فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله (ص) حتى شاط (أي سال دمُه فمات) في رماح القوم»[٢].

وكان النبي (ص) وهو في المدينة يتلقَّى أنباء المعركة من طريق الوحي، وكان يعلن تلك الأنباء على المسلمين أولاً بأوَّل، فـ«لمَّا أُصيب القوم قال رسول الله (ص): أخذ الرايةَ زيدُ بن حارثة فقاتل بها حتى قُتِل شهيداً. ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيداً... ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيداً»[٣].

ثم «جلس رسول الله (ص) يُعْرَف فيه الحزن»[٤]، وقال: «استغفروا له، وقد دخل الجنَّة وهو يسعى»[٥].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ١٦ ـ ١٩ وطبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٩٢ ـ ٩٣ وتاريخ الطبري: ٣/ ٣٩.

(٢) سيرة ابن هشام: ٤/ ١٩ وطبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٩٣ وتاريخ الطبري: ٣/ ٣٩ ومقاتل الطالبيين: ١٢ والمعجم الكبير: ٥/ ٨٥ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٦٧ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٦٥.

(٣) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٢ ومقاتل الطالبيين: ١٣ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٦٨ ـ ٦٩.

(٤) صحيح البخاري: ٥/ ١٨٢.

(٥) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٣١.

ثم جاء دارَ زيد، «فجهشت زينب بنت زيد في وجهه، فبكى رسول الله (ص) حتى انتحب، فقال له سعد بن عبادة: يا رسول الله ما هذا؟ قال: هذا شوق الحبيب إلى حبيبه»[١].

❀ ❀ ❀

وبادر الشعراء من الصحابة على أثر هذه الفاجعة المحزنة إلى رثاء شهداء مؤتة الأبرار، والمشاركة في تأبينهم، والتعبير عن الألم الممض الذي أحدثه فراقهم في نفوس رفاقهم في الجهاد والعقيدة. فقال حسان بن ثابت يرثي زيداً:

عَينُ جودي بدمعك المنزورِ ... واذكري في الرخاء أهلَ القبورِ
واذكري مؤتة وما كان فيها ... يوم ولَّوا في وقعة التغويرِ
حين ولَّوا وغادروا ثَمَّ زيداً ... نِعْمَ مأوى الضَّريك والمأسورِ
حِبَّ خيرِ الأنام طرّاً جميعاً ... سيدِ الناس حُبُّه في الصدورِ
ذاكُمُ أحمد الذي لا سواهُ ... ذاك حزني معاً له وسروري
أن زيداً قد كان منَّا بأمرٍ ... ليس أمْرَ المُكذِّب المغرورِ
ثم جودي للخزرجي بدمعٍ ... سيداً كان ثَمَّ غير نزورِ
قد أتانا من قتلهم ما كفانا ... فبُحزنٍ نَبيتُ غير سرور[٢]

وقال حسان ـ أيضاً ـ يذكر زيداً في قصيدته في رثاء جعفر:

فلا يُبعدنَّ اللَّهُ قتلى تتابعوا ... بمؤتة منهم ذو الجناحَيْنِ جعفرُ
وزيد وعبد الله حين تتابعوا ... جميعاً وأسباب المنية تخطرُ[٣]

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٣٢ وأنساب الأشراف: ١/ ٤٧٣ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٦٥.

(٢) ديوان حسابن بن ثابت: ٢٩٥.

(٣) ديوان حسان بن ثابت: ٩٨.

وقال شاعر من المسلمين ممن حضر غزوة مؤتة:

كفى حَزَناً أني رجعتُ وجعفرٌ وزيد وعبد الله في رمس أقبُرِ
قَضَوْا نحبهم لمَّا مضوا لسبيلهم وخُلِّفتُ للبلوى مع المُتَغَبِّرِ
ثلاثة رهطٍ قُدِّموا فتقدَّموا إلى وِرد مكروهٍ من الموت أحمرِ(١)

❀ ❀ ❀

وتناقل المسلمون على مرِّ القرون أخبار بطولة هؤلاء الشهداء الميامين، وازدحمت نفوس الأجيال المتعاقبة بمشاعر الحب والمودة والإكبار لجهادهم المشرِّف وبسألتهم الرائعة، فدأبوا على زيارة قبورهم؛ وقراءة ما تيسَّر من القرآن الكريم على أرواحهم، وكانوا يعبِّرون بهذا الحضور وتلك الزيارة عمَّا يجب أن يكنَّه المسلم في داخله من ارتباط روحي عميق بأولئك الأسلاف المجاهدين، ومن استعداد لبذل مثل تلك التضحيات كلَّما اقتضى الموقف ذلك؛ حمايةً لدين الله؛ وصيانة لشريعته الخالدة.

وقد ذكر السيد محسن الأمين في مجموع زياراته جملاً معيَّنة يزار بها زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنهما ـ هذا نصُّها: السلام عليكما يا صاحَبيْ رسول الله (ص) والشهيدَيْن في سبيل الله. السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار. أشهد لقد جاهدتما في سبيل الله، وصبرتما، وجُدْتما بأنفسكما، حتى قُتِلتما مجاهِدَيْن صابرَيْن مُقبِلَيْن غير مدبرَيْن، فجزاكما الله خير جزاء المحسنين، ورفع درجتكما في أعلى علِّيين، وحشرنا الله في زمرتكما تحت راية محمد (ص)، ولا أحْرَمَنا بركتكما. والسلام عليكما ورحمة الله وبركاته(٢).

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ٣٠.
(٢) مفتاح الجنات: ٢/ ٢٦٠.

مِنَ المؤمنين رجال

[٦]

جعفر بن أبي طالب

جعفر بن أبي طالب

اسمه ونسبه

هو: جعفر بن أبي طالب ـ واسم أبي طالب: عبد مناف ـ بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيٍّ بن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لُويٍّ بن غالب بن فِهر بن مالك بن النَّضْر بن كنانة بن خُزَيمة بن مُدرِكة بن إلياس بن مُضَر بن نزار بن مَعَدِّ بن عدنان[١].

أبوه: «سيد البطحاء وشيخ قريش ورئيس مكة... وكانت قريش تسمِّيه الشيخ»، وحسبه من الفخر أنه هو «الذي كفل رسولَ الله (ص) صغيراً، وحماه وحاطه كبيراً، ومنعه من مشركي قريش، ولقي لأجله عَنَتاً عظيماً، وقاسى بلاءً شديداً، وصبر على نصره والقيام بأمره»[٢]. وقد توفي للنصف من شوال في السنة العاشرة من البعثة النبوية، وهو يومئذٍ ابن بضع وثمانين سنة[٣].

وأُمُّه: السيدة الجليلة فاطمة بنت أسَد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي[٤]، أول هاشميةٍ وَلَدت لهاشمي، وكانت من المبادرات إلى الإسلام إذْ أسلمتْ بعد عشرة من المسلمين؛ وأوّلَ امرأةٍ بايعت

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/١ ـ ٢.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١/٢٩.

(٣) طبقات ابن سعد: ١/ق ١/٧٩.

(٤) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/٢٢.

النبي (ص). وكان رسول الله (ص) يكرِّمها ويعظِّمها ويدعوها: أُمّي، ولما توفيت ـ وكان ذلك بالمدينة بعد الهجرة ـ ألبسها (ص) قميصه، ونزل في لحدها واضطجع معها فيه، وأحسن الثناءَ عليها[١].

وُلِد جعفر ـ في الرواية المشهورة ـ قبل البعثة النبوية بعشرين عاماً. وكأنَّ منشأ هذا التقدير لدى المؤرخين ما أجمع عليه النقل من أن جعفراً أكبر من عليٍّ بعشر سنين؛ وأنه الثالث من ولد أبيه، إذ كان طالب أكبرهم سنّاً، ويليه عقيل ثم جعفر ثم علي، وكل واحد منهم أكبر من الآخر بعشر سنين[٢].

ولكننا إذا احتملنا أو رجَّحنا أن تكون سنُّ عليٍّ عند البعثة النبوية أكثر من عشر سنين ـ كما هو المحقَّق ـ؛ أو قرابة عشرين سنة ـ كما هو المحتمل أو المظنون ـ، فإن تاريخ ولادة جعفر يكون أسبق من ذلك قطعاً، وإن كنَّا لا نستطيع تحديده على وجه الدقة والتعيين.

وتبعاً للرواية المشهورة في ولادته ذكر الزبير بن بكار أن سنَّه كانت «يوم قُتِل إحدى وأربعين سنة»[٣]، ونصَّ البلاذري على أنه كان حين استشهاده «له أكثر من أربعين سنة بأشهر، ويقال: أقل منها بأشهر»[٤]، وقال ابن حجر عند ذكر مقتله: «فاستوفى أربعين سنة، وزاد عليها على الصحيح»[٥]، ولكن ابن الأثير قال معقِّباً على ذلك: «وقيل: غير ذلك»[٦]. أمَّا ما أورده ابن إسحاق من أن سنَّه يوم قُتِل «ثلاث وثلاثون

(١) نسب قريش: ٤٠ ومقاتل الطالبيين: ٨ ـ ١٠ وشرح نهج البلاغة: ١/ ١٤.
(٢) نسب قريش: ٣٩.
(٣) الاستيعاب: ١/ ٢١٤ والتبيين: ٩٤ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٧٣.
(٤) أنساب الأشراف: ١/ ١٩٨.
(٥) الإصابة: ١/ ٢٣٩.
(٦) أسد الغابة: ١/ ٢٨٩.

سنة[١]» ففيه من الوهم أو التصحيف ما لا يخفى، ولعل صوابه «ثلاث وأربعون».

ونشأ هذا الوليد الكريم في بيت المجد والجلال والسؤدد، في كنف ذلك الأب الفذ العظيم، وفي حضن تلك الأم المباركة الرؤوم، مغموراً بالحنان الدافىء والحب الطاغي والرعاية الفائقة، فأوتي بفضل ذلك جميع أسباب النشأة الحسنة والتربية الصالحة والإعداد الجيِّد للغد المنشود.

ولمَّا عمَّتْ مكةَ وأطرافها تلك الأزمة المعيشية الخانقة والضائقة المالية الشديدة ـ وكان جعفر يومذاك في ميعة الصبا ومطلع الشباب ـ أخذه عمه العباس فضمَّه إليه وجعله في داره؛ تخفيفاً من أعباء أبي طالب ونفقاته، ويروي المؤرخون أن ذلك كان باقتراح من النبي (ص) ومبادرة كريمة منه؛ دفعه إليها حبُّه لعمه أبي طالب وإشفاقه عليه. وفي ذلك يحدِّث ابن إسحاق فيقول:

«إن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثير، فقال رسول الله (ص) للعباس عمِّه وكان من أيسر بني هاشم: يا عباس؛ إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصابَ الناسَ ما ترى من هذه الأزمة، فانطلِقْ بنا إليه فلنخفِّف عنه من عياله، آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً فنكفلهما عنه. فقال العباس: نعم. فانطلقا حتى أتَيا أبا طالب فقالا له: إنّا نريد أن نخفِّف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه... فأخذ رسول الله (ص) عليّاً فضمَّه إليه، وأخذ العباس جعفراً فضمَّه إليه، فلم يزل عليٌّ مع رسول الله (ص) حتى بعثه

(١) سيرة ابن هاشم: ٤/ ٢٠.

الله تبارك وتعالى نبياً فاتبعه علي (رض) وآمن به وصدَّقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه»[١].

وفي رواية أبي الفرج الأصفهاني: أن رسول الله (ص) أخذ علياً؛ وحمزة جعفراً؛ والعباس طالباً[٢].

وهكذا نشأ جعفر نشأة قلَّ ما يحظى بها أمثاله من فتيان مكة، وتعلَّم في مدرسة أبي طالب وحمزة والعباس ما كان ينبغي تعلُّمه من دروس الخلق الفاضل والأدب الجم والسلوك المستقيم؛ وما كان لا بدَّ من معرفته وإتقانه من مبادىء الفروسية والرماية؛ وشؤون الخيل والليل والبيداء. فإذا به ملء السمع والبصر وسامةً وشباباً؛ وخُلُقاً وأدباً؛ ومضاء وألمعية.

وإذا كُنَّا قد حُرِمنا من الوقوف على وصف دقيق لملامحه الشخصية وسماته الذاتية وصفاته الخُلقية؛ فلم نجد نصاً تاريخياً يحدِّد لنا هذا كلَّه بوضوح وتبيين، فإن ما يغنينا عن ذلك كل الغنى ويعوِّضنا غاية التعويض أن نعلم أنَّه كان «أشْبَه الناس خَلْقاً وخُلُقاً برسول الله (ص)»[٣]؛ وأن نعلم أنَّ هذا الشبه لم يكن مجرد خبر تاريخي مُرسَلٍ ربما أملته العواطف أو طرأ عليه الخطأ والتحريف، وإنّما هو أمر قطعي ثابت أكَّدته مجموعة من النصوص النبوية الشريفة، تظافر رواتها وتعدَّد نَقَلَتُها وتواتر لفظها، وقد قال فيها النبي (ص) مخاطباً جعفراً: «أشْبهتَ خَلْقي وخُلُقي»[٤]،

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٢٦٣ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣١٣.

(٢) مقاتل الطالبيين: ٢٦.

(٣) المحبّر: ٤٦ والاستيعاب: ١/ ٢١١ والتبيين: ٨١ و٩٣ وأسد الغابة: ١/ ٢٨٧.

(٤) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ٢٤ و٨/ ١١٤ وصحيح البخاري: ٥/ ٢٤ وسنن الترمذي: ٥/ ٦٥٤ ومقاتل الطالبيين: ١٧ والاستيعاب: ١/ ٢١٣ والتبيين: ٩٣ وشرح نهج البلاغة: ١١/ ١١٧ و١٥/ ٧٣ ومناقب جعفر: ٣٣ و٣٤ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٥٧ والإصابة: ١/ ٢٣٩.

وفي لفظ آخر: «أشبه خلُقك خَلقي، وأشبه خُلُقُك خُلقي، فأنت منّي ومن شجرتي»[١].

وليس غريباً حينذاك أن يكون ـ من بين ما تحلّى به جعفر من المزايا والخلال ـ أنه عطوف أشدَّ العطف على الفقراء والمساكين؛ بالغ الرأفة بهم والمواساة لهم والحدب عليهم، حتى سماه النبي (ص) أو كنّاه: «أبا المساكين»[٢].

وكان من الطبيعي لجعفر وقد اكتمل نضجه وتفتَّح شبابه عن ريعانه وعنفوانه أنْ يبادر إلى الزواج، وتلك سُنَّة الله في خلقه.

وإذا كنَّا لم نعلم متى حصل ذلك على وجه التحديد؛ فإنه كان ـ في أكثر الظن ـ بعد البعثة الشريفة بقليل، وربما كان من القرائن على ذلك أنه لم يرزق ولداً قبل هجرته إلى الحبشة، مما يدل على قرب تاريخ زواجه من هجرته.

وكان اختياره لرفيقة حياته وشريكة جهاده موفَّقاً كل التوفيق، فقد تزوَّج السيدة أسماء بنت عُمَيْس بن معد (أو معبد) بن تَيْم بن الحارث بن كعب بن مالك بن قحافة بن عامر بن ربيعة بن عامر (أو غانم) بن معاوية بن زيد بن مالك بن نَسْر (أو بشير) بن وهب الله بن شَهْران بن عِفْرِس بن أفْتَل ـ وهو جماع خَثْعَم ـ بن أنمار. وأُمُّها هند ـ وهي خولة ـ بنت عوف بن زهير بن الحارث بن حماطة (أو كنانة).

وكانت أسماء هذه من السابقات إلى الإسلام في الأيام الأولى

---

(١) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ٢٤، وبلفظ قريب منه في سير أعلام النبلاء: ١/١٥٦.

(٢) سنن الترمذي: ٥/ ٦٥٥ والمعجم الكبير: ٢/ ١٠٩ والتبيين: ٩٤ ومناقب جعفر: ٣٢ و٣٧ والإصابة: ١/ ٢٣٩.

للبعثة، ومن المبادرات إلى بيعة النبي (ص). وهي «أُخت ميمونة زوج النبي (ص)، وأخت لبابة أم الفضل زوجة العباس، وأخت أخواتها. فأسماء وأختها سلمى وأختها سلامة الخثعميات هنَّ أخوات ميمونة لأُمٍّ، وهنَّ تسع؛ وقيل عشر أخوات لأُمّ، وستّ لأبٍ وأمّ».

وقد هاجرت إلى الحبشة بصحبة زوجها تلبيةً لأمر النبي (ص)، وتحملت آلام التشرد وأحزان الغربة صابرة محتسبة، كما يأتي تفصيله(١).

ورُزق جعفر من الأولاد ثلاثة:

١ ـ عبدالله: وهو أكبرهم، وبه كان يكنى أبوه، وهو ذو العقب من أولاد جعفر.

٢ ـ محمد: ولا عقب له.

٣ ـ عون: ولا عقب له أيضاً.

وكلُّهم من مواليد أرض الحبشة أيام هجرة أبويهم إليها(٢).

---

(١) يراجع فيما أوردناه من ترجمة أسماء: السير والمغازي: ١٤٣ وسيرة ابن هشام: ١/ ٢٧٥ ونسب قريش: ٨٠ ـ ٨١ وطبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ٢٣ و٨/ ٢٠٥ ومقاتل الطالبيين: ١٩ والاستيعاب: ٤/ ٢٣٠ ـ ٢٣١ وأسد الغابة: ٥/ ٣٩٥ والإصابة: ٤/ ٢٢٥. ومما تجدر الإشارة إليه أن في سلسلة نسبها وأسماء آبائها اختلافاً كبيراً بين المؤرخين.

(٢) يراجع في المعلومات عن أولاد جعفر: سيرة ابن هشام: ٤/ ٣ وطبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ٢٢ ـ ٢٣ و٨/ ٢٠٥ ونسب قريش: ٨١ والمحبر: ١٠٧ وأنساب الأشراف: ١/ ١٩٨ والاستيعاب: ٤/ ٢٣١ والتبيين: ٩٤ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٥٧ و٢/ ٢٠٤ والإصابة: ١/ ٢٣٩.

ولمَّا أشرقت الأرض بنور ربِّها، وبعث الله محمداً برسالة الإسلام، وأعلن رسول الله (ص) صيحته الهدَّارة على الظلم والشرك والوثنية بكل أشكالها وألوانها، كان جعفر من «السابقين إلى الإسلام»[١]، وروى الذهبي «أن علياً أول ذكرٍ أسلم، ثم أسلم زيد، ثم جعفر»[٢]، وذكر ابن الأثير أنه أسلم بعد إسلام أخيه علي بقليل[٣]، وقيل: «أسلم بعد خمسة وعشرين رجلاً، وقيل: بعد واحدٍ وثلاثين»[٤]. وعدَّ المؤرخون جعفراً وامرأته أسماء «في أوائل من أسلم»[٥]، ونصَّ بعضهم على إسلامه «قبل أن يدخل رسول الله (ص) دار الأرقم ويدعو فيها»[٦]، ورُوي أن زوجته أسماء قد أسلمتْ قبل دخول النبي (ص) دار الأرقم[٧].

وإذا علمنا أنَّ الأرقم بن أبي الأرقم كان قد أسلم بعد عشرة أنفس[٨]؛ وأنَّ النبي (ص) قد دخل داره على أثر إسلامه وخرج منها لما

---

(١) الإصابة: ١/ ٢٣٩.
(٢) سير أعلام النبلاء: ١/ ١٥٧.
(٣) أسد الغابة: ١/ ٢٨٧.
(٤) سير أعلام النبلاء: ١/ ١٥٧ والإصابة: ١/ ٢٣٩.
(٥) السير والمغازي: ١٤٣ وسيرة ابن هشام: ١/ ٢٧٥.
(٦) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ٢٣.
(٧) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٠٥ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٠٤ والإصابة: ٤/ ٢٢٥.
(٨) سيرة ابن هشام: ١/ ٢٧٠.

تكامل المسلمون أربعين، علمنا أن إسلام جعفر وأسماء كان قد تحقَّق قبل أن يبلغ عدد المسلمين عشرة.

ويروي الرواة في هذا الصدد أن أبا طالب كان قد اطلع يوماً - ومعه ابنه جعفر - على رسول الله (ص) «يصلّي وعليٌّ (ع) معه عن يمينه، فلما رآهما أبو طالب قال لجعفر: تقدَّم وصل جناح ابن عمك. فقام جعفر عن يسار محمد (ص)»، ثم أنشأ أبو طالب يقول:

إنَّ عليّاً وجعفراً ثقتي ... عند مُلِمِّ الخطوب والنّوَبِ
لا تخذلا وانصرا ابنَ عمِّكما ... أخي لأمّي من بينهم وأبي
واللَّهِ لا أخذل النبيَّ ولا ... يخذله من بَنيَّ ذو حسبِ[1]

❁ ❁ ❁

و«لمَّا كثر المسلمون، وظهر الإيمان وتُحُدِّث به، ثار ناسٌ كثير من المشركين من كفّار قريش بمن آمنَ من قبائلهم، فعذَّبوهم وسجنوهم وأرادوا فتنتهم عن دينهم، فقال لهم رسول الله (ص): «تفرَّقوا في الأرض».

فقالوا: أين نذهب يا رسول الله؟.

قال: هاهنا، وأشار إلى الحبشة. وكانت أحبَّ الأرض إليه أن يُهاجَرَ قِبَلَها.

فهاجر ناس ذوو عدد من المسلمين، منهم مَنْ هاجر معه بأهله، ومنهم مَنْ هاجر بنفسه، حتى قدموا أرض الحبشة.

وكانوا قد «خرجوا متسلِّلين سرّاً، وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٢٦٩.

نسوة... وكان مخرجهم في رجب من السنة الخامسة من حين نُبِّئَ رسول الله (ص)»[١].

ثم «بلغ أصحابَ رسول الله (ص) أن أهل مكة قد سجدوا وأسلموا... فخرجوا راجعين» فعلموا ـ وهم على أبواب مكة ـ كذب ذلك الخبر؛ وأن المشركين ما زالوا على عنادهم وكفرهم، فـ«دخلوا مكة، ولم يدخل أحدٌ منهم إلا بجوارٍ» أي حماية زعيم أو متنفذ، خوفاً من بطش قريش، وكان قدومهم في شوّال من السنة نفسها[٢].

و«لمَّا قدم أصحاب النبي (ص) مكة من الهجرة الأولى، اشتدَّ عليهم قومهم، وسَطَتْ بهم عشائرهم، ولقوا منهم أذىً شديداً، فأذِن لهم رسول الله (ص) في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية... وكان عدَّة مَنْ خرج في هذه الهجرة من الرجال ثلاثة وثمانين رجلاً، ومن النساء إحدى عشرة امرأة قرشية وسبع غرائب»[٣].

وكان من جملة هؤلاء المهاجرين: جعفر بن أبي طالب ومعه امرأته أسماء بنت عميس[٤].

وهنا يحق للباحث أن يتساءل فيقول:

إذا كان الغرض من الهجرة إلى الحبشة هو الفرار من عنت قريش وعذابها وبطشها بالمسلمين، فإننا نعلم أن جعفراً لم يكن من أولئك الممتَحَنين بالأذى والتعذيب إلى الحدِّ الذي يستوجب التغرُّب والهجرة،

---

(١) طبقات ابن سعد: ١/ق ١/١٣٦.
(٢) طبقات ابن سعد: ١/ق ١/١٣٨.
(٣) طبقات ابن سعد: ١/ق ١/١٣٨.
(٤) السير والمغازي: ٢٢٦ وسيرة ابن هشام: ١/٣٤٥ ـ ٣٤٦ وطبقات ابن سعد: ٤/ق ١/٢٣ وأنساب الأشراف: ١/١٩٨ وتاريخ الطبري: ٢/٣٣١.

لأن أبا طالب (رض) كان على قيد الحياة يومذاك، وكانت زعامته وهيبته في قومه قد ضمنتْ لأولاده ومَنْ يعيل به قدراً أدنى من الأمن والسلامة من ذلك البلاء الرهيب، فكان جعفر في هذا الأمر كأخيه عليٍّ وكبقية بني عمومته المؤمنين.

وإذن. لماذا هاجر جعفر؟ وما هو الدافع على ذلك؟

إن الخلاصة المستنبطة من عموم النصوص ومجموع الأحداث تدل على أن هجرة جعفرٍ كانت برغبةٍ بل أمر من النبي (ص) نفسه، وأنه كان يريد بذلك تأسيس «سفارة» له في بلاد الحبشة، وربما كان الباعث على تنفيذ هذه الفكرة ما سبق له علمه من عدل ملكها وحسن سلوكه مع الناس؛ ومن أن سكان تلك الأرض ذوو دين سماوي معترف به هو النصرانية، وليسوا من عبّاد الأصنام المشركين بالله كأهل مكة والجزيرة العربية، وقد يكون استمرار الحديث والحوار مع أحبارهم ورهابنتهم طريقاً نحو إسلامهم أو مهادنتهم وتحييدهم على الأقل، وفي أيٍّ من هذه المحتملات مكسب عظيم للرسالة في تلك الظروف القاسية والأيام العصيبة.

لذلك كله رأى النبي (ص) بثاقب بصره أن يوفد جعفراً إلى هناك ليكون «سفيره» في بلاط النجاشي والمبلِّغ عن لسانه أمام ملك الحبشة وقادتها الروحيين، كما يكون ـ أيضاً ـ أمير الجماعة الإسلامية المقيمة هناك كما يستفاد من تلقيبه بـ«أميرهم» في بعض الروايات[1] و«المقدَّم عليهم والمترجِم عنهم» في بعضٍ آخر[2].

ومهما يكن من أمر، فقد وصل المهاجرون ـ ومعهم جعفر ـ إلى

(١) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ٢٣ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٢٩.
(٢) التبيين: ٩٢.

أرض الحبشة، وتنفسوا الصعداء من ملاحقة قريش وإرهابها، فكانوا هناك في أمن كامل وسلامة تامَّة، على الرغم من كل الأحاسيس المؤلمة التي تفرضها مرارة الغربة وضيق اليد والبعد عن الأهل والوطن.

ولمَّا علمت قريش بما ناله المسلمون في مهجرهم من دعة وسلام واطمئنان؛ ضاقت ذرعاً بذلك، وعزَّ عليها هذا الأمان الذي ينعم به المسلمون هناك، فاتفقت كلمتها على إيفاد رسولَيْن إلى ملك الحبشة ومعهما من الهدايا له ولكل بطارقته وحاشيته ما غلا ونفس ممَّا يستطرف من بضائع مكة ونوادر متاعها القيِّم، وعلى أن يطلب الرسولان منه ـ بعد تقديم الهدايا ـ إخراج المهاجرين المسلمين من بلاده وإعادتهم إلى مكة. وكان هذان الرسولان: عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، وروى ابن أبي الحديد: أن عمرو بن العاص كان مكلَّفاً بمهمةٍ أخرى مع تلك المهمة المذكورة وهي قتل جعفر بن أبي طالب بالخصوص إنْ أمكن ذلك(١).

وتوجَّه الرسولان إلى الحبشة، وكان ممَّا أُثر عن عمرو بن العاص قوله في هذه الرحلة:

تقول ابنتي: أين أين الرَّحيل ... وما البَيْن منّي بمستنكَرِ
فقلتُ: دعيني فإني امرؤٌ ... أريد النجاشيَّ في جعفرِ
لأكْوِيَه عنده كيَّةً ... أقيم بها نخوةَ الأصعرِ
ولن أنثني عن بني هاشمٍ ... بما اسْطعتُ في الغيب والمحضرِ
وعن عائب اللات في قوله ... ولولا رضا اللات لم تمطرِ
وإني لأشْنَى قريشٍ له ... وإنْ كان كالذهب الأحمرِ(٢)

(١) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٢٨٣.
(٢) شرح نهج البلاغة: ١٤/ ٧٥.

ووصل موفَدا قريشٍ إلى هناك، وبَدَءا عملهما بالاجتماع بالبطارقة وكبار حاشية الملك، وسلّماهم الهدايا والتحف، ثم قالا لهم:

«إنه قد ضوى إلى بلد الملك منّا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدينٍ مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بَعَثَنا إلى الملك أشرافُ قومهم ليَرُدَّهم إليهم. فإذا كَلَّمْنا الملكَ فيهم فأشيروا عليه بأنْ يُسْلِمَهم إلينا ولا يكلِّمهم، فإن قومهم أعلى بهم عيْناً وأعلم بما عابوا عليهم».

فقال البطارقة: نعم.

ثم دخل الرسولان على النجاشي، وكان ممّا قالا له: «إنه قد ضوى إلى بلدك منّا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت. وقد بعَثَنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردَّهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

«فقالت بطارقتُه حوله: صَدَقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم، فأسْلِمْهم إليهما فليردّاهم إلى بلادهم وقومهم».

«فغضب النجاشي وقال: لا أسْلِمُهم إليكما، ولا يُكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على مَنْ سواي، حتى أدعوهم فأسألهم عمَّا يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتُهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإنْ كانوا على غير ذلك منعتُهم منهما وأحسنتُ جوارهم ما جاوروني».

ثم أرسل إلى المهاجرين المسلمين فدعاهم، «فلما جاءهم رسولُه اجتمعوا عنده... فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومَكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحدٍ من هذه الملل».

فأجابه جعفر بن أبي طالب ـ وكان هو المتكلّم دائماً باسم رفاقه المهاجرين ـ فقال:

«أيها الملك؛ كُنّا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسِيء الجوار، ويأكل القويُّ منَّا الضعيف. فكُنَّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منَّا، نعرف نَسَبَه وصِدْقَه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحِّده ونعبده ونخلع ما كُنَّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمَرَنا بصِدق الحديث وأداء الأمانة وصِلَة الرَّحم وحُسن الجوار والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزُّور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمَرَنا أن نعبد الله وحده لا نُشرِك به شيئاً، وأمَرَنا بالصلاة والزكاة والصيام. فصدَّقناه وآمَنَّا به واتَّبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرَّمنا ما حَرَّم علينا، وأحللنا ما أحل لنا. فعدا علينا قومُنا، فعذَّبونا وفتنونا عن ديننا ليردُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحلَّ ما كنَّا نستحل من الخبائث. فلمَّا قهرونا وظلمونا وضيَّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على مَن سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أنْ لا نُظْلَم عندك أيها الملك».

«فقال له النجاشي: هل معك ممَّا جاء به عن الله من شيء؟

«فقال له جعفر: نعم.

«فقال له النجاشي: فاقْرَأه عَلَيَّ.

فقرأ عليه شيئاً من سورة مريم، «فبكى النجاشي حتى اخضلَّتْ لحيته، وبكتْ أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم؛ حين سمعوا ما تلا عليهم.

«ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى لَيَخْرُج من مشكاة واحدة». ثم التفت إلى رسولَيْ قريش فقال لهما: «انْطَلِقا، فلا واللهِ لا أُسْلِمُهم إليكما، ولا يُكادُون».

وخرج عمرو بن العاص وصاحبه من هذه المقابلة ذليلَيْن مقهورَيْن، يجرّان أذيال الخيبة والخسران، ويكاد ينفطر قلباهما حقداً وخبثاً؛ وغيظاً ولؤماً.

وجلسا يفكِّران فيما يجب عليهما فعله بعد هذا الفشل الذريع، فقرَّ رأيهما على معاودة الكرَّة مرَّة ثانية، وبأسلوب آخر ينفثان فيه كل ما بقي في أعماق نفسَيهما من مكر ودهاء وحيلة، عسى أن يثيرا بذلك مشاعر النجاشي وعواطفه فيتحقق لهما ما يريدان ويأملان. فَغَدَوا عليه في الغد، وكان مما قال له عمرو بن العاص:

«أيها الملك؛ إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً. فأرْسِلْ إليهم فسَلْهُم عمَّا يقولون فيه».

«فأرسل إليهم... فلمَّا دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟.

«فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبيُّنا (ص)، يقول: هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فقال النجاشي للمسلمين: اذهبوا فأنتم آمنون بأرضي. وطرد رسولَيْ قريش شرَّ طردة فآبا إلى مكة بخزي الدنيا والآخرة[1].

و«أقام المهاجرون بأرض الحبشة عند النجاشي في أحسن جوار»[2].

---

(١) النص بكامله في السير والمغازي: ٢١٣ ـ ٢١٦ وسيرة ابن هشام: ١/ ٣٥٨ ـ ٣٦٢ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٣٠٧ ـ ٣١١. والمضمون في البداية والنهاية: ٣/ ٧٢ ـ ٧٣ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٣٠٨ ـ ٣١٠.

(٢) طبقات ابن سعد: ١/ق ١/ ١٣٩.

ثم أسلم النجاشي ومن تبعه على يدي جعفر (رض)[١].

وكان أبو طالب (رض) قد بلغه إرسال قريش لمبعوثَيْها إلى النجاشي، فكتب إليه شعراً يحرِّضه فيه على رعاية المسلمين وإكرامهم والإعراض عمَّا يقوله عمرو بن العاص فيهم، وكأنه كان يريد بذلك إعلام النجاشي بأن زعماء مكة ليسوا مجمعين على محاربة هذا الدين الجديد، وإخباره بأنه نفسه ـ وهو شيخ البطحاء بلا منازع ـ ممَّن يعترف بصحة نبوة محمد وصدق دعواه:

ألا ليت شعري كيف في النَّأي جعفرٌ
وعمرو وأعداءُ النبيِّ الأقاربُ
وهل نالتِ أفعالُ النجاشيِّ جعفراً
وأصحابَه أو عاق ذلك شاغبُ
تَعَلَّمْ ـ أبَيْتَ اللَّعنَ ـ أنك ماجدٌ
كريم فلا يشقى لديك المُجَانبُ
تَعَلَّمْ بأنَّ اللهَ زادك بسطةً
وأسباب خيرٍ كلُّها بك لازبُ
وأنك فيضٌ ذو سجال غزيرةٍ
ينال الأعادي نفعَها والأقاربُ[٢]

❀ ❀ ❀

وكما كان للنبي (ص) ـ كما رجحنا فيما مرَّ ـ «سفير» لدى

(١) الإصابة: ١/٢٣٩.

(٢) السير والمغازي: ٢٢١ ـ ٢٢٢ وسيرة ابن هشام: ١/٣٥٧، والأربعة الأولى في البداية والنهاية: ٣/٧٧.

النجاشي هو جعفر بن أبي طالب، كان له أيضاً مبعوث شخصي من قبله إلى النجاشي هو عمرو بن أميَّة الضمري، وقد بعثه النبي (ص) مرة أو أكثر من مرَّة بكتاب منه إليه، يدعوه فيه إلى الإيمان برسالة الإسلام، ويحثه على رعاية المهاجرين المسلمين والعناية بشؤونهم، ومما جاء في ذلك الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة... فإني أحمد إليك الله الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روحُ الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملتْ بعيسى فَخَلَقَه الله من روحِهِ ونَفْخِه كما خلق آدم بيده ونفخه. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تَتَّبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله. وقد بعثتُ إليك ابنَ عمي جعفراً ونفراً معه من المسلمين، فإذا جاؤوك فأقرِهم... والسلام على مَن اتّبع الهدى».

فكتب النجاشي إلى رسول الله (ص) مجيباً، وممَّا جاء في كتابه:

«بسم الله الرحمن الرحيم: إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبجر. سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته... أمَّا بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله... وقد عرفنا ما بعثتَ به إلينا، وقد قرينا ابن عمِّك وأصحابه... وقد بايعتُك وبايعت ابن عمك، وأسلمتُ على يديه لله رب العالمين»(١).

وفي رواية ابن سعد: إن بَعْثَ النبي (ص) عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي كان بعد عودته (ص) من الحديبية في ذي الحجة سنة ستّ

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٦٥٢ ـ ٦٥٣ والبداية والنهاية: ٨٣ ـ ٨٤.

من الهجرة، وإن النجاشي «أخذ كتاب رسول الله (ص) فوضعه على عينيه، ونزل من سريره على الأرض تواضعاً، ثم أسلم وشهد شهادة الحق... وكتب إلى رسول الله (ص) بإجابته وتصديقه وإسلامه على يدي جعفر بن أبي طالب لله رب العالمين»[١].

ورأى رسول الله (ص) بعد توقيع صلح الحديبية وانتهاء الحرب بين قريش والمسلمين؛ أن الأمور في المدينة المنوَّرة قد استتبَّتْ واستقرت، وأن الإسلام قد قويت شوكته وانتشرت كلمته وفشت دعوته في القبائل والأطراف، ولم يبق ما يفرض استمرار غربة أولئك المهاجرين بعد اليوم، بل أصبح وجودهم في المدينة إلى جانب إخوانهم ضرورياً ومهمّاً جداً في هذه المرحلة الجديدة؛ مرحلة الاستقرار والبناء. فكتب النبي (ص) إلى النجاشي يطلب منه أن يبعث إليه بمَنْ قِبَلَه من المهاجرين، وأن يهيِّىء لهم من السفن ما يحملهم جميعاً عليها، وأن يجهِّزَهم بما يحتاجون في سفر العودة من غذاء وشؤون.

ولبّى النجاشي الطلب، «وأمر بجهاز المسلمين وما يصلحهم، وحملهم في سَفينتين مع عمرو بن أمية الضمري»[٢].

و«قدم جعفر بن أبي طالب وأهل السفينتين من عند النجاشي بعد أن فُتحتْ خيبر»[٣]، وكان بصحبته مع إخوانه المهاجرين «جماعةٌ أسلموا من الحبش»[٤].

---

(١) طبقات ابن سعد: ١/ق ٢/ ١٥ ـ ١٦ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٢٩، وبعضه في سيرة ابن هشام: ٤/ ٣.

(٢) طبقات ابن سعد: ١/ ق ٢/ ١٦.

(٣) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٧٨.

(٤) أنساب الأشراف: ١/ ١٩٨.

وبلغت أنباء العودة مسامع رسول الله (ص) ففرح بذلك فرحاً عظيماً، وأرسل من قِبَله «أبا رافع مولاه يتلقّى جعفراً لما قدم»(١).

ثم استقبل رسول الله (ص) جعفراً والتزمه وضمَّه إليه واعتنقه وقبَّل ما بين عينيه، وأطلق كلمته الشهيرة المدوِّية قائلاً: ما أدري بأيهما أنا أسرُّ: بفتح خيبر أم بقدوم جعفر(٢).

ويحدثنا مسلم فيما أخرجه بسنده عن تفاصيل عودة هؤلاء المهاجرين إلى المدينة فيروي عن أبي موسى قوله:

«بَلَغَنا مخرجُ رسول الله (ص) ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه... فركبنا سفينة، فألْقَتْنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافَقْنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده، فقال جعفر: إن رسول الله (ص) بَعَثَنا هاهنا وأمَرَنا بالإقامة فأقيموا معنا. فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً، فوافَقْنا رسولَ الله (ص) حين افتتح خيبر، فأسهم لنا، أو قال: أعطانا منها...».

ثم «دخلتْ أسماء بنت عميس ـ وهي ممَّن قدم معنا ـ على حفصة زوج النبي (ص) زائرةً... فدخل عُمَرُ على حفصة وأسماءُ عندها، فقال عمر حين رأى أسماء: مَنْ هذه؟

قالت: أسماء بنت عميس.

قال عمر: الحبشية هذه، البحريَّة هذه.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٩/ ١٣٣.

(٢) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٧٨ و٤/ق ١/ ٢٣ وأنساب الأشراف: ١/ ١٩٨ ومقاتل الطالبيين: ١١ والمعجم الكبير: ٢/ ١٠٧ والاستيعاب: ١/ ٢١١ ـ ٢١٢ والتبيين: ٩٢ وأسد الغابة: ١/ ٢٨٧ وشرح نهج البلاغة: ٤/ ١٢٨ و١٥/ ٧٢ ومناقب جعفر: ٢٨ و٢٩ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٥٥ والإصابة: ١/ ٢٣٩.

فقالت أسماء: نعم.

فقال عمر: سبقناكم بالهجرة؛ فنحن أحقُّ برسول الله (ص) منكم.

فغضبتْ وقالت كلمةً: كذبتَ يا عمر، كلا والله، كنتم مع رسول الله (ص) يُطعِم جائعكم ويَعِظ جاهلكم، وكنَّا في دارٍ ـ أو: في أرضِ البُعَداء البُغَضاء في الحبشة، وذلك في الله وفي رسوله. وأيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلتَ لرسول الله (ص)...

فلمَّا جاء النبي (ص) قالت: يا نبيَّ الله؛ إن عمر قال كذا وكذا. فقال رسول الله (ص): «ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم هجرتان»[١].

وفي نصٍّ آخر: قال (ص): «كذب مَنْ يقول ذلك، لكم الهجرة مرتين، هاجرتم إلى النجاشي وهاجرتم إليَّ»[٢].

وكان هذا التصريح النبوي الشريف بأن لهم الهجرة مرتين تعبيراً من أبلغ التعابير عن مبلغ تقديره (ص) لما تحمَّل هؤلاء المهاجرون من آلام وكابدوا من مشاقٍّ، وعن مقدار سروره بقدومهم إلى أهلهم سالمين.

وكان التعبير الآخر عن مدى اهتمام النبي (ص) وفرحه بمقدم جعفر خاصةً أن «اختطَّ له رسول الله (ص) إلى جنب المسجد»[٣] داراً[٤]، فجعل بيته قريباً من بيته، وذلك منتهى التشريف وغاية التبجيل.

وممَّا تجب الإشارة إليه هنا ـ ونحن نتحدث عن اهتمام النبي (ص)

(١) صحيح مسلم: ٧/ ١٧٢ ـ ١٧٣.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٠٥ وورد قوله (ص): «لكم الهجرة مرتين» في طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ٧٩ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٥٠ أيضاً.
(٣) الاستيعاب: ١/ ٢١٢.
(٤) التبيين: ٩٢.

بجعفر ـ أنه كان يتذكَّره في كل حين، على الرغم من ضخامة المسؤولية وثقل الأحداث الضاغطة عليه يومذاك. وكان يريد أن يذكِّر المسلمين به دوماً لئلا ينسوه أو يغفلوا عنه، وأن يعلموا أن ذهاب جعفر إلى الحبشة وإقامته هناك لم يكن لغرض الراحة والاستجمام والسلامة ممَّا عاناه الباقون من صعاب ومتاعب وأخطار، بل هو مجاهد في سبيل الله مثلهم، وقائم بمهمة دينية اقتضتها المصلحة العليا لرسالة الإسلام.

وقد تمثَّل هذا التذكير الرسالي والتنبيه النبوي في عدة شواهد ذكرها المؤرخون، وكان من أبرزها:

١ ـ لما آخى رسول الله (ص) بين أصحابه المهاجرين والأنصار كان «جعفر بن أبي طالب ذو الجناحَيْن الطيّارُ في الجنة؛ ومُعاذ بن جَبَل أخو بني سلمة؛ أخَوَيْن... وكان جعفر يومئذٍ غائباً بأرض الحبشة»[(١)].

وأنكر ذلك ابن سعد وقال: «هذا وَهَلٌ، وكيف يكون هذا، وإنما كانت المؤاخاة بعد قدوم رسول الله (ص) المدينة وقبل بدر، فلما كان يوم بدر نزلت آية الميراث وانقطعت المؤاخاة، وجعفر غائب يومئذٍ بأرض الحبشة»[(٢)].

أقول: ليس في الأمر ما يدعو للإنكار، ولا مانع من أن تكون هذه المؤاخاة تكريماً لجعفر إذْ عُدَّ بحكم الحاضر المهاجر، لأن غيابه بأرض الحبشة لم يكن فراراً من المسؤولية أو انسياقاً لرغبة شخصية، وإنما هو ضربٌ من ضروب الجهاد العقيدي والنضال الديني كما أسلفنا.

٢ ـ روى البلاذري في أخبار معركة بدر الكبرى قال: «ويقال أنه ضرب

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٥١ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٥٥ والإصابة: ١/ ٢٣٩.
(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ١٢١ و٤/ق ١/ ٢٣.

لجعفر بن أبي طالب وهو بالحبشة بسهمه وأجره»[١].

وليس ذلك بالغريب أو المستبعَد، فقد كان النبي (ص) على علم تامّ بأن جعفراً في مهجره محتاج كل الحاجة إلى المعونة المادية التي تكفل له قضاء شؤونه المعاشية وشؤون عائلته، وإذا كان أبو طالب في حياته «يتعهده إلى أن مات؛ باللطف والنفقة»[٢] فإنه قد فقد بوفاته تلك المعونة التي تقيم أوده وتسد عوزه.

(١) أنساب الأشراف: ١/ ٢٨٩ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٥٧.
(٢) أنساب الأشراف: ١/ ١٩٨.

في جمادى الأولى، سنة ثمان من الهجرة، قرَّر النبي (ص) إرسال قوة عسكرية إلى بلاد الشام. وكان رسول الله (ص) قد بعث قبل ذلك الحارثَ بن عمير الأزدي إلى ملك بُصْرى بكتابٍ، فلما نزل مؤتة قُتِل ظلماً وغيلة، ولم يُقْتَل لرسول الله (ص) رسولٌ غيره، فرأى النبي ضرورة إرسال جيشٍ إلى هناك لأخذ الثأر ومجازاة العدوان بمثله.

وقد اختار زيدَ بن حارثة ـ في الرواية المشهورة ـ أميراً على الجيش «وقال: إنْ أُصيب زيدٌ فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس»[1].

وفي روايةٍ عن أبي عامر ـ وكان أحد حاضري المعركة ـ: أن الأمير الأول هو جعفر؛ وأن زيداً أخذ اللواء بعد مقتل جعفر[2].

وروى اليعقوبي أن الأمراء هم: جعفر وزيد وعبدالله، ثم قال: «وروى بعضهم أنه (ص) قال: أمير الجيش زيد بن حارثة، فإن قُتِل زيد فجعفر...»، «وقيل: بل كان جعفر المقدَّم، ثم زيد بن حارثة، ثم عبدالله بن رواحة»[3].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ١٥ وطبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٩٢ و٤/ق ١/ ٢٤ وصحيح البخاري: ٥/ ١٨٢ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٨٠ وتاريخ الطبري: ٣/ ٣٦ ومقاتل الطالبيين: ١١ والمعجم الكبير: ٢/ ١٠٤.

(٢) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٩٤.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٤٩ و٥٦.

وقال ابن أبي الحديد معلّقاً على اختلاف الرواية في ذلك: «وقد وجدتُ في الأشعار التي ذكرها محمد بن إسحاق في كتاب المغازي ما يشهد» لتقديم جعفر على صاحبيه[١]. كقول حسان بن ثابت:

فلا يبعدنَّ اللهُ قتلى تتابعوا ... بمؤتة منهم ذو الجناحَيْن جعفرُ
وزيد وعبد الله حين تتابعوا ... جميعاً وأسباب المنيَّة تخطرُ
غداة غدوا بالمؤمنين يقودهم ... إلى الموت ميمون النقيبة أزهرُ
أغرّ كلَوْن البدر من آل هاشمٍ ... شجاع إذا سيم الظلامة مجسرُ

وكقول كعب بن مالك في مرثيته:

صبروا بمؤتة للإله نفوسَهم ... حذر الردى ومخافةً أن ينكلوا
إذْ يهتدون بجعفرٍ ولوائه ... قدَّام أوَّلهم فنِعْمَ الأوَّلُ

ومهما يكن من أمرٍ، فقد أصدر رسول الله (ص) أمره ببعث الجيش، وأمَّرَ عليهم هؤلاء الأمراء الثلاثة، و«تجهَّز الناس، ثم تهيَّئوا للخروج، وهم ثلاثة آلاف، فلمَّا حضر خروجُهم وَدَّع الناسُ أمراءَ رسول الله (ص) وسلَّموا عليهم»[٢]، و«عقد لهم رسول الله (ص) لواءً أبيض»[٣]، ثم خطبهم وبلَّغهم وصاياه، وكان ممَّا قال لهم:

«أُوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً. اغزوا باسم الله وفي سبيل الله. قاتِلوا مَنْ كفر بالله. لا تغدروا ولا تغلُّوا ولا تقتلوا وليداً».

ثم قال مخاطباً كل واحدٍ منهم: «وإذا لقيتَ عدوَّك من المشركين

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ٦٢.
(٢) سيرة ابن هشام: ٤/ ١٥ وتاريخ الطبري: ٣/ ٣٦.
(٣) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٩٢ ـ ٩٣ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٦٢.

فادعهم إلى إحدى ثلاث؛ فأيتهنَّ أجابوك إليها فاقبل منهم واكفف عنهم: ادعهم إلى الدخول في الإسلام فإن فعلوا فاقبل واكفف، ثم ادعهم إلى التحوُّل من دارهم إلى دار المهاجرين فإن فعلوا فأخْبرهم أن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين. وإن دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله ولا يكون لهم في الفيء ولا في الغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين. فإن أبَوْا فادعهم إلى إعطاء الجزية فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم. فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم...».

ثم قال بعد ذلك: «اغزوا باسم الله فقاتلوا عدوَّ الله وعدوَّكم... وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين الناس؛ فلا تعرضوا لهم. وستجدون آخرين للشيطان في رؤوسهم مفاحص؛ فاقلعوها بالسيوف. ولا تقتلُنَّ امرأةً ولا صغيراً ضَرَعاً ولا كبيراً فانياً، ولا تقطعُنَّ نخلاً ولا شجراً، ولا تهدمُنَّ بناءً»[١].

«ثم خرج القوم، وخرج رسول الله (ص)، حتى إذا ودَّعهم وانصرف عنهم... مضوا حتى نزلوا مَعَان من أرض الشام، فبلغ الناسَ أن هرقل قد نزل مآبَ من أرض البلقاء في مائة ألفٍ من الروم، وانضمَّ إليهم من لخم وجُذام والقَيْن وبهراء وبَليٍّ مائة ألف منهم... فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتَيْن يفكِّرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله (ص) فنخبره بعدد عدوِّنا، فإمَّا أن يمدَّنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له... فشجَّع الناسَ عبدُ الله بن رواحة... فمضى الناس»[٢].

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ٦٤ ـ ٦٥.

(٢) سيرة ابن هشام: ٤/ ١٦ ـ ١٧ وتاريخ الطبري: ٣/ ٣٩.

ولقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقريةٍ من قرى البلقاء يقال لها مَشَارف. «ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى قريةٍ يقال لها مؤتة، فالتقى الناس عندها، فتعبأ لهم المسلمون، فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بني عذرة يقال له قُطبة بن قَتادَة، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يقال له عُبَاية بن مالك ـ أو عُبَادَة ـ»[١].

ثم التقى الناس واقتتلوا، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله (ص) حتى شاط في رماح القوم»[٢] فذهب إلى ربه شهيداً سعيداً.

ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل بها قتال الأبطال، وكرَّ على القوم كرَّة الأسد الهصور، «حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها»[٣]. ثم قاتل القوم حتى سقط شهيداً مضرَّجاً بدمائه الزكيَّة، «فكان جعفر أول رجلٍ من المسلمين عَقَرَ فرسَه في الإسلام»[٤]، وكانت فَرَسُه ـ واسمها سبحة ـ «أول فرسٍ عُرقبتْ في الإسلام»[٥].

وحدَّث أحد حضَّار هذه المعركة فقال:

«والله؛ لكأنّي أنظر إلى جعفر حين اقتحم عن فرسٍ له شقراء، ثم عقرها، ثم قاتل حتى قُتِل»[٦]، وهو يقول:

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ١٩ وتاريخ الطبري: ٣/ ٣٩ ومقاتل الطالبيين: ١٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ٤/ ١٩ وتاريخ الطبري: ٣/ ٣٩ ومقاتل الطالبيين: ١٢.

(٣) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٠ وطبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٩٣ و٤/ق ١/ ٢٥ وتاريخ الطبري: ٣/ ٣٩ ومقاتل الطالبيين: ١٢ والمعجم الكبير: ٢/ ١٠٥ وأسد الغابة: ١/ ٢٨٨ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٦٧ و٦٩.

(٤) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٠ وتاريخ الطبري: ٣/ ٣٩ ومقاتل الطالبيين: ١٢ والاستيعاب: ١/ ٢٨٩ والتبيين: ٩٣ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٦٩ والإصابة: ١/ ٢٣٩.

(٥) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٩٣ والمنمق: ٥١٣.

(٦) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٠ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٥٣ والإصابة: ١/ ٢٣٩.

يا حبَّذا الجنَّة واقترابُها طيبةً وبارداً شرابُها
والرومُ رومٌ قد دنا عذابُها كافرة بعيدة أنسابُها
عَلَيَّ إذْ لاقَيْتُها ضرابُها[(١)]

وروى ابن هشام قال:

«وحدَّثني من أثق به من أهل العلم: أن جعفر بن أبي طالب أخذ اللواءَ بيمينه فقُطِعتْ، فأخذه بشماله فقُطعتْ، فاحتضنه بعضديه حتى قُتِل ـ(رض) ـ. . . فأثابه الله بذلك جناحَيْن في الجنة يطير بهما حيث شاء».

«ويقال: أن رجلاً من الروم ضربه يومئذٍ ضربةً فقطعه بنصفَيْن»[(٢)]، «فوُجِد في أحد نصفَيْه بضعةٌ وثلاثون جرحاً. ووجدوا فيما أقبل من بدن جعفر اثنتان وسبعون ضربة بسيف وطعنة برمح»[(٣)].

وحدَّث ابن عمر ـ وكان أحد الحضور ـ قال: «وجدنا ما بين صدر جعفر بن أبي طالب ومنكبيه وما أقبل منه تسعين جراحة ما بين ضربةٍ بالسيف وطعنةٍ بالرمح»[(٤)]، وفي رواية أخرى عنه: «بضعاً وتسعين بين طعنة ورمية»[(٥)]، وفي رواية ثالثة عنه: «فعددتُ به خمسين بين طعنةٍ وضربة، ليس منها شيءٌ في دُبُره، يعني في ظهره»[(٦)].

(١) المشاطير الخمسة في سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٠ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٥٣ والبداية والنهاية: ٤/ ٢٤٤.
(٢) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٠ والتبيين: ٩٣. وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٦٧.
(٣) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٩٣ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٨٠ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٦٧.
(٤) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ٢٦ والاستيعاب: ١/ ٢١٢ والتبيين: ٩٣ وأسد الغابة: ١/ ٢٨٨ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٥٣.
(٥) صحيح البخاري: ٥/ ١٨٢ والمعجم الكبير: ٢/ ١٠٥ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٥٤ والإصابة: ١/ ٢٣٩.
(٦) صحيح البخاري: ٥/ ١٨٢ والمعجم الكبير: ٢/ ١٠٦.

وأعلن النبي (ص) ـ وهو في المدينة ـ على أصحابه ما حدث على أرض المعركة في ذلك اليوم الحزين، إذ كان يتلقى أنباءها عن طريق الوحي، فقال:

«أخذ الرايةَ زيدُ بن حارثة فقاتل بها حتى قُتِل شهيداً.

«ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قُتِل شهيداً..

«ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قُتِل شهيداً»[1].

وبعد أن أتمَّ النبي (ص) بيان ذلك، وأعلم المسلمين بتفصيل ما أُصيب به إخوانهم، قصد دار جعفر فدخل على أسماء بنت عميس فعزَّاها في زوجها، وأعرب عن مدى ألمه العميق وحزنه البالغ بهذا المصاب الفادح. وقد روتْ لنا السيدة أسماء بعض ما يتصل بهذه الزيارة النبوية الكريمة فقالت:

«لما أصيب جعفر وأصحابه دخل عَلَيَّ رسول الله (ص) وقد... عجنتُ عجينتي وغسلتُ بَنِيَّ ودهنتهم ونظَّفتُهم. قالت: فقال لي رسول الله (ص): ائتِني ببني جعفر، قالت: فأتيتُه بهم فتشمَّمهم وذرفت عيناه. فقلت: يا رسول الله؛ بأبي أنت وأمي؛ ما يبكيكَ؟ أبَلَغَك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: نعم أصيبوا هذا اليوم. قالت: فقمتُ أصيح واجتمعتْ إليَّ النساء، وخرج رسول الله (ص) إلى أهله فقال: «لا تُغفِلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً، فإنهم قد شُغِلوا..»[2].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٢ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٦٨ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٥٣.

(٢) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٢ وطبقات ابن سعد: ٨/ ٢٠٦ وأسد الغابة: ١/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٧١ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٥٤.

كذلك حدثنا عبد الله بن جعفر عن معلومات أخرى تخص تلك الزيارة، جاء فيها:

«دخل رسول الله (ص) على أُمّي، فنعى لها أبي، فأنظُر إليه يمسح على رأسي وعيناه تهرقان بالدموع حتى تقطر لحيتُه، ثم قال: اللهم إن جعفراً قَدمَ إلى أحسن الثواب؛ فاخلفْه في ذريته بأحسن ما خلفتَ أحداً من عبادك في ذريته، ثم قال: يا أسماء ألاَ أُسُرُّكِ؟ قالت: بلى بأبي أنت وأمي. قال: إن الله جعل لجعفر جناحَيْن يطير بهما في الجنَّة، قالت: بأبي أنتَ وأمي يا رسول الله؛ فأعْلِمِ الناسَ بذلك. فقام رسول الله (ص) وأخذ بيدي حتى رقي المنبر وأجلسني أمامه على الدرجة السفلى، والحزن يُعْرَف عليه، فتكلَّم فقال: إن المرء كثير بأخيه وابن عمه، إلا أن جعفراً قد استشهد، وقد جعل الله له جناحين يطير بهما في الجنة. ثم نزل رسول الله (ص) فدخل بيته وأدخلني معه، وأمر بطعامٍ فصُنع لأهلي»[(١)].

«ودخلتْ فاطمة وهي تبكي وتقول: واعَمَّاه، فقال رسول الله (ص): «على مثل جعفر فلتبكِ البواكي»[(٢)]».

وقالت السيدة عائشة: «لمَّا أتى نعيُ جعفر عرفنا في وجه رسول الله (ص) الحزن»[(٣)].

وفي رواية عبد الله بن عباس قال: «بينما رسول الله (ص) جالس

(١) نسب قريش: ٨١ ـ ٨٢ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٧١.

(٢) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٠٦ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٨٠ والاستيعاب: ١/ ٢١٢ والتبيين: ٩٣ والروض الأنف: ٤/ ٨٠ وأسد الغابة: ١/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٧١.

(٣) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٣ وصحيح البخاري: ٥/ ١٨٢ وطبقات ابن سعد: ٤/ ق ١/ ٢٧ والمعجم الكبير: ٢/ ١٠٧ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٥٤.

وأسماءُ بنت عميس قريبة منه إذ قال: يا أسماء؛ هذا جعفر بن أبي طالب قد مرَّ مع جبرائيل وميكائيل»[١].

وفي حديث آخر عن النبي (ص) قال: «قد مرَّ جعفر البارحة في نفرٍ من الملائكة، له جناحان، مختضب القوادم بالدم»[٢].

وفي لفظٍ آخر: «إن الله أبدله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء»[٣].

وبهذا المضمون عدد آخر من النصوص النبوية الشريفة[٤].

وممَّا أُثِر عن النبي (ص) في هذا الشهيد العظيم قوله: «خير الناس حمزة وجعفر وعليّ»[٥].

وقوله (ص):

«خلق الناس من أشجار شتى، وخُلِقت أنا وجعفر من طينة واحدة»[٦].

وقوله (ص):

«مُثِّل لي جعفر وزيد وابن رواحة في خيمة من درٍّ، كل واحدٍ منهم على سرير»[٧].

---

(١) الإصابة: ١/ ٢٤٠.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٤١.

(٣) الاستيعاب: ١/ ٢١٢ والإصابة: ١/ ٢٤٠.

(٤) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ٢٦ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٨٠ ومقاتل الطالبيين: ١٧ والمعجم الكبير: ٢/ ١٠٦ ـ ١٠٧ والروض الأنف: ٤/ ٨٠ وأسد الغابة: ١/ ٢٨٨ ومناقب جعفر: ٢٤ ـ ٢٦ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٦٧ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٥٥ والإصابة: ١/ ٢٤٠.

(٥) مقاتل الطالبيين: ١٧ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٧٢.

(٦) مقاتل الطالبيين: ١٧، بلفظ قريب منه فيه: ١٨ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٧٢.

(٧) الاستيعاب: ١/ ٢١٣ والتبيين: ٩٣ والروض الأنف: ٤/ ٨٠.

وعلى هذه الشاكلة مجموعة أخرى من الأحاديث الشريفة والنصوص المأثورة، رواها الرواة ونقلها المحدِّثون جيلاً بعد جيل، وهي معنيَّة في مجمل فحواها ببيان مقام جعفر ومكانته السامية عند الله تعالى؛ ودرجته العليا في الحياة الآخرة حياة الأبدية والخلود.

وقد جمع بعضاً من هذه الأحاديث العطرة محدِّث دمشق الحافظ ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي الدمشقي الحنبلي المتوفى سنة ٦٤٣هـ وسمّى هذا المجموع «مناقب جعفر بن أبي طالب»، وهو مطبوع ببغداد سنة ١٣٨٩هـ.

۞ ۞ ۞

ثم كان للشعر ـ وهو أبلغ ما عبَّرت به البشرية عن مشاعرها وعواطفها وأحاسيسها النبيلة ـ موقف بارز من هذه الفاجعة الأليمة والمصاب الجلل، فقد تدفَّق على لسان قائليه رثاءً مؤثراً وتفجعاً دامياً وتأبيناً صادقاً لهذا الرعيل من شهداء الإسلام وفي طليعتهم جعفر بن أبي طالب.

وكان في مقدمة هؤلاء الراثين زوجه الوفية السيدة أسماء بنت عميس، فقد أنشأتْ قصيدة في رثائه قالت فيها:

فآليتُ لا تنفك نفسي حزينةً ... عليك ولا ينفك جلديَ أغبرا
فللَّه عينا مَنْ رأى مثله فتىً ... أكَرَّ وأحمى في الهياج وأصبرا[١]

وقال حسان بن ثابت في رثائه ورثاء سائر شهداء مؤتة:

تأوَّبني ليلٌ بيثرب أعْسَرُ ... وهَمٌّ إذا ما نَوَّمَ الناسُ مُسْهِرُ

(١) البداية والنهاية: ٤/ ٢٥٣.

لذكرى حبيبٍ هَيَّجتْ ثَمَّ عَبرةً سَفُوحاً وأسبابُ البكاء التذكُّرُ
بلاءٌ وفقدانُ الحبيب بليَّةٌ وكم من كريم يُبتلى ثم يصبرُ
رأيتُ خيارَ المؤمنين تواردوا شَعوبَ وقد خُلِّفتُ فيمن يؤخَّرُ
فلا يُبعِدنَّ اللهُ قتلى تتابعوا بمؤتة منهم ذو الجناحَيْن جعفرُ
وزيدٌ وعبد الله حين تتابعوا جميعاً وأسبابُ المنيَّة تخطرُ
غداةَ غَدَوا بالمؤمنين يقودهم إلى الموت ميمون النقيبة أزهرُ
أغرُّ كلون البدر من آل هاشمٍ شجاع إذا سِيمَ الظلامة مِجْسَرُ
فطاعَنَ حتى مات غير مُوسَّدٍ بمعتَرَك فيه القنا يتكسَّرُ
فصار مع المستَشْهَدِين، ثوابُه جِنانٌ وملتفُّ الحدائق أخضرُ
وكُنّا نرى في جعفرٍ من محمدٍ وفاءً وأمراً حازماً حين يأمرُ
فما زال في الإسلام من آل هاشمٍ دعائمُ عزٍّ لا يزول ومفخرُ
هُمُ جَبَلُ الإسلام والناسُ حوله رِضامٌ إلى طودٍ يروق ويقهرُ
بهم تُكشَف اللأواءُ في كل مأزقٍ عماسٍ إذا ما ضاق بالقوم مصدرُ
هُمُ أولياء الله أنزل حُكمَه عليهم وفيهم والكتابُ المطهَّرُ
بهاليل منهم جعفرٌ وابنُ أُمِّهِ عَليٌّ ومنهم أحمد المتخيَّرُ
وحمزة والعبَّاس منهمْ ومنهُمُ عقيلٌ وماءُ العُود من حيث يُعْصَرُ(١)

وقال حسان أيضاً يرثي جعفراً:

ولقد بكيتُ وعزَّ مَهلِكُ جعفرٍ حِبّ النبيّ على البريَّة كلِّها
ولقد جزعتُ وقلتُ حين نُعيتَ لي: مَنْ للجلاد لدى العُقَاب وظلِّها
بالبيض حين تُسَلُّ من أغمادها يوماً وإنهالِ الرماح وعَلِّها
بعد ابنِ فاطمة المُباركِ جعفرٍ خيرِ البرية كلِّها وأجلِّها
رُزءاً وأكرمِها جميعاً محتداً وأعزِّها مُتَظَلَّماً وأذلِّها

(١) ديوان حسان بن ثابت: ٩٨ ـ ٩٩.

للحقِّ حين ينوب غير تَنَحُّلِ كذباً وأغمرها يداً وأقلّها
فحشاً وأكثرها إذا ما تُجتَدى فضلاً وأبذلها ندىً وأذلّها
عالخَيْرِ بعد محمدٍ، لا شِبْهُهُ بشرٌ يُعَدُّ من البرية جُلّها[(١)]

وقال كعب بن مالك الأنصاري يرثيه وسائر شهداء هذه الوقعة:

نام العيونُ ودمعُ عينك يهملُ سحّاً كما وَكَف الطَّبَابُ المخضلُ
في ليلةٍ وردتْ عَلَيَّ همومُها طوراً أحنُّ وتارة أتململُ
واعتادني حزنٌ فبتُّ كأنني ببنات نعشٍ والسِّماكِ مُوَكَّلُ
وكأنما بين الجوانح والحشى ممَّا تأوَّبَني شهابٌ مُدْخَلُ
وجداً على النَّفَر الذين تتابعوا يوماً بمؤتة أسنِدوا لم يُنْقَلوا
صلَّى الإلهُ عليهم من فتيةٍ وسقى عظامَهُمُ الغمامُ المُسبِلُ
صبروا بمؤتة للإلّه نفوسَهم حذر الردى ومخافةً أنْ ينكلوا
فمضوا أمام المسلمين كأنهم فُنُقٌ عليهنَّ الحديد المُرْفَلُ
إذْ يهتدون بجعفرٍ ولوائه قدَّام أولهم فنِعْمَ الأوَّلُ
حتى تفرَّجتِ الصفوف وجعفرٌ حيثُ التَقى وَعْثُ الصفوف مُجَدَّلُ
فتغيَّر القمر المنير لفقده والشمس قد كُسفَتْ وكادتْ تأفلُ
قرمٌ علا بنيانُه من هاشمٍ فرعاً أشمَّ وسؤدداً ما يُنْقَلُ
قومٌ بهم عَصَمَ الإلهُ عبادَه وعليهم نزل الكتاب المُنزَلُ
فَضَلوا المعاشرَ عزَّةً وتكرُّماً وتغمَّدتْ أحلامُهم مَنْ يجهلُ
لا يُطلقون إلى السَّفَاه حُبَاهم ويُرى خطيبُهم بحقٍّ يفصلُ
بيض الوجوه تُرى بطونُ أكفِّهم تَنْدى إذا اعتذر الزمان الممحِلُ
وبهَدْيهم رضي الإله لخلقه وبجدِّهم نُصِر النبيُّ المرسَلُ[(٢)]

(١) ديوان حسان بن ثابت: ٣٢٣.
(٢) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٧ ـ ٢٨.

وقال شاعر من المسلمين ممَّن شارك في غزوة مؤتة:

كفى حَزَناً أني رجعتُ وجعفرٌ وزيد وعبد الله في رمس أقْبُرِ
قضوا نحبهم لمَّا مضوا لسبيلهم وخُلِّفتُ للبلوى مع المُتَغَبِّرِ
ثلاثة رهطٍ قُدِّموا فتقدَّموا إلى وِرد مكروهٍ من الموت أحمرِ[١]

وتوارث المسلمون على مرِّ القرون حبَّ جعفر وموالاته وتقديسه، وجعلوا من قبره في مؤتة مقصداً ومزاراً، حيث يُقرأ القرآن الكريم، ويعلو التكبير والتسبيح. وقد أورد السيد محسن الأمين في كتابه في الأدعية والزيارات جملاً يُزار بها هذا الشهيد العظيم، نورد نصَّها فيما يأتي:

«السلام عليك يا ابنَ عَمِّ رسول الله وأخا أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب. السلام عليك أيها الشهيد المحتسب المجاهد في سبيل الله والمطيع لأمر رسول الله (ص). السلام عليك يا مَنْ هاجر الهجرتَيْن وبايع البيعَتَيْن. السلام عليك يا مَنْ جاهد في سبيل الله صابراً محتسباً حتى قُطِعت يداه فأبدله الله تعالى بهما جناحَيْن يطير بهما مع الملائكة. السلام عليك وعلى ابن عمِّك رسول الله وعلى أخيك أمير المؤمنين وعلى أبيك أبي طالبٍ كافل رسول الله وناصر دين الله ورحمة الله وبركاته. حشرنا الله في زمرتكم وتحت لوائكم، ورزقنا الله شفاعتكم، ولا أحْرَمَنا بركتكم، ولا فرَّق الله بيننا وبينكم طرفة عينٍ في الدنيا والآخرة»[٢].

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ٣٠.
(٢) مفتاح الجنات: ٢/ ٢٥٩.

مِنَ المؤمنين رجالٌ

[٧]

عبد الله بن رواحة

عبد الله بن رواحة

اسمه ونسبه

هو: عبد الله بن رَوَاحة بن ثَعْلبة بن امرىء القيس بن عمرو بن امرىء القيس الأكبر بن مالك الأغر بن ثعلبة بن كَعْب بن الخَزْرج بن الحارث بن الخزرج[1].

وكنيته: أبو محمد[2]، «وقيل: كان يكنى أبا رواحة. ولعلَّه كان يكنى بهما جميعاً»[3]، وقيل: كان يكنى أبا عمرو[4].

وأيّاً مّا كانت تلك الكنية فهي مجرد كنيةٍ فقط، ولا تعني أن له ولداً اسمه محمد أو رواحة أو عمرو، فقد ذكر مؤرخوه أنه «ليس له عقب»[5].

وقبيلته: الخزرج أولياء الله ورسوله؛ من الذين آووا ونصروا وفعلوا الأفاعيل وقدَّموا القرابين في سبيل إعلاء كلمة الله وراية القرآن.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/٨٦ و١٠١ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/٧٩ والمحبر: ٢٧٩ والاستيعاب: ٢/٢٨٤ وجمهرة أنساب العرب: ٣٦٣ وأسد الغابة: ٣/١٥٦ والإصابة: ٢/٢٩٨.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/٧٩ والاستيعاب: ٢/٢٨٥ وأسد الغابة: ٣/١٥٦ وسير أعلام النبلاء: ١/١٦٦ والإصابة: ٢/٢٩٨.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/٧٩ وأسد الغابة: ٣/١٥٦ وسير أعلام النبلاء: ١/١٦٦ والإصابة: ٢/٢٩٨.

(٤) أسد الغابة: ٣/١٥٦ وسير أعلام النبلاء: ١/١٦٦ والإصابة: ٢/٢٩٨.

(٥) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/٧٩ وسير أعلام النبلاء: ١/١٦٦.

وأُمُّه: السيدة كَبْشَة (وربما قيل كُبَيْشة بالتصغير) بنت واقد بن عمرو بن الأطنابة بن عامر (أو: عمرو) بن زيد مَنَاة بن مالك الأغرِّ، بن بَلْحارث بن الخزرج[١]. وكانت من الصحابيات المؤمنات اللائي بايعن رسول الله (ص)[٢].

❁ ❁ ❁

وُلِد في المدينة المُنوَّرة قبل البعثة النبوية الشريفة بزمن غير قصير، لكننا لم نعرف متى كان ذلك بالتحديد، وليس لدينا من القرائن ما يعين على تخمين تاريخها على وجه التقريب، ولم يذكر المؤرخون مقدار عمره حين استشهاده كي نستدل في ضوئه على معرفة ذلك. ولكن عامته لبني الحارث من الخزرج وسيادته عليهم في الجاهليَّة[٣]؛ وانتخابه نقيباً من النقباء الاثني عشر في بيعة العقبة، يدل على أنه لم يكن في مقتبل العمر يوم إسلامه، كما يدل على ذلك ويؤكِّده شعرُه في حروب قومه الخزرج مع خصومهم الأوس قبل الإسلام؛ وما دار بينه وبين شاعر الأوس قيس بن الخطيم من نقائض ومطارحات في هذه الحروب[٤].

ونشأ ابن رواحة في يثرب كما ينشأ لداته وأترابه. وسرعان ما تفتَّقت ملكاته الذهنية وتفتَّحت قابلياته البدنية؛ فلمع نجمه وعلا ذكره واشتهر أمره، فإذا هو الفارس المتمكِّن والشجاع الجريء والفتى المغوار والسيِّد «العظيم القدر»[٥].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٧٩ والمحبر: ٤٢٠ ـ ٤٢١ وأسد الغابة: ٣/ ١٥٧ و / ٥٣٧ والإصابة: ٤/ ٣٨٣.

(٢) أسد الغابة: ٥/ ٥٣٨ والإصابة: ٤/ ٣٨٣.

(٣) طبقات فحول الشعراء: ١/ ٢٢٣.

(٤) طبقات فحول الشعراء: ١/ ٢٢٣. ويراجع ديوان قيس بن الخطيم ففيه عدد من القصائد في هذا الموضوع، كما ورد فيه بعض نقائض ابن رواحة أو ردوده على قيس.

(٥) طبقات فحول الشعراء: ١/ ٢٢٣.

وتميَّز هذا الشاب بين جُلِّ أقرانه وأبناء بلده بما لم يكن يعرفه إلاَّ الأوحدي أو القليل النادر من رجال المدينة خاصةً والعرب عامة، فقد ذكر مؤرخوه أنه كان «يكتب في الجاهلية، وكانت الكتابة في العرب قليلة»(١). وهذا إنْ دلَّ على شيء فإنما يدل على ما كان قد توفر لوضعه الاجتماعي الخاص من إدراكٍ لقيمة التعليم؛ ومن وجود الإمكانات والظروف الباعثة والمساعدة على تحقيق ذلك.

وكان من أبرز ثمار هذه الميزة السامية أنه أصبح من كُتَّاب رسول الله (ص)(٢).

ثم كان ممّا امتاز به هذا الرجل منذ ريعان شبابه تلك الشاعريَّة الثرَّة التي أهَّلَتْه لأنْ يُعَدَّ في جملة مشاهير شعراء عصره ومصره(٣). وقد كافح عن قومه في شعره في الجاهلية كفاحاً بالغ الوقع والأثر، وناضل في الدفاع عن دينه ورسوله ومعتقده بعد الإسلام نضالاً مجيداً ملؤه الصدق والإيمان والإخلاص(٤)، فنال بذلك عظم القدر والمكانة عند رسول الله (ص)(٥)، وأصبح «أحد الشعراء المحسنين الذين كانوا يردُّون الأذى عن رسول الله (ص)»(٦).

ورُوِي أنه لـمَّا نزل قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤] قال ابن رواحة: «قد علم الله أني منهم»، فأنزل الله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾(٧) [الشعراء: ٢٢٧].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٧٩ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٦٦.
(٢) التبيين: ٧٥ والإصابة: ٢/ ٢٩٨.
(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٨٠ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٤٤ وطبقات فحول الشعراء: ٢١٥ وجمهرة أنساب العرب: ٣٦٣.
(٤) أسد الغابة: ٣/ ١٥٧.
(٥) طبقات فحول الشعراء: ١/ ٢٢٣.
(٦) الاستيعاب: ٢/ ٢٨٥.
(٧) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٨١ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٦٨.

وتخليداً لهذا الجانب البارز الذي امتاز به ابن رواحة ـ رضوان الله عليه ـ؛ يجدر بنا أن نورد ما تسنّى لنا الوقوف عليه من شعره، ليكون ـ إلى جانب تاريخه الحافل المختوم بالشهادة ـ أصدق الدليل وأسطع البرهان على جهود هذا البطل المغوار وجهاده في سبيل الله تعالى بيده ولسانه إلى آخر يوم من أيام حياته.

وقد أوردنا فيما وُفِّقْنا إلى جمعه ـ ولا ندَّعي الاستيعاب الشامل ـ في هذه الصفحات[١]؛ ما نُسب إلى عبد الله بن رواحة من الشعر في كتب السلف، مما كان من نظمه قطعاً أو اختلف الرواة في نسبته له ولغيره من معاصريه، مع التنبيه عند تخريج الشعر على ذلك الاختلاف. أمَّا اختلاف المصادر في رواية النص نفسه فلم نشر إليه إلاَّ إذا كان بمقدار شطرٍ من بيت أو نحوه؛ رعاية للاختصار؛ وإيماناً بعدم ضرورة ذلك في مثل هذه الدراسات الموجزة.

١

روى ابن إسحاق بسنده عن زيد بن أرقم قال: «كنتُ يتيماً لعبد الله بن رواحة في حجره، فخرج بي في سفره ذلك [يعني غزوة مؤتة] مُرْدِفي على حقيبة رحله، فوالله إنه ليسير ليلةً إذ سمعتُه وهو ينشد أبياته هذه:

إذا أدَّيتِني وحملت رحلي ... مسيرة أربع بعد الحِساءِ
فشأنكِ أنعمٌ وخَلاكِ ذمٌّ[٢] ... ولا أرْجِعْ[٣] إلى أهلي ورائي

---

(١) نشر الدكتور حسن محمد باجوده مجموعاً من شعر ابن رواحة سمَّاه «ديوان عبد الله بن رواحة الأنصاري الخزرجي»، ولسنا نستسيغ تسمية ذلك ديواناً.

(٢) قال السهيلي في الروض الأنف: ٤/ ٧٩ «وقوله: (وخلاك ذم) أي فارقكِ الذم فلستِ بأهل له. وقد أحسن في قوله: (فشأنك أنعم وخلاك ذم) بعد قوله: (إذا أدَّيتني)».

(٣) مجزوم على الدعاء، دعا على نفسه أن يستشهد ولا يرجع إلى أهله.

وجاء المسلمون وغادروني بأرض الشأم مُشتهيَ الثواءِ[(١)]
وردَّكِ كلُّ ذي نسبٍ قريبٍ[(٢)] إلى الرحمن منقطع الإخاءِ
هنالك لا أُبالي طلعَ بَعْلٍ ولا نخلٍ أسافلها رواءِ[(٣)]

التخريج:

الأبيات الخمسة في سيرة ابن هشام: ٤/ ١٨ ـ ١٩ وتاريخ الطبري: ٣/ ٣٨ ـ ٣٩ وحلية الأولياء: ١/ ١١٩ وأسد الغابة: ٣/ ١٥٧ ـ ١٥٨ والكامل في التاريخ: ٢/ ١٥٩ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٦٦ والبداية والنهاية: ٤/ ٢٤٣. والثلاثة الأولى في الإصابة: ٢/ ٢٩٩ وخزانة الأدب: ١/ ٣٦٢. والأولان في الحماسة البصرية: ١/ ١٢٣. والثاني بمفرده في التهذيب: ٧/ ٥٦٩. والخامس بمفرده في الجمهرة: ١/ ٣١٤ والتهذيب: ٢/ ٤١٣ و٩/ ٢٢٩ والمقاييس: ١/ ٥٢ واللسان (بعل) و(أتى).

٢

وقال يجيب العباس بن مرداس السلمي:

لعمري لقد حكَّتْ رحى الحرب بعدما
أصارتْ لؤياً قبلُ شرقاً ومغربا
بقية آل الكاهِنَيْنِ وعزَّها
فعاد ذليلاً بعدما كان أغلبا
فطاحَ سلامٌ وابنُ سَعية عنوةً
وقِيْدَ ذليلاً للمنايا ابنُ أخطبا

---

(١) رواه السهيلي: «مستنهى الثواء» وقال: «مستفعل من النهاية والانتهاء، أي حيث نهى مثواه. ومن رواه: مشتهي الثواء: أي لا أريد رجوعاً».
(٢) صدر البيت فيشرح نهج البلاغة: وزوَّدني الأقارب من دعاءٍ.
(٣) وفي بعض المصادر: وإن عظم الإتاء، فإن صحت هذه الرواية ففي البيت إقواء.

وأجلبَ يبغي العزَّ، والذل يبتغي
خلاف يديه ما جَنى حين أجلبا
كتارك سهل الأرض والحَزْنُ همُّه
وقد كان ذا في الناس أكدى وأصعبا
وشَأس وعزّال وقد صليا بها
وما غُيِّبا عن ذاك فيمن تغيَّبا
وعوفَ بن سلمى وابن عوف كلاهما
وكعب رئيس القوم حان وخُيِّبا
فبُعداً وسحقاً للنضير ومثلها
إنِ اعْقَبَ فتحٌ أو إنِ الله أعقبا

۞ ۞ ۞

التخريج:

سيرة ابن هشام: ٣/ ٢١٢ ـ ٢١٣.

وعزاها ابن إسحاق لكعب بن مالك، ووردت في ديوان كعب: ١٧٦ نقلاً عن ابن إسحاق.

٢

وقال رادّاً على قيس بن الخطيم:

أشاقتك ليلى في الخليط المجانبِ
نعم فرشاش الدمع في الصدر غالبي
بكى أثر مَنْ شطَّتْ نواه ولم يقف
لحاجة مخزونٍ شكا الحبَّ ناصبِ

لـدن غـدوة حـتـى إذا الـشـمـس عـارضـتْ
وراح لـــه مـــن هـــمِّـــه كـــلُّ عـــازبِ(١)
تـبـيَّـنْ فـإن الـحـب يـعـلـق مـدبـراً
قـديـمـاً إذا مـا خُـلَّـة لـم تـصـاقـبِ
كـسـوت قـتـودي عـرمـسـاً فـنـسـأتـهـا
تـخـبُّ عـلـى مـسـتـهـلـكـاتٍ لـواحـبِ
تـبـاري مـطـايـا تـتـقـي بـعـيـونـهـا
مـخـافـة وقـع الـسـوط خُـوص الـحـواجـبِ
إذا عُـيِّـرتْ أحـسـابُ قـوم وجـدتـنـا
ذوي نـائـل فـيـنـا كـرام الـمـضـاربِ
تـحـامـي عـلـى أحـسـابـنـا بـتـلادنـا
لـمـفـتـقـرٍ أو سـائـل الـحـق راغـبِ
وأعـمـى هـدتْـه لـلـسـبـيـل حـلـومُـنـا
وخـصـمٍ ـ أقـمـنـا بـعـدمـا لـجَّ ـ شـاغـبِ
ومـعـتـرك ضـنـك تـرى الـمـوت وسـطـه
مـشـيـنـا لـه مـشـي الـجـمـال الـمـصـاعـبِ
بـخـرس تـرى الـمـاذيَّ فـوق جـلـودهـم
وبـيـضـاً نـقـاءً مـثـل لـون الـكـواكـبِ
فـهـم جُـسُـرٌ تـحـت الـدروع كـأنـهـم
أسـود مـتـى تُـنْـضَ الـسـيـوف تـضـاربِ(٢)

---

(١) عجز البيت في الكامل: أراحت له من لبه كل غارب.

(٢) ونصُّ البيت في الكامل:

وهم حسَّر لا في الدروع تخالهم أسوداً متى تنشأ الرماح تضاربِ

مـعـاقـلـهـم فـي كـل يـومِ كـريـهـةٍ
مع الـصـبـر مـنـسـوب الـسـيـوف الـقـواضـبِ
فـخـرتـم بـجـمـعٍ زاركـم فـي ديـاركـم
تـغـلـغـلَ حـتـى دُفِّـعـوا بـالـرواجـبِ
أبـاح حـصـونـاً ثـم صـعَّـد يـبـتـغـي
مـطـيَّـةَ حَـيٍّ فـي قـريـظـة هـاربِ

التخريج:

ديوان قيس بن الخطيم: ٦٣ ـ ٦٤. والأبيات ١ و٢ و٣ و٨ و٩ و١٠ و١١ و١٢ و١٣ في الكامل في التاريخ: ١/ ٤١٩ ـ ٤٢٠ وقال بعد إيرادها: «وهي طويلة».

٤

وقال مخاطباً قيس بن الخطيم:

رمـيـنـاك أيـام الـفـجـار فـلـم تـزل حميّاً فمن يشربْ فلستَ بشاربِ

التخريج:

الكامل في التاريخ: ١/ ٤١٥.

أقول: لعله من القصيدة السابقة ذات الرقم (٣).

٥

ومن رجزه في معركة مؤتة قوله:

يـا نـفـس إلاَّ تُـقْـتَـلـي تـمـوتـي
هـذا حـمـام الـمـوت قـد صـلـيـتِ

ومــا تــمــنَّيــتِ فــقــد أُعــطِيــتِ
إن تــفــعــلــي فــعــلــهــمــا[1] هــديــتِ
وإن تـــأخَّـــرتِ فـــقـــد شـــقـــيـــتِ

التخريج:

وردت المشاطير الأربعة الأولى في سيرة ابن هشام: ٤/ ٢١ وتاريخ الطبري: ٣/ ٤٠ وحلية الأولياء: ١/ ١٢٠ والاستيعاب: ٢/ ٢٨٦ والكامل في التاريخ: ٢/ ١٦٠. والخمسة كلها في شرح نهج البلاغة: ١٥/ ٦٩ ـ ٧٠ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٧٢ ونهاية الأرب: ١٧/ ٢٨١ وتاريخ الخميس: ٢/ ٧٢.

أما رواية البحتري للمشاطير في حماسته: ٩ فهي:

يــا نــفــس إن لــم تــقــتــلــي تــمــوتــي
إن تــســلــمــي الــيــوم فــلــن تــفــوتــي
أو تُــبْــتــلَــيْ فــطــالَ مــا عــوفــيــتِ
هــذي حــيــاض الــمــوت قــد خــلــيــتِ
ومــا تــمــنــيــتِ فــقــد أُعــطــيــتِ

٦

وقال لمَّا قُطعت إصبعُه في غزوة مؤتة قبل استشهاده:

هـــل أنـــتِ إلاَّ إصـــبـــع دمـــيـــتِ
وفـــي ســـبـــيـــل الله مـــا لـــقـــيـــتِ

⊛ ⊛ ⊛

(١) يعني بهما صاحبيه زيداً وجعفراً.

التخريج:

الجمهرة: ٢/ ٣٠٣ وتاريخ الخميس: ٢/ ٧١. وورد المشطوران في صحيح مسلم: ٥/ ١٨١ ـ ١٨٢ وقدَّم لهما بقوله: «دميت إصبع رسول الله (ص) في بعض تلك المشاهد فقال».

٧

وقال عندما همَّ بالخروج إلى مؤتة:

لكنَّني أسأل الرحمن مغفرةً   وضربةً ذات فَرْغٍ تقذف الزَّبَدا
أو طعنةً بيدي حَرَّان مُجْهِزةً   بحربةٍ تُنفِذ الأحشاء والكبدا
حتى يُقال إذا مرُّوا على جدثي   أرشده اللهُ من غازٍ وقد رشدا

التخريج:

الأبيات الثلاثة في سيرة ابن هشام: ٤/ ١٥ ـ ١٦ وتاريخ الطبري: ٣/ ٣٧ وحلية الأولياء: ١/ ١١٩ والاستيعاب: ٢/ ٢٨٥ وأسد الغابة: ٣/ ١٥٨ والكامل في التاريخ: ٢/ ١٥٨ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٦٢ والبداية والنهاية: ٤/ ٢٤٢ وتاريخ الخميس: ٢/ ٧٠. والأول بمفرده في طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٩٣ ونهاية الأرب: ١٧/ ٢٧٨ وقال النويري بعد إيراده: «في أبيات أخر».

٨

وقال رادّاً على قيس بن الخطيم:

تذكَّرَ بعدما شطَّتْ نُجودا   وكانت تيَّمتْ قلبي وليدا
كذي داءٍ يُرى في الناس يمشي   ويكتم داءه زمناً عميدا

تصيَّد عورة الفتيان حتى ... تصِيدَهم وتَشْنأ أن تصيدا
فقد صادت فؤادك يوم أبدتْ ... أسيلاً خدّه صَلْتاً وجيدا
تزين معاقد اللبَّات منها ... شنوفاً في القلائد والفريدا
فإن تضننْ عليك بما لديها ... وتقلب وصل نائلها جديدا (كذا)
لعمرك ما يوافقني خليلٌ ... إذا ما كان ذا خُلفٍ كَنودا
وقد علم القبائل غير فخرٍ ... إذا لم تلف مائلةً رَكودا
بأنّا نخرج الشتوات منّا ... ـ إذا ما استحكمتْ ـ حسباً وجودا
قُدوراً تغرق الأوصالُ فيها ... خضيباً لونُها بيضاً وسودا
متى ما تأتِ يثرب أو تراها ... تجدْنا نحن أكرمَها جدودا
وأغلظها على الأعداء ركناً ... وألْيَنَها لباغي الخير عودا
وأخطبها إذا اجتمعوا لأمرٍ ... وأقصدها وأوفاها عهودا
إذا نُدعى لسَيبٍ أو لجارٍ ... فنحن الأكثرون بها عديدا
متى ما تَدْعُ في جُشم بن عوفٍ ... تجدني لا أغمَّ ولا وحيدا
وحُولي جَمْع ساعدة بن عمرٍو ... وتيم اللات قد لبسوا الحديدا
زعمتم أنَّ ما نلتُم مُلوكاً ... ونزعم أنَّ ما نلنا عبيدا
وما نبغي من الأحلاف وتراً ... وقد نلنا المسوَّد والمَسُودا
وكان نساؤكم في كلِّ دارٍ ... يُهرِّشْنَ المعاصم والخدودا
تركنا جَحْجَبى كبنات فقعٍ ... وعَوْفاً في مجالسها قُعُودا
ورهطَ بني أميَّة قد أبحنا ... وأوسَ الله أتْبَعنا ثمودا
وكنتم تدَّعون يهودَ مالاً ... ألآنَ وَجدتمُ فيها يهودا
وقد ردُّوا الغنائمَ في طريفٍ ... ونخَّام ورهط أبي يزيدا

التخريج:

جمهرة أشعار العرب: ٢/ ٦٢١ ـ ٦٢٦.

٩

وقال يرثي نافع بن بُدَيل بن ورقاء الخزاعي:

رحـم الـلَّـهُ نـافـعَ بـن بـديـلٍ ... رحـمـة الـمـبـتـغي ثـواب الـجـهـادِ
صـابـر صـادق وفـيٌّ إذا مـا ... أكـثـر الـقـومُ قـال قـول الـسـدادِ

التخريج:

سيرة ابن هشام: ٣/ ١٩٨ والاستيعاب: ٣/ ٥١٢ والإصابة: ٣/ ٥١٤. وهما ومعهما ثالث معزوة لحسان بن ثابت في ديوانه: ١٣٦.

١٠

دعا رسولُ الله (ص) يوماً عبدَ الله بن رواحة فقال له: كيف تقول الشِّعر إذا أردتَ أن تقول... قال: أنظر في ذاك ثم أقول، قال: فعليك بالمشركين. قال ابن رواحة: ولم أكن هَيَّأتُ شيئاً، فنظرت في ذلك ثم أنشدته فيما أنشدته:

خَبِّـرونـيَ أثـمـانَ الـعـبـاء مـتـى ... كنتم بطاريقَ أو دانتْ لكم مُضَرُ
نجالد الناسَ عن عرضٍ فنأسرهم ... فـيـنـا الـنـبـي وفـيـنـا تـنـزل الـسّـوَرُ
وقـد عـلـمـتـم بـأنَّـا لـيـس غـالِـبَـنـا ... حيٌّ من الناس إن عزُّوا وإنْ كثروا
يـا هـاشـم الـخـير إنَّ الله فـضَّـلـكـم ... عـلـى الـبـريَّـة فـضـلاً مـا لـه غِـيَـرُ
إنـي تـفـرَّسـتُ فـيـك الـخـيـر أعـرفـه ... فراسةً خالفَتْهم في الذي نظروا[١]
أنـت الـنـبـي ومَـنْ يُـحْـرَم شـفـاعـتـه ... يوم الحساب لقد أزرى به القَدَرُ[٢]

---

(١) عجز البيت في سيرة ابن هشام: «الله يعلم أني ثابت البصر» وإن صح ذلك ففي البيت إقواء، وفي الاستيعاب: «والله يعلم أنْ ما خانني البصرُ».

(٢) نص البيت في سيرة ابن هشام: «أنت الرسول فمن يحرم نوافله × والوجه منه فقد =

ولو سألتَ أو استنصرتَ بعضهم في جلِّ أمرك ما آووا ولا نَصَروا
فثبَّت الله ما آتاك من حَسَنٍ تثبيت موسى ونصراً كالذي نُصِروا[١]

فأقبل (ص) بوجهه عليه مبتسماً وقال: وإياك: فثبّتَ الله.

التخريج:

وردت الأبيات ١ ـ ٥ و٧ ـ ٨ في طبقات فحول الشعراء: ٢٢٥. و١ و٤ ـ ٥ و٧ ـ ٨ في طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٨١ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٦٩. و٥ ـ ٦ و٨ في سيرة ابن هشام: ٤/ ١٦ والاستيعاب ٢/ ٢٨٧ وأسد الغابة: ٣/ ١٥٧ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٦٥. و٥ و٨ في الروض الأُنف: ٤/ ٨١ وذكر أن بين البيتين أبياتاً أخرى. والبيت الثامن بمفرده في الإصابة: ٢/ ٢٩٩. وقال ابن هشام: «وهذه الأبيات في قصيدة له». وتختلف المصادر في تسلسل الأبيات وترتيبها.

١١

وقال حين أضاف أبو الهيثم بن التّيهان رسولَ الله (ص):

فلم أرَ كالإسلام عزّاً لأهلِهِ ولا مثل أضياف الأراشيِّ معشرا

التخريج:

الروض الأُنف: ٢/ ١٩٥.

= أزرى به القدر»، والنص في شرح النهج: «أنت الرسول فمن يحرم نوافله × والبشر منه فقد أودى به القدر».

(١) عجز البيت في السيرة: «في المرسلين ونصراً.. إلخ»، ولعله الأولى كي يعود ضمير «نصروا» على المرسلين.

١٢

ومن أحسن ما مَدَح به النبيَّ (ص) قوله:

لو لم تكن فيه آيات مبيّنة كانت بداهتُه تنبيك بالخَبَرِ

التخريج:

الروض الأُنُف: ٢/ ٥٠ والإصابة: ٢/ ٢٩٩.

١٣

وقال رادّاً على قيس بن الخطيم:

كذبتَ لقد أقمتَ بها ذليلاً تقيم على الهوان بها وتسري

التخريج:

ديوان قيس بن الخطيم: ٦١.

١٤

وقال:

فسِرنا إليهم كافَةً في رِحالهم جميعاً علينا البَيْض لا نتخشَّعُ

التخريج:

تركيب (كفف) في العباب الزاخر واللسان.

١٥

وقال:

وجئنا إلى موجٍ من البحر زاخرٍ أحابيش منهم حاسرٌ ومُقنَّعُ

التخريج:

المقاييس: ٢/ ٢٢٩.

أقول: لعله والبيت السابق من قصيدة واحدة.

١٦

وقال أيضاً:

وفينا رسول الله يتلو كتابَه إذا انشقَّ معروف من الفجر ساطعُ
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أنَّ ما قال واقعُ
يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلتْ بالمشركين المضاجعُ

التخريج:

صحيح البخاري: ٢/ ٦٦. والأول ثم الثالث فالثاني في البداية والنهاية: ٤/ ٢٥٨.

١٧

وقال مخاطباً صديقه أبا الدرداء:

تَبَرَّأْ من أسماء الشياطين كلها ألا كلُّ ما يُدعى مع الله باطلُ

التخريج:

طبقات ابن سعد: ٧/ ق ٢/ ١١٧.

١٨

وقال يردُّ على عبيد بن ناقد الأوسي:

لـمَّا رأيتُ بني عوفٍ وإخوتهم كعباً وجمع بني النجار قد حفلوا

قدماً أباحوا حماكم بالسيوف ولم يفعل بكم أحدٌ مثل الذي فعلوا

التخريج:

الكامل في التاريخ: ١/ ٤١٣.

١٩

وممَّا نُسِب له:

شهدتُ بإذن الله أن محمداً
رسولُ الذي فوق السماوات من عَلُ
وإن أبا يحيى ويحيى كلاهما (كذا)
له عمل من ربِّه متقبَّلُ
وأن التي بالجِزع من بطن نخلةٍ
ومَنْ دانها فِلٌّ من الخير مَعزِلُ

التخريج:

الأولان في سير أعلام النبلاء: ١/ ١٧١ وقال الذهبي بعد إيرادهما: «وقد رُوِيا لحسان». والأول والثالث في التهذيب: ١٥/ ٣٣٥ واللسان (فلل). والأول بمفرده في المقاييس: ٤/ ١١٦.

ووردت الأبيات ومعها بيتان آخران ـ معزوة لحسان بن ثابت ـ في ديوانه: ٢٠٣.

٢٠

وروى له ابن إسحاق يرثي حمزة بن عبد المطلب:

بكتْ عيني وحقَّ لها بُكاها وما يُغني البكاء ولا العويلُ

عـلـى أسـد الإلـه غـداة قـالـوا: أحـمـزة ذاكـم الـرجـل الـقـتـيـلُ
أُصيب الـمـسـلـمـون بـه جـمـيـعـاً هـنـاك وقـد أُصـيـب بـه الـرسـولُ
أبـا يَـعـلـى لـك الأركـان هُـدَّت وأنـت الـمـاجـد الـبَـرُّ الـوَصـولُ
عـلـيـك سـلام ربـك فـي جـنـانٍ مُـخـالـطـهـا نـعـيـم لا يـزولُ
ألا يـا هـاشـمُ الأخـيـار صـبـراً فـكـلُّ فـعـالِـكـم حـسـن جـمـيـلُ
رسـول الله مـصـطـبـر كـريـم بـأمـر الله يـنـطـق إذ يـقـولُ
ألا مَـنْ مـبـلـغ عـنـي لـؤيّـاً فـبـعـد الـيـوم دائـلـة تـدولُ
وقـبـل الـيـوم مـا عـرفـوا وذاقـوا وقـائـعَـنـا بـهـا يُـشـفـى الـغـلـيـلُ
نـسـيـتـم ضَـرْبَـنـا بـقـلـيـب بـدرٍ غـداة أتـاكـم الـمـوتُ الـعـجـيـلُ
غـداة ثـوى أبـو جـهـلٍ صـريـعـاً عـلـيـه الـطـيـر حـائـمـة تـجـولُ
وعـتـبـة وابـنـه خـرّا جـمـيـعـاً وشـيـبة عضَّـه الـسـيـف الـصـقـيـلُ
ومـتـركـنـا أُمـيَّـة مُـجـلَـعِـبّـاً وفـي حـيـزومـه لـدنٌ نـبـيـلُ
وهـامَ بـنـي ربـيـعـة سـائـلـوهـا فـفـي أسـيـافـنـا مـنـهـا فـلـولُ
ألا يـا هـنـد فـابـكـي لا تـمـلّـي فـأنـتِ الـوالـه الـعَـبـرى الـهـبـولُ
ألا يـا هـنـد لا تُـبـدي شـمـاتـاً بـحـمـزة إنَّ عـزَّكُـمُ ذلـيـلُ

التخريج:

القصيدة لابن رواحة في رواية محمد بن إسحاق في سيرة ابن هشام: ٣/ ١٧١ ـ ١٧٢ والبداية والنهاية: ٣/ ٥٩، وقال ابن هشام في السيرة: «أنشدنيها أبو زيد الأنصاري لكعب بن مالك». وعن ابن هشام نقلت في ديوان كعب بن مالك: ٢٥٢.

٢١

وقال:

إنهم عند ربِّهم في جنانٍ يشربون الرحيق والسلسبيلا

التخريج:

التهذيب: ١٣/ ١٥١ واللسان (سلسل).

٢٢

وله:

ليهنَ عليّاً يوم بدرٍ حضورُه ومشهده بالخير ضرباً مُرَعْبِلا
وكائنْ له من مشهدٍ غير خاملٍ يظلُّ له رأسُ الكميِّ محدَّلا
وغادر كبشَ القوم في القاع ثاوياً تخال عليه الزَّعفرانَ المُعَلَّلا
صريعاً ينوء القشعمان برأسِه وتدنو إليه الضبعُ طولاً لتأكلا

التخريج:

مناقب آل أبي طالب: ١/ ٥٩ وبحار الأنوار: ١٩/ ٢٩٢.

٢٣

وقال لمَّا وَدَّع رسولُ الله (ص) أصحابه الذاهبين إلى غزوة مؤتة وانصرف عنهم:

خَلَفَ السَّلامُ عل امرىءٍ ودَّعتُه في النَّخْل خير مُشَيِّع وخليلِ

التخريج:

سيرة ابن هشام: ٤/ ١٦ وتاريخ الطبري: ٣/ ٣٧ والبداية والنهاية: ٤/ ٢٤٢ ونهاية الأرب: ١٧/ ٢٧٨.

٢٤

وقال في سفره إلى مؤتة مخاطباً زيد بن أرقم:

يــا زيــدُ زيــد الــيَــعْــمَــلات الــذُّبَّــلِ
تــطــاول الــلــيــل ـ هُــدِيــتَ ـ فــانــزلِ

التخريج:

سيرة ابن هشام: ٤/ ١٩ وتاريخ الطبري: ٣/ ٣٩ وأسد الغابة: ٣/ ١٥٨ والبداية والنهاية: ٤/ ٢٤٣ وخزانة الأدب: ١/ ٣٦٢.

٢٥

دخل رسولُ الله (ص) مكة في عمرة القضاء أو القضيَّة، في ذي القعدة سنة سبع من الهجرة، من الثنيَّة التي تُطلعه على الحَجون، وقد اجتمع أهل مكة وغلمانهم ينظرون إليه، وابن رواحة آخِذٌ بزمام راحلته، وهو يقول:

خــلُّــوا بــنــي الــكــفَّــار عــن ســبــيــلــهِ
خــلُّــوا فــكــلُّ الــخــيــر فــي رســولــهِ
يــا ربِّ إنــي مــؤمــنٌ بــقِــيــلــهِ
أعــرف حــقَّ الله فــي قــبــولــهِ
نــحــن قــتــلــنــاكــمْ عــلــى تــأويــلــهِ
كــمــا قــتــلــنــاكــم عــلــى تــنــزيــلــهِ[1]

(١) والرواية في عدد من المصادر: «اليوم نضربكم: أو «نحن ضربناكم» في الخامس، و«كما ضربناكم» في السادس، وقال السهيلي في الروض الأنف: ٤/ ٧٧ «ويروى: اليوم نضربكم... بسكون الباء، وهو جائز في الضرورة... ولا يبعد أن يكون جائزاً في الكلام إذا اتصل بضمير الجمع».

ضـربـاً يُـزيـل الـهـامَ عـن مَـقِـيـلـهِ
ويُـذهـل الـخـلـيـلَ عـن خـلـيـلـهِ

التخريج:

المشاطير الثمانية في سيرة ابن هشام: ٤/ ١٣ والكامل في التاريخ: ٢/ ١٥٤ والبداية والنهاية: ٤/ ٢٢٨ ونهاية الأرب: ١٧/ ٣٧٧. وقال ابن هشام بعد إيراد ذلك مروياً عن ابن إسحاق: «نحن قتلناكم على تأويله، إلى آخر الأبيات، لعمار بن ياسر في غير هذا اليوم. والدليل على ذلك أن ابن رواحة إنما أراد المشركين، والمشركون لم يُقِرُّوا بالتنزيل، وإنما يقتَل على التأويل من أقرَّ بالتنزيل». وأيَّد السهيليُّ في الروض الأنف: ٤/ ٧٧ قول ابن هشام في نسبة الخامس والسادس من المشاطير لعمار بن ياسر.

ووردت المشاطير الثمانية أيضاً في تاريخ الطبري: ٣/ ٢٤ ومعها تاسع جعله الثاني في الترتيب وفيه إقواء، وهو:

إنـي شـهـيـد أنَّـه رسـولُـه

ووردت المشاطير ـ عدا الرابع ـ في طبقات ابن سعد: ٢/ ق١/ ٨٨. كما وردت ـ عدا الثالث والرابع ـ في طبقات فحول الشعراء: ٢٢٣ ـ ٢٢٤. والأول والثاني والسادس والسابع والثامن في طبقات ابن سعد: ٣/ ق ٢/ ٨٠، ونصُّ السادس فيه:

قـد أنـزل الـرحـمـن فـي تـنـزيـلـهِ

وورد هذا المشطور في البداية والنهاية: ٤/ ٢٢٨ و٢٢٩ وقبله المشطور الذي انفرد الطبري بروايته بين المتقدمين، وبعده فيها أيضاً:

فـي صـحـفٍ تُـتْـلـى عـلـى رسـولـهِ

ووردت المشاطير ١ و٣ و٦ و٧ و٨ في البداية والنهاية: ٤/ ٢٢٧ والمشاطير ١ و٥ و٧ و٨ في سير أعلام النبلاء: ١/ ١٦٩ والإصابة: ٢/ ٢٩٩ وتاريخ الخميس: ٢/ ١٨٤، وروى الذهبي وابن حجر بعد ذكر الشِّعر: «فقال عمر: يا ابن رواحة، أفي حرم الله وبين يدي رسول الله (ص) تقول هذا الشعر!، فقال: خَلِّ عنه يا عمر، فوالذي نفسي بيده لَكَلامُه أشدُّ عليهم من وقع النَّبل».

أما مشاطير عمَّار بن ياسر فهي خمسة كما في وقعة صفين: ٣٤١ ومروج الذهب: ٢/ ٢٦٣، وستة في الدرجات الرفيعة: ٢٧٨.

٢٦

وقال لمَّا رأى تجمع المسلمين واستعدادهم للذهاب إلى غزوة مؤتة:

جَلَبْنا الخيلَ من أجَإٍ وفَرْعٍ ... تُغَرُّ من الحشيش لها العُكومُ
حَذَوْناها من الصَّوَّان سِبْتاً ... أزلَّ كأنَّ صفحته أديمُ
أقامت ليلتين على مَعَانٍ ... فأُعْقِبَ بعد فترتها جُمومُ
فرحنا والجياد مسوَّماتٌ ... تَنَفَّسُ في مناخرها السَّمومُ
فلا وأبي، مَآبَ لَنَأْتِيَنْها ... وإنْ كانت بها عربٌ ورومُ
فَعَبَّأْنا أعنَّتَها فجاءت ... عوابسَ والغبار لها بَريمُ
بذي لَجَبٍ كأنَّ البيض فيه ... إذا برزت قوانسُها النجومُ
فراضية المعيشة طلَّقَتْها ... أسنَّتُها فتنكح أو تئيمُ

❀ ❀ ❀

التخريج:

وردت الأبيات في سيرة ابن هشام: ٤/ ١٧ ـ ١٨ وتاريخ الطبري: ٣/ ٣٨ والبداية والنهاية: ٤/ ٢٤٣.

٢٧

ومما ينسب له من الشعر:

أتاني الذي لا يقدر الناسُ قَدْرَهُ ... لزينب فيهم من عقوق ومأثمِ
وإخراجها لم يُخْزَ فيها محمدٌ ... على مأْقِطٍ وبيننا عطر منشمِ
وأمسى أبو سفيان من حِلف ضمضم ... ومن حربنا في رغم أنفٍ ومندمِ
قَرَنّا ابنَه عَمْراً ومولى يمينِه[1] ... بذي حَلَقٍ جلد الصلاصل محكمِ
فأقسمتُ لا تنفك منَّا كتائبٌ ... سَراة خميسٍ في لُهَامٍ مسوَّمِ
نزوع قريش الكفرَ حتى نعلَّها ... بخاطمة فوق الأنوف بميسمِ
نُنزِّلهم أكناف نجدٍ ونخلةٍ ... وإنْ يُتْهِموا بالخيل والرَّجل نُتْهِمِ
يدَ الدهر حتَّى لا يُعَوَّج سِربُنا ... ونلحقهم آثار عادٍ وجُرهمِ
ويندم قومٌ لم يطيعوا محمداً ... على أمرهم وأيّ حين تندُّمِ
فأبلِغْ أبا سفيان إمَّا لقيتَه ... لئن أنت لم تُخلِص سجوداً وتُسلِمِ
فأبشِرْ بخزيٍ في الحياة معجَّلٍ ... وسربال قارٍ خالداً في جهنَّمِ

❀ ❀ ❀

التخريج:

سيرة ابن هشام: ٢/ ٣١٠ ـ ٣١١ ـ وقد تردَّد ابن إسحاق في

(١) قال ابن إسحاق: «مولى يمين أبي سفيان: يعني عامر بن الحضرمي، وكان في الأسارى، وكان حلف الحضرمي إلى حرب بن أمية».

نسبة القصيدة لابن رواحة أو أبي خيثمة. وجزم ابن هشام في نسبتها لأبي خيثمة. ووردت القصيدة مع التردد في ناظمها في البداية والنهاية: ٣/ ٣٣١.

٢٨

ومن شعره:

شهدتُ بأن وعد الله حقٌّ وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء حقٌّ وفوق العرش ربُّ العالمينا[١]
وتحمله ملائكة غلاظ[٢] ملائكة الإله مُسَوَّمينا

التخريج:

الاستيعاب: ٢/ ٢٨٧ والعباب الزاخر (عرض) واللسان (عرض) وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٧١.

٢٩

ومن شعره:

باسْمِ الإله وبه بَدِينا
ولو عبدنا غيرَه شَقِينا
وحبَّذا ربّاً وحُبَّ دِينا

(١) لا يصح أن يؤخذ هذا الكلام على ظاهره، لأن الله تعالى ليس بجسم فيحده مكان، بل لا بد من تأويله وحمله على ما لا ينافي أسس العقيدة والإيمان، ويراجع معنى «العرش» في اللغة لمعرفة الحقيقة.

(٢) في العباب: «ثمانية شداد»، وفي اللسان: «ملائكة شداد»، وفي سير أعلام النبلاء: «ملائكة كرام».

التخريج:

الجمهرة: ٣/ ٢٠٢ وتركيب (بدا) في الصحاح واللسان.

٣٠

حدَّث البَرَاء بن عازب قال: «لما كان يومُ الأحزاب وخَنْدَق رسولُ الله (ص) رأيته ينقل من تراب الخندق... فسمعتُه يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل من التراب ويقول:

اللهمَّ لولا أنتَ ما اهتدينا[1]
ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا
فأنزِلَنْ سكينةً علينا
وثَبِّتِ الأقدام إنْ لاقينا
إنَّ الأُلى قد بغوا علينا[2]
وإن أرادوا فتنةً أبَيْنا

التخريج:

وردت المشاطير الستة معزوةً لابن رواحة وفي معركة الخندق في صحيح البخاري: ٥/ ١٤٠ وصحيح مسلم: ٥/ ١٨٧ ـ ١٨٨ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٨٠ والبداية والنهاية: ٤/ ٩٦. وورد الأولان في سير أعلام النبلاء: ١/ ١٧٠.

وعُزيت المشاطير لعامر بن الأكوع في الخروج إلى خيبر في

(١) وفي بعض المصادر: «تاللهِ لولا الله ما اهتدينا»، وفي بعضها: «يا رب لولا أنت». وفي بعض: «لا هُمَّ لولا أنت».

(٢) وفي صحيح مسلم: «إن الملاك قد أبوا علينا»، وفي طبقات ابن سعد: «إن الكفار قد بغوا علينا»، وفي البداية والنهاية: «إن الأُلى قد رغَّبوا علينا».

صحيح البخاري: ١٦٦/٥ وصحيح مسلم: ١٨٦/٥ و١٩٤ وغيرهما من المصادر.

ولعل الجمع بين الروايتين أو النسبتين ممكن؛ بأن يكون الناظم هو ابن رواحة، لأن الخندق قبل خيبر كما هو معلوم، وأن يكون ابن الأكوع قد حفظها من يوم الخندق فأنشدها في يوم خيبر.

٣١

وقال لمَّا أخذ الرايةَ وتقدَّم بها يوم مؤتة:

أقسمتُ يا نفس لَتَنْزِلِنَّهْ[١]
لَتَنْزِلِنْ أو فَلَتُكْرَهِنَّهْ[٢]
إنْ أجلبَ الناسُ وشدُّوا الرنَّهْ
مالي أراكِ تكرهين الجنَّهْ
قد طال ما قد كنتِ مطمئنَّهْ
هل أنتِ إلاَّ نطفة في شَنَّهْ

التخريج:

المشاطير الستة في سيرة ابن هشام: ٢١/٤ وتاريخ الطبري: ٣/ ٣٩ ـ ٤٠ وحلية الأولياء: ١٢٠/١ والاستيعاب: ٢٨٦/٢ والكامل في التاريخ: ١٦٠/٢ وأسد الغابة: ١٥٩/٣ والبداية والنهاية: ٢٤٥/٤ وشرح نهج البلاغة: ٦٩/١٥ وسير أعلام النبلاء: ١٧٢/١ ونهاية

---

(١) وفي طبقات ابن سعد: «أحلف بالله لتنزلنه».

(٢) وفي عدد من المصادر: «طائعة أو فلتكرهنه»، وفي بعض: «طائعة أو لا لتكرهنه»، وفي حماسة البحتري: «كارهة أو لتُطاوعنَّه»، وفي شرح النهج: «طوعاً وإلا سوف تكرهنه».

الأرب: ١٧/ ٢٨٠ ـ ٢٨١ وتاريخ الخميس: ٢/ ٧١.

والمشاطير ١ و٢ و٤ في طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٨٢.

والمشاطير ١ و٢ و٤ و٥ في حماسة البحتري: ٩. والأول والثاني والخامس والرابع في طبقات فحول الشعراء: ٢٢٦. والمشاطير ١ و٢ في الاستيعاب: ٢/ ٢٨٦ وبعدهما مشطور هو:

جعفر ما أطيب ريح الجنَّهْ

والأول والثاني والرابع في سير أعلام النبلاء: ١/ ١٦٨.

٣٢

ومن شِعره في رواية ابن إسحاق:

وَعَدْنا أبا سفيان بدراً ولم نجدْ ... لميعاده صدقاً وما كان وافيا
فأُقسِم لو وافيتَنا فلقيتنا ... لأُبْتَ ذميماً وافتقدتَ المواليا
تركنا به أوصال عتبة وابنِه ... وعَمْراً أبا جهلٍ تركناه ثاويا
عصيتم رسول الله أفٌ لدينكم ... وأمركم السَّيْءِ الذي كان غاويا
فإني وإنْ عنَّفتموني لقائل ... فدىً لرسول الله أهلي وماليا
أطعناه لم نعدِلْه فينا بغيره ... شهاباً لنا في ظلمة الليل هاديا

التخريج:

سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٢١ والبداية والنهاية: ٤/ ٨٨ ونهاية الأرب: ١٧/ ١٥٦. وقال ابن هشام: «أنشدنيها أبو زيد الأنصاري لكعب بن مالك»، وقد نقلها جامع ديوان كعب بن مالك عن ابن هشام.

لمَّا أرسل الله تعالى رسوله محمداً (ص) برسالة الخير والحق والإخاء، ليُخرج الناسَ من الظلمات إلى النور، وأمره بأن يبلِّغ ما أُنزل إليه من ربِّه مهما كانت الصعاب والعقبات، صدع النبي (ص) بالأمر؛ ونهض بالعبء؛ وأدَّى الرسالة جاداً مجتهداً مضحِّياً في سبيلها بالغالي والنفيس. وكان من جملة وسائله في التبليغ والهداية والتوجيه حضوره المواسم التي تجتمع فيها العرب بمكة؛ واتصاله بالقبائل الوافدة إليها، «يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبيٌّ مرسَل، ويسألهم أنْ يصدِّقوه ويمنعوه حتى يبيِّن لهم ما بعثه الله به»[1].

وفي موسم من تلك المواسم لقي عند العقبة رهطاً من الخزرج «فدعاهم إلى الله عزَّ وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن... فأجابوه فيما دعاهم إليه... ثم انصرفوا عن رسول الله (ص) راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدَّقوا»[2].

«حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسمَ من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوه بالعقبة ـ وهي العقبة الأولى ـ فبايعوا رسولَ الله (ص)»[3].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٦٤.
(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٠ ـ ٧١.
(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٣.

وفي موسم تالٍ «خرج مَنْ خرج من الأنصار من المسلمين... حتى قدموا مكة، فواعدوا رسولَ الله (ص) العقبة»، والتقوه هناك، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين، فبايعوه وأكَّدوا له الاستعداد للفداء والنصرة، فطلب منهم النبي (ص) أن يختاروا من بينهم اثني عشر نقيباً «ليكونوا على قومهم بما فيهم. فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس»[١].

وكان عبد الله بن رواحة ـ وهو من حاضري هذا المجمع ـ أحد هؤلاء القادة المختارين والنقباء المنتَخَبين[٢].

وأصبح هذا اليوم الخالد في تاريخ ذلك الصحابي المجاهد؛ بداية مرحلة جديدة شاقة المدى عنيفة الشوط، كلُّ آناتها جهاد متواصل وكفاح دؤوب؛ في سبيل ترسيخ أُسس العقيدة وحمايتها من الأذى والشرور والعدوان.

❀ ❀ ❀

ولمّا أذن الله تعالى لرسوله بالهجرة إلى دار الإيمان ـ المدينة المنوَّرة ـ أمر أصحابه بالخروج إليها واللحوق بإخوانهم الأنصار، فخرجوا أرسالاً جماعة في أثر جماعة. ثم خرج النبي (ص) على أثرهم مهاجراً إلى عاصمته المقدَّسة.

وكان في طليعة الإنجازات النبوية بعد حطِّ الرحال في المدينة:

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٨١ ـ ٨٥.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٨٦ و١٠١ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٧٩ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٤٤ و٢٥٢ والمحبَّر: ٢٦٩ والاستيعاب: ٢/ ٢٨٥ وجمهرة أنساب العرب: ٣٦٣ وأسد الغابة: ٣/ ١٥٧ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٦٦ والبداية والنهاية: ٣/ ١٦٢ والإصابة: ٢/ ٢٩٨.

إعلانه (ص) عن عزمه على بناء المسجد الجامع الكبير. فتبارى زعماء الأنصار في التطوع للقيام بذلك؛ ورغبة كل واحدٍ منهم أن يكون هذا المسجد المبارك في حيِّه الخاص، ومنهم عبد الله بن رواحة إذ عرض على النبي (ص) أن يبني المسجد في حيّ بني الحارث من الخزرج[(١)].

كما أعلن النبي (ص) في جملة تلك الخطوات الأولى أيضاً: مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار تدعيماً لوحدة الكلمة وتراصِّ الصفوف، وكان من ذلك مؤاخاته بين عبد الله بن رواحة والمقداد[(٢)]، فكانا أَخَوَيْن في الله والدين.

ومنذ الأيام الأولى للهجرة الشريفة إلى المدينة وضع عبدُ الله نفسه تحت تصرف النبي (ص) فادياً ومرافقاً وحامياً، فكان معه على الدوام لا يفارقه ولا ينقطع عنه أينما حلّ وحيثما ارتحل.

ويروي الرواة في هذا الصدد: أن النبي (ص) ـ مرّ يوماً ـ وبصحبته ابن رواحة ـ بعبد الله بن أُبيّ وحوله رجال من قومه، «فلما رآه رسول الله (ص) تذمم من أن يجاوزه حتى ينزل، فنزل فسلّم، ثم جلس قليلاً فتلا القرآن ودعا إلى الله عز وجل، وذكّر بالله وحذّر، وبشّر وأنذر». فقال له ابن أُبيّ: «اجلس في بيتك فمن جارك له فحدِّثه إياه، ومن لم يأتك فلا تغتَّه به ولا تأته في مجلسه بما يكره منه». فتحدّاه عبد الله بن رواحة وقال مخاطباً رسول الله (ص): «بلى، فاغشنا به وائْتنا في مجالسنا ودورنا وبيوتنا، فهو ـ والله ـ مما نحبُّ وممَّا أكْرَمَنا الله به وهدانا له»[(٣)].

كما روى الرواة أيضاً أن ابن رواحة ـ وقد حلَّت الهداية قلبه

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٤٠.
(٢) الإصابة: ٢/ ٢٩٨.
(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٣٦.

وغمرته حماساً ونشاطاً وإخلاصاً ـ لم يدع أحداً ممن يعرف من أصدقائه وذوي قرباه إلاَّ دعاه إلى الله وحثَّه على الدخول في الإسلام والتمسك بأهدابه. وحسبنا موقفه من أبي الدَّرداء شاهداً ومثالاً على ذلك، فقد ذكر ابن سعد أن أبا الدرداء كان آخِرَ أهل داره إسلاماً، «فجاء عبد الله بن رواحة ـ وكان أخاً له في الجاهلية والإسلام ـ فأخذ قَدُوماً فجعل يضرب صنمَ أبي الدرداء وهو يقول:

تَبَرَّأْ من أسماء الشياطين كلِّها ... ألا كلُّ من يُدعى مع الله باطلُ

«وجاء أبو الدرداء فأخبرتْه امرأتُه بما صنع عبد الله بن رواحة، ففكر في نفسه فقال: لو كان عند هذا خيرٌ لدفع عن نفسه. فانطلق حتى أتى رسولَ الله (ص) ومعه عبد الله بن رواحة، فأسلم»[(١)].

❀ ❀ ❀

ولمَّا بدأت الحروب الإسلامية؛ دفاعاً عن الحق وتثبيتاً لكلمة الله في الأرض، كان لابن رواحة دور بارز ومشاركة فعَّالة في كل تلك المواقف والمشاهد والمعارك، حتى قال فيه عدد من المؤرخين: «كان عبد الله أول خارج إلى الغزو وآخر قافل»[(٢)].

وكان من جملة تلك المواقف:

١ ـ شهد ـ رضوان الله عليه ـ بدراً[(٣)]، وكانت أول معركة ضارية بين

---

(١) طبقات ابن سعد: ٧/ق ٢/ ١١٧.

(٢) الاستيعاب: ٢/ ٢٨٥ وأسد الغابة: ٣/ ١٥٧ والإصابة: ٢/ ٢٩٩.

(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٠١ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٧٩ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٤٤ والاستيعاب: ٢/ ٢٨٥ وجمهرة أنساب العرب: ٣٦٣ وأسد الغابة: ٣/ ١٥٧ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٦٦ والإصابة: ٢/ ٢٩٨.

الإسلام والكفر وبين التوحيد والشرك، بل كانت من المعارك الفاصلة الكبرى في تاريخ الرسالة.

وحينما خرج عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة من صفوف المشركين ودعوا المسلمين إلى المبارزة، خرج إليهم ثلاثة من الأنصار: عوف بن الحارث ومعوّذ بن الحارث وعبد الله بن رواحة. فقال المشركون: مَنْ أنتم؟، فقالوا: رهط من الأنصار، قالوا: أكفاء كرام، ما لنا بكم من حاجة، إنما نريد قومنا»، فرجعوا، وتقدَّم إليهم حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث(١).

وبعد أن نصر الله تعالى دينه ذلك النصر العظيم في بدر، بعث رسول الله (ص) عبد الله بن رواحة بشيراً إلى أهل العالية ـ والعالِيَةُ: قباء وخطمة ووائل وواقف وقُريظة والنضير ومَنْ جاور هؤلاء ـ بما فتح الله عليه(٢)، وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة.

ثم بعثهما بالبشرى إلى مَنْ بالمدينة من المسلمين(٣).

٢ ـ وكان اللقاء الثاني بين الإسلام والكفر في أُحُد. وقد شهد ابن رواحة المعركة وخاض غمراتها وأُبلي فيها بلاء حسناً(٤).

٣ ـ ولمَّا غزا رسولُ الله (ص) ـ بدرَ الموعد ـ وهي غير بدرِ الكبرى ـ «وكانت لهلال ذي القعدة، على رأس خمسة وأربعين شهراً من مُهاجَرِه. . . استخلف على المدينة عبد الله بن رواحة»(٥).

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٧٧ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٤٥.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٩٦ وطبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ١٢ و٣/ق ٢/ ٧٩ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٥٨ و٤٨٧.

(٣) سيرة ابن هشام: ٣/ ٥٤ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ١٨٤ والإصابة: ٢/ ٢٩٨.

(٤) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٠١ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٧٩ والاستيعاب: ٢/ ٢٨٥ وأسد الغابة: ٣/ ١٥٧.

(٥) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٤٢ و٣/ق ٢/ ٧٩ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٤٠ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٦٠ ـ ٥٦١ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٦٦.

٤ ـ ثم شهد عبدُ الله حربَ الخندق[١]، وشارك في كل جوانب المعركة مشاركة فعَّالة مؤثرة.

وكان ابن رواحة ممن شارك في حفر الخندق والعمل به، وقد ارتجز في أثناء نقله التراب من الخندق بمشاطير تقدَّم ذكرها في شعره، وكانت أخته عمرة زوجة بشير بن سعد ترسل لزوجها وأخيها غداءهما مع ابنتها؛ وهو مقدار من تمرٍ تحمله البنت في ثوبها[٢].

ولـمَّا أقبلتْ قريش إلى المدينة في هذه الحرب، جاء حُيَيُّ بن أخطب إلى كعب بن أسد القرظي اليهودي يحمله على نقض عهده مع النبي (ص) وعلى مساعدة المشركين وتوحيد الموقف معهم للقضاء على دين الله وعلى رسول الله (ص). «فلما انتهى إلى رسول الله (ص) الخبرُ وإلى المسلمين، بعث رسول الله (ص) سعدَ بن معاذ بن النعمان ـ وهو يومئذٍ سيد الأوس ـ وسعدَ بن عبادة. . . ـ وهو يومئذٍ سيد الخزرج ـ ومعهما عبد الله بن رواحة أخو بني الحارث بن الخزرج وخَوَّات بن جبير أخو بني عمرو بن عوف، فقال: انطلقوا حتى تنظروا أحَقٌّ ما بَلَغنا عن هؤلاء القوم أم لا. . . فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم»[٣].

٥ ـ ثم شهد الحُديبية[٤] وما أسفرت عنه من عهد وصلح.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٠١ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٧٩ والاستيعاب: ٢/ ٢٨٥ وأسد الغابة: ٣/ ١٥٧.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

(٣) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٣٢ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٧١. وقد روينا ذلك بالتفصيل في كتابنا «سعد بن معاذ».

(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٧٩ والاستيعاب: ٢/ ٢٨٥ وأسد الغابة: ٣/ ١٥٧.

٦ ـ وشهد خيبراً[١] وما انكشفت عنه حربها من نصر وخير للإسلام والمسلمين.

ولما أُبرم الاتفاق بين رسول الله (ص) وأهل خيبر على قسمة ثمار أرضهم بينهم وبين المسلمين، اختار النبي عبدالله بن رواحة خارصاً للغلّات والزروع؛ يخرص عليهم «ويقسم ثمرها، ويعدل عليهم في الخَرْص»، وقد اختاره النبي (ص) لهذه المهمة اعتماداً منه على دينه وصدقه وخبرته الفائقة، وبقي كذلك حتى استشهد[٢].

٧ ـ وفي شهر رمضان سنة ستٍّ من الهجرة، أو سنة خمس كما في إحدى الروايات، وجَّه رسولُ الله (ص) عبدَ الله بن رواحة في ثلاثة نفرٍ سرّاً إلى خيبر لاستجلاء خبر اليُسَير (أو: أُسَير) بن رِزَام (أو: رازم) اليهودي، وكان يهود خيبر قد أمَّروه عليهم بعد مقتل أبي رافع سلّام بن أبي الحقيق. وقد بلغ النبيَّ (ص) أنَّه يحرِّض غَطَفان ويجمعهم لحرب رسول الله (ص). فذهب ابن رواحة للتحقُّق من الأمر، «فسأل عن خبره وغِرَّته؛ فأُخبِرَ بذلك، فقدم على رسول الله (ص) فأخبره. فندب رسولُ الله (ص) الناسَ فانتدب له ثلاثون رجلاً، فبعث عليهم عبدَ الله بن رواحة، فقدموا على يُسَير (أو: أُسَير)» فقتلوه وأصحابه كلهم غير رجلٍ واحد، ولم يُصَب من المسلمين أَحَدٌ[٣].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ق ٢/ ٧٩ وأسد الغابة: ٣/ ١٥٧.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٦٩ و٣٧١ وطبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٨٠ و٣/ق ٢/ ٧٩ وتاريخ الطبري: ٣/ ٢١ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٦٦.

(٣) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٦٦ ـ ٦٧. والمضمون في سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٧٨ والمحبَّر: ١١٩ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٧٩ وتاريخ الطبري: ٣/ ١٥٥ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٦٦ والإصابة: ٢/ ٢٩٨.

٨ ـ ثم شهد عُمرةَ القضيَّة أو القضاء[1] في سنة سبع من الهجرة. وروى الرواة أنَّ رسول الله (ص) قد دخل مكة في هذه العمرة من الثنيَّة التي تطلعه على الحَجون، وعبد الله آخذ بزمام راحلته، وهو يرتجز بمشاطير تقدَّم ذكرها في شعره.

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/٧٩ والاستيعاب: ٢/٢٨٥ وأسد الغابة: ٣/١٥٧.

في شهر جمادى الأولى؛ سنة ثمان من الهجرة، بعث النبي (ص) جيشاً إلى مؤتة، للثأر من مقتل الحارث بن عمير الأزدي مبعوثه إلى ملك بُصْرى، «واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال: إن أُصيب زيدٌ فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإنْ أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس»[1].

«فتجهَّز الناس ثم تهيئوا للخروج ـ وهم ثلاثة آلاف ـ، فما حضر خروجُهم وَدَّع الناسُ أُمراءَ رسول الله (ص) وسلَّموا عليهم. فلما وُدِّع عبد الله بن رواحة مع مَنْ وُدِّع... بكى، فقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: أَمَا واللهِ ما بي حُبُّ الدنيا ولا صبابة بكم، ولكني سمعتُ رسول الله (ص) يقرأ آيةً من كتاب الله عز وجل يذكر فيها النار: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] فلستُ أدري كيف لي بالصَّدَر بعد الورود».

«فقال المسلمون: حبكم الله ودفع عنكم، وردَّكم إلينا سالمين»[2].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ١٥ وصحيح البخاري: ٥/ ١٨٢ وطبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٩٢ وتاريخ الطبري: ٣/ ٣٦ وأسد الغابة: ٣/ ١٥٨ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٦١.

(٢) سيرة ابن هشام: ٤/ ١٥ وتاريخ الطبري: ٣/ ٣٦ ـ ٣٧ وأسد الغابة: ٣/ ١٥٨ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٦٥ ـ ٦٦.

ثم «مضوا حتى نزلوا معانَ من أرض الشام، فبلغ الناس أنَّ هرقل قد نزل مآبَ من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من لخم وجُذام والقَيْن وبهراء وبَليّ مائة ألف منهم... فلمَّا بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتَيْن يفكِّرون في أمرهم... فشجَّع الناسَ عبدُ الله بن رواحة وقال:

«يا قوم؛ واللهِ إن التي تكرهون لَلَّتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتِل الناسَ بعددٍ ولا قوة ولا كثرة، ما نقابلهم إلاَّ بهذا الدين الذي أكْرَمَنا اللهُ به، فانطلِقوا فإنما هي إحدى الحُسنَيَيْن: إمَّا ظهورٌ وإمَّا شهادة».

«فقال الناس: قد ـ واللهِ ـ صدق ابنُ رواحة[١]».

وفي لفظ الواقدي:

«فبينا الناس على ذلك من أمرهم جاءهم عبد الله بن رواحة فشجَّعهم وقال: واللهِ ما كنَّا نقاتل الناسَ بكثرة عدَّة ولا كثرة سلاح ولا كثرة خيل؛ إلاَّ بهذا الدين الذي أكْرَمَنا اللهُ به. انطَلِقوا فقاتِلوا، فقد ـ واللهِ ـ رأينا يوم بدرٍ وما معنا إلاَّ فَرَسانِ. إنما هي إحدى الحُسْنَيَيْن: إما الظهور عليهم فذاك ما وَعَدَنا الله ورسولُه وليس لوعده خُلف، وإمَّا الشهادة فنلحق بالإخوان نرافقهم في الجنان».

«فشَجُع الناس على قول ابن رواحة[٢]».

«فمضى الناس... ثم التقوا واقتتلوا، فقاتل زيد بن حارثة براية

---

(١) سيرة ابن هشام: ١٦/٤ ـ ١٧ وطبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٩٢ ـ ٩٣ وتاريخ الطبري: ٣/ ٣٧ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٦٦ ـ ٦٧.

(٢) وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٦٧.

رسول الله (ص) حتى قُتِل... ثم أخذها جعفر فقاتل بها... حتى قُتِل».

«فلما قُتِل جعفر أخذ عبدُ الله بن رواحة الراية، ثم تقدَّم بها وهو على فرسه... ثم نزل، فلما نزل أتاه ابنُ عمٍّ له بعرقٍ من لحم فقال: شُدَّ بهذا صُلبَك فإنك قد لقيتَ في أيامك هذه ما لقيتَ. فأخذه من يده ثم انتهس منه نهسة. ثم سمع الحَطْمةَ [أي زحام المتقاتلين] في ناحية الناس، فقال: وأنتَ في الدنيا!. ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه فتقدم، فقاتل حتى قُتِل»[(١)].

ولمَّا «طُعِن استقبل الدمَ بيده فدلك به وجهه، ثم صُرِع بين الصفَّيْن»[(٢)].

وكان النبي (ص) وهو في المدينة، على صلة مباشرة بالمعركة وتطوراتها العنيفة الدامية، بواسطة الوحي الإلهي الذي لا تخفى عليه خافية، فأعلن على حبه المحتشدين بين يديه في ذلك اليوم الكئيب قائلاً:

«أخذ الرايةَ زيدُ بن حارثة فقاتل بها حتى قُتِل شهيداً».

«ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قُتِل شهيداً».

«ثم صمت رسول الله (ص) حتى تغيَّرتْ وجوه الأنصار؛ وظنوا أنه قد كان في عبد الله بن رواحة بعضُ ما يكرهون، ثم قال:

«ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قُتِل شهيداً»[(٣)].

❊ ❊ ❊

(١) سيرة ابن هشام: ١٩/٤ ـ ٢١ وطبقات ابن سعد: ٢/ق ١/٩٣ وتاريخ الطبري: ٣٩/٣ ـ ٤٠ والاستيعاب: ٢٨٦/٢ وشرح نهج البلاغة: ٧٠/١٥.

(٢) أسد الغابة: ١٥٩/٣.

(٣) سيرة ابن هشام: ٢٢/٤ وشرح نهج البلاغة: ٦٨/١٥ ـ ٦٩.

و«لمَّا جاء قتلُ ابن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة ـ (رض) ـ جلس رسولُ الله (ص) يُعرَف فيه الحزن»[١].

وأُثِرتْ عن النبي (ص) في هؤلاء القادة الشهداء من كلمات الثناء والمدح والإطراء ما يُعَدُّ من أرفع الأوسمة الجهادية التي يمنحها الله تعالى على لسان رسوله لمن يختاره من المؤمنين الصالحين والأبطال الصِّدّيقين.

وممَّا جاء في تلك الأحاديث النبوية الشريفة في عبد الله الشهيد قوله (ص):

«نِعْمَ الرجل عبد الله بن رواحة»[٢].

وقوله (ص):

«رحم الله ابن رواحة، إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة»[٣].

وقوله (ص):

«مَثَلَ لي جعفر وزيد وعبد الله في خيمةٍ من دُرٍّ، كل واحد منهم على سرير»[٤].

وازدحمتْ مشاعر الألم والتفجع في نفوس بعض الشعراء وقد بلغهم نبأ استشهاد قادة جيش المسلمين في مؤتة، فانفجرتْ شعراً يتقاطر حزناً وتوجعاً؛ ورثاءً يفيض حباً وصدقاً وإكباراً لهؤلاء الأبطال الصناديد. وكان في طليعة أولئك الشعراء: حسان بن ثابت الأنصاري، فقال يرثي زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة:

---

(١) صحيح البخاري: ٥/ ١٨٢.
(٢) الإصابة: ٢/ ٢٩٨.
(٣) سير أعلام النبلاء: ١/ ١٦٧ والإصابة: ٢/ ٢٩٨.
(٤) التبيين: ٩٣ وشرح نهج البلاغة: ١٥/ ٧٣.

عينُ جُودي بدمعكِ المنزورِ ... واذكري في الرخاء أهلَ القبورِ
واذكري مؤتةً وما كان فيها ... يوم ولَّوا في وقعة التغويرِ
حين ولَّوا وغادروا ثَمَّ زيداً ... نِعْمَ مأوى الضريك والمأسورِ
حِبَّ خير الأنام طرّاً جميعاً ... سيد الناس حُبُّه في الصدورِ
ذاكُمُ أحمدُ الذي لا سواه ... ذاك حزني معاً له وسروري
إن زيداً قد كان منّا بأمرٍ ... ليس أمر المكذّب المغرورِ
ثم جُودي للخزرجيِّ بدمعٍ ... سيداً كان ثَمَّ غير نزورِ
قد أتانا من قتلهم ما كفانا ... فبحزنٍ نبيتُ غير سرورِ[1]

وقال حسان أيضاً يذكر ابن رواحة في مرثيته جعفر بن أبي طالب:

فلا يبعدنَّ اللهُ قتلى تتابعوا ... بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفرُ
وزيدٌ وعبد الله حين تتابعوا ... جميعاً وأسباب المنية تَخطِرُ[2]

وقال شاعر من المسلمين ممن شارك في غزوة مؤتة بعد عودته إلى المدينة:

كفى حَزَناً أني رجعتُ، وجعفرٌ ... وزيدٌ وعبد الله في رَمْسِ أقْبُرِ
قضوا نحبهم لما مضوا لسبيلهم ... وخُلِّفْتُ للبلوى مع المُتَغَبِّرِ
ثلاثة رهطٍ قُدِّموا فتقدَّموا ... إلى ورد مكروهٍ من الموت أحمرِ[3]

وتوارث المسلمون على مرِّ القرون حبَّ هؤلاء السادة الكرام شهداء الحق والإيمان والعقيدة، وكان من جملة تعبيرهم عن هذا الحب والتقدير قيامهم بزيارة مثواهم المقدَّس وقبورهم الطاهرة؛ وقراءة القرآن الكريم والأذكار المأثورة في تلك الرحاب الخالدة.

---

(١) ديوان حسان بن ثابت: ٢٩٥.

(٢) ديوان حسان بن ثابت: ٩٨.

(٣) سيرة ابن هشام: ٤/ ٣٠، والأولان في البداية والنهاية: ٤/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

وأورد السيد محسن الأمين فيما أورد في هذا الصدد؛ زيارةً يُزار بها كلٌ من زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة، هذا نصها:

«السلام عليكما يا صاحبيْ رسول الله (ص) والشهيدين في سبيل الله. السلام عليكم بما صبرتُم فنِعم عقبى الدار.

«أشهد لقد جاهدتما في سبيل الله، وصبرتما، وجُدْتما بأنفسكما حتى قُتِلتما مجاهدَيْن صابرَيْن مقبلَيْن غير مدبرَيْن، فجزاكما الله خير جزاء المحسنين، ورفع درجتكما في أعلى علِّيين، وحشرنا الله في زمرتكما تحت راية محمد (ص)، ولا أحرمنا بركتكما. والسلام عليكما ورحمة الله وبركاته»[١].

---

(١) مفتاح الجنات: ٣/ ٢٦٠.

من المؤمنين رجال

[٨]

سعد بن عبادة

سَعْدُ بْنُ عُبَادَة

اسمه ونسبه

هو: سَعْد بن عُبَادة بن دُلَيم بن حارثة بن أبي حَزِيمة بن ثعلبة بن طَرِيف بن الخَزْرَج بن ساعِدَة بن كَعْب بن الخَزْرَج[1] بن الحارث بن الخزرج بن حارِثة[2].

وقبيلته: الخزرج أنصار الله ورسوله، ممن أثنى الله تعالى عليهم في كتابه المجيد، وذكرهم رسول الله (ص) بكل خير، بل ورد في بعض ما أُثِر عنه من الحديث في هذا الحيِّ من الأنصار: أن (حبهم إيمان وبغضهم نفاق)[3].

وأبوه وجدُّه: من أشهر مَنْ عُرِف بالكرم والجود بين زعماء تلك الأطراف، ورُوِي أنه (لم يكن في الأوس والخزرج أربعةٌ مُطعِمون متتالون في بيت واحدٍ إلاَّ قيس بن سعد بن عبادة بن دليم... ولقد كان مناديه ينادي... مَنْ أراد الشحم واللحم فلْيأتِ دار دُلَيم، فمات دليم فنادى منادي عُبادة بمثل ذلك، ثم مات عبادة فنادى سعد بمثل ذلك)[4].

---

(١) ورد هذا النسب ـ على اختلافٍ في بعض أسمائه ـ في سيرة ابن هشام: ٢/ ٨٧ و١٠٩ وطبقات ابن سعد: ٧/ق ٢/ ١١٥ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٥٠ والمحبر: ٢٧٧ والاستيعاب: ٢/ ٣٢ وجمهرة أنساب العرب: ٣٦٥ وأسد الغابة: ٢/ ٢٨٣ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٩٦ والإصابة: ٢/ ٢٧ والدرجات الرفيعة: ٣٢٥.

(٢) المحبر: ٢٦٩.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١/ ١٩٧.

(٤) الاستيعاب: ٢/ ٣٣. وورد ذكر هؤلاء الأربعة المتوالين في الجود في أسد الغابة: ٢/ ٢٨٣.

وفي نصّ آخر: أنه (كان لهم أُطُمٌ [أي حِصْنٌ] يُنادى عليه كل يوم: مَنْ أحبَّ الشحم واللحم فليأتِ أُطُمَ دليم بن حارثة)[١].

وأُمُّه: عَمْرَة بنت مسعود بن قيس بن عمرو بن زيد مَنَاة بن عَديٍّ بن عمرو بن مالك بن النجَّار[٢]. وأُمُّها عُمَيْرَةُ بنت عمرو بن حرام بن عمرو بن زيد مَنَاة[٣].

وكانت عمرة قد أسلمت (وبايعتْ رسولَ الله (ص). وتوفِّيتْ ورسول الله في غزوة دومة الجندل؛ وكانت في شهر ربيع الأول سنة خمس من الهجرة[٤]، وكان سعد بن عبادة معه. فقدم رسولُ الله (ص) فجاء قبرها فصلَّى عليها)[٥]، وسأله سعد حينذاك: هل ينفعها شيءٌ إنْ تصدَّقتُ به عنها؟ قال: نعم، قال: فإني أُشهدك أن حائطي [أي بستاني] المخراف صدقة عنها[٦].

وذكر بعض المؤرخين له خالة تدعى عَمْرَة أيضاً؛ وهي (عمرة بنت مسعود الصغرى) وقد أسلمتْ وبايعتْ رسولَ الله (ص) مع المبايعات من النساء[٧].

وإخوته وأخواته:

١ ـ سهل بن عبادة، (له صحبة)[٨].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١/ ٢٠٢ والإصابة: ٢/ ٢٧ ـ ٢٨.
(٢) طبقات ابن سعد: ٧/ق ٢/ ١١٥ و٨/ ٣٣٠ والاستيعاب: ٤/ ٣٥٢ وأسد الغابة: ٥/ ٥١٠ والإصابة: ٤/ ٣٥٦.
(٣) طبقات ابن سعد: ٨/ ٣٣٠.
(٤) طبقات ابن سعد: ٨/ ٣٣٠ ـ ٣٣١ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٦٤ والاستيعاب: ٤/ ٣٥٢ وأسد الغابة: ٥/ ٥١٠ والإصابة: ٢/ ٢٧ و٤/ ٣٥٦.
(٥) طبقات ابن سعد: ٨/ ٣٣٠ ـ ٣٣١ والمعجم الكبير: ٦/ ٢٤.
(٦) المعجم الكبير: ٦/ ٢٠ وأسد الغابة: ٥/ ٥٨٧.
(٧) الإصابة: ٤/ ٣٥٦.
(٨) جمهرة أنساب العرب: ٣٦٦.

٢ ـ عبادة بن عبادة، ورد اسمه في أثناء ترجمة أخته ليلى[١].

٣ ـ ليلى بنت عبادة، وهي زوجة خلّاد بن سويد بن ثعلبة بن عمرو بن حارثة بن امرىء القيس بن مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج، وقد شهد خلّادٌ هذا بدراً وأُحداً والخندق واستشهد في غزوة بني قريظة، وولدت له السائب بن خلّاد. وكانت ليلى قد أسلمت وبايعت رسول الله (ص)[٢].

٤ ـ مندوس بنت عبادة، وهي زوجة سماك بن ثابت بن سفيان بن عَديّ بن عمرو بن امرىء القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج، وولدت له ثابتاً. وكانت من جملة النساء اللائي أسلمنَ وبايعن رسول الله (ص)[٣].

❀ ❀ ❀

ولد سعد في الجاهلية قبل البعثة النبوية بحين، غير أننا لم نعرف متى كان ذلك على وجه التعيين، بل ليس لدينا من القرائن والإشارات ما يساعد على الظن والتخمين.

ونشأ في يثرب نشأة العز والترف والنَّعمة، ولكنها لم تكن النشأة التي تتَّجه نحو رخاوة اللهو واللعب وميوعة العبث والنزق والطيش، وإنما كانت تقوم على أساس الإعداد الذاتي والبناء الداخلي لهذا الإنسان المرشَّح للسيادة والقيادة؛ وبكل ما يقتضيه الإعداد من شؤون وأبعاد.

---

(١) أسد الغابة: ٥/ ٥٤١.

(٢) يراجع في ليلى: طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٨٢ و٨/ ٢٧٢ والمحبر: ٤٢٣ وأسد الغابة: ٥/ ٥٤٢ والإصابة: ٤/ ٣٨٨.

(٣) يراجع في مندوس: طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٧١ والمحبر: ٤٢٣ وأسد الغابة: ٥/ ٥٤٩ والإصابة: ٤/ ٣٩٧.

وسرعان ما تعلَّم الفروسية ـ وهي ضرورة الحياة الأولى في ذلك اليوم ـ فبرع فيها كل البراعة.

ثم تعلَّم الرَّمْيَ ـ وهو من مستلزمات الحرب الأساسية في ساعات الشدة والبأس ـ فمهر فيه كل المهارة.

كما تعلَّم العَوْمَ ـ وهو من الكمالات التي يفترضها قربُ منطقة المدينة من البحر ـ فأجاده كل الإجادة.

ولم يفته ـ قبل ذلك أو بعده ـ أن يتعلَّم الكتابة وأن يحسنها ويتقنها كما ينبغي ويُرام، بل روى الطبراني أن له (كتاباً) أورد فيه بعض ما قضى به رسول الله (ص)[1].

وكان العرب يُطلقون اسم (الكامل) على مَنْ تحلَّى بهذه المزايا الثلاث فأحسن وأتقن.

فإذا أضيف إلى ذلك كله احتضانه للسيف منذ ريعان صباه؛ دليلاً على الشجاعة؛ ورمزاً للبطولة؛ يكون سعد (الكامل) قد بلغ الغاية واستقر على قمة الكمال الإنساني المنشود.

ويظهر من بعض مؤلفات السلف أن سيف سعد لم يكن كسائر السيوف المعتادة التي كان يمتلكها الناس ويحملونها في ساعات الحرب والبأس، وإنما كان سيفاً تاريخياً يتوارثه زعماء الخزرج خلفاً عن سلف، حتى وصل في نهاية المطاف إلى سعد، فحمله بجدارة وكفاية، وسماه (الرَّقراق)، وهو القائل فيه:

فإن يكن الرَّقراقُ فلَّل حدَّهُ قراعُ الأعادي كابراً بعد كابرِ

(١) طبقات ابن سعد: ٧/ق ٢/ ١١٥ وفتوح البلدان: ٤٥٩ والمعجم الكبير: ٦/ ١٩ ـ ٢٠. وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٠٢ والإصابة: ٢/ ٢٧ والدرجات الرفيعة: ٣٢٥.

تـوارثـه الآبـاء مـن عـهـد جُـرهُـمٍ وقـبـل بـنـي ضـدٍّ بـن عـادٍ وجـاثـرِ
فـلـسـتُ بـمـبـتـاعٍ يـدَ الـدهـر مـثـلَـه أُعرِّضه أخرى الليالي الغوابرِ[1]

❁ ❁ ❁

ثم بادر سعد وقد أصبح الشاب الناضج والرجل الكامل؛ إلى الزواج وبناء الأسرة الخاصة به، وعرفنا له من الأزواج كلاً من:

١ ـ فُكيهَة بنت عبيد (أو: عبد) بن دليم بن حارثة بن أبي حزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة، وهي أم قيس وأمامة وكانت فكيهة هذه قد أسلمت وبايعت رسول الله (ص)[2].

٢ ـ غَزِيَّة (أو: عَديَّة) بنت سعد بن خليفة بن الأشرف بن أبي حزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة، وأمُّها سلمى بنت عازب بن خالد بن الأجَشّ من قضاعة. وهي أمُّ سعيد بن سعد، وقد أسلمت غزية وبايعت رسول الله (ص) فيمن بايعنه من النساء[3].

ورُزِقَ سعد من الأولاد فيما روى الرواة:

١ ـ قيس بن سعد: وهو أشهر من أن يُعَرَّف، وكان بمنزلة صاحب الشرطة لرسول الله (ص)[4]، وولي مصرَ لعليٍّ بن أبي طالب (ع)، وتوفي عام ٦٠هـ. وفي شَذُونة بالأندلس (بنو عَرَمْرَم بن جميل بن عصام بن قتادة بن وتَّاد بن قيس بن سعد بن عبادة)[5].

---

(١) يراجع في اسم السيف: التكملة والقاموس (رقق)، وفي اسم السيف والأبيات الثلاثة: العباب وتاج العروس (رقق).

(٢) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٧٢ والمحبر: ٤٢٣ وأسد الغابة: ١٥/ ٥٣١ والإصابة: ٤/ ٣٧٦.

(٣) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٧٢ والمحبر: ٤٢٣.

(٤) سنن الترمذي: ٥/ ٦٩٠.

(٥) جمهرة أنساب العرب: ٣٦٥ ـ ٣٦٦.

٢ ـ سعيد بن سعد: صحابي صحيح الصحبة، ثقة، قليل الحديث، كان والياً لعليّ (ع) على اليمن، روى عنه ابنه شرحبيل بن سعيد وأبو أُمامة بن سهل بن حنيف[١]. (ولسعيدٍ هذا عقب بالأندلس. . . من قبل الحسين بن يحيى بن سعيد بن سعد بن عبادة)[٢].

٣ ـ إسحاق بن سعد: ذكره الذهبي في عداد أولاد سعد[٣]، وأسند الطبراني روايةً إليه[٤]. ولم نجد له ذكراً في الكتب المعنية بتراجم الصحابة.

٤ ـ أُمامة بنت سعد: ورد ذكرها في ترجمة أمِّها فكيهة.

وكان سعد قد اشتهر بكنيتين هما (أبو ثابت)[٥] و(أبو قيس)[٦]، و(الأول أصح)[٧]. ويبدو أن الأولى منهما كانت مجرد كنية فقط؛ لأن المؤرخين لم يذكروا له ابناً اسمه ثابت.

❁ ❁ ❁

وما هي إلاَّ سُنَيَّات معدودات، وإذا بنا أمام سعدٍ الرجلِ وقد

---

(١) الاستيعاب: ٢/ ١٦ وأسد الغابة: ٢/ ٣٠٨ والإصابة: ٢/ ٤٤ والدرجات الرفيعة: ٣٥١.

(٢) جمهرة أنساب العرب: ٣٦٥.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١/ ١٩٧.

(٤) المعجم الكبير: ٦/ ٢٤.

(٥) طبقات ابن سعد: ٧/ق ٢/ ١١٥ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٥٠ والمعجم الكبير: ٦/ ١٧ و١٨ والاستيعاب: ٢/ ٣٣ وأسد الغابة: ٢/ ٢٨٣ والإصابة: ٢/ ٢٧ والدرجات الرفيعة: ٣٢٥.

(٦) أسد الغابة: ٢/ ٢٨٣ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٩٦ والإصابة: ٢/ ٢٧ والدرجات الرفيعة: ٣٢٥.

(٧) الاستيعاب: ٢/ ٣٣ وأسد الغابة: ٢/ ٢٨٣.

أصبح (سيدَ الخزرج)[١] المهاب؛ وزعيمهم الرفيع الجناب؛ بل (سيداً في الأنصار مقدَّماً وجيهاً، له رئاسة وسيادة يعترف قومه له بها)[٢]، بل أصبح الملك الشريف المطاع في قومه وحاضرته كما يصفه الذهبي[٣].

وحسبنا من شواهد زعامته المطلقة ورئاسته المديدة الظل أن نقرأ النصوص الثلاثة الآتية:

أ ـ قدم أبو سفيان المدينة، في السنة الثامنة من الهجرة، بعد إخلال مشركي مكة بمعاهدة الصلح المبرمة بينهم وبين النبي (ص) وقيامهم بقتل عدد من المسلمين الخزاعيين، وكان يريد بمقدمه هذا أن يقف ـ من طريق التظاهر بضرورة الحفاظ على العهد وتوكيده وزيادة المدة فيه ـ على ردّ فعل النبي (ص) وما ينوي عمله إزاء الحادث، فـ(أتى سعدَ بن عبادة فكلَّمه في ذلك وقال: يا أبا ثابت؛ قد عرفتَ الذي كان بيني وبينك... وأنت سيِّد هذه المَدَرة، فأجِرْ بين الناس وزدني في المدة. فقال سعد: جواري جوار رسول الله (ص)، ما يُجِير أحدٌ على رسول الله (ص)، فأيس أبو سفيان وعاد إلى مكة)[٤].

ب ـ (قدم فروة بن مسيك المرادي سنة عشر على رسول الله (ص)؛ مفارقاً لكندة تابعاً للنبي (ص)، وكان رجلاً له شرف، فأنزله سعد بن عبادة عليه، ثم غدا على رسول الله (ص) وهو جالس في المسجد فسلَّم عليه، ثم قال: يا رسول الله أنا لمن ورائي

(١) سير أعلام النبلاء: ١/ ١٩٦ والإصابة: ٢/ ٢٧ والدرجات الرفيعة: ٣٢٥.
(٢) الاستيعاب: ٢/ ٣٣ وأسد الغابة: ٢/ ٢٨٣.
(٣) سير أعلام النبلاء: ١/ ٢٠٠.
(٤) شرح نهج البلاغة: ١٧/ ٢٦٤.

من قومي، قال: أين نزلتَ؟ قال: على سعد بن عبادة، قال: بارك الله على سعد)[١].

ج ـ (قدم عمرو بن معدي كرب في عشرة من زُبيد المدينةَ، فقال حين دخلها وهو آخِذ بزمام راحلته: مَنْ سيد أهل هذه البحرة؟... فقيل له: سعد بن عبادة. فأقبل يقود راحلته حتى أناخ ببابه، فخرج إليه سعد فرحَّب به، وأمر برحله فحُطَّ، وأكرمه وحباه، ثم راح به إلى النبي (ص) فأسلم وأقام أياماً)[٢].

❀ ❀ ❀

واشتهر سعد بالجود[٣] ففاق الأنداد والأقران، فكان (يُعَشّي كلَّ ليلة ثمانين من أهل الصفَّة)[٤]، وكان ينادى على أُطُمه كسِيرة أبيه وجدِّه: (من أحبَّ شحماً ولحماً فليأتِ)[٥].

وأُثِرتْ عنه في السخاء والكرم أخبار ومواقف روى المؤرخون نتفاً متفرقة منها للتبيين والتمثيل، وهي تدل فيما تدل على أنَّه لم يكن يدَّخر وسعاً أو يقبض يداً عن إخوانه في الدين ـ والمهاجرين منهم خاصة ـ يردُّ عنهم أذى الحاجة، وينتشلهم من كظة الفقر، ويعينهم على سداد الدَّين والوفاء بالمكاتبة[٦].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٥/ ٣٨٣ و١/ق ٢/ ٦٣.
(٢) طبقات ابن سعد: ٥/ ٣٨٤ و١/ق ٢/ ٦٤.
(٣) طبقات ابن سعد: ٧/ق ٢/ ١١٥ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٥٠ وأسد الغابة: ٢/ ٢٨٣ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٩٦ والدرجات الرفيعة: ٣٢٥.
(٤) سير أعلام النبلاء: ١/ ٢٠٠ والإصابة: ٢/ ٢٧ و٢٨.
(٥) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٧٠.
(٦) أنساب الأشراف: ١/ ٤٨٧.

ويكفينا من تلك الأخبار والمواقف مثلاً ومقاساً؛ أن نقرأ ما حدَّثنا به الذهبي فقال: (بعث رسول الله (ص) أبا عبيدة في سريَّةٍ فيها المهاجرون والأنصار وهم ثلاثمائة، إلى ساحل البحر، إلى حيٍّ من جهينة، فأصابهم جوع شديد. . . حتى كانوا يقتسمون التمرة)، فأراد قيس بن سعد بن عبادة ـ وكان معهم ـ أن يشتري الجُزُرَ دَيْناً بذمته لينحرها لإخوانه الجياع، فصدَّه عن ذلك بعض من كان معه، و(قال أبو بكر وعمر: إنْ تَرَكْنا هذا الفتى أهْلَك مالَ أبيه).

فلمَّا (بلغ سعداً ما أصاب القوم من المجاعة قال: إنْ يَكُ قيسٌ كما أعرف فسوف ينحر للقوم. فلمَّا قدم قصَّ على أبيه وكيف منعوه. . . فكتب له أربع حوائط [أي بساتين]، وبلغ ذلك النبيَّ (ص) ـ فقال: «أما إنَّه في بَيْتِ جُود»، و(قام سعد عند النبي (ص) وقال: مَنْ يعذرني من ابن أبي قحافة وابن الخطاب يبخِّلان عَلَيَّ ابني)[1].

۞ ۞ ۞

وهكذا كان سعد ـ عندما أهلَّ نور الإسلام على الأرض ـ سيداً لا يُنازَع في سيادته، وكريماً لا يجارى في جوده وسخائه، وكاملاً عزَّ نظيره في كماله وهيبته وبسطة جسمه[2]. فأصبح المُهَيَّأ ـ بحقٍّ ـ لما ادخر الله تعالى له من الحبوة والكرامة في نصرة دين الهدى، كما يأتي بيانه وتفصيله.

(١) سير أعلام النبلاء: ٦٩/٣.

(٢) ذكر محمدُ بن حبيب في المحبر: ٢٣٣ أن سعداً كان ممن يركب الفرس الجُسام فتخط إبهاماه في الأرض.

بعث الله تعالى محمداً (ص) إلى البشرية جمعاء بشيراً بالخير؛ ونذيراً بالحقّ؛ ودليلاً على المحجَّة البيضاء والصراط المستقيم. وأمره بأنْ يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

وقياماً بواجب هذه المسؤولية الإلهية الكبرى كان النبي (ص) يلتقي القبائل القادمة إلى مكة في المواسم، فيدعوهم إلى الإسلام، ويتلو عليهم القرآن، ويخبرهم بما جاء به من خير الدنيا والآخرة.

وفي موسم من تلك المواسم لقي رهطاً من الخزرج كانوا قد وفدوا إلى مكة، فعرض عليهم الإسلام (فأجابوه فيما دعاهم إليه، ثم انصرفوا إلى بلادهم وقد آمنوا وصدَّقوا)[1].

ثم وافى مكةَ في السنة التالية اثنا عشر منهم فبايعوا النبيَّ بيعة الفداء والوفاء، ورجعوا إلى أهليهم يحملون هذه البشرى السارَّة والنبأ السعيد. و(لم تبقَ دارٌ من دور الأنصار إلاّ وفيها ذِكرٌ من رسول الله (ص))[2].

ولمّا حضر الموسمُ في السنة التي تلتها (مشى أصحاب رسول الله (ص) الذين أسلموا بعضُهم إلى بعض، يتواعدون المسير إلى

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٠ ـ ٧١.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٠ ـ ٧١.

الحج وموافاة رسول الله (ص)، والإسلام يومئذٍ فاشٍ بالمدينة. فخرجوا وهم سبعون يزيدون رجلاً أو رجلَيْن في خَمَر الأوس والخزرج وهم خمسمائة، حتى قدموا على رسول الله (ص) مكة، فسلموا على رسول الله (ص) ثم وعدهم منى وسط أيام التشريق ليلة النَّفْر الأول إذا هدأتِ الرِّجْلُ، أنْ يوافوه في الشِّعْب الأيمن إذا انحدروا من منى بأسفل العقبة حيث المسجد اليوم، وأمرهم أنْ لا يُنَبِّهوا نائماً ولا ينتظروا غائباً).

(فخرج القوم بعد هدءةٍ يتسلَّلون الرجل والرجلان، وقد سبقهم رسول الله (ص) إلى ذلك الموضع... ثم توافى السبعون ومعهم امرأتان... وتلا رسولُ الله (ص) عليهم القرآن، ثم دعاهم إلى الله ورغّبهم في الإسلام، وذكر الذي اجتمعوا له... فأجابه البراء بن معرور بالإيمان والتصديق ثم قال: يا رسول الله بايِعْنا فنحن أهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر. ويقال: أن أبا الهيثم بن التّيهان كان أولَ مَنْ تكلَّم فأجاب إلى ما دعا إليه رسولُ الله (ص) وصدَّقه. وقالوا: نقبله على مصيبة الأموال وقتل الأشراف... فكان أول مَنْ ضرب على يدِ رسول الله (ص) البراء بن معرور؛ ويقال: أول مَنْ ضرب على يدِه أبو الهيثم بن التِّيهان، ويُقال: أسعد بن زرارة. ثم ضرب السبعون كلهم على يده وبايعوه).

(فقال رسول الله (ص): «إن موسى أخذ من بني إسرائيل اثني عشر نقيباً، فلا يَجِدَنَّ منكم أحدٌ في نفسه أنْ يُؤخَذ غيره.. فلمَّا تخيَّرهم قال للنقباء: أنتم كفلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي. قالوا: نعم. فلمَّا بايعوا القوم وكملوا... قال رسول الله (ص): «انفضُّوا إلى رحالكم. فتفرَّقوا إلى رحالهم»[1].

---

(١) طبقات ابن سعد: ١/ق ١٤٩/١ ـ ١٥٠.

وكان سعد بن عُبادة أحد هؤلاء النقباء الاثني عشر المنتخبين[١].

(فلما أصبح القوم غَدَتْ عليهم جِلَّةُ قريش وأشرافهم حتى دخلوا شِعْبَ الأنصار فقالوا؛ يا معشر الخزرج؛ إنه بلغنا أنكم لقيتم صاحبنا البارحة وواعدتموه أن تبايعوه على حربنا، وأيم الله ما حيٌّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب بيننا وبينه الحرب منكم. قال: فانبعث مَنْ كان هناك من الخزرج من المشركين يحلفون له مما كان هذا وما عَلِمنا).

(فلما رجعت قريش من عندهم رحل البراء بن معرور... وتلاحق أصحابه من المسلمين، وجعلت قريش تطلبهم في كل وجهٍ... وحزَّبوا عليهم، فأدركوا سعد بن عبادة، فجعلوا يده إلى عنقه بنِسْعَةٍ وجعلوا يضربونه ويجرُّون شعره ـ وكان ذا جُمَّةٍ ـ حتى أدخلوه مكة)[٢].

(قال سعد: فواللّهِ: إني لفي أيديهم إذ طلع عَلَيَّ نفرٌ من قريش... إذ أوى لي رجل ممَّن كان معهم فقال: ويحك! أمَا بينك وبين أحدٍ من قريش جوار ولا عهد؟ قلت: بلى والله؛ لقد كنتُ أُجير لجُبَيْر بن مُطْعِم بن عَديّ بن نوفل بن عبد مناف تِجَارَهُ؛ وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي، وللحارث بن حرب... قال: ويحك فاهتفْ باسم الرجلين واذكر ما بينك وبينهما. ففعلتُ. وخرج ذلك الرجل إليهما، فوجدهما في المسجد عند الكعبة، فقال لهما: إن رجلاً من الخزرج الآن يُضرَب بالأبطح ويهتف بكما؛ ويذكر أنَّ بينه وبينكما جواراً. قالا: مَنْ هو؟ قال: سعد بن عبادة، قالا: صدق واللهِ؛ إنْ كانَ لَيجير لنا

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٨٧ و١٠٩ وطبقات ابن سعد: ٧/ق ٢/ ١١٥ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٥٢ والمحبر: ٢٦٩ والمعجم الكبير: ٦/ ١٧ والاستيعاب: ٢/ ٣٣ وأسد الغابة: ٢/ ٢٨٣ والإصابة: ٢/ ٢٧.

(٢) طبقات ابن سعد: ١/ق ١/ ١٥٠.

تجارَنا ويمنعهم أن يُظلَموا ببلده. فجاءا فخلَّصا سعداً من أيديهم. فانطلق)[١] إلى قومه.

ويروي ابن سعد أن الأنصار كانوا قد ائتمروا حين فقدوا سعداً أن يكرُّوا إليه، (فإذا سعدٌ قد طلع عليهم. فرحل القوم جميعاً إلى المدينة)[٢].

ودوّى نذير الخطر ـ على أثر ذلك ـ ينذر مشركي مكة بما سيؤول إليه الأمر بعد إسلام سعد بن عبادة ورفاقه، ونادى منادٍ مجهول بمكة قائلاً:

فإن يُسْلِم السَّعدانِ يصبح محمدٌ بمكة لا يخشى خلافَ المخالفِ

فقال أبو سفيان: مَنِ السَّعدان؟ سعد بن بكر، سعد تميم، سعد هُذَيم؟ فنادى المنادي مرة أخرى قائلاً:

أيا سعدُ سعدَ الأوس كن أنتَ ناصراً
ويا سعدُ سعدَ الخزرجين الغطارفِ
أجيبا إلى داعي الهدى وتمنَّيا
على الله في الفردوس منيةَ عارفِ
فإنَّ ثواب الله للطالب الهدى
جنانٌ من الفردوس ذات رفارفِ

فقال أبو سفيان: هو سعد بن عُبَادة وسعد بن مُعاذ[٣].

❀ ❀ ❀

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٩٢ ـ ٩٣ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٦١ ـ ٣٦٨.
(٢) طبقات ابن سعد: ١/ق ١/ ١٥٠.
(٣) المنمق: ١٧٠ ـ ١٧١ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٨٠ والاستيعاب: ٢/ ٣٤ وأسد الغابة: ٢/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤ والبداية والنهاية: ٣/ ١٦٥ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٠٢.

ولما دنت ساعة الخلاص واقترب الوعد الحق؛ أذن الله تعالى لرسوله بالهجرة إلى المدينة بمن معه من المسلمين المضطهدين، ليقيم دعائم دولة السماء في هذه الربوع المتعطشة إلى رحمة الله وهداه وعدله. فترك النبي (ص) مكة بعد ثلاث عشرة سنة من الصبر والجلد والتحمل والمعاناة في دعوة تلك النفوس المظلمة والعقول المنحرفة إلى الاستنارة بنور الإسلام؛ والسير في طريق الرشد والصواب، معتمداً في كل ذلك ما أمره ربُّه به من الحكمة والمنطق والحوار والموعظة الحسنة.

وبدأ المسلمون من أهل المدينة منذ وصول النبي (ص) إليهم؛ مسيرة جهادهم الشاق المضني في سبيل الله تعالى ودينه القويم، ذلك الجهاد الذي لم يكن ذا ميدان خاص يدور فيه؛ أو مجال معين لا يتعدَّاه؛ أو مدة زمنية محدودة البدء والمنتهى، بل كان في مداه الواسع الكبير جهاداً قائماً على الجود بالنفس والبذل للمال والسخاء بالدم والعرق والتضحية بكل شيء فداءً للرسالة والرسول؛ حتى يتم النصر وترتفع الراية ويزهق الباطل وتعلو كلمة الحق.

وكان الزعماء والرؤساء من مبايعي العقبة الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه؛ في مقدِّمة أولئك المجاهدين المخلصين.

وكان سيد الخزرج سعد بن عبادة في طليعة تلك المقدمة من المناضلين المتحمسين.

وأبدى هذا الزعيم المؤمن من صدق النية وكمال الطاعة وعمق المودَّة وبراعة العمل ودقة التنفيذ وحصافة الرأي وسداد الفكر وشجاعة القلب وجرأة الإقدام، ما حمل النبيَّ (ص) على الركون التام إليه والاعتماد الكامل عليه، تقديراً له وثقةً به وتثميناً لمواقفه، فأصبح مستشاره الأمين وساعده الأيمن، ومن القلَّة المؤهَّلة لحمل الراية في الحرب وللاستخلاف على المدينة في بعض الأحيان.

ويستفاد من قراءة تاريخ سعدٍ أنَّ حبَّه للنبي (ص) وتفانيه فيه قد بلغ حدّاً نادراً في سموه ورفعته، إن لم يكن بلغ الغاية فيما عرفت البشرية من حب ومودة وإخلاص.

وحسبنا من شواهد ذلك: التزامه بإرسال الطعام للنبي (ص) على الدوام؛ وتزويده به في كل يوم، (وكانت جفنة سعد تدور مع النبي (ص) في بيوت أزواجه)[١]، (لا يغبُّها كل ليلة)[٢]. وسُئل بعض الصحابة عن هذه الجفنة فقال: (كانت مرةً بلحم ومرة بسَمن ومرة بلبن، يبعث بها إلى النبي (ص)، كلما دارَ دارتْ معه الجفنة)[٣].

ولا يفوتنا أن نذكر بين تلك الشواهد ما كان يقدِّمه سعد للنبي (ص) بين الفينة والفينة من هدايا وتحف يعبِّر بها عما يحمل في قلبه من ودٍّ صادق وحنان دافق:

إنه ـ تارة ـ يهدي لرسول الله (ص) درعه ذات الفضول، وكان ذلك حين المسير إلى بدر[٤].

وهو ـ مرة أخرى ـ يهدي له سيفه الذي يقال له العضب[٥].

وهو ـ ثالثة ـ يهدي له اللقائح من الإبل[٦].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٨/١١٧ ويُراجَع في ذلك: السير والمغازي: ٢٦٠ وتاريخ الطبري: ٣/١٦٣ والإصابة: ٢/٢٨ وينابيع المودة: ١٩٧.
(٢) طبقات ابن سعد: ٨/١١٧.
(٣) طبقات ابن سعد: ٨/١١٦ وأنساب الأشراف: ١/٤٦٣ ـ ٤٦٤ وأسد الغابة: ٢/٢٨٣ وسير أعلام النبلاء: ١/١٩٦ والدرجات الرفيعة: ٣٢٥.
(٤) أنساب الأشراف: ١/٥٢١ و٥٢٣.
(٥) أنساب الأشراف: ١/٥٢١ و٥٢٣.
(٦) أنساب الأشراف: ١/٥١٢.

إلى غير ذلك مما ذكر المؤرخون بعضه وأغفلوا بعضه.

وكان لهذه العواطف المشبوبة والمشاعر المخلصة أثرها الكبير في قلب النبي (ص) وصداها البعيد في نفسه، لا اهتماماً بجانبها المادي وشأنها المالي مهما ارتفعت القيمة وغلا الثمن، بل تجاوباً مع ما دلّتْ عليه وأشارت إليه من حب صادق؛ وإخلاص قاطع؛ وإيمان راسخ؛ واعتقاد عميق الجذور.

وانطلاقاً من هذه الحقيقة كان النبي (ص) يزور سعداً في منزله ويقول: (السلام عليكم ورحمة الله)، ثم يرفع يده ويقول: (اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة)[(١)].

وكان يذهب بنفسه لعيادة سعدٍ إذا ما شكا من مرض أو ألَّمتْ به علَّة[(٢)].

وقد أُثِر عنه قوله (ص):

(جزى الله عنَّا الأنصار خيراً لا سيَّما عبد الله بن حرام وسعد بن عبادة)[(٣)].

ويبدو أن بعض معاصري سعدٍ قد ثقل عليهم ـ حسداً وغيرة ـ أن يروا هذا الحب الكبير المتبادل بينه وبين النبي (ص)؛ وأن يسمعوا ذلك الثناء المحمديَّ المقدَّس عليه، فحاولوا أن يخدشوا نقاء تاريخه الجهاديّ الوضَّاء؛ في نظر الأجيال الإسلامية القادمة، ثم تداول الرواة ذلك عنهم بعد حين فرووه كما تُروى الحقائق المسلَّمة والوقائع الثابتة.

(١) أسد الغابة: ٢/ ٢٨٣ والإصابة: ٢/ ٢٨ وينابيع المودة: ٦.
(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨ وأنساب الأشراف: ١/ ٤٦٩ والفائق: ٣/ ٧.
(٣) الإصابة: ٢/ ٢٨.

ولعل من أجلى أمثلة تلك المحاولات ما أورده بعض رجال الحديث في ضمن حديث الإفك ـ وهو حديث مسهب طويل ـ من أن رسول الله (ص) بعد أن بلغته القالة التي روَّجها المنافقون في تلك الحادثة كذباً زوراً؛ قال فيما قال:

(يا معشر المسلمين؛ مَنْ يعذرني من رجلٍ قد بلغني عنه أذاه في أهلي. . . فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل فقال: أنا يا رسول الله أعذرك، فإن كان من الأوس ضربتُ عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرْتَنا ففعلنا أمرك. . . فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج. . . وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية؛ فقال لسعدٍ: كذبتَ لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببتَ أن يُقْتَل. . . فثار الحَيَّانِ الأوس والخزرج حتى هَمُّوا أن يقتتلوا، ورسول الله (ص) قائم على المنبر. . . فلم يزل رسول الله (ص) يخفِّفهم حتى سكتوا)[١].

ويقول الذهبي معلِّقاً على هذا الحديث:

(هذا مشكل)، لأن سعد بن معاذ كان قد توفي إثر جراحه التي أُصيب بها في حرب الخندق، وذلك قبل حادثة الإفك[٢]، فكيف افتُرض وجوده فيها؟!

أقول: ولعل الإحساس بهذا الإشكال هو الذي حمل بعض المؤرخين القدامى ـ ممن فطن إليه قبل الذهبي ـ على إصلاح خلل النص بجعل (أسيد بن حضير) بدل (سعد بن معاذ)[٣].

(١) صحيح البخاري: ٥/ ١٥١ ـ ١٥٢.
(٢) سير أعلام النبلاء: ١/ ١٩٩.
(٣) سيرة ابن هشام: ٣/ ٣١٣ وتاريخ الطبري: ٢/ ٦١٤ ـ ٦١٥.

أشرنا فيما تقدَّم إلى أن هجرة النبي (ص) إلى المدينة المنورة كانت نقطة البداية في العمل المكثف الدؤوب في سبيل نشر الدعوة وإعلاء كلمة الله، حتى وإن اقتضى ذلك امتشاق الحسام وخوض غمرات الحرب مع الأعداء.

وكان جميع المسلمين ـ من الأنصار أهل المدينة ومَنْ هاجر إليهم من مكة ـ على أتمّ الاستعداد والتأهب لكل ما يتطلبه الأمر ويفرضه تطور الأحداث، مهما عظم الفداء والعطاء؛ وغلت الخسائر والتضحيات.

ونورد فيما يأتي أبرز مواقف سعد العقيدية الخالدة؛ ومشاركاته الجهادية المجيدة، خلال الأعوام العشرة التي قضاها النبي (ص) في المدينة منذ هجرته حتى وفاته، كما أوردها المؤرخون المعروفون والرواة المعنيُّون بشؤون السيرة الشريفة:

١

لمَّا خرج رسول الله (ص) من المدينة غازياً الأبواء (في صفر؛ على رأس اثني عشر شهراً من مقدمة المدينة) استعمل عليها سعد بن عبادة[1].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٤٠ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٨٧ وطبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٣ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٠٧.

٢

لم تتفق الروايات على حضور سعدٍ بدراً، فقد روى ابن سعد والبلاذري أنه لم يحضرها (وكان تهيأ للخروج إلى بدر، ويأتي دُورَ الأنصار يحضُّهم على الخروج، فنُهِش. فقال رسول الله (ص): لئن كان سعدٌ لم يشهدها لقد كان عليها حريصاً)[(١)].

غير أن الطبري روى في أخبار بدرٍ أن (صاحب راية رسول الله (ص) علي بن أبي طالب (ع)، وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة)[(٢)].

وروى الطبرانيُّ مثلَ ذلك، وزاد عليه قائلاً: (كانت راية رسول الله (ص) في المواطن كلها: راية المهاجرين مع علي بن أبي طالب وراية الأنصار مع سعد بن عبادة)[(٣)]. وقد أيد ذلك ابن الأثير فذكر أن سعداً (هو صاحب راية الأنصار في المشاهد كلها)[(٤)].

وعدَّه ابن حبيب وابن حزم في البدريين[(٥)].

وقال ابن عبد البرِّ: (شهد بدراً في قول بعضهم، ولم يذكره ابن عقبة في البدريين ولا ابن إسحاق، وذكره فيهم جماعة منهم الواقدي والمدائني وابن الكلبي)[(٦)].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٧/ق ٢/١١٥، وأنساب الأشراف: ١/٢٥٠.
(٢) تاريخ الطبري: ٦/٤٣١.
(٣) المعجم الكبير: ٦/١٧ ـ ١٨، وقد ورد خبر الرايتين في سير أعلام النبلاء: ١/١٩٨ والإصابة: ٢/٢٨.
(٤) أسد الغابة: ٢/٢٨٣.
(٥) المحبر: ٢٧٧ وجمهرة أنساب العرب: ٣٦٥.
(٦) الاستيعاب: ٢/٣٣.

وروى الذهبي وابن حجر شهودَه بدراً عن البخاري، كما روى الذهبي عن عروة وابن مندة مثل ذلك[١].

٢

وشهد أُحُداً.

وكان الموقف فيها خطيراً للغاية وبالغاً منتهى درجات البأس والشدة. ولمَّا وصل جيش المشركين إلى خارج المدينة وعسكروا بجوارها (بات سعد بن مُعاذ وأُسَيد بن حُضَير وسعد بن عبادة؛ في عُدَّةٍ، ليلة الجمعة، عليهم السلاح، في المسجد بباب رسول الله (ص). وحُرِست المدينة حتى أصبحوا...).

(ودفع لواء الخزرج إلى الحُباب بن المنذر ويقال إلى سعد بن عبادة... ثم ركب رسول الله (ص) فرسَه وتنكَّب القوسَ وأخذ قناةً بيده، والمسلمون عليهم السلاح قد أظهروا الدروع، فيهم مائة دارع. وخرج السَّعْدان أمامه يَعدُوَان: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، وكلٌّ واحد منهما دارع. والناس عن يمينه وشماله)[٢].

وكان من جملة شهداء هذه المعركة بعض رهط سعد بن عبادة، منهم: عبد الله بن عمرو بن وَهْب... وضَمرَةُ الجهني من حلفائهم[٣].

ولمَّا وضعت الحرب أوزارها وعاد المشركون أدراجهم، خشي النبي (ص) أن يكون ذلك منهم خداعاً وتضليلاً للمسلمين، ليعيدوا الكرَّة

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١/ ١٩٦ ـ ١٩٧ والإصابة: ٢/ ٢٧.
(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢٦/١ ـ ٢٧ وأنساب الأشراف: ١/ ٣١٤ و٣١٧ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ٢٢١ و٢٢٧ ونهاية الأرب: ١٧/ ٨٣.
(٣) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٣٢.

فيباغتوا المدينة وأهلها بهجوم صاعق يحققون به ما لم يتحقق حتى اليوم من أحلامهم الطائشة وآمالهم الخائبة. (فأحبَّ (ص) أن يريهم قوَّةً، فصلَّى الصبح يوم الأحد ومعه وجوه الأوس والخزرج، وكانوا باتوا تلك الليلة في بابه يحرسونه من البيات، فيهم سعد بن عبادة... فلما انصرف من صلاة الصبح أمر بلالاً أن ينادي في الناس أن رسول الله (ص) يأمركم بطلب عدوكم... فوافوا النبيَّ (ص)[١]، وخرج رسول الله (ص) خارج المدينة يرقب الموقف، وأرسل عَليّاً في آثار القوم ينظر ما يصنعون وما يريدون، فرجع عليٌّ يخبره بتوجُّه القوم إلى مكة. فانصرف النبي (ص) إلى المدينة)[٢].

٤

وشهد الخندق[٣].

وكانت لسعدٍ في هذه المعركة من المشاركات والمواقف ما انتشر مجاله على أكثر من صعيد:

فهو من الناحية العسكرية حامل لواء الأنصار[٤]، ولا بدَّ له من أداء حقِّ هذه المهمة الخطيرة والمسؤولية الكبيرة.

وهو من ناحية العمل الدؤوب في تأمين الجبهة الداخلية وهدم خطط الأعداء ـ وكانت خططاً بالغة الخطر والتأثير ـ في حركة دائبة ومتابعة متواصلة وجهاد كريم لا يعرف الكلل ولا الملل.

ولمَّا نقض اليهودُ عهدَ المسالمة المبرم بينهم وبين النبي (ص) ـ

(١) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ٥٥.
(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ١٠٠.
(٣) طبقات ابن سعد: ٧/ق ٢/ ١١٦.
(٤) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٤٨.

والحرب على الأبواب، والعدو على مشارف المدينة ـ، و(انتهى إلى رسول الله (ص) الخبرُ وإلى المسلمين، بعث رسولُ الله (ص) سعدَ بن معاذ... سيدَ الأوس وسعدَ بن عبادة... سيدَ الخزرج؛ ومعهما عبدالله بن رواحة... وخوَّات بن جبير... فقال: انطلقوا حتى تنظروا حَقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإنْ كان حقّاً فالحنوا لي لحناً عرفه ولا تفتُّوا في أعضاد الناس، وإنْ كانوا على الوفاء فيما بيننا بينهم فاجهروا به للناس. فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخْبَث ما بلغهم عنهم... وقالوا: مَنْ رسولُ الله؟! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقدا!... ثم أقبل سعدٌ وسعدٌ ومَنْ معهما إلى رسول الله (ص) فسلَّموا عليه ثم قالوا: عَضَلٌ والقارة [كناية عن غدرهم][(١)].

ولمَّا اشتدت الحال في المدينة إبَّان هذه المعركة بفعل ضغط الأعداء عليها وغدر اليهود بالعهد؛ كان ممَّا رآه رسول الله (ص) في تفكيك حلف الكفَّار والمشركين أن يُعطي لغطفان ثلث ثمار المدينة على أن يخرجوا من التحالف مع قريش وينسحبوا من ميدان الحرب، (فلمَّا أراد رسول الله (ص) أن يفعل؛ بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه، فقالا له: يا رسول الله؛ أمراً تحبُّه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به لا بدَّ لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ قال: بل شيءٌ أصنعه لكم، واللهِ ما أصنع ذلك إلاَّ لأنني رأيتُ العربَ قد رَمَتْكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كلِّ جانب، فأردتُ أن أكسر عنكم من شوكتهم) فرفض السَّعدانِ ذلك[(٢)].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٧١ ـ ٥٧٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٣٤ وطبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٥٢ ـ ٥٣ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٧٣ والاستيعاب: ٢/ ٣٥ وأسد الغابة: ٢/ ٢٨٤.

٥

وحضر غزوةَ المريسيع.

وكان الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق من خزاعة قد دعا قومه ومَن استجاب لندائه من العرب؛ إلى حرب رسول الله (ص)، فأجابوه وتهيَّأوا للمسير معه. (فبلغ ذلك رسولَ الله (ص)، فبعث بُرَيدةَ بن الحصيب الأسلمي يعلم عِلْمَ ذلك، فأتاهم ولقي الحارث بن أبي ضرار وكلَّمه، ورجع إلى رسول الله (ص) فأخبره خبرهم. فندب رسولُ الله (ص) الناسَ إليهم، فأسرعوا الخروج... وخرج يوم الاثنين؛ لليلتين خلتا من شعبان [سنة خمس من الهجرة]... وانتهى رسول الله (ص) إلى المريسيع... وصفَّ أصحابه... ودفع راية الأنصار إلى سعد بن عبادة... ثم أمر رسولُ الله (ص) أصحابه فحملوا حملة رجل واحد، فما أفلت منهم إنسان، وقُتل عشرة منهم وأُسِر سائرهم)[١].

٦

ولـمَّا خرج رسول الله (ص) لغزوة الغابة (وهي على بريدٍ من المدينة طريق الشام، في شهر ربيع الأول، سنة ستّ من مُهاجَرِه)، (استخلف رسولُ الله (ص) على المدينة عبدالله بن أُمّ مكتوم، وخلّف سعد بن عبادة في ثلاثمائة من قومه يحرسون المدينة).

(وبعث إليه سعدُ بن عبادة بأحمال تمرٍ وبعشر جزائر؛ فوافت رسولَ الله (ص) بذي قَرَدٍ)[٢].

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٤٥.

(٢) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٥٨.

٧

وشهد معركة خيبر.

وعندما فرَّق رسولُ الله (ص) الرايات (كانت راية النبي (ص) إلى علي بن أبي طالب، ورايةٌ إلى الحباب بن المنذر، ورايةٌ إلى سعد بن عبادة... فقاتل رسولُ الله (ص) المشركين... وقتل منهم جماعةً كثيرة، وفتحها حصناً حصناً)[١].

٨

وشهد فتح مكة.

وكانت راية رسول الله (ص) يوم فتح مكة مع سعد بن عبادة. ولمَّا مرَّ سعد على أبي سفيان ورأى صورته الكريهة وتذكَّرَ ما كان منه في حرب الإسلام والمسلمين نادى سعد: (اليوم يوم الملحمة، اليوم تُسْتَحَلُّ (تُسْبى) الحُرمة، اليوم أذلَّ الله قريشاً)، فأُخبر النبي (ص) بقول سعد وما سبَّبه من قلق واضطراب في نفوس أهل مكة، فأمر (ص) عليّاً بأن يأخذ الراية من سعد ويدخل بها مكة[٢].

وقيل: بل دفع اللواء (إلى قيس بن سعد بن عبادة ـ ورأى رسول الله (ص) أنه لم يخرجه عن سعدٍ حيث دفعه إلى ولده ـ فذهب به حتى غرزه بالحجون)[٣].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٧٧.

(٢) سيرة ابن هشام: ٤/ ٤٩ وطبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٩٨ وتاريخ الطبري: ٣/ ٥٦ والاستيعاب: ٢/ ٣٧ وأسد الغابة: ٢/ ٢٨٤.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٧/ ٢٧٢.

٩

وشهد غزوة حنين.

و(كان لواء الخزرج يحمله حباب بن المنذر، ويقال: لواء الخزرج الآخر مع سعد بن عبادة)[١].

ولَّما قسم النبي (ص) الغنائم والفيءَ من حنين؛ وأعطى المؤلفة قلوبهم وغيرهم من أشراف قريش وقبائل العرب منها ما يتألَّفهم ويتألَّف به قومهم؛ (ولم يكن في الأنصار منها شيءٌ، وَجَدَ هذا الحيُّ من الأنصار في أنفسهم... فدخل عليه سعدُ بن عبادة فقال: يا رسول الله؛ إنَّ هذا الحيَّ من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعتَ في هذا الفَيء الذي أصبتَ، قسمتَ في قومك وأعطيتَ عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحيِّ من الأنصار منها شيءٌ. قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله؛ ما أنا إلاَّ من قومي. قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة. فخرج سعد فجمع الأنصار...

فلمَّا اجتمعوا... أتاهم رسولُ الله (ص) فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال:

(يا معشر الأنصار؛ ما قالةٌ بلغتْني عنكم؟ وجِدَةٌ وجدتموها عَلَيَّ في أنفسكم؟ أَلَمْ آتِكُم ضُلّالاً فهداكم الله، وعالةً فأغناكم الله، وأعداء فألَّف الله بين قلوبكم؟

(قالوا: بلى؛ اللهُ ورسولُه أَمَنُّ وأفضل...

ثم قال:

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/١٠٨.

(أمَا واللهِ لو شئتم لقلتم فَلَصَدَقْتُم ولَصُدِّقتم: أتيتَنا مُكذّباً فصدَّقناك؛ ومخذولاً فنصرناك؛ وطريداً فآويناك؛ وعائلاً فآسيناك. أوَجَدْتُم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعةٍ من الدنيا تألَّفْتُ بها قوماً ليُسْلموا، ووكلتُكم إلى إسلامكم. ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناسُ بالشاة والبعير؛ وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟. فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنتُ امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناسُ شِعباً وسلكت الأنصار شِعباً لسلكتُ شعبَ الأنصار. اللهم ارحم الأنصار؛ وأبناء الأنصار؛ وأبناء أبناء الأنصار).

(فبكى القوم... وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً)[١].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ١٤١ ـ ١٤٣ وتاريخ الطبري: ٣/ ٩٣ ـ ٩٤، ومختصر منه في سنن الترمذي: ٥/ ٧١٣ وطبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ١١١.
وفي كتب الحديث والتاريخ من الأحاديث النبوية الشريفة في الثناء على الأنصار والإفصاح عن حبه (ص) إياهم والوصية بهم والإخبار عمّا سيلقون من بعده؛ ما لا يتسع المجال لبيانه ونقله. ويراجع في ذلك صحيح البخاري: ٥/ ٣٨ و٤٠ و٤١ و٤٢ و٤٣ وصحيح مسلم: ٧/ ١٧٤ و١٧٥ وسنن الترمذي: ٥/ ٧١٢ و٧١٥ و٧١٦ وسنن ابن ماجه: ١/ ٥٧ وطبقات ابن سعد: ٢/ق ٢/ ٤٣.

وفُجِع المسلمون في ذلك الصباح الكئيب بوفاة رسول الله (ص)، وإذا هُم لأول مرَّة بعد إسلامهم أمام حدثٍ هائل كهذا الحدث وموقفٍ خطير كهذا الموقف، فاهتزوا من الأعماق هزة عنيفة جارفة، وأحسوا بحالة من الفراغ أو الضياع تفوق كل صبر وتطغى على كل جلد واحتمال.

ولا نريد هنا أن نستعرض من أحداث تلك الساعات الأليمة والأيام الرهيبة إلاَّ ما يخص منها صاحبنا سعداً وما يرتبط به، أمَّا ما سوى ذلك فهو خارج عن سياق هذا البحث، وقد كُتبت فيه الدراسات الوافية المطوَّلة التي يستطيع مراجعتَها مَنْ يريد الاستيعاب والتفصيل.

لقد روى المؤرخون في أحداث وفاة النبي (ص) في السنة الحادية عشرة من الهجرة فيما يخص سعداً بعضَ ما وقع في ذلك اليوم، فقالوا فيما اتفقوا على فحواه:

(إن النبي (ص) لمَّا قُبِض؛ اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة... وأخرجوا سعداً إليهم وهو مريض. فلما اجتمعوا قال لابنه [قيس] أو بعض بني عمه: إني لا أقدر لشكواي أن أُسمِع القوم كلَّهم كلامي، ولكنْ تَلَقَّ مني قولي فأسْمِعْهُموه، فكان يتكلَّم ويحفظ الرجل قوله فيرفع صوته فيُسْمِع أصحابه. فقال بعد أنْ حمد اللهَ وأثنى عليه:

(يا معشر الأنصار؛ لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب. إن محمداً لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان، فما آمن به من قومه إلاَّ رجال قليل، وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسولَ الله؛ ولا أن يُعِزُّوا دينه؛ ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً عُمُّوا به، حتى إذا أراد بكم الفضيلة، ساق إليكم الكرامة وخصَّكم بالنعمة، فرزقكم الله الإيمانَ به وبرسوله؛ والمنعَ له ولأصحابه؛ والإعزازَ له ولدينه؛ والجهادَ لأعدائه، فكنتم أشدَّ الناس على عدوِّه منكم، وأثقلَه على عدوِّه من غيركم، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً، وأعطى البعيدُ المقادةَ صاغراً داخراً، حتى أثخن اللهُ عزَّ وجلَّ لرسوله بكم الأرضَ، ودانت بأسيافكم له، وتوفَّاه الله وهو عنكم راضٍ وبكم قرير عين)[١].

(وأتى عمرَ الخبرُ (خبر اجتماع الأنصار في السقيفة]. . . فأرسل إلى أبي بكر. . . أنه قد حدث أمرٌ لا بدَّ لك من حضوره، فخرج إليه، فقال: أما علمتَ أن الأنصار قد اجتمعت في سقيفة بني ساعدة يريدون أن يولوا هذا الأمرَ سعدَ بن عبادة. . . فمضيا مُسْرِعَيْن فلقيا أبا عبيدة بن الجراح، فتماشوا إليهم ثلاثتهم)[٢] سرّاً، ولم يُعلموا بذلك أيّاً من الصحابة الذين كانوا مجتمعين برمتهم في المسجد النبوي الشريف.

فلما دخل هؤلاء السقيفة (قام الحبابُ بن المنذر ـ وكان بدرياً ـ فقال: . . . إنَّا واللهِ ما ننفس هذا الأمر عليكم أيها الرهط، ولكنَّا نخاف أن يليها ـ أو قال: يليه ـ أقوام قتلنا آباءهم وإخوتهم).

(فقال له عمر: ذا كان ذلك فمُتْ إن استطعت)[٣].

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ٥ وتاريخ الطبري: ٣/ ٢١٨.
(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٢١٩.
(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١٢٩.

(فقال الحباب بن المنذر: أنا جُذَيلها المُحَكَّك وعُذَيقها المُرَجَّب، منَّا أمير ومنكم أمير)[١]، و(اللهِ لا يردُّ عليَّ أحدٌ ما أقول إلاَّ حطمتُ أنفه بالسيف)[٢].

فلم يكلِّمه عمر ولم يرد عليه قوله، ويقول عمر نفسُه في بيان سبب إحجامه عن الردّ: (فلما كان الحباب هو الذي يجيبني لم يكن لي معه كلام، لأنه كان بيني وبينه منازعة في حياة رسول الله (ص) فنهاني عنه، فحلفتُ أن لا أكلِّمه كلمة تسوؤه أبداً)[٣].

(فقال له أبو بكر: نحن أول الناس إسلاماً، وأوسطهم داراً، وأكرمهم أنساباً، وأمَسُّهم برسول الله (ص) رحماً. وأنتم إخواننا في الإسلام، وشركاؤنا في الدين، نصرتم وآويتم وآسيتم، فجزاكم الله خيراً، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، ولن تدين العرب إلاَّ لهذا الحيِّ من قريش، فقد يعلم مَلأٌ منكم أن رسول الله (ص) قال: «الأئمة من قريش»)[٤].

(فكثر اللغط وارتفعت الأصوات، حتى تخوَّفتُ الاختلاف [وما زال الحديث لعمر بن الخطاب] فقلتُ: ابسطْ يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعتُه... ونزونا على سعد بن عبادة، فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة، فقلتُ: قتل اللهُ سعدَ بن عبادة)[٥].

وفي نصِّ البلاذري: (فقالت الأنصار: قتلتم سعداً؛ وقد كادوا يطأونه، فقال عمر اقتلوه فإنه صاحب فتنة)[٦].

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ١١٠.
(٢) الإمامة والسياسة: ١/ ٨.
(٣) الإمامة والسياسة: ١/ ٨.
(٤) أنساب الأشراف: ١/ ٥٨٢.
(٥) سيرة ابن هشام: ٤/ ٣١٠ وتاريخ الطبري: ٣/ ٢٠٦.
(٦) أنساب الأشراف: ١/ ٥٨٢.

ثم قال عمر لسعد: (لقد هممتُ أن أطأك حتى تندر عضدُك).

فأخذ قيس بن سعد بلحية عمر وقال: (والله لو حصصتَ منه شعرةً ما رجعتَ وفي فيك واضحة)[١].

وامتنع سعد على أثر ذلك من البيعة وقال مخاطباً بعضهم: (أمَا واللهِ لو أنَّ لي ما أقدر به على النهوض لسمعتم منّي في أقطارها زئيراً يخرجك أنت وأصحابك، ولأُلحقنك بقومٍ كنتَ فيهم تابعاً غير متبوع؛ خاملاً غير عزيز)[٢].

❀ ❀ ❀

إن المستفاد من مجموع النصوص التي أوردها المؤرخون في هذا الموضوع تدل دلالة قاطعة على أن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، وأن سعداً بنفسه قد حضر هذا الاجتماع على الرغم من عجزه ومرضه، وأن المراد من ذلك ـ بالتحديد ـ هو التداول في شأنٍ يخص الحكم والحكومة التي ستدير الأمر وتدبِّره بعد وفاة النبي (ص).

ولا مجال للمناقشة أو التردُّد في هذه الخلاصة ـ في ضوء النصوص المتقدمة ـ أبداً.

لكنَّ الشيء الذي يحتاج إلى المزيد من التأمل والتمحيص والتثبت والتحقيق ـ هنا ـ هو البحث عمَّا كان يسعى إليه سعد من وراء هذا الاجتماع الخطير؛ والكشف عن حقيقة نواياه وأهدافه.

فهل كان يريد سعدٌ أن يصبح خليفة رسول الله (ص) حقّاً؛ وأن يبايعه المسلمون بهذه الصفة؟

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢٢.

(٢) الإمامة والسياسة: ١/ ٩ ـ ١٠.

أو أنه كان يريد التداول مع الأنصار في هذا الشأن؛ لتحديد موقفٍ متَّفق عليه؛ قبل أن تفاجئهم الأحداث وتباغتهم المستجدات؟.

أو أنه كان يريد إقامة حكومة (أنصارية) مؤقتة في المدينة تحفظ النظام وتحمي الأمن والاستقرار، ريثما يُبايَع الخليفة الشرعي ويتسلَّم مهامَّ عمله؟.

ذلك ما لم نستطع التأكد من أحد وجوهه على نحو الجزم واليقين، لأن النصوص التاريخية قد وصلتنا مختلفة الصيغ متعددة الدلالات؛ فلم تُجمِع على واحدٍ من هذه الاحتمالات.

إن نصَّ ابن إسحاق يقول: (لمَّا قُبِض رسول الله (ص) انحاز هذا الحيُّ من الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة)[١].

وإن نصَّ البلاذري يقول: (مضى أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح حتى جاؤوا السقيفة، وإذا سعد على طُنْفُسة مُتَّكئاً على وسادةٍ وعليه الحمّى، فقال له أبو بكر: ما ترى يا أبا ثابت؟ فقال: أنا رجل منكم. فقال الحباب بن المنذر: منَّا أمير ومنكم أمير... إلخ)[٢].

وإن نصَّ البخاري يقول: (واجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة فقالوا: منَّا أمير ومنكم أمير. فذهب إليهم أبو بكر وعمر... إلخ)[٣].

وإن ابن سعد يقول تارة: (اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة ومعهم سعد بن عبادة، فتشاوروا في البيعة له، وبلغ الخبرُ أبا بكر وعمر فخرجا حتى أتياهم)[٤].

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ٣٠٧.
(٢) أنساب الأشراف: ١/ ٥٨١.
(٣) صحيح البخاري: ٥/ ٨.
(٤) طبقات ابن سعد: ٧/ق ٢/ ١١٦.

ولكنه في نصّ آخر يقول: (اجتمعت الأنصار لتبايع سعد بن عبادة)[١].

وشتان بين التّشاور في أمر البيعة ـ كما في الرواية الأولى ـ وبين الاجتماع للبيعة وكأنّها مُسَلَّمة عندهم ـ كما في الرواية الثانية ـ.

وإن الطبري في إحدى رواياته يقول: (اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة فقالوا: نولّي هذا الأمر بعد محمدٍ(ع) سعدَ بن عبادة... فإن أَبَتْ مُهاجِرَةُ قريشٍ... فإنَّا نقول إذاً: منَّا أمير ومنكم أمير، ولن نرضى بدون هذا الأمر أبداً)[٢].

ويقول في نصّ آخر: أن عمر وأبا عبيدة لمَّا بادرا إلى مبايعة أبي بكر وتبعهما الأوس على ذلك (انكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم)[٣].

ويروي في نصّ ثالث: أن عمر وأبا عبيدة لمَّا بايعا أبا بكر بالخلافة (قالت الأنصار أو بعض الأنصار: لا نبايع إلاَّ عليّاً)[٤].

وهكذا يسود الاضطراب والتناقض هذه الروايات فلا نستطيع الخروج منها بما يوضح لَنا ما وقع يومذاك على وجه القطع والاطمئنان[٥].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ١١٠.
(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٢١٨ ـ ٢١٩.
(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢١ ـ ٢٢٢.
(٤) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٠٢.
(٥) وبسبب هذا الاضطراب والتناقض في النصوص التاريخية وقع المؤرخ المعاصر الدكتور صالح أحمد العلي في الاضطراب والتناقض حينما ذهب إلى أن اجتماع السقيفة كان (مفاجئاً لم يجر تمهيد مسبّق لتحديد من يحضره أو المواضيع التي =

فهل كان الاجتماع بإرادة سعد وتصميمه؛ ليبايعه قومه والناس عامةً بالخلافة، كما توحي به بعض النصوص؟.

أو كان للتشاور في بيعة سعدٍ وليس التنفيذ[١] كما تدل عليه إحدى روايات ابن سعد؟.

أو كان موقف سعدٍ منسجماً مع قوله لأبي بكر: (أنا رجل منكم) كما في نص البلاذري؟.

أو كان لطرح شعار (منَّا أمير ومنكم أمير) كما في بعض النصوص؟.

وهل كان ذلك كله اجتماعاً للخزرج خاصةً وإجماعاً منهم على زعيمهم؛ أم كان اجتماعاً للأنصار عامةً أوْسِهم وخزرجِهم؟.

ثم ما علاقة ذلك كله بما روى الطبري في بعض أخباره من مناداة الأنصار أو بعضهم بأنهم لا يبايعون إلاَّ عليّاً، وعليٌّ غير موجود بينهم؟

= تناقش فيه أو الحلول المقترح تبنّيها، وقد تم عقده بمبادرة عاجلة من بعض الأنصار) (الدولة في عهد الرسول: ٢/ ٤٣٣). ثم قرر بعد صفحة واحدة: أن هذا الاجتماع قد حضره رجال من أشراف الأنصار، و(أن قصر الترشيح في البداية على سعد بن عبادة يدل على أن الأمر أُعِدَّ بتصميم مسبَّق لا نعلم بدايته) (الدولة في عهد الرسول: ٢/ ٤٣٤).

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

ويقول الباحث الأردني أحمد حسين يعقوب: (من الطبيعي أن يخلق موت الرسول هزةً في تجمع الأنصار ومجتمعهم، ففي أسيافهم دانت له العرب، ومنهم جيش الرسول الذي دوَّخ الجزيرة كلها، ومن الحكمة أن يجلسوا معاً ويخططوا حتى لا يفاجئهم أعداؤهم. وأجمعوا أمرهم على سعد بن عبادة سيد الخزرج من حيث المبدأ، ولم يكن هذا الأمر نهائياً، بدليل أن الأنصار قالوا في لحظة من اللحظات وفي السقيفة بالذات: لا نبايع إلاَّ علياً) النظام السياسي في الإسلام: ١٢٥.

إن كلَّ ذلك غامض ومجهول وغير محدَّد المعالم، والنصوص التاريخية ـ كما رأينا ـ لم تتفق على بيان حقيقة ما وقع في ذلك اليوم، وليس لدينا من المعلومات القطعية ما نستطيع الإجابة به على هذه التساؤلات باطمئنان ويقين.

ولكن كاتباً معاصراً ـ هو الباحث الأردني المحامي أحمد حسين يعقوب ـ قد ذهب مذهباً جديداً في الحكم على هذه القضية الخطيرة ونصوصها الماثلة في المصادر التاريخية، فرأى أن ما وصلنا من أخبار هذا الاجتماع وما قيل فيه من الكلام وما أسفر عنه من نتائج؛ إنما هو من صياغة مؤيدي السلطة ورجال إعلامها، وليس بياناً صادقاً أو انعكاساً دقيقاً لما وقع في ذلك اليوم. ونلخِّص فيما يأتي بعض ما قاله في هذا الخصوص في كتابه المذكور أداء لأمانة البحث في عرض كل وجهات النظر المطروحة فيه، قال:

(مات النبي (ص)... وشاع الخبر، وهرع سكان العاصمة وتجمعوا حول بيت النبي يبكون نبيهم... في هذا الوقت بالذات انعقد الاجتماع في سقيفة بني ساعدة).

(لماذا انعقد هذا الاجتماع بهذا الوقت بالذات؟ ومتى بدأ التحضير له؟ ومَنْ حضره على وجه اليقين من الأنصار؟... ومَن الذي بدأ بالتحضير لهذا الاجتماع؟ وكم استغرق التحضير له؟ ولماذا لم يعلم بهذا الاجتماع من المهاجرين إلاَّ عمر بالذات؟ ومَن الذي أخبره؟ لأن عمر لم يكن في بيت النبي ولا مع المتحلقين حوله)[1].

(من المؤكد قطعاً أن الأنصار لم يجتمعوا جميعاً... إن النبي قد

(١) نظرية عدالة الصحابة: ٣٠٨.

فارق الحياة وهو مسجّى في بيته الطاهر؛ فهل يعقل أن يتركه الأنصار ولا يذهب منهم أحد لإلقاء نظرة الوداع عليه؟... هذا أمر لا يمكن تصديقه إلاّ بحكم التقليد الأعمى).

(ثم إنَّ الأنصار على فرض اجتماعهم كلهم من أجل انتخاب خليفة؛ عرفوا أحكام الشرع؛ وعرفوا أن محمداً من قريش وأن الأئمة من قريش؛ وعرفوا الأحكام الواردة في أهل بيت النبوة...، وما هي علاقتهم بشعار: لا ينبغي أن يجمع الهاشميون الخلافة مع النبوة؟ فهم ليسوا من قريش ولا مصلحة لهم بإبعاد آل محمد)[1].

(فالأنصار لم تجمع لاختيار خليفة منها... ثم إن سعد بن عبادة... كان مريضاً بالإجماع ولا يقوى على النهوض، ولو كان قادراً على النهوض لما ترك وليَّه ونبيَّه دون أن يلقي عليه نظرة الوداع. ومن المؤكد أن منزل سعد ملتصق بهذا المكان حيث حملوه فأدخلوه داره كما يروي ابن قتيبة. ومن الممكن أن هذه المجموعة من الأنصار كانوا من عوَّاده وأخبروه بموت النبي، وليس من المستبعد أن يكون قد جرى حوارٌ هادىء بين المجتمعين)[2].

(عاجلاً أم آجلاً سيكتشف الباحثون أن لقاء جماعة من الأنصار مع سعد بن عبادة هو لقاء عادي من كل الوجوه، وليس له أي طابع سياسي، وإن جرى فيه حديث سياسي فما هو إلاَّ مجرد تبادل لوجهات النظر بين أناس اجتمعوا عند مريض).

(لكن الذي أعطى لقاء هذه الجماعة هذا الطابع السياسي والتأسيسي هو قدوم المهاجرين الثلاثة، لقد حوَّله هؤلاء المهاجرون إلى

(١) المصدر نفسه: ٣١٢.

(٢) المصدر نفسه أيضاً: ٣١٣ ـ ٣١٤.

لقاء سياسي وتأسيسي اتخذوه أساساً لتنصيب الخليفة من بعد النبي بالصورة التي أرادوها)(١).

(لم تكن غاية المتواجدين من الأنصار أن ينصبوا خليفة منهم كما يحلو للرواة التركيز على ذلك، لأن كل الأنصار تعلم أن الخلافة ليست فيهم، ومن غير الوارد أن يبدّلوا جميعاً عهدَ الله وعهدَ رسوله والنبيُّ لم يُدْفَن بعد... وحيث أن المتواجدين لا غاية لهم ولا مطمع بتنصيب خليفة منهم ولم يُطرَح ذلك أصلاً قبل حضور الثلاثة، فمن الطبيعي أن لا تكون لهم حجة بذلك. والحجج المنسوبة إليهم لا تخلو من روح المواءمة والتسوية ومن مستلزمات إخراج القصة وتتويج أبطالها وتبرير ما فعلوه، لم تداولت الأمة هذه القصة تحت إشراف الأبطال وبالكيفية التي أقروها، وتداولتها وسائل الإعلام الرسمية وأهملت الروايات المتناقضة معها)(٢).

(والحقيقة أن قصة اجتماع السقيفة صيغت وأُرِّخت تحت إشراف مؤيدي الفاروق والصدِّيق)(٣).

❀ ❀ ❀

ومهما يكن من أمر؛ فسرعان ما تمَّ أمر الخلافة ـ على تفصيلٍ لا يتسع المجال لسرده ـ، وأصبح أبو بكر خليفة المسلمين.

وكان ردُّ فعل سعد على ذلك هو الرفض القاطع للاعتراف بشرعية ما وقع؛ والامتناع المطلق عن البيعة؛ والإصرار على هذا الموقف مهما

(١) المصدر نفسه: ٣١٨.
(٢) المصدر نفسه: ٣١٩.
(٣) المصدر نفسه: ٣١٧.

كانت النتائج. وقد أعلن ذلك بصريح المقال لمَّا طُلِبَ منه أن يُبايع فقال:

(أما واللهِ حتى أرميكم بما في كنانتي من نبلي، وأخضب سنان رمحي، وأضربكم بسيفي ما مَلَكَتْه يدي، وأقاتلكم بأهل بيتي ومَنْ أطاعني من قومي، فلا أفعل. وأيم الله لو أن الجنَّ اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتُكم؛ حتى أُعْرَض على ربي وأعلم ما حسابي).

فلما أُبلغ أبو بكر بقوله هذا (قال له عمر: لا تَدَعْه حتى يبايع. فقال له بشير بن سعد: إنه قد لجَّ وأبى، وليس بمبايعكم حتى يُقتَل، وليس بمقتولٍ حتى يقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته، فاتركوه)[١].

وفي نصِّ ابن قتيبة: أن بشير بن سعد قال لأبي بكر وعمر ومن معهما:

(إنه قد أبى ولجَّ، وليس يبايعك حتى يُقْتَل، وليس بمقتولٍ حتى يُقْتَل معه ولده وأهل بيته وعشيرته، ولن تقتلوهم حتى يُقْتَل الخزرج، ولن تقتل الخزرج حتى تقتل الأوس، فلا تفسدوا على أنفسكم أمراً قد استقام لكم)[٢].

(فكان سعد لا يصلّي بصلاتهم، ولا يجمع بهم، ويحج ولا يفيض معهم بإفاضتهم) حتى توفي أبو بكر[٣].

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٢) الإمامة والسياسة: ١/ ١٠.

(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢٣.

ويظهر من بعض الروايات التاريخية أن سعداً لم ينفرد وحده ـ بين الأنصار ـ بهذا الموقف السلبي من الخليفة، وإنما كان هناك من رجال الأنصار ونسائهم من =

وآلت الخلافة إثر وفاة أبي بكر إلى عمر بن الخطاب، فأبى سعد أن يبايع عمر أيضاً، (فلقيه عمر ذات يوم في طريق من طرق المدينة، فقال له عمر: إيه يا سعد؛ إيه يا سعد. فقال سعد: إيه يا عمر. فقال عمر: أنت صاحب ما أنت عليه. فقال سعد: نعم أنا ذلك... وقد ـ واللَّهِ ـ أصبحتُ كارِهاً لجوارك. فقال عمر (رض): إن مَنْ كره جاراً جاوَرَه تحوَّل عنه. فقال سعد: أَمَا إني غير مستسرٍّ بذلك وأنا متحول إلى جوار مَنْ هو خير من جوارك. فلم يلبث إلاَّ قليلاً حتى خرج مهاجراً إلى الشام في أول خلافة عمر)[1].

وتوفي في بلاد الشام ـ شهيداً بيد غدرٍ وجبن ـ في سنة خمس عشرة أو ست عشرة من الهجرة في أشهر الروايات وأرجحها[2]، فذهب إلى ربه راضياً مرضيّاً، تحفُّه رحمة الله وتحياته؛ ومغفرته وبركاته.

ولم يجد القتلة المجرمون مفرّاً من الفضيحة والعار إلاَّ تحميل الجنِّ مسؤولية دم سعد كما تحمَّل الذئب مسؤولية دم يوسف، وإلاَّ وَضْعَ بيتين من الشعر على لسان هؤلاء الأبرياء بتوهُّم توثيق التهمة، وهما:

نحن قتلنا سيِّد الـ ـخزرج سعد بن عُبَادَهْ

= يشاركه الرأي والموقف، وقد حدَّث البلاذري أن الخليفة بعث إلى عجوزٍ من بني عدي بن النجار بقسمها من أموال المسلمين مع زيد بن ثابت، (فقالت: ما هذا؟ قال: قسم قسمه أبو بكر، فقالت: أترشوني عن ديني؟ قال: لا، قالت: أتخافوني أن أدع ما أنا عليه؟ قال: لا، قالت: فواللهِ لا آخذ منه شيئاً). أنساب الأشراف: ١/ ٥٨٠.

(١) طبقات ابن سعد: ٧/ق ٢/ ١١٦.

(٢) طبقات ابن سعد: ٧/ق ٢/ ١١٦ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٥٠ ومروج الذهب: ٢/ ١٩٤ والإمامة والسياسة: ١/ ١٠ والمعجم الكبير: ٦/ ١٨ والاستيعاب: ٢/ ٣٧ والكامل لابن الأثير: ٢/ ٣٤٠ و٣٥٤ وأسد الغابة: ٢/ ٢٨٤ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٠١ والإصابة: ٢/ ٢٨.

ورمـيـنـاه بـسَـهـمَـيْـن فـلـم نُـخْـطِ فـؤادَهْ[١]

وجاء في بعض الروايات التاريخية أن القاتل كان رسولَ الخليفة إليه[٢]. أو مَنْ أمره أمير الشام يومئذٍ بذلك[٣].

وستجتمع الخصوم بين يدي الله في آخر المطاف وتُعرَض الظُّلامات، فيُقضى بالعدل ويُحكم بالحق، وينال كل عاملٍ جزاء عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ.

وروى ابن الأثير وابن حجر: أن قبره بالمنيحة قريةٍ من غوطة دمشق، وزاد ابن الأثير أنه (مشهور يُزار إلى اليوم)[٤].

(١) أنساب الأشراف: ١/ ٢٥٠ و٥٨٩ وطبقات ابن سعد: ٧/ق ٢/ ١١٦ والمعجم الكبير: ٦/ ١٩ والاستيعاب: ٢/ ٣٧ وأسد الغابة: ٢/ ٢٨٥ وشرح نهج البلاغة: ١٧/ ٢٢٣.

(٢) أنساب الأشراف: ١/ ٢٥٠ و٥٨٩، وهو خالد بن الوليد برواية شرح نهج البلاغة: ١٧/ ٢٢٣.

(٣) الدرجات الرفيعة: ٣٣٤.

(٤) أسد الغابة: ٢/ ٢٨٥ والإصابة: ٢/ ٢٨.

مِنَ المُؤمِنِينَ رِجَالٌ

[٩]

الحُبابُ بنُ المُنذِر

الحُبابُ بنُ المُنذِر

اسمه ونسبه

هو: الحُبَاب بن المنذر بن الجَموح بن زيد بن حرام بن كعب بن غَنْم بن كعبِ بن سَلِمَة بن سَعْد بن عليّ بن أسعد بن سارِدَة بن تَزِيد بن جُشَم بن الخزرج[(١)].

وقبيلته: الخزرج أنصار الله ورسوله؛ الذين آووا ونصروا وجادوا بالنفس والنفيس دفاعاً عن الرسالة والرسول.

وكُنيته: أبو عُمَر[(٢)]، وقيل: أبو عمرو[(٣)].

ولقبه: ذو الرأي[(٤)]، وقد لقَّبه بذلك رسول الله (ص) كما يأتي.

وأُمُّه: الشَّمُوس بنت حقّ بن أُميَّة بن حرام، من بني سَلِمَة[(٥)].

وأُخته: الصحابية الجليلة هند بنت المنذر، ممن أسلمن وبايعن رسول الله (ص)، وهي أُمُّ الصحابي النقيب المنذر بن عمرو الساعدي؛

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٥٤ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ١٠٩ والاستيعاب: ١/ ٣٥٣ وجمهرة أنساب العرب: ٣٥٩ وأسد الغابة: ١/ ٣٦٤ والإصابة: ١/ ٣٠٢.

(٢) الاستيعاب: ١/ ٣٥٣ وأسد الغابة: ١/ ٣٦٤ والإصابة: ١/ ٣٠٢.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ١٠٩ والاستيعاب: ١/ ٣٥٣ وأسد الغابة: ١/ ٣٦٤.

(٤) أنساب الأشراف: ١/ ٢٩٣ والاستيعاب: ١/ ٣٥٣ وجمهرة أنساب العرب: ٣٥٩ وأسد الغابة: ١/ ٣٦٤.

(٥) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ١٠٩، و٨/ ٢٨٩.

الشهيد يوم بئر معونة في أوائل السنة الرابعة من الهجرة[١]، وهو المنذر بن عمرو بن خنيس بن حارثة بن لَوْذان بن عبدودّ بن زيد بن ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج[٢].

❀ ❀ ❀

ولد ـ (رض) ـ قبل البعثة النبوية بـ(١٨) عاماً؛ وهو مقتضى تحديد عمره يوم بدرٍ بثلاث وثلاثين سنة[٣].

ونشأ في المدينة المنوَّرة بين لداته وذوي قرباه كما ينشأ أمثاله من الفتيان والشبّان يومذاك. وعلَّمته ضرورات الحياة ما كان يجب أن يتعلَّمه من فروسية ورماية؛ ومعرفة بشؤون الحرب؛ وخبرة بعيش الصحراء وأسرارها وأخطارها.

ثم تطلَّع بعد ذلك إلى الزواج، فوقع الاختيار على «زينب بنت صيفيّ بن صخر بن خَنْساء بن سِنان بن عبيد بن عَديّ بن غنم بن كعب بن سَلمة. وأُمُّها نائلة بنت قيس بن النعمان بن سنان بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة»[٤]. وقد أسلمت هذه السيدة وبايعتْ رسول الله (ص)[٥].

وولدتْ للحباب:

١ ـ خَشْرَماً[٦]، وهو «من أهل الحديبية» «من المبايعين تحت الشجرة»

(١) المحبر: ٤٢٦ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ١٠٠ و١٠٩ و١٤٦، و٨/ ٢٨٩ وأسد الغابة: ٥/ ٥٦٣ والإصابة: ٤/ ٤١٠.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٨٧.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ١٠٩ والاستيعاب: ١/ ٣٥٣ وأسد الغابة: ١/ ٣٦٤.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ١٠٩، و٨/ ٢٩١.

(٥) المحبر: ٤٢٧ وطبقات ابن سعد: ٨/ ٢٩١ وأسد الغابة: ٥/ ٤٦٩ والإصابة: ٤/ ٣١١.

(٦) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ١٠٩، و٨/ ٢٩١.

بيعة الرضوان، وقد شهد المشاهد بعد بدر، وكان حارس النبي (ص)[١].

٢ ـ المنذر[٢].

٣ ـ أُمّ جميل، وكانت من المبايعات لرسول الله (ص). وقد تزوجها ابن عمتها النقيب المجاهد السالف الذكر: المنذر بن عمرو[٣].

وروى ابن سعد في ترجمة الحباب: أنه لم يكن له عقب[٤]، ولعله عنى بذلك أن ولديه لم يعقبا.

❀ ❀ ❀

وكان الحباب بن المنذر شاعراً. وروى الرواة له من الشعر قوله:

ألم تعلما للهِ درُّ أبيكما ... وما الناس إلاَّ أكْمَهٌ وبصيرُ
بأنَّا وأعداء النبيِّ محمدٍ ... أُسودٌ لها في العالمين زئيرُ
نصرنا وآوينا النبيَّ، وما له ... سوَانا من أهل الملَّتين نصيرُ[٥]

---

(١) الاشتقاق: ٤٦٣ والاستيعاب: ١/ ٤٦٠ ـ ٤٦١ وجمهرة أنساب العرب: ٣٥٩ وأسد الغابة: ٢/ ١١٧ والإصابة: ١/ ٤٢٧.

(٢) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٩١.

(٣) المحبر: ٤٢٧ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ١٠٩، و٨/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠ وأسد الغابة: ٥/ ٥٧٠ والإصابة: ٤/ ٤٢٠.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ١١٠.

(٥) الإصابة: ١/ ٣٠٢.

وأطلَّت على البشرية المتخبطة في ظلام جاهليتها الجهلاء إشراقة الهدى وأنوار الحق، منبعثة من قرآن الله المجيد وفرقانه الحميد وشرعه المبين، واختار محمداً (ص) لتحمل أعباء الرسالة وأداء الأمانة وإخراج الإنسانية من مهاوي الظلم والظلمات إلى واحات الخير والعدل والسعادة والسلام.

ولمَّا أراد الله تعالى لدينه الظهور والنصر؛ ولرسوله الاستقرار والتمكين؛ وللرسالة الانتشار والظفر، جمع الله عزَّ وجلَّ بين نبيِّه وبعض القادمين من المدينة، فعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، «فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدَّقوه» وآمنوا به، «فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله (ص)، ودَعَوْهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلاَّ وفيها ذِكْرٌ من رسول الله (ص)»[1].

ثم كانت العقبة الأولى في السنة التالية، والعقبة الثانية بعد ذلك. وأصبح الأنصار عامَّةً ـ أوسُهم وخزرجُهم ـ مسلمين لله في دينهم، مخلصين في إيمانهم، موطنين النفس على الدفاع عن الرسالة والجهاد في سبيلها حتى آخر قطرة من دمائهم.

وكان الحُبَاب بن المنذر في طلائع أولئك المبادرين إلى الإيمان.

❀ ❀ ❀

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧١ ـ ٧٣.

وهاجر النبي (ص) بعد ذلك إلى المدينة لينشر دعوته ويقيم دولته. وثارت ثائرة قريش وسائر مشركي مكة من هذا التطور الخطير. وأعدَّ مسلمو المدينة للطوارىء ما استطاعوا إعداده. ثم أخذ مجرى الأحداث يتَّجه نحو الصدام والحرب، وسرعان ما أزفت ساعة التمحيص والاختبار، ووقعت الواقعة بخروج المشركين من مكة بكلِّ ما لديهم من أبَّهة وخيلاء وغطرسة؛ يريدون المدينة المنورة لغرض القضاء على النبي (ص) ورسالته وأنصاره الأوفياء.

وتقدَّم المسلمون بقيادة النبي (ص) نحو بدر في طريق مكة؛ ليستقبلوا جيش الشرك قبل أن يداهمهم في عقر دارهم.

وكان صاحبنا الحُبَاب أحد أولئك المشاركين في جيش الحق[1]، بل روى ابن سعد وغيره: أن لواء الخزرج كان معه في هذه الغزوة[2].

ولما نزل رسول الله (ص) بالقرب من بدر، وأعدَّ العدة لحرب المشركين، توجَّه إليه الحباب بن المنذر وقال:

«يا رسول الله؛ أرأيتَ هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه اللهُ ليس لنا أن نتقدَّمه ولا نتأخَّر عنه؛ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟».

قال رسول الله (ص): «بل هو الرأي والحرب والمكيدة».

فقال الحباب: «يا رسول الله؛ فإن هذا ليس بمنزلٍ، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماءٍ من القوم فننزله، ثم نغوِّر ما وراءه من القُلُب»، «فإني عالم بها وبقُلُبها، وبها قليب قد عرفتُ عذوبة مائه، لا

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٥٤ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ١٠٩ والاستيعاب: ١/ ٣٥٣ وأسد الغابة: ١/ ٣٦٤ والإصابة: ١/ ٣٠٢.

(٢) طبقات اسن سعد: ٢/ق ١/ ٨، و٣/ق ٢/ ١٠٩ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٩٣ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ١٢٠.

يُنْزَح»، «ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون».

«فقال رسول الله (ص): «لقد أشرتَ بالرأي»، وفي رواية أخرى: «فنزل جبريل على رسول الله (ص) فقال: الرأي ما أشار به الحباب».

«فنهض رسول الله (ص) ومَنْ معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقُلُب فغُوِّرتْ، وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه فمُلِىءَ ماءً، ثم قذفوا فيه الآنية»(1).

واشتعل أوار الحرب، والتحم الفريقان، ثم انجلى الغبار عن هزيمة الشرك المنكرة؛ ونصر الإسلام المؤزَّر.

وكان من أعمال الحباب البطولية في هذه المعركة الفاصلة:

قَتْلُ عَليٍّ بن أُميَّة بن خلف، وقد شاركه في قتله عمار بن ياسر(2).

وقَتْلُ أبي قيس بن الفاكه بن المغيرة، وقيل: قتله حمزة بن عبد المطلب(3).

وضَرْبُ أُميَّة بن خلف بالسيف وقَطْع أُرْبيته أي أصل فخذه(4).

وأسْرُ خالد بن الأعلم العقيلي؛ من حلفاء بني مخزوم(5).

❀ ❀ ❀

---

(1) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٧٢ وطبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٨ و٩، و٣/ق ٢/ ١٠٩ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٩٣ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٤٠ والاستيعاب: ١/ ٣٥٣ وأسد الغابة: ١/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ١١٦ والإصابة: ١/ ٣٠٢.

(2) أنساب الأشراف: ١/ ١٩١.

(3) أنساب الأشراف: ١/ ١٣٨ و٢٩٩.

(4) أنساب الأشراف: ١/ ١٩١.

(5) أنساب الأشراف: ١/ ٣٠٣ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ٢٠٤.

ثم كانت المعركة الكبرى الثانية في تاريخ الإسلام هي معركة أُحُد.

وقد شارك الحباب فيها مشاركة فعَّالة ذات صيت وذكر.

وكان النبي (ص) قد دفع لواء الخزرج في هذه الحرب إلى الحباب، وقيل: إلى سعد بن عُبادة[١].

ولمَّا وصل المشركون إلى المدينة ونزلوا على مشارفها، رأى النبي (ص) ضرورة الوقوف على تفاصيل أُهبَة العدو ومعرفة عَدَدهم وعُدَدهم، فأمر الحباب أن يخرج إليهم ويستخبر شأنهم وأمرهم، فتسلَّل إليهم و«دخل فيهم فحزرهم وجاء بعلمهم»[٢].

وابتدأت الحرب وحمي وطيسها واشتدَّ ضرامها، وبلغت القلوب الحناجر، فاستشهد من استشهد من المؤمنين الصادقين، وفرَّ من فرَّ من الجبناء المتخاذلين الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم. وكان الحباب من تلك القلة المخلصة التي ثبتت ثبات الجبال وجاهدت جهاد الأبطال وبايعت النبي (ص) على الموت، ولم يكن يتجاوز عدد أفرادها الثمانية[٣]؛ بعد استثناء الشهداء والجرحى الذين منعتهم جراحهم البليغة من الاستمرار في القتال.

وأخرج البلاذري بسنده أنه «بايع رسولَ الله (ص) يوم أُحُدٍ على الموت ثمانية: علي بن أبي طالب، والزبير، وطلحة، وأبو دجانة،

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/٢٧ وأنساب الأشراف: ١/٣١٧ وشرح نهج البلاغة: ١٤/٢٢٦ و٢٣٥.

(٢) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/٢٦.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/١١٠ وشرح نهج البلاغة: ١٥/٢٠.

والحارث بن الصمَّة، وحباب بن المنذر، وعاصم بن ثابت، وسهل بن حنيف»[١].

و«أقبل يومئذٍ الحباب بن المنذر يصيح: يا آل سَلِمَة. فأقبلوا عُنُقاً واحداً: لبيك داعي الله؛ لبيك داعي الله»[٢]، «وكان الحباب يومئذٍ مُعْلَماً بعصابة خضراء في مغفرة»[٣].

وروى الواقدي عن عمارة بن خزيمة قال:

«حدثني مَنْ نظر إلى الحباب بن المنذر بن الجموح، وإنه ليحوشهم يومئذٍ كما تُحاش الغنم، ولقد اشتملوا عليه حتَّى قيل قد قُتِل، ثم برز والسيف في يده، وافترقوا عليه، وجعل يحمل على فرقة منهم وإنهم ليهربون منه إلى جمعٍ منهم، وصار الحباب إلى النبي (ص)»[٤].

وعندما وضعت الحرب أوزارها؛ وجمع المشركون أمتعتهم ورحلوا عن المدينة، بلغ رسولَ الله (ص) أنهم ربما تظاهروا بالرحيل خديعة ومكراً؛ وأنهم قد يرجعون إلى المدينة ـ بغتةً ـ للقتل والنهب والسلب والانتقام، فـ«أحبَّ أن يريهم قوةً، فصلَّى الصبح... ومعه وجوه الأوس والخزرج... فيهم سعد بن عُبَادة وسعد بن مُعاذ والحباب بن المنذر»[٥]، وكثير من حملة السلاح من المسلمين. ولكن المشركين لم يرجعوا، وكفى اللهُ المؤمنين القتال.

❀ ❀ ❀

(١) أنساب الأشراف: ٣١٨/١.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٢٤١/١٤ ـ ٢٤٢.
(٣) شرح نهج البلاغة: ٢٥٦/١٤.
(٤) شرح نهج البلاغة: ٢٥٥/١٤ ـ ٢٥٦.
(٥) شرح نهج البلاغة: ٥٥/١٥.

وشهد الحباب ـ بعد ذلك ـ الخندقَ والمشاهد الأخرى كلّها مع رسول الله (ص)[١].

وفي غزوة خيبر: لمَّا قسم النبي (ص) الرايات، دفع لواءه الأبيض «إلى عليّ بن أبي طالب، ورايةً إلى الحباب بن المنذر، ورايةً إلى سعد بن عُبادة»[٢].

وفي يوم قريظة والنضير: استشار النبي (ص) أصحابه في أمر المعركة وما يرتبط بها، «فقام الحباب بن المنذر فقال: أرى أن ننزل بين القصور فنقطع خبر هؤلاء عن هؤلاء وخبر هؤلاء عن هؤلاء. فأخذ رسول الله (ص) بقوله»[٣].

وفي يوم حنين: كان «لواء الخزرج يحمله حباب بن المنذر، ويقال: لواء الخزرج الآخر مع سعد بن عبادة»[٤].

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ١١٠ والاستيعاب: ١/ ٣٥٣ وأسد الغابة: ١/ ٣٦٥.
(٢) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٧٧.
(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ١٠٩.
(٤) طبقات ابن سعد: ٢/ق ٢/ ٥٥.

وفُجِع المسلمون بوفاة رسول الله (ص)؛ فاهتزَّ المجتمع الجديد الغضُّ هزّاً عنيفاً كاد أن يودي به لولا عناية الله ولطفه.

وكان ما كان...

ولسنا ـ هنا ـ بصدد البحث فيما وقع في تلك الأيام العصيبة الرهيبة إلاَّ في حدود ما يتعلَّق بصاحبنا الحباب بن المنذر؛ وما يرتبط بصميم سيرته ومواقفه في هذه الحقبة الزمنية الخطيرة من تاريخ الإسلام.

غير أننا بحاجة إلى وقفة عقلانية متمهِّلة عند نقطة أساسيَّة رئيسة، لا محيص من التريُّث فيها والتأمُّل خلالها؛ قبل استعراض موقف الحباب من الصراع على الخلافة في ذلك اليوم:

روى عامة المؤرخين أن المهاجرين الثلاثة الذين حضروا اجتماع السقيفة كانوا متفقين على أن المؤهِّل الوحيد الفريد الذي يجب تحققه فيمن يرشَّح للخلافة أو يُبايَع بها هو أن يكون من قبيلة الرسول (ص) وعشيرته، وتمسكوا في إثبات ذلك بحديثٍ نبوي شريف جاء فيه: «الأئمة من قريش»[1]، أي أن يكون الخليفة قرشيّاً وليس من الأوس ـ

---

(1) ورد الحديث بهذا النص في مسند أحمد: ٢/١٢٩ و١٨٣، و٤/٤٢١.
وبنصّ «أن هذا الأمر في قريش» في صحيح البخاري: ٩/٧٨.
وبنصّ «لا يزال هذا الأمر في قريش» في مسند أحمد: ٢/١٢٨. =

مَثَلاً ـ أو الخزرج أو هُذَيل، ولم يطرحوا أية شروط أو مؤهّلات أخرى لمن يصلح للخلافة سوى ذلك، ولم يشيروا إلى الشورى والانتخاب ملجأً أو مقياساً لحلِّ هذه المشكلة المعضلة.

روى البلاذري بسنده: أن أبا بكر خطب في اجتماع السقيفة فكان مما جاء في خطابه قوله:

«ولن تدين العرب إلاَّ لهذا الحيِّ من قريش، فقد يعلم مَلَأٌ منكم أنَّ رسول الله (ص) قال: «الأئمة من قريش»، فأنتم أحقَّاء أن لا تنفسوا على إخوانكم من المهاجرين ما ساق الله إليهم»[1].

وفي نصٍّ آخر رواه البلاذري عن عمر بن الخطاب أنه قال في خطبة له وهو يروي بعضَ ما وقع في ذلك الاجتماع:

«فتكلَّم أبو بكر وكان رشيداً فقال: نحن قريش والأئمة منَّا»[2].

= وبنصِّ «يكون اثنا عشر أميراً (أو: خليفة) كلهم من قريش» في صحيح البخاري: ٩/ ١٠١ وصحيح مسلم: ٦/ ٣ وسنن أبي داوود: ٢/ ٤٢١ وسنن الترمذي: ٤/ ٥٠١ ومسند أحمد: ٥/ ٨٦ و٨٧ و٨٨ و٨٩ و٩٠ و٩٢و٩٣ و٩٤ و٩٥ و٩٦ و٩٧ و٩٨ و٩٩ و١٠٠ و١٠١ و١٠٦ و١٠٧ و١٠٨.

وبنصِّ «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة.. كلهم من قريش» في المعجم الكبير: ٢/ ٢١٤.

وبنصِّ «يكون لهذه الأمة اثنا عشر قيِّماً لا يضرهم مَنْ خذلهم.. كلهم من قريش» في المعجم الكبير: ٢/ ٢١٤.

وبنصِّ «اثنا عشر قيماً من قريش لا يضرهم عداوة مَنْ عاداهم» في المعجم الكبير: ٢/ ٢٨٦.

وبألفاظ أخرى متقاربة مع ما تقدَّم في المعجم الكبير: ٢/ ٢١٤ و٢١٥ و٢١٦ و٢١٨ و٢٢٧ و٢٢٩ و٢٣٦ و٢٣٨ و٢٤١ و٢٤٨ و٢٥١.

(١) أنساب الأشراف: ١/ ٥٨٢.

(٢) أنساب الأشراف: ١/ ٥٨٣.

وفي رواية الطبري: أن أبا بكر قال في أثناء كلامه في أهل السقيفة:

«ولقد علمتَ يا سعد أن رسول الله قال وأنت قاعد: قريش ولاة هذا الأمر»[١].

أمَّا ما ورد على لسان بعضهم في ذلك اليوم من ذكر السبق إلى الإسلام فإن صحت روايته فإنه لم يكن بياناً لشرطٍ أساسيّ في الخليفة، لأن عمار بن ياسر وأبا ذرّ الغفاري ـ مثلاً ـ كانا أسبق إلى الإسلام من اثنين من المهاجرين الثلاثة حضَّار السقيفة، ولكنهما لم يكونا مؤهَّلَيْن للخلافة في نظر هؤلاء لأنهما ليسا من قريش.

وواضح أن مجرد الانتساب لقريش وبلا تحديدٍ لأي قيد أو شرط آخر في هذا القرشي؛ من دين وعلم؛ وفقه وحلم؛ وصدق وعدل؛ وحكمة ومقدرة، لا يعدو أن يكون تعصباً قبليّاً بحتاً؛ لا ينسجم مع خطّ الإسلام الرئيس والثابت؛ الذي جعل التقوى والعمل الصالح هو المقياس الأول والأخير للتفضيل دون ما سواه من المقاييس والمعايير. وقد ضرب الله مَثَلاً في قرآنه المجيد للكافرين الخارجين على تعاليم السماء وشرائع الدين: أحَدَ ابنَيْ آدم؛ وامرأة نوح وابنه؛ وبعض أولاد يعقوب؛ وعاداً وثمود وقوم لوط، ثم جاء في آخرهم أبو لهب وامرأته حمَّالة الحطب. وفي ذلك كلِّه إلغاء كامل للتمايز القَبَلي والطَّبَقية النَّسَبية والقيم المستمدة من الانتماءات الخاصة.

وإن التمسك بنص «الأئمة من قريش» في تعيين الخليفة؛ مجرداً من كل الضوابط والمؤهِّلات، قد يثير في نفوس بعض الناس من

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٠٣.

التساؤلات المشروعة أو غير المشروعة ما يجب تنزيه مقام النبوة عنها جملة وتفصيلاً.

فقد يتعجب من ذلك متعجِّب فيقول:

هل من المعقول أن يكون نبي الإسلام ـ وهو الذي أعلن وأكَّد أن رسالته موجَّهة إلى الناس كافَّة وإلى القبائل والشعوب عامَّة ـ قبليَّاً إلى هذه الدرجة ومنغلقاً إلى هذا الحدِّ؟

وقد يعلِّق على ذلك معلِّق فيقول:

إذا استساغ النبي لنفسه أن يكون بهذا المستوى من القَبَلِيَّة ـ كما زعموا ـ فلماذا لم يخصّ عشيرته الأقربين بذلك؟ ولِمَ لم يفرض على المسلمين أن يكون الأئمة من بني هاشم خاصة؛ أيّاً ما كانت صفات الهاشمي وقابلياته؟.

وقد يسأل في ضوء ذلك مَنْ يسأل فيقول:

إذا اعترف المعترفون بأن النبي (ص) قد قيَّد وحدَّد ولم يترك الأمر مطلقاً تتحكم فيه قواعد الشورى والانتخاب من بعده، فلماذا لم يختر من أصحابه مَنْ يجد فيه الأهليَّة فيعيِّنه بالاسم الصريح لهذا المنصب الخطير، بدلاً من هذا النصِّ العام والإطار المبهم؟.

ولا يجد الباحث الموضوعي المحايد جواباً مقنعاً على هذه الأسئلة المطروحة، إلاَّ أن يكون النص النبوي قد اختار للخلافة مَنْ سمَّاه وعيَّنه؛ لما يعلم من كفايته وجدارته واجتماع الصفات المطلوبة فيه. وحينذاك يصبح نصُّ «الأئمة من قريش» بصدره وتتمته والعدد المذكور فيه ـ وهو نصٌّ ثابت وصحيح ـ واضح المعنى صريح الدلالة على نفي الشورى والانتخاب؛ وعلى الأمر بضرورة التسليم والإذعان لمن عيَّنهم النبي (ص) وسمَّاهم «الأئمة» أو «القَيِّمين».

ولا يفهمنَّ القارىء الكريم مما سلف بيانه وذكره أنّي أريد الطعن في كفاية كلِّ خلفاء المسلمين على امتداد تاريخ الإسلام؛ أو أرى فيهم جميعاً عدم الأهلية لهذا المركز الكبير المقدَّس، بل أقول بملء الفم الصدق والإخلاص أن بعضهم ـ وإن يكن أقلَّ من القليل ـ كان مؤهَّلاً لذلك كل التأهيل وأفضله؛ وأن اختياره للخلافة كان هو الصواب بعينه. وإنّما الذي يعنينا في هذه السطور هو بحث الأسس والقواعد التي أُقيمت عليها مسألة الخلافة في يومها الأول، وليس البحث في تراجم الخلفاء وتسمية مَنْ كان جديراً بالخلافة ومن لم يكن جديراً بها.

❀ ❀ ❀

ونعود بعد هذا التمهيد؛ إلى صلب الموضوع فنروي ـ بقَدْر ارتباط الأمر بصاحبنا الحباب بن المنذر ـ ما وقع يومذاك كما روته المصادر التاريخية المعروفة؛ وبتسلسل الأحداث كما وقعت، ليتضح لنا موقف هذا الصحابي من كل ذلك:

كان من ابتداء الأمر يوم وفاة النبي (ص): أن المغيرة بن شعبة مرَّ «بأبي بكر وعمر وهما جالسان على باب النبي حين قُبض؛ فقال: ما يقعدكما؟ قالا: ننتظر هذا الرجل يخرج فنبايعه؛ يعنيان عليّاً، فقال: أتريدون أن تنظروا حَبَلَ الحَبَلة[*] من أهل هذا البيت؛ وسِّعُوها في قريش تَتَّسِع! فقاما إلى سقيفة بني ساعدة»[١]، وصحبا معهما أبا عبيدة بن الجراح، ولم يحضر أحدٌ من المهاجرين غير هؤلاء الثلاثة[٢].

(*) الحبل ـ بالتحريك ـ: الامتلاء والاكتناز، والحَبَلَة: الكَرْمة.

(١) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٤٣ ـ ٤٤.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١٢٩ وأنساب الأشراف: ١/ ٥٨٠.

وانتهى الثلاثة إلى السقيفة حيث كان يجتمع الأنصار، فخطب فيهم أبو بكر، وتكلَّم عمر وأبو عبيدة. فقال الأنصار:

«واللهِ ما نحسدكم على خيرٍ ساقه الله إليكم، ولا أحد أحبَّ إلينا ولا أرضى عندنا منكم، ولكنَّا نشفق ممَّا بعد هذا اليوم، ونحذر أن يغلب على هذا الأمر مَنْ ليس منَّا ولا منكم. فلو جعلتم اليوم رجلاً منكم بايعنا ورضينا، على أنه إذا هلك اخترنا واحداً من الأنصار، فإذا هلك كان آخَرُ من المهاجرين؛ أبداً ما بقيت هذه الأُمة، كان ذلك أجْدَر أن يعدل في أُمَّة محمد (ص)، فيشفق الأنصاري أن يزيغ فيقبض عليه القرشي، ويشفق القرشي أن يزيغ فيقبض عليه الأنصاري»[١].

وفي لفظٍ آخر: أنه كان مما قال الأنصار: «فإنَّا واللهِ ما ننفس هذا الأمر عليكم أيها الرهط، ولكننا نخاف أن يليه أقوام قتلنا آباءهم وإخوتهم». ورُوي أن قائل ذلك هو الحباب بن المنذر، وقد أجابه عمر بن الخطاب قائلاً: «إذا كان ذلك فمُتْ إن استطعت (أو: قُمْتَ إذا استطعت)»[٢].

وتكلَّم أبو بكر رادّاً على الأنصار، وكان ممَّا قال:

إن المهاجرين الأولين «أول مَنْ آمن برسول الله (ص)، وهم

(١) شرح نهج البلاغة: ٦/٨، وبعضه في أنساب الأشراف: ١/ ٥٨٢.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١٢٩ وأنساب الأشراف: ١/ ٥٨٠ وشرح نهج البلاغة: ١/ ٥٢ ـ ٥٣.

ويقول ابن أبي الحديد في شرح النهج: ٢/ ٥٣ تعليقاً على ذلك:

«قرأت هذا الخبر على أبي جعفر يحيى بن محمد العلوي نقيب البصرة في سنة عشر وستمائة من كتاب السقيفة لأحمد بن عبد العزيز الجوهري، فقال:

«لقد صدقتْ فراسة الحباب، فإن الذي خافه وقع يوم الحرَّة؛ وأُخِذ من الأنصار ثأر المشركين يوم بدر».

أولياؤه وعترته، وأحقُّ الناس بالأمر بعده، لا ينازعهم إلاَّ ظالم... فنحن الأمراء وأنتم الوزراء»[١]، «وهذا الأمر بيننا وبينكم نصفَيْن كقدِّ الأُبْلُمة أي الخُوصة»[٢].

«فقام الحباب بن المنذر فقال:

«يا معشر الأنصار؛ املكوا عليكم أيديكم، إنما الناس في فيئكم وظلكم، ولن يجترىء مجترىءٌ على خلافكم، ولا يصدر الناس إلاَّ عن أمركم. أنتم أهل الإيواء والنصرة، وإليكم كانت الهجرة، وأنتم أصحاب الدار والإيمان. واللهِ ما عُبِد اللهُ علانيةً إلاَّ عندكم وفي بلادكم، ولا جُمعت الصلاة إلاَّ في مساجدكم، ولا عُرف الإيمان إلاَّ من أسيافكم، فاملكوا عليكم أمركم. فإنْ أبى هؤلاء فمنّا أمير ومنهم أمير»[٣].

«فقال عمر: هيهات؛ لا يجتمع سيفان في غمد. إن العرب لا ترضى أن تؤمِّركم ونبيُّها من غيركم، وليس تمتنع العرب أن تولّي أمرها مَنْ كانت النبوة فيهم... مَنْ ذا يخاصمنا في سلطان محمد وميراثه ـ ونحن أولياؤه وعشيرته ـ إلاَّ مُدِلٌّ بباطل أو متجانف لإثمٍ أو متورِّط في هلكة»[٤].

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٨ ـ ٩.

(٢) هكذا عُزيت هذه الفقرة لأبي بكر في طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١٢٩ وأنساب الأشراف: ١/ ٥٨٠ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ٥٣. وعُزيت للحباب بن المنذر في أنساب الأشراف: ١/ ٥٨٣. وعُزيت لبشير بن سعد في أنساب الأشراف أيضاً: ١/ ٥٨٤ وأن عمر قال له على أثرها: «وأنت أيضاً يا أعور». وإن صحَّ أنها لبشير فهو يكذّب ما رُوي في بعض المصادر التاريخية من أن بشيراً كان أول من بايع أبا بكر من الأنصار كما في تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢١ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ٣٩.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٩، وقريب منه في تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢٠. ووردت جملة «منّا أمير ومنكم أمير» مروية عن الحباب في طبقات ابن سعد: ٢/ق ٢/ ٥٥ و٣/ ق ٢/ ١١٠ وأنساب الأشراف: ١/ ٥٨٠ و٥٨١ و٥٨٣ و٥٨٤ والاستيعاب: ١/ ٣٥٣ وأسد الغابة: ١/ ٣٦٥.

(٤) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٩، وقريب منه في تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢٠.

«فقام الحباب وقال:

«يا معشر الأنصار؛ لا تسمعوا مقالةَ هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من الأمر، فإنْ أبوا عليكم ما أعطيتموهم فاجلوهم عن بلادكم وتولّوا هذا الأمر عليهم، فأنتم أوْلى الناس بهذا الأمر، إنه دان لهذا الأمر بأسيافكم مَنْ لم يكن يدين له. أنا جُذَيلُها المُحَكَّك وعُذَيقها المُرجَّب، إن شئتم لنعيدنَّها جذعة. واللهِ لا يردُّ أحدٌ عليَّ ما أقول إلاَّ حطمتُ أنفه بالسيف»[1].

«فقال عمر: إذنْ؛ يقتلك الله».

«قال: بل إياك يقتل»[2].

ثم عوقب الحباب على أثر ذلك جزاءَ معارضته؛ فـ«أُخِذَ ووُطِيء في بطنه ودُسَّ في فيه التراب»[3].

وفي لفظ الطبري عن الضحاك بن خليفة:

«فحامله عمر فضرب يده فندر السيف، فأخذه ثم وثب على سعد... وكانت فلتة كفلتات الجاهلية»[4].

❀ ❀ ❀

وهكذا كان الدليل على عدم استحقاق الأنصار للخلافة منحصراً في أنهم ليسوا «أولياء محمد وعترته» كما عبَّر الخليفة أبو بكر، أو ليسوا «أولياء محمد وعشيرته» كما عبَّر عمر.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٣٨ و٦/ ٩. وقريب من لفظه في تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢٠ ـ ٢٢١.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢١ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ٣٩.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٤٠.

(٤) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢٣.

ولم يُطْرَح أيّ مؤهِّل للخلافة يومذاك غير هذه القرابة، ثم أُضيف إلى ذلك ما أُضيف من المؤهِّلات والصفات الأخرى بعد حين، وكانت تلك الإضافات من عمل رواة الحديث والتاريخ جيلاً بعد جيل؛ وليست من شروط بُناة الخلافة الأوَّلين.

ولهذا قال الفضل بن العباس في ذلك اليوم مخاطباً قريشاً:

«يا معشر قرش؛ وخصوصاً يا بني تيم: إنكم إنما أخذتم الخلافة بالنبوة، ونحن أهلها دونكم... وإنَّا لنعلم أن عند صاحبنا [يعني عليّاً] عهداً هو ينتهي إليه»[1].

وقال زيد بن أرقم مخاطباً عبد الرحمن بن عوف:

«إنّا لنعلم أن ممن سمّيتَ من قريش مَن لو طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد: علي بن أبي طالب»[2].

وروى الزبير بن بكَّار:

إن «عامَّة المهاجرين وجلّ الأنصار لا يشكُّون أن علياً هو صاحب الأمر بعد رسول الله (ص)»[3].

وقال بعض ولد أبي لهب بن عبد المطلب بن هاشم في شعرٍ له:

ما كنتُ أحسب أن الأمر منصرفٌ
عن هاشمٍ ثم منها عن أبي حَسَنِ
أليس أولَ مَنْ صلّى لقبلتكم
وأعلم الناس بالقرآن والسننِ

(١) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٢١.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٢٠.
(٣) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٢١.

وأقـرب الـنـاس عـهـداً بـالـنـبـي ومَـنْ
جـبـريـل عـونٌ لـه فـي الـغـسـل والـكـفـن
مـا فـيـه مـا فـيـهـم لا يـمـتـرون بـه
ولـيـس فـي الـقـوم مـا فـيـه مـن الـحَـسَـنِ(١)

❀ ❀ ❀

وعلى الرغم من كل ما أُحيطت به أحداثُ تلك الأيام العصيبة الكثيبة من تعتيم وطمس وإغفال، فإن ما تسرَّب من ذلك ـ على قلّته ـ كافٍ في الدلالة على واقع الأمر وحقيقة الحال.

ولعل استعراضنا للنصوص الآتية ووقوفنا عليها بتروٍّ وتمعُّن ممّا يزيدنا علماً ومعرفة بالأوضاع العامة يومذاك وبدوافع الحباب بن المنذر إلى المعارضة والخلاف:

روى الزبير بن بكّار بسنده قال:

«لمَّا بويع أبو بكر واستقر أمره، نَدِم قوم كثير من الأنصار على بيعته ولامَ بعضهم بعضاً، وذكروا عليَّ بن أبي طالب وهتفوا باسمه، وأنه في داره لم يخرج إليهم. . . وكثر في ذلك الكلام. وكان أشدَّ قريش على الأنصار نَفَرٌ فيهم وهم: سهيل بن عمرو ـ أحد بني عامر بن لؤيّ ـ والحارث بن هشام وعكرمة بن أبي جهل المخزوميان، وهؤلاء أشراف قريش الذين حاربوا النبي (ص) ثم دخلوا في الإسلام، وكلُّهم موتور قد وَتَرَه الأنصار».

«فلما اعتزلت الأنصار تجمَّع هؤلاء، فقام سهيل بن عمرو فقال:

(١) شرح نهج البلاغة: ٦/٢١، ووردت هذه الأبيات ومعها خامس في الجمل: ٥٨ وقد عُزيت فيه لعبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.

«يا معشر قريش؛ إنَّ هؤلاء القوم قد سمَّاهم الله الأنصار، وأثنى عليهم في القرآن، فلهم بذلك حظ عظيم وشأن غالب. وقد دعوا إلى أنفسهم وإلى عليّ بن أبي طالب، وعليٌّ في بيته لو شاء ردَّهم، فادعوهم إلى صاحبكم وإلى تجديد بيعته فإنْ أجابوكم وإلاَّ قاتِلوهم».

«ثم قام الحارث بن هشام فقال:

«إنْ يكن الأنصار تبوَّأت الدارَ والإيمان من قبل... فإنهم قد لهجوا بأمر إنْ ثبتوا عليه فإنهم قد خرجوا مما وُسِموا به، وليس بيننا وبينهم معاتبة إلاَّ السيف».

«ثم قام عكرمة بن أبي جهل فقال:

«واللهِ لولا قول رسول الله (ص): «الأئمة من قريش»، ما أنكرنا إمرة الأنصار... وإن الذي هم فيه من فلتات الأمور ونزغات الشيطان...، أعذروا إلى القوم، فإن أبوا فقاتلوهم».

«وحضر أبو سفيان بن حرب فقال:

«يا معشر قريش؛ إنه ليس للأنصار أن يتفضلوا على الناس حتى يقرّوا بفضلنا عليهم... فأمّا عليٌّ بن أبي طالب فأهلٌ واللهِ أن يُسوَّد على قريش وتطيعه الأنصار».

«فلما بلغ الأنصارَ قولُ هؤلاء الرهط قام خطيبهم ثابت بن قيس بن شماسٍ فقال:

«يا معشر الأنصار؛ إنما يكبر عليكم هذا القول لو قاله أهلُ الدين من قريش، فأمّا إذا كان من أهل الدنيا لا سيَّما من أقوام كلُّهم موتور فلا يكبرنَّ عليكم»[1].

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٢٤.

وقال حسان بن ثابت يذكر ذلك:

تنادى سهيلٌ وابنُ حربٍ وحارثٌ وعكرمةُ الشاني لنا ابنُ أبي جَهْلِ
قتلنا أباه وانتزعنا سلاحَه فأصبح بالبطحا أذلَّ من النَّعْلِ
فأمّا سهيلٌ فاحتواه ابن دخشم أسيراً ذليلاً لا يُمِرُّ ولا يُحْلي
وصخر بن حربٍ قد قتلنا رجاله غداة لِوَا بدرٍ فمِرجَلُه يَغلي
وراكَضَنا تحت العجاجة حارثٌ على ظهر جرداء كباسقة النخلِ

إلى أن قال:

أولئك رهط من قريش تبايَعُوا
على خُطَّةٍ ليستْ من الخطط الفُضْلِ
وأعجب منهم قابِلو ذاك منهم
كَأنَّا اشتملنا من قريش على ذَحْلِ
وكلُّهم ثانٍ عن الحقِّ عِطفَه
يقول: اقتلوا الأنصار يا بئسَ ما فِعْلِ[1]

وبلغ نبأُ اجتماع الأنصار وقولهم في عليّ (ع) عمرَو بن العاص؛ وكان قد قَدِم من سفرٍ، فقال:

«واللهِ لقد دفع اللهُ عنَّا من الأنصار عظيمةً...، ولقد قاتلونا أمس فغلبونا على البدء، ولو قاتلناهم اليوم لغلبناهم على العاقبة... وقال:

ألا قُلْ لأَوْسٍ إذا جئتَها وقلْ ما إذا جئتَ للخزرجِ
تَمَنَّيْتُم الملك في يثربٍ فأُنزِلتِ القِدرُ لم تنضَجِ

❀ ❀ ❀

(١) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٢٥.

إلى آخر أبياته[١].

«فلمَّا بلغ الأنصارَ مقالتُه وشعرُه بعثوا إليه لسانَهم وشاعرهم النعمان بن العجلان» فكان من ردِّه عليه قولُه من قصيدة له:

فقل لقريشٍ: نحن أصحاب مكةٍ ويوم حنينٍ والفوارس من بدرِ
وأصحاب أُحْدٍ والنضير وخيبرٍ ونحن رجعنا من قريظة بالذكرِ

وجاء فيها:

نَصَرْنا وآوَيْنا النبيَّ ولم نخفْ صروفَ الليالي والعظيمَ من الأمرِ
وقلنا لقومٍ هاجَروا قبلُ: مرحباً وأهلاً وسهلاً قد أمنتم من الفقرِ
نقاسمكم أموالَنا وبيوتَنا كقسمة أيسار الجزور على الشَّطرِ
ونكفيكم الأمر الذي تكرهونه وكُنّا أُناساً نُذهِب العُسر باليسرِ

إلى أن قال:

وكان هوانا في عليٍّ، وإنَّه لأهْلٌ لها يا عمرو من حيث لا تدري
فذاك بعون الله يدعو إلى الهدى وينهى عن الفحشاء والبغي والنكر
وصيُّ النبي المصطفى وابن عمِّه وقاتل فرسان الضلالة والكفرِ[٢]

«فلما انتهى شعر النعمان وكلامه إلى قريش غضب كثيرٌ منها، وألفى ذلك قدومَ خالد بن سعيد بن العاص من اليمن ـ وكان رسول الله استعمله عليها ـ، وكان له ولأخيه أثر قديم عظيم في الإسلام... فغضب للأنصار وشتم عمرو بن العاص، وقال:

«يا معشر قريش؛ إنَّ عَمْراً دخل في الإسلام حين لم يجد بُدّاً من الدخول فيه، فلمَّا لم يستطع أن يكيده بيده كاده بلسانه، وإنّ من كيده

(١) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٢٩ ـ ٣٠.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٣٠ ـ ٣١.

الإسلامَ تفريقه وقطعه بين المهاجرين والأنصار. واللهِ ما حاربناهم للدين ولا للدنيا، لقد بذلوا دماءهم لله تعالى فينا، وما بذلنا دماءنا لله فيهم، وقاسمونا ديارهم وأموالهم وما فعلنا مثل ذلك بهم»[1].

قال الزبير بن بكّار:

«ثم إنّ رجالاً من سفهاء قريش ومثيري الفتن منهم اجتمعوا إلى عمرو بن العاص فقالوا له: إنك لسان قريش ورَجُلُها في الجاهلية والإسلام؛ فلا تدع الأنصار وما قالتْ، وأكثروا عليه في ذلك. فراح إلى المسجد وفيه ناس من قريش وغيرهم، فتكلّم وقال:

«إن الأنصار ترى لنفسها ما ليس لها... ولم يُراعُوا ما أعْظَمْنا من حقوقهم».

«ثم التفت فرأى الفضل بن العباس بن عبد المطلب، وندم على قوله، للخؤولة التي بين ولد عبد المطلب وبين الأنصار، ولأن الأنصار كانت تعظِّم علياً وتهتف باسمه حينئذٍ».

«ورجع الفضل إلى عليٍّ فحدَّثه. فغضب وشتم عَمْراً وقال: آذى اللهَ ورسولَه... ألا وإنّ عمرو بن العاص قد قام مقاماً آذى فيه الميت والحيَّ، ساء به الواتر، وسرَّ به الموتور».

«فمشتْ قريش عند ذلك إلى عمرو بن العاص فقالوا: أيها الرجل؛ أمَا إذْ غضب عليٌّ فاكففْ».

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٣١ ـ ٣٢. ويقول ابن أبي الحديد معلِّقاً على كلام خالد هذا: «قلتُ: هذا خالد بن سعيد بن العاص هو الذي امتنع من بيعة أبي بكر وقال: لا أُبايع إلاَّ علياً».

«وقال عليٌّ للفضل: يا فَضْل؛ انصر الأنصار بلسانك ويدك، فإنهم منك وإنك منهم»، فقال الفضل شعراً يمدح به الأنصار[1].

«فلمَّا بلغ ذلك الأنصار... بعثوا إلى حسان بن ثابت فعرضوا عليه شعر الفضل... فقال:

جزى اللهُ عنَّا والجزاء بكفِّه ... أبا حسنٍ عنَّا ومَنح كأبي حَسَنْ
سبقتَ قريشاً بالذي أنت أهلُه ... فصدرك مشروح وقلبك ممتحَنْ
تمنَّتْ رجالٌ من قريش أعزَّةٌ ... مكانك، هيهات الهزال من السَّمَنْ

إلى أن قال:

حفظتَ رسولَ الله فينا وعهدَه ... إليك ومَنْ أوْلى به منك مَنْ ومَنْ
ألستَ أخاه في الهدى ووصيَّه ... وأعْلَمَ منهم بالكتاب وبالسُّنَنْ[2]

وقد أشار حسان بقوله في البيت قبل الأخير: «حفظتَ رسول الله فينا وعهده» إلى ما رُوي متواتراً في كتب الحديث والتاريخ من نصوص شريفة تؤكد حبَّ النبي (ص) للأنصار واهتمامه بهم وتوصية المسلمين برعايتهم وحفظ حقوقهم.

وهكذا تكشف لنا هذه النتف من الروايات التاريخية ـ ولم نشأْ أن نطيل في سردها ـ أن الترشيح للخلافة يومذاك لم يعتمد على أيّ سند ديني من قرآن أو حديث سوى الانتماء لقريش. كما لم يعتمد على أي أساس من أسس الشورى والانتخاب، لأنه لم يُفْسَح المجال لمن يرى في نفسه الأهليَّة أو يرى فيه المسلمون ذلك أن يتصدّى للترشيح؛ ولم

(١) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٣٣ ـ ٣٥.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٣٥. ووردت أبيات حسان في تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٠٧، والأولان بمفردهما في الفصول المختارة: ٢/ ٦١ و٦٧ ـ ٦٨.

يؤخذ ذلك الجمعُ الغفير من المعارضين بنظر الرعاية والاهتمام مع أن فيهم مَنْ فيهم من كبار المهاجرين والأنصار؛ ولم يمتنع المشرفون على العمليَّة من استعمال وسائل التهديد والإرهاب في هذا الصدد[١].

وذكر الشريف الرضي محمد بن الحسين الموسوي: أنه قد رُوِيَ شعرٌ لعليّ (ع) في هذا المعنى؛ وهو:

فإنْ كنتَ بالشورى ملكتَ أمورَهم
فكيف بهذا والمشيرون غُيَّبُ
وإنْ كنتَ بالقربى حججتَ خصيمهم
فغيرُك أولى بالنبي وأقربُ[٢]

ولعلَّنا ـ في ضوء ما تقدَّم ـ أصبحنا أكثر فهماً وإدراكاً لأسباب موقف الحباب وثورته على ما وقع، وإن كانت النصوص التاريخية لم تبيِّن ـ على وجه القطع واليقين ـ ماذا كان يريد هذا الرجل:

تعيين الخليفة من طريق الشورى بين المسلمين عامة؟.

أو احتكار الأنصار للخلافة على كل حال؟

أو تسليمها للمعيَّن المنصوص عليه[٣]؟.

أو إقامة حكومة محليَّة موقَّتة في المدينة المنورة تتولى إدارة الأمر والحفاظ على الأمن والنظام وريثما يتم اختيار الخليفة المنتظر؟.

(١) وقد روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: ١/ ١٧٤ من جملة ذلك: كَسْر سيف الزبير، ودَفْع المقداد في صدره، ووطء سعد بن عابدة بالأقدام، وحَطْم أنف الحباب بن المنذر. وغير ذلك مما لا مجال له أو لا ينبغي ذكره.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١٨/ ٤١٦.

(٣) روى الطبري في تاريخه: ٣/ ٢٠٢ أن عمر وأبا عبيدة لمَّا بايعا أبا بكر بالخلافة في اجتماع السقيفة: «قالت الأنصار أو بعض الأنصار: لا نبايع إلاَّ علياً».

وما دمنا لا نستطيع الجزم بواحدٍ من هذه الفروض الأربعة المحتملة فلنتركها فروضاً محتملة على حالها، عسى أن تعزّز بحوثُ المستقبل وما يُنْشَر من كتب التراث ونصوصِه هذا الفرضَ أو ذاك منها.

ويقول الباحث الأردني المحامي أحمد حسين يعقوب في هذه القضية الشائكة:

«لم تكن غاية المتواجدين من الأنصار أن ينصبوا خليفة منهم كما يحلو للرواة التركيز على ذلك، لأن كل الأنصار تعلم أن الخلافة ليست فيهم، ومن غير الوارد أن يبدِّلوا جميعاً عهدَ الله وعهدَ رسوله والنبي لم يُدْفَنْ بعد، وهم يعلمون أن النبي قد نصب الوليَّ من بعده... وبالتالي وحيث إن المتواجدين لا غاية لهم ولا مطمع بتنصيب خليفة منهم ولم يُطْرَح ذلك أصلاً قبل حضور الثلاثة، فمن الطبيعي أن لا تكون لهم حجة بذلك، والحجج المنسوبة إليهم لا تخلو من روح المواءمة والتسوية ومن مستلزمات إخراج القصة وتتويج أبطالها وتبرير ما فعلوه، ثم تداولت الأمَّةُ هذه القصة تحت إشراف الأبطال وبالكيفية التي أقروها، وتداولتها وسائل الإعلام الرسمية، وأهملت الروايات المتناقضة معها»[١].

❀ ❀ ❀

وفي حوالى سنة ٢٠هـ[٢] انتقل الحُبَاب إلى جوار ربِّه، وقد جاوز عمره الخمسين[٣]، فذهب إلى جنَّات الخلد تحفُّه رحمة الله؛ ويغمره الغفران والرضوان، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

---

(١) نظرية عدالة الصحابة: ٣١٩.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ١١٠ والاستيعاب: ١/ ٣٥٣ وأسد الغابة: ١/ ٣٦٥ والإصابة: ١/ ٣٠٢. وقد ذكروا أنه مات في خلافة عمر، ورجعنا في احتمال سنة وفاته إلى ما ورد في بيان عمره.

(٣) الإصابة: ١/ ٣٠٢.

من المؤمنين رجال

[١٠]

عبادة بن الصامت

عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ

اسمه ونسبه

هو: عُبادة بن الصامِت بن قيس بن أصْرَم بن فِهْر بن ثعلبة بن غَنْم ـ ويقال له قَوْقَل ـ بن عَوْف بن عمرو بن عوف بن الخزرج[1].

وكُنيته: أبو الوليد[2].

وقبيلته: الخزرج أولياء الله ورسوله، من الذين آووا ونصروا فحازوا فخر الدنيا والآخرة.

وأُمُّه: قرَّة العين بنت عُبَادة بن نَضْلة بن مالك بن العجلان بن زيد بن غَنْم بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج[3].

وأخوه: المؤمن المجاهد أوس بن الصامت، من سابقي أهل

---

(1) سيرة ابن هشام: ٢/٨٦ و١٠٧ و٣٥١ وطبقات خليفة: ١/٢٢٠ و٢/٧٧٦ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/٩٣ و١٤٨ و٧/ق ٢/١١٣ والمحبر: ٢٧٠ وأنساب الأشراف: ١/٢٥١ وتاريخ الطبري: ٢/٣٥٥ والاستيعاب: ٢/٤٤١ وجمهرة أنساب العرب: ٣٥٤ وأسد الغابة: ٣/١٠٦ وسير أعلام النبلاء: ٢/١ ومجمع الزوائد: ٩/٣٢٠ والإصابة: ٢/٢٦٠.

(2) طبقات خليفة: ١/٢٢٠ و٢/٧٧٦ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/٩٣ و١٤٨ وأنساب الأشراف: ١/٢٥١ وأسد الغابة: ٣/١٠٦ ومجمع الزوائد: ٩/٣٢٠ والإصابة: ٢/٢٦٠.

(3) طبقات خليفة: ١/٢٢٠ و٢/٧٧٦ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/٩٣ و١٤٨ و٧/ق ٢/١١٣ والاستيعاب: ٢/٤٤٢ وأسد الغابة: ٣/١٠٦ و٥/٥٣٤ والإصابة: ٢/ ٢٦٠ و٤/٣٧٨.

المدينة إلى الإسلام، وقد شهد بدراً وأُحداً والخندق وسائر المشاهد مع رسول الله (ص)، وآخى النبي بينه وبين مرثد بن أبي مرثد الغنوي. وروى ابن عبد البر أنه كان شاعراً، وذكر له من الشعر قوله:

أنا ابن مُزَيْقِيَا عمرٍو، وجدّي أبوه عامرٌ ماءُ السَّماءِ[1]

۞ ۞ ۞

وُلِد عُبَادة قبل البعثة النبوية بخمس وعشرين سنة، وذلك هو مقتضى تحديد عمره حين وفاته في عام ٣٤هـ باثنتين وسبعين سنة[2].

ونشأ في يثرب كما ينشأ نظراؤه وقرناؤه، متنقّلاً بين الماء والخضراء لهواً ومتعة، وبين البحر والصحراء ممارسة ومراناً، حتى استدَّ ساعدُه وصلب عودُه وتربّع على أريكة الشباب.

وقد شاء الله تعالى أن يمنحه مما يمتاز به الرجال ما يجعله مطمح العيون والأنظار، فحباه جمال الجسم وحصافة العقل وسداد الرأي وبُعد الغور وعمق النظر، فكان في صفاته الخَلقية والخُلقية من الشباب الذين يشار إليهم بالبنان، وقد وصفه مؤرخوه بأنه «كان طويلاً جسيماً جميلاً»[3].

---

(١) يراجع في ترجمة أوس: سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٥١ وطبقات خليفة: ١/ ٢٢٠ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٩٤ والمحبر: ٧١ والاستيعاب: ١/ ٤٩ ـ ٥٠ والإصابة: ١/ ٩٧.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٩٤ و٧/ق ٢/ ١١٤ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٥١ والاستيعاب: ٢/ ٤٤٢ وأسد الغابة: ٣/ ١٠٧ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٤ ومجمع الزوائد: ٩/ ٣٢٠.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٩٤ و٧/ق ٢/ ١١٣ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٥١ وأسد الغابة: ٣/ ١٠٧ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٤ والإصابة: ٢/ ٢٦٠.

وتزوَّج عبادة في حياته مرتين:

أُولاهما: زواجه بـ«جميلة بنت أبي صعصعة ـ واسمه عمرو ـ بن زيد بن عوف بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن بن النجار. وأُمُّها أنيسة بنت عاصم بن عمرو بن عوف بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن بن النجار»[١]، وهي أُمُّ الوليد بن عبادة، وقد «أسلمتْ جميلة وبايعتْ رسول الله (ص)»[٢].

وثانيتهما: زواجه بـ«أُمّ حَرام بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جُنْدَب بن عامر بن غنم بن عديّ بن النجار. وأُمُّها مليكة بنت مالك بن عديّ بن زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار»[٣]، وهي أُمُّ محمد بن عبادة، وقد «أسلمت أمُّ حرام وبايعت رسول الله (ص)»[٤]، و«كان رسول الله (ص) يكرمها ويزورها في بيتها، ويقيل عندها، وأخبرها أنها شهيدة»[٥]، و«كانت من علية النساء»[٦].

خرجت مع زوجها لمَّا توجَّه إلى الجهاد في سبيل الله، «فلما جاز البحر ركبتْ دابَّةً فصرعَتْها فقتلتها، وكانت تلك الغزوة غزوة قبرس، فدُفنتْ فيها... وذلك سنة سبع وعشرين»[٧].

(١) طبقات ابن سعد: ٣٠/ق ٢/ ٩٤ و٥/ ٥٧ و٨/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥.
(٢) طبقات ابن سعد: ٨/ ٣٠٥.
(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٩٤ و٨/ ٣١٨ وجمهرة أنساب العرب: ٣٥١ وأسد الغابة: ٥/ ٥٧٤.
(٤) طبقات ابن سعد: ٨/ ٣١٨.
(٥) الاستيعاب: ٤/ ٤٢٤ وأسد الغابة: ٥/ ٥٧٤.
(٦) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٢٩.
(٧) طبقات ابن سعد: ٨/ ٣١٩ والاستيعاب: ٤/ ٤٢٤ وأسد الغابة: ٥/ ٥٧٤ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٣٠ والإصابة: ٤/ ٤٢٤.

ورُزِق عُبادة من الأولاد:

١ ـ الوليد، وبه كان يكنى، وقد ولد في أواخر حياة النبي (ص)، وتوفي بالشام أيام خلافة عبد الملك بن مروان، وكان كثير الحديث[١]، وكان عبادة بن الوليد محدِّثاً أيضاً. وقال ابن حزم: «وكان من ولد عبادة بن الصامت قوم يسكنون بالمدينة عندنا بباب العطَّارين بقُرطبة يُعْرَفون ببني هارون»[٢].

٢ ـ محمد، «ومن ولده: أبو منيع الوليد بن داوود بن محمد بن عبادة بن الصامت، وأخوه النعمان بن داوود محدِّث روى عنه أبو نعيم»[٣].

٣ ـ عبد الله.

٤ ـ داوود[٤].

(١) طبقات ابن سعد: ٥/٥٨.

(٢) جمهرة أنساب العرب: ٣٥٤.

(٣) جمهرة أنساب العرب: ٣٥٤.

(٤) ورد ذكره وذكر أخيه عبد الله في الإصابة: ٢/٢٦٠.

وبعث الله تعالى محمداً (ص) برسالة الإسلام ليُخْرِجَ الناسَ من الظلمات إلى النور.

وكان النبي (ص) يحضر المواسم التي تجتمع فيها العرب بمكة، فيتصل بالقبائل «يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبي مُرسَل، ويسألهم أنْ يصدِّقوه ويمنعوه حتى يبيِّن لهم ما بعثه الله به»[١].

وخرج رسول الله (ص) ذات يوم من مكة «فمرَّ على نفرٍ من أهل يثرب نزولٍ بمنى ثمانية نفر؛ منهم... عبادة بن الصامت... فعرض عليهم رسول الله (ص) الإسلام فأسلموا» وذلك قبل ما يُعْرَف بالعقبة الأولى[٢].

ثم لقي (ص) عند العقبة في موسم آخر رهطاً من الخزرج فحدَّثهم وكلَّمهم، «فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدَّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام»[٣]، «حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسمَ من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوه بالعقبة ـ وهي العقبة الأولى ـ فبايَعُوا

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٦٤.

(٢) طبقات ابن سعد: ١/ق ١/ ١٤٧. وقال الحافظ ابن عبد البر في ترجمة عبادة في الاستيعاب: ٢/ ٤٤٢ «شهد العقبة الأولى والثانية والثالثة».

(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧١.

رسولَ الله (ص)»[١]. وكان منهم عبادة بن الصامت[٢].

ويقول عبادة نفسه وهو يتحدث عن هذه البيعة:

«بايَعْنا رسولَ الله (ص) بيعة الحرب على السمع والطاعة، في عُسْرنا ويُسْرنا؛ ومنشطنا ومكرهنا؛ وأَثَرَةٍ علينا، وأن لا ننازع الأمر أهلَه، وأن نقول بالحق أينما كنَّا؛ لا نخاف في الله لومة لائم»[٣].

ثم حدث اللقاء التالي ـ وهو الثالث ـ بينهم وبين النبي (ص) في السنة التالية، وكانوا قد «واعدوا رسول الله (ص) العقبة، من أوسط أيام التشريق»، وحصل اللقاء في الشَعب، «فتكلَّم رسول الله (ص) فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغَّب في الإسلام»، وتمت بيعة الحاضرين له وكانوا (٧٣) رجلاً وامرأتين. ثم طلب رسول الله (ص) منهم أن يختاروا اثني عشر نقيباً «ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس»[٤].

وكان أَحَدَ حضَّار هذه البيعة كسابقتها وأَحَدَ هؤلاء النقباء الاثني عشر المنتخبين: عُبَّادة بن الصامت[٥].

❁ ❁ ❁

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٣ و٩٧.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٣ وطبقات ابن سعد: ١/ق ١/ ١٤٨ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٣٩ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٥٥ و٣٦٨ والاستيعاب: ٢/ ٤٤٢ وأسد الغابة: ٣/ ١٠٦ و١٠٧.

(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ٩٧، وبعضه في تاريخ الطبري: ٢/ ٣٦٨ وأسد الغابة: ٣/ ١٠٧.

(٤) سيرة ابن هشام: ٢/ ٨١ ـ ٨٥.

(٥) سيرة ابن هشام: ٢/ ٨٦ و١٠٧ وطبقات خليفة: ١/ ٢٢٠ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٩٤ و١٤٨ و٧/ق ٢/ ١١٣ وصحيح البخاري: ٥/ ٧٠ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٥١ والمحبر: ٢٧٠ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٦٨ والاستيعاب: ٢/ ٤٤٢ وأسد الغابة: ٣/ ١٠٦ و١٠٧ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ١ ومجمع الزوائد: ٩/ ٣٢٠ والإصابة: ٢/ ٢٦٠.

وأمر الله تعالى ـ رسوله الكريم ـ على أثر ذلك ـ بالهجرة إلى المدينة المنوَّرة لبناء الدولة الجديدة، والانطلاق من ثَمَّ بثباتٍ وقوة نحو الدعوة إلى الله ونشر الإسلام وإسماع البشرية صوت الحقِّ والخلود متمثلاً في آي الذكر الحكيم والفرقان القويم.

وتمت الهجرة الشريفة إلى يثرب، وبدأت الخطوات العملية باتجاه الهدف المنشود. وكانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار إحدى الوسائل التي توسَّل بها النبي (ص) لتدعيم وحدة الكلمة ورصِّ الصفوف ومنع الفرقة والاختلاف.

وهكذا أصبح أبو مرثد الغنوي حليف حمزة بن عبد المطلب وعبادة بن الصامت أخوين في الله[1]، في جملة مَنْ شملتهم تلك المؤاخاة البنَّاءة الحكيمة.

ثم شرع النبي (ص) بعد اطمئنانه على الجبهة الداخلية في اتخاذ الأُهبة وإعداد العُدَّة لطوارىء الحرب ومفاجآت الأعداء ومغامراتهم العسكرية.

ولم يدم الانتظار والترقب بالمسلمين طويلاً، فقد كان حقد قريش أقوى من صوت العقل والمنطق. وسرعان ما اشتعل ضرام الحرب، وتوالت المعارك، وتتابعت الغزوات. وكان المشركون كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله وردَّهم بغيظهم لم ينالوا خيراً.

وشارك عبادة بن الصامت في تلك المعارك المقدسة مشاركة الجنديّ المخلص الشجاع، وشهد المشاهد كلَّها مع رسول الله (ص)[2].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٣٢ وق٢/ ٩٤ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٧٠ والمحبر: ٧١ والاستيعاب: ٢/ ٤٤٢ وأسد الغابة: ٣/ ١٠٦ والإصابة: ٢/ ٢٦٠.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٠٧ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٩٤ و١٤٨ و٧/ق ٢/ ١١٣ والاستيعاب: ٢/ ٤٤٢ وأسد الغابة: ٣/ ١٠٦ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ١ والإصابة: ٢/ ٢٦٠.

وكانت مشاركته الأولى في معركة بدر الكبرى[١] أعظم حروب الإسلام وأكثرها إيلاماً لأعداء الله، وقد أُبلي فيها بلاء حسناً حتى عُدَّ «من أعيان البدريين»[٢].

وفي غزوة بني قينقاع اليهود، لمَّا قام عبد الله بن أُبَيٍّ بن سَلول دونهم وتَشبَّث بأمرهم، «مشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله (ص) ـ وكان أحَدَ بني عوف، لهم من حِلْفه مثل الذي لهم من عبد الله بن أُبيّ ـ فَخَلَعَهم إلى رسول الله (ص)، وتبَّرأ إلى الله عز وجل وإلى رسول الله (ص) من حلفهم وقال: يا رسول الله؛ أتولَّى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حِلْف هؤلاء الكفار وولايتهم»[٣]، «فنزلتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ﴾ [المائدة: ٥١] ـ الآية[٤]».

وسار إليهم رسول الله (ص) بعدما أظهروا البغي ونبذوا العهد، «للنصف من شوال، على رأس عشرين شهراً من مهاجره»، وقيل: سنة ثلاث من الهجرة، فحاصرهم أشدَّ الحصار، حتى قذف الله في قلوبهم الرعب، فنزلوا على حكم رسول الله (ص)، فأمر بإجلائهم عن المدينة، «وولَّى إخراجَهم منها عبادةَ بن الصامت»، «فمضى بهم حتى بلغ بهم ذِبَابَ» ثم لحقوا بأذرعات[٥].

❀ ❀ ❀

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٥١ وطبقات خليفة: ١/ ٢٢٠ وصحيح البخاري: ٥/ ٧٠ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٩٤ و١٤٨ و٧/ق ٢/ ١١٣ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٥١ والاستيعاب: ٢/ ٤٤٢ وأسد الغابة: ٣/ ١٠٦ و١٠٧ والإصابة: ٢/ ٢٦٠.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢/ ١.

(٣) سيرة ابن هشام: ٣/ ٥٢ ودلائل النبوة: ٣/ ١٧٤ ـ ١٧٥. والإصابة ٢/ ٢٦٠.

(٤) الإصابة: ٢/ ٢٦٠.

(٥) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٢٠ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٨١.

وذكر المؤرخون من جملة أعمال عُبَادة في العهد النبوي: استعمال النبي (ص) إياه على بعض الصدقات[١].

وكان من جملة أعماله أيضاً: تعليمه أهلَ الصفَّة القرآنَ[٢].

كما كان من جملة إنجازاته أيضاً: جَمْعُ القرآن في زمن النبي (ص)، وهو واحد من خمسة من الأنصار جمعوا القرآن يومذاك[٣].

---

(١) أسد الغابة: ٣/١٠٦.

(٢) أسد الغابة: ٣/١٠٦.

(٣) طبقات ابن سعد: ٢/ق ٢/١١٣ و١١٤ وأسد الغابة: ٣/١٠٦ وسير أعلام النبلاء: ٢/٢ و٢٤٨ والإصابة: ٢/٢٦٠.

وفُجِع المسلمون بوفاة نبيِّهم وانقطاع وحي السماء عنهم أعظم الفجيعة، وأصابهم من وقع الصدمة وهول المصيبة ما يعجز القلم عن تصويره.

ووقع أثر ذلك ما وقع ممَّا لا مجال لبيانه في هذه العجالة. وصدق ربُّ العزة إذ قال وهو أصدق القائلين: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

ومع أن المؤرخين لم يذكروا لعُبَادة موقفاً معيَّناً أو مشاركة فَعَّالة في اجتماع سقيفة بني ساعدة يوم وفاة النبي (ص)، ولم يرووا عنه رأياً فيما حدث يومذاك وفيما أسفرتْ عنه الأحداث من نتائج. إلاَّ أنَّ ابن أبي طاهر يروي عن الصحابي المعروف البَرَاء بن عازب قوله:

«لمَّا قُبِض رسول الله (ص) تخوَّفتُ أن تتمالأ قريش على إخراج هذا الأمر من بني هاشم، فأخذني ما يأخذ الواله العجول... فمكثتُ أُكابد ما في نفسي. فلمَّا كان بليلٍ خرجتُ إلى المسجد، فلمَّا صرتُ فيه تذكَّرتُ أني كنتُ أسمع همهمةَ رسول الله (ص) بالقرآن، فامتنعتُ من مكاني، فخرجتُ إلى الفضاء فضاء بني بياضة، وأجد نفراً يتناجون، فلما دنوتُ منهم سكتوا، فانصرفتُ عنهم، فعرفوني وما أعرفهم، فدعوني إليهم فأتيتُهم، فأجد المقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت وسلمان

الفارسي وأبا ذرّ وأبا الهيثم بن التيهان وحذيفة بن اليمان، وإذا هم يريدون أن يعود الأمر شورى. . . إلخ»[١].

وإذا كنَّا نريد التعليق باختصارٍ على معطيات هذا النص وأبعاده فإن أول ما يصرِّح به ويؤكِّده: أن هؤلاء الصحابة البارزين المعروفين في تاريخ الإسلام كانوا غير قادرين على بيان آرائهم إلاَّ همساً وسرّاً؛ خوفاً من أن يصيبهم ما أصاب المجاهرين بالرأي من أذىً واعتداء. وأن ثاني ما ينطق به ويدل عليه أنهم لم يكونوا على رضاً بما وقع؛ ولم يقرّوا بصحة ذلك وسلامته من الشوائب، ولهذا كانوا يريدون أن يعيدوا الأمر شورى بين المسلمين؛ بعيداً عن كل المؤثِّرات والملابسات التي تخلّ بحرية الشورى ومعناها الأصيل.

❁ ❁ ❁

وعلى الرغم ممَّا علمناه من رأي عبادة فيما وقع وعدم اعترافه بصوابه؛ فإن ذلك لم يقعد به عن التعاون المخلص والعمل الجادّ في سبيل إعلاء كلمة الله ورفع راية الحقِّ وبسط هيمنة الإسلام على أرجاء المعمورة.

ومن هذا المنطلق كانت:

مشاركته في معارك اليرموك[٢].

ومشاركته في حروب فتح مصر، «وكان أمير ربع المدد»[٣].

ومشاركته في حروب فتح عمّورية في سنة ٢٣هـ[٤].

---

(١) نثر الدر: ١/ ٤٠٠ ـ ٤٠١ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ٥١ ـ ٥٢ نقلاً من نثر الدر.
(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٠١.
(٣) الإصابة: ٢/ ٢٦٠.
(٤) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٤١.

ومشاركته في فتح قبرس في سنة ٢٨هـ[١].

وروى المحدِّثون والمؤرخون أن أهل الشام كانوا قد طلبوا من الخليفة عمر أن يرسل إليهم مَنْ يعلِّمهم القرآن ويفقِّههم في الدين، بعد أن بلغ المسلمون هناك من الكثرة حدّاً يدعو إلى المزيد من المقرئين والمعلِّمين. فأرسل الخليفة ثلاثة من فقهاء المسلمين هم: عبادة بن الصامت ومعاذ بن جَبَل وأبو الدرداء؛ للقيام بهذه المهمَّة[٢]، «وأقام عبادة بحمص، وأقام أبو الدرداء بدمشق، ومضى معاذ إلى فلسطين»[٣].

❁ ❁ ❁

وكانت إقامة عُبَادة في بلاد الشام ذات جانبَيْن جهاديين في سبيل الله:

الجانب الأول: تعليم الناس القرآن؛ وتفقيههم في الدين؛ والخطابة فيهم أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وقد أشار ابن الأثير إلى خطبةٍ له يحذِّر فيها من الرِّبا[٤].

الجانب الثاني: مراقبة أعمال حكَّام تلك البلاد؛ وإنكار أيّ منكر يرتكبه أولئك الحكَّام أو يرضون بفعله. وقد أدَّى ذلك إلى حدوث صدام عنيف بينه وبين معاوية يوم كان الثاني والياً على الشام، لأن عبادة لم يكن يقرّ بعض أفعال معاوية وتصرفاته.

---

(١) فتوح البلدان: ١٥٨ ـ ١٥٩ وتاريخ الطبري: ٢٥٨/٤.
(٢) طبقات ابن سعد: ٢/ق ٢/ ١٤ والاستيعاب: ٢/ ٤٤٢ وأسد الغابة: ٣/ ١٠٦ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٢ و٢٤٨.
(٣) الاستيعاب: ٢/ ٤٤٢ وأسد الغابة: ٣/ ١٠٦ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٤٨.
(٤) أسد الغابة: ٣/ ١٠٧.

وقد روى المؤرخون: «أن عبادة أنكر على معاوية شيئاً»، «فأغلظ له معاوية في القول. فقال له عبادة: لا أُساكنك بأرض واحدة أبداً».

«فرحل إلى المدينة، فقال له عمر: ما أقْدَمَك؟، فأخبره. فقال: ارجع إلى مكانك، فقبح اللهُ أرضاً لستَ فيها ولا أمثالك. وكتب إلى معاوية: لا إمْرَة لك على عبادة»[1].

وعاد عُبَادة إلى الشام مرةً أخرى «ولا إمرة لمعاوية عليه» كما قرَّر الخليفة، وعاد إلى إنكار كل ما خالف الدين وخرج على الشرع وإن كان ذلك من فعل معاوية أو إقراره.

وقد أورد الرواة بعضاً من قصص تلك الخلافات وأسبابها فقالوا:

١ ـ «كان عبادة بن الصامت مع معاوية، فأذَّن يوماً، فقام خطيبٌ يمدح معاوية ويثني عليه، فقام عبادة بترابٍ في يده فحثاه في فم الخطيب. فغضب معاوية، فقال له عبادة: إنك لم تكن معنا حين بايَعْنا رسولَ الله (ص) بالعقبة؛ على السمع والطاعة... وأن نقوم بالحق حيث كنّا، لا نخاف في الله لومة لائم»[2].

٢ ـ «أن عبادة بن الصامت مَرَّت عليه قطارة [أي قافلة من الإبل] وهو بالشام؛ تحمل الخمر، فقال: ما هذه؟ أزَيْتٌ؟ قيل: لا؛ بل خمر يباع لفلان. فأخذ شفرة من السُّوق فقام إليها فلم يذرْ فيها راويةً إلاَّ بقرها. وأبو هريرة إذ ذاك بالشام، فأرسل فلان إلى أبي هريرة فقال: ألا تمسك عنَّا أخاك عبادة، أمَّا بالغدوات فيغدو إلى السوق يفسد على أهل الذمة متاجرهم، وأمَّا بالعشيّ فيقعد في المسجد

(١) الاستيعاب: ٢/٤٤٢ وأسد الغابة: ٣/١٠٦ وسير أعلام النبلاء: ٢/٢.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٢/٢ ـ ٣.

ليس له عمل إلاَّ شتم أعراضنا وعيبنا. فأتاه أبو هريرة فقال: يا عبادة؛ ما لك ولمعاوية! ذَرْه وما حمل. فقال: لم يكن معنا إذ بايَعْنا على السمع والطاعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وألاَّ تأخذنا في الله لومةُ لائم. فسكت أبو هريرة»[١].

٣ ـ «كتب معاوية إلى عثمان: أن عبادة بن الصامت قد أفسد عليَّ الشام وأهله، فإمَّا أن تكفَّه إليك، وإمَّا أنْ أُخلِّي بينه وبين الشام.

«فكتب إليه: أنْ رَحِّلْ عبادة حتى ترجعه إلى داره بالمدينة.

«فدخل على عثمان، فلم يفجَأه إلاَّ به وهو معه في الدار. فالتفت إليه فقال: ما لنا ولك؟.

«فقام عبادة بين ظهراني الناس فقال: سمعتُ رسول الله (ص) يقول: «سَيَلي أُمورَكم بعدي رجالٌ يعرِّفونكم ما تنكرون وينكرون عليكم ما تعرفون، فلا طاعة لمن عصى»[٢].

٤ ـ و«لعبادة قصص متعدِّدة مع معاوية؛ وإنكاره عليه أشياء؛ وفي بعضها رجوع معاوية له؛ وفي بعضها شكواه إلى عثمان منه، تدلُّ على قوَّته في دين الله وقيامه في الأمر بالمعروف»[٣].

وعلى الرغم من كل هذه القضايا والقصص التي رواها الحفاظ المشاهير؛ فإن سيف بن عمر ـ المعروف بالكذب والوضع والتلفيق ـ يزعم أن ابن السوداء أتى الشام فاتَّصل بعُبَادة ليثيره على معاوية، «فتعلَّق به فأتى به معاوية فقال: هذا واللهِ الذي بعث عليك أبا ذرّ»[٤].

(١) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٣ ـ ٤.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٣.
(٣) الإصابة: ٢/ ٢٦٠.
(٤) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٨٣.

وإذا غضضنا النظر عمَّا أثبته التحقيق العلميّ من أسطورة ابن السوداء التي لا ظل لها من حقيقة ولا أساس لها من واقع، فهل يجيز العقل السليم والرأي الحصيف أن يكون رجال الإسلام البارزون وبُنَاتُه المخلصون ـ أمثال أبي ذرّ وعُبَادة وعمَّار ـ لعبة رخيصة بيد يهودي خبيث مضلِّل؛ يحرِّكهم كما يشاء ويسيِّرهم كما يريد؟!

وهل هذا إلاَّ الذي يجب تطهير كتب التاريخ منه؛ لما فيه من كيد لئيم وتشويه مشين ودسٍّ هدَّام؟!!.

❀ ❀ ❀

ويبدو أن خلافات عبادة مع معاوية قد أخذت تشتد وتتفاقم حتى بلغت حدَّ الانفجار الخطير، فاضطرَّ عبادة إلى مغادرة حمص إلى فلسطين[١]؛ والسكنى هناك للقيام بواجب القضاء والفتيا بين المسلمين، وقد عدَّه المؤرخون «أوَّل مَنْ تولَّى قضاء فلسطين»[٢]. وأظن أن إقامته في حمص ثم فلسطين كانت بعد ترحيله إلى المدينة بأمر عثمان.

واستمرتْ إقامته في تلك الديار عدة سنوات، حتى أدركته الوفاة في سنة ٣٤هـ[٣]، فلحق بربِّه تحفُّه الرحمة والرضوان، ودُفِنَ ببيت المقدس، وكان قبره معروفاً هناك[٤] لم تطمسه السنون ولم تعفه القرون.

---

(١) الاستيعاب: ٢/ ٤٤٢ وأسد الغابة: ٣/ ١٠٦ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ١ و٢٤٨.

(٢) الاستيعاب: ٢/ ٤٤٢ وأسد الغابة: ٣/ ١٠٦ والإصابة: ٢/ ٢٦٠.

(٣) طبقات خليفة: ١/ ٢٢٠ و٢/ ٧٧٦ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٩٤ و٧/ ق ٢/ ١١٣ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٥١ والاستيعاب: ٢/ ٤٤٢ وأسد الغابة: ٣/ ١٠٧ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٤ و٥ ومجمع الزوائد: ٩/ ٣٢٠ والإصابة: ٢/ ٢٦٠.
وذكر بعض المؤرخين أنه «قيل: مات سنة ٤٥هـ»، وهو قول مرجوح لا يعوَّل عليه، وقال ابن الأثير: «والأول أصح» أي وفاته سنة ٣٤.

(٤) الاستيعاب: ٢/ ٤٤٢ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٥.

من المؤمنين رجال

[١١]

سلمان الخير

سلمان الخير

اسمه ونسبه

هو: «سلمان الخير»[١]؛ و«سلمان ابن الإسلام»[٢]. وكان اسمه قبل ذلك: «مابِه بن بوذخشان بن مورسلان بن بهبوذان بن فيروز بن سهرك، من ولد آب الملك»[٣]، وقيل: «مابه بن بوذخشان بن ده ديره»[٤]، وقيل غير ذلك[٥].

وكان يكنى «أبا عبد الله»[٦].

وأبوه: دهقان قريته؛ كما ذكر ابنُه في حديث إسلامه، ولم نعرف من أمره شيئاً غير ذلك.

---

(١) حلية الأولياء: ١/ ٢٠٧ والمعجم الكبير: ٦/ ٢٨٣ والاستيعاب: ٢/ ٥٣ وأسد الغابة: ٢/ ٣٢٨ وشرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٤ والإصابة: ٢/ ٦٠.

(٢) حلية الأولياء: ١/ ١٨٥ والاستيعاب: ٢/ ٥٤ وأسد الغابة: ٢/ ٣٢٨ وشرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٤ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٣٦٢ والإصابة: ٢/ ٦٠.

(٣) أسد الغابة: ٢/ ٣٢٨.

(٤) تاريخ الطبري: ٣/ ١٧١.

(٥) سير أعلام النبلاء: ١/ ٤٠٣ والإصابة: ٢/ ٦٠.

(٦) طبقات خليفة: ١/ ١٦ وطبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ٥٣ و٦/ ٩ و٧/ق ٢/ ٦٤ وأنساب الأشراف: ١/ ٤٨٧ وتاريخ الطبري: ٣/ ١٧١ وحلية الأولياء: ١/ ١٨٥ والمعجم الكبير: ٦/ ٢٦٠ والاستيعاب: ٢/ ٥٣ وتاريخ بغداد: ١/ ١٦٣ وأسد الغابة: ٢/ ٣٢٨ وشرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٤ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٣٦٢ والإصابة: ٢/ ٦٠.

وأُمُّه: سيدةٌ ثريَّة ذكرها ابنُها في حديث إسلامه، وذكر أنها كانت قد أسلمتْه إلى الكُتَّاب للتعلُّم والدراسة[١].

أمَّا أصله: فقيل من أصبهان[٢]؛ من قريةٍ يقال لها جَيّ[٣]. وقيل: من أهل رامهرمز[٤]. وقيل: من كورسابور[٥]. وقيل: «كان أصل سلمان الفارسي من اصطخر؛ إلاَّ أن أباهم نزل رامهرمز من كور الأهواز»[٦].

والمرويُّ عن سلمان نفسه في حديث إسلامه ـ وسيرد في مكانه من البحث ـ أنه «من أهل أصبهان من أهل قرية يقال لها جَيّ»، ولكن البلاذري يقول: «وقوم يقولون: كان سلمان من أهل أصبهان، وذلك غير ثبت»[٧].

ولعلَّ الجمع بين هذه الروايات المختلفة ما رواه الذهبي من كونه من مواليد رامهرمز؛ وكان أبوه من أصبهان[٨].

❀ ❀ ❀

(١) سير أعلام النبلاء: ١/ ٣٧١ ومجمع الزوائد: ٩/ ٣٤٠.
(٢) طبقات خليفة: ١/ ١٦ وتاريخ الطبري: ٣/ ١٧١ والاستيعاب: ٢/ ٥٤ وتاريخ بغداد: ١/ ١٦٣ وأسد الغابة: ٢/ ٣٢٨ وشرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٤ والإصابة: ٢/ ٦٠.
(٣) طبقات ابن سعد: ٧/ق ٢/ ٦٤ والاستيعاب: ٢/ ٥٣ والمعجم الكبير: ٦/ ٢٨٣ وأسد الغابة: ٢/ ٣٢٨ وشرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٤.
(٤) طبقات خليفة: ١/ ١٦ وطبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ٥٣ و٧/ق ٢/ ٦٤ وصحيح البخاري: ٥/ ٩٠ وتاريخ الطبري: ٣/ ١٧١ والمعجم الكبير: ٦/ ٢٨٣ والاستيعاب: ٢/ ٥٣ وتاريخ بغداد: ١/ ١٦٣ وأسد الغابة: ٢/ ٣٢٨ وشرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٤ والإصابة: ٢/ ٦٠.
(٥) تاريخ الطبري: ٣/ ١٧١.
(٦) أنساب الأشراف: ١/ ٤٨٥.
(٧) أنساب الأشراف: ١/ ٤٨٥.
(٨) سير أعلام النبلاء: ١/ ٣٧١.

لم نعلم متى وُلِد بالتحديد، بل لا نعلم ذلك على وجه التقريب أيضاً. وروى الرواة أنه كان من المعمَّرين، بل بولغ في طول عمره حتى قيل: «عاش سلمان ثلاثمائة وخمسين سنة، فأمَّا إلى مائتين وخمسين فلا يشكّون فيه»[(١)]، و«قيل: إنه أدرك وصيَّ عيسى بن مريم»[(٢)]، وأفرط بعضهم فقال: «يقال أنه أدرك عيسى بن مريم»[(٣)].

وروى ابن حجر عن الذهبي قوله: «وجدتُ الأقوال في سنِّه كلَّها دالةً على أنه جاوز المائتين وخمسين، والاختلاف إنما هو في الزائد»[(٤)].

ولكن الذهبي نفسه رجع عن ذلك وشكَّ فيه فقال:

«ومجموع أمره وأحواله وغزوه وهمته وتصرفه وسَفّه للجريد وأشياء ممَّا تقدَّم؛ ينبىء أنه ليس بمعمَّر ولا هرم، فقد فارق وطنه وهو حدث، ولعله قدم الحجاز وله أربعون سنة أو أقلّ، فلم ينشب أن سمع بمبعث النبي (ص) ثم هاجر، فلعله عاش بضعاً وسبعين سنة، وما أراه بلغ المائة. وقد نقل طولَ عمره أبو الفرج ابن الجوزيّ وغيره، وما علمتُ في ذلك شيئاً يُرْكَنُ إليه. وقد ذكرتُ في تاريخي الكبير أنه عاش مائتين وخمسين سنة، وأنا الساعة لا أرتضي ذلك ولا أُصحِّحه»[(٥)].

وكما جهلنا تاريخ ولادته ومقدار عمره؛ نجهل كذلك كثيراً من شؤون حياته الخاصَّة وروابطه الأُسَريَّة والاجتماعية. وقد ذكر الرواة له

---

(١) تاريخ بغداد: ١/ ١٦٤ وأسد الغابة: ٢/ ٣٣٢ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤٠٣ والإصابة: ٢/ ٦٠.
(٢) تاريخ بغداد: ١/ ١٦٤ والإصابة: ٢/ ٦٠.
(٣) أسد الغابة: ٢/ ٣٣٢ والإصابة: ٢/ ٦٠.
(٤) الإصابة: ٢/ ٦٠.
(٥) سير أعلام النبلاء: ١/ ٤٠٤.

زوجة اسمها «بقيرة»[١] وأنها كانت عنده حتى أدركته المنيَّة[٢]، ولكننا لم نعلم متى كان زواجه بها، ولم نقف على حسبها ونسبها.

وروى بعض المؤرخين أنه تزوَّج امرأة من كندة[٣]، ولم يتضح أنها بقيرة نفسها أو أخرى غيرها.

وكان له من الولد:

١ ـ عبد الله، وبه كان يكنى.

٢ ـ محمد، وله عقب مشهور.

«وما اشتهر من أن سلمان (رض) كان مجبوباً كلامٌ ينقله جهلة الصوفية، ولا أصل له»[٤].

---

(١) هكذا سُمِّيت في طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/٦٦ وحلية الأولياء: ١/١٩٨ والمعجم الكبير: ٦/٢٦٣ ومجمع الزوائد: ٩/٣٤٤. وهي (نفيرة) بالنون والفاء في سير أعلام النبلاء: ١/٤٠٢.

(٢) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/٦٦.

(٣) حلية الأولياء: ١/١٨٥ و١٨٦ والمعجم الكبير: ٦/٢٧٨ والإصابة: ٢/٦٠.

(٤) الدرجات الرفيعة: ٢٢٠.

كان سلمان في أول أمره وعمره مجوسيَّ الدين[1]، شأنه في ذلك شأن عامَّة الفُرْس يومذاك.

ويبدو أنه لم يكن مقتنعاً في قرارة نفسه بدين أهله وقومه، فكان «يقرأ الكتب ويطلب الدين»[2].

وروى ابن عبد البَرِّ: أنه كان «يطلب دين الله تعالى ويتبع مَنْ يرجو ذلك عنده، فدان بالنصرانية وغيرها، وقرأ الكتب، وصبر في ذلك على مشقَّات نالَتْه»[3] كما روي عن أبي هريرة قوله: «كان سلمان صاحبَ الكتابَيْن. قال قتادة: يعني الإنجيل والفرقان»[4].

وكان من خبره في البحث عن الدين الحقِّ ثم إسلامه بعد ذلك ما رواه المؤرخون عنه بأسانيد متعدِّدة، ونورد فيما يأتي نصَّ ذلك بتفصيله:

قال سلمان:

«كنتُ رجلاً فارسيّاً من أهل أصبهان؛ من قريةٍ يقال لها: جَيّ، وكان أبي دهقانَ قريته، وكنتُ أحبَّ خلق الله إليه، لم يزل به حبُّه إياي

---

(١) أنساب الأشراف: ١/ ٤٨٥ وأسد الغابة: ٢/ ٣٢٨.

(٢) طبقات ابن سعد: ٦/ ٩ وتاريخ بغداد: ١/ ١٦٤.

(٣) الاستيعاب: ٢/ ٥٤.

(٤) الاستيعاب: ٢/ ٥٦ وشرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٦.

حتى حبسني في بيته كما تُحْبَس الجارية. واجتهدتُ في المجوسيَّة حتى كنتُ قَطَنَ النار [أي خادمها الذي يخدمها ويمنعها أن تخبو] الذي يوقدها؛ لا يتركها تخبو ساعةً».

«وكانت لأبي ضَيعة عظيمة، فشُغِل في بنيانٍ له يوماً فقال لي: يا بُنَيَّ؛ إني قد شُغِلتُ في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي فاذهبْ إليها فاطَّلِعْها، وأمرني فيها ببعض ما يريد، ثم قال لي: ولا تحتبسْ عنّي؛ فإنك إن احتبستَ عني كنتَ أهمَّ إليَّ من ضَيعتي، وشغلتَني عن كل شيء من أمري».

«قال: فخرجتُ أُريد ضيعته التي بعثني إليها، فمررتُ بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعتُ أصواتهم فيها وهم يصلّون، وكنتُ لا أدري ما أمْرُ الناس لحبس أبي إياي في بيته. فلما سمعتُ أصواتهم دخلتُ عليهم أنظر ما يصنعون، فلمَّا رأيتهم أعجبَتْني صلاتُهم ورغبتُ في أمرهم وقلتُ: هذا واللهِ خيرٌ من الدين الذي نحن عليه، فواللهِ ما برحتُهم حتى غربت الشمس، وتركتُ ضيعة أبي فلم آتِها. ثمَّ قلتُ لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام».

«فرجعتُ إلى أبي وقد بعث في طلبي، فلما جئتُه قال: أيّ بنيَّ؛ أين كنتَ؟ أوَ لم أكن عهدتُ إليك ما عهدتُ؟. قلتُ له: يا أبت مررتُ بأُناسٍ يصلّون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيتُ من دينهم، فواللهِ ما زلتُ عندهم حتى غربت الشمس. قال: أيْ بنيَّ ليس في ذلك الدين خير، دينُك ودين آبائك خيرٌ منه. قلتُ له: كلّا والله، إنه لَخيرٌ من ديننا. فخافني فجعل في رجليَّ قيداً ثم حبسني في بيته».

«قال: وبعثتُ إلى النصارى فقلتُ لهم: إذا قَدِم عليكم ركبٌ من الشام فأخبروني بهم. فقدم عليهم ركبٌ من الشام تجارٌ من النصارى،

فأخبروني بهم، فقلت لهم: إذا قَضَوا حوائجهم وأرادوا الرجعةَ إلى بلادهم فآذِنُوني بهم. فلمَّا أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم، فألقيتُ الحديدَ من رجليَّ ثم خرجتُ معهم حتى قدمتُ الشام، فلمَّا قدمتُها قلتُ: مَنْ أفضلُ أهل هذا الدين عِلماً؟ قالوا: الأُسقُف في الكنيسة. فجئتُه فقلتُ له: إني قد رغبتُ في هذا الدين فأحببتُ أن أكون معك وأخدمك في كنيستك فأتعلَّم منك وأصلّي معك. قال: ادخُلْ، فدخلتُ معه، وكان رجلَ سوءٍ يأمرهم بالصدقة ويرغِّبهم فيها، فإذا جمعوا إليه شيئاً منها اكتنزه لنفسه ولم يُعطِه المساكين، حتى جمع سبع قِلال من ذهب ووَرِق. فأبغضتُه بغضاً شديداً لما رأيتُه يصنع. ثم مات فاجتمعتْ إليه النصارى ليدفنوه، فقلتُ لهم: إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغِّبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يُعطِ المساكين منها شيئاً. فقالوا لي: وما عِلمُك بذلك؟ قلتُ لهم: أنا أدلُّكم على كنزه... فأريتُهم موضعه فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهباً وورِقاً، قالوا: واللهِ لا ندفنه أبداً، فصلبوه ورجموه بالحجارة، وجاؤوا برجلٍ آخر فجعلوه مكانه... فما رأيتُ رجلاً... أفضل منه وأزهد في الدنيا؛ ولا أرغب في الآخرة؛ ولا أدْأب ليلاً ونهاراً منه. فأحببتُه حبّاً لم أُحبَّه شيئاً قبله، فأقمتُ معه زماناً طويلاً. ثم حضرتْه الوفاة فقلتُ له: يا فلان؛ إني كنتُ معك وأحببتُك حبّاً لم أحبَّه شيئاً قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى فإلى مَنْ توصي بي؟ وبِمَ تأمرني؟ قال: أي بنيّ؛ واللهِ ما أعلم اليوم أحداً على ما كنتُ عليه ـ فقد هلك الناسُ وبدَّلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه ـ إلاَّ رجل بالمَوْصِل وهو فلان، وهو على ما كنتُ عليه، فالحقْ به».

«قال: فلمّا مات وغُيِّب لحقتُ بصاحب الموصل، فقلتُ له: يا فلان إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره،

فقال لي: أقم عندي. فأقمتُ عنده فوجدته خير رجلٍ؛ على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات. فلمَّا حضرته الوفاة قلتُ له: يا فلان؛ إن فلاناً أوصى بي إليك وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى مَنْ تُوصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: يا بُنيَّ؛ واللهِ ما أعلم رجلاً على مثل ما كنَّا عليه إلاَّ رجلاً بنصيبين وهو فلان فالحقْ به».

«فلما مات وغُيِّب لحقتُ بصاحب نصيبين... فأقمتُ عنده فوجدته على أمر صاحبَيْه، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلمَّا حُضِر قلتُ له... إلى مَنْ توصي بي؟ وبِمَ تأمرني؟ قال: يا بنيَّ؛ واللهِ ما أعلمه... إلاَّ رجلاً بعَمُّورية من أرض الروم... فلمَّا مات وغُيِّب لحقتُ بصاحب عمُّورية... فأقمتُ عند خير رجلٍ على هَدْي أصحابه وأمرهم، واكتسبتُ حتى كانت لي بقرات وغُنَيْمَة. ثم نزل به أمرُ الله تعالى، فلما حُضِر قلتُ له... إلى مَنْ توصي بي؟ وبِمَ تأمرني؟، قال: أي بنيَّ؛ قد أظلَّ زمانُ نبيٍّ، وهو مبعوث بدين إبراهيم(ع)، يخرج بأرض العرب، مهاجرُه إلى أرضٍ بين حَرَّتَيْن بينهما نخلٌ، به علامات لا تخفى: يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة؛ وبين كتفيه خاتم النبوة. فإن استطعتَ أن تلحق بتلك البلاد فافعلْ».

«قال: ثم مات وغُيِّب، ومكثتُ بعمورية... ثم مرَّ بي نفرٌ من كَلْبٍ تجارٌ، فقلتُ لهم: احملوني إلى أرض العرب وأُعطيكم بَقَراتي هذه وغُنَيْمَتي هذه، قالوا: نعم. فأعطيتموها وحملوني معهم، حتى إذا بلغوا وادي القرى ظلموني فباعوني من رجل يهودي عبداً، فكنتُ عنده، ورأيت النخل فرجوتُ أن يكون البلدَ الذي وصف لي صاحبي. فبينا أنا عنده إذ قَدِم عليه ابنُ عمٍّ له من بني قريظة من المدينة، فابتاعني منه فاحتملني إلى المدينة، فواللهِ ما هو إلاَّ أنْ رأيتُها فعرفتُها بصفة صاحبي، فأقمتُ بها».

«وبُعِث رسولُ الله (ص) فأقام بمكة ما أقام، لا أسمع له بذكرٍ مع ما أنا فيه من شغل الرقّ. ثم هاجر إلى المدينة، فواللهِ إني لفي رَأْسِ عَذْقٍ لسيدي أعمل له فيه بعض العمل، وسيدي جالس، إذ أقبل ابنُ عمٍّ له حتى وقف عليه فقال: يافلان؛ قاتل اللهُ بني قَيْلة، واللهِ إنهم الآن لمجتمعون بقُبَاء على رجلٍ قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبيّ».

«قال سلمان: فلمَّا سمعتُها أخَذَتْني العُرَوَاءُ [وهي الرعدة والانتفاض] حتى ظننتُ أني سأسقط على سيدي، فنزلتُ عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه ذلك: ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة ثم قال: مالك ولهذا؟ اقْبل على عملك، قلتُ: لا شيء؛ إنما أردتُ أن أستثبته عمّا قال».

«وقد كان عندي شيء قد جمعتُه، فلمّا أمسيتُ أخذتُه ثم ذهبت به إلى رسول الله (ص) وهو بقُبَاء، فدخلت عليه فقلتُ له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجةٍ، وهذا شيء قد كان عندي للصدقة، فرأيتُكم أحقَّ به من غيركم. قال: فقرَّبتُه إليه، فقال رسول الله (ص) لأصحابه: كُلوا، وأمسك يده فلم يأكل. فقلتُ في نفسي: هذه واحدة».

«ثم انصرفتُ عنه فجمعتُ شيئاً، وتحوَّل رسول الله (ص) إلى المدينة، ثم جئتُه به فقلتُ له: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هديَّة أكرمتُك بها. قال: فأكل رسول الله (ص) منها وأمر أصحابه فأكلوا معه، فقلتُ في نفسي: هاتانِ ثِنْتانِ».

«ثم جئتُ رسولَ الله (ص) وهو ببقيع الغرقد قد تبع جنازةَ رجلٍ من أصحابه، وعَلَيَّ شملتانِ لي، وهو جالس في أصحابه، فسلَّمتُ عليه ثم استدرتُ أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وَصَف لي صاحبي، فلما

رآني رسول الله (ص) استدبرته عرف أني أستَثْبِتُ في شيء وُصِف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرتُ إلى الخاتم فعرفتُه، فأكببتُ عليه أُقبّله وأبكي. فقال لي رسول الله (ص): «تَحَوَّلْ، فتحوَّلت فجلست بين يديه فقصصتُ عليه حديثي»، فأعجب رسول الله (ص) أن يسمع ذلك أصحابه».

وهكذا أسلم سلمان وغمره نور الإيمان منذ الأيام الأولى للهجرة الشريفة إلى يثرب، ولكنه لم يوفَّق لحضور بدرٍ وأُحُد لرِقِّيَّته التي منعته من ذلك، وقيل: حضرها استخفاءً من مالكه لأنه لم يكن يملك حريته[1].

قال سلمان: ثم قال لي رسولُ الله (ص) ذات يوم: «كاتِبْ يا سلمان. فكاتبتُ صاحبي على ثلاثمائة نخلة أُحييها له وأربعين أوقية. فقال رسول الله (ص) لأصحابه: أعينوا أخاكم. فأعانوني بالنخل، الرجل بثلاثين وَدِيَّةً؛ والرجل بعشرين وديَّة؛ والرجل بخمس عشرة وديَّة؛ والرجل بعشرٍ، يُعين الرجلُ بقدر ما عنده، حتى اجتمعتْ لي ثلاثمائة وديَّة [والوَدِيُّ: فَسِيل النخل]. فقال لي رسول الله (ص): اذهب يا سلمان ففَقِّرْ لها [أي هَيِّءْ مكانَ غرسها]، فإذا فرغت فأْتِني أكنْ أنا أضعها بيدي. ففقَّرْتُ وأعانني أصحابي حتى إذا فرغتُ جئته فأخبرته، فخرج رسول الله (ص) معي إليها، فجعلنا نقرِّب إليه الوديَّ ويضعه رسول الله (ص) بيده حتى فرغنا... فأدَّيتُ النخلَ وبقي عَلَيَّ المال، فأُتي رسول الله (ص) بمثل بيضة الدجاجة من ذهب، من بعض المعادن، فقال: ما فعل الفارسيُّ المُكاتب؟ فدُعِيتُ له، فقال: خذ هذه فأدِّها ممَّا عليك يا سلمان، قلتُ: وأين تقع هذه يا رسول الله ممَّا عَلَيَّ!، فقال:

---

(١) الاستيعاب: ٢/ ٥٥ وشرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٥.

خذها فإن الله سيؤدّي بها عنك. فأخذتها فوزنتُ لهم منها... أربعين أوقيةً فأوفيتُهم حقَّهم منها»[١]، وعتق سلمان وأصبح حرّاً بفضل الإسلام وبركته.

وقال ابنُ عبد البَرِّ:

«وقد رُوِي من وجوه: أن رسول الله (ص) اشتراه... من قوم من اليهود بكذا وكذا درهماً وعلى أن يغرس لهم كذا وكذا من النخيل يعمل فيها سلمان حتى تدرك. فغرس رسول الله (ص) النخل كلَّه إلا نخلة واحدة غرسها عمر، فأطعم النخلُ كله إلاَّ تلك النخلة، فقال رسول الله (ص): «مَنْ غَرَسها؟ فقالوا: عمر. فقلعها رسول الله (ص) وغرسها بيده فأطعمتْ من عامها»[٢].

ويؤيِّد هذه الرواية ذِكْرُ سلمان في عداد موالي رسول الله (ص)[٣]، مما يدل على أن النبي اشتراه لنفسه ثم أعتقه.

❁ ❁ ❁

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٢٢٨ ـ ٢٣٥. وورد الخبر بطوله أيضاً في طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ٥٣ ـ ٥٧ وأنساب الأشراف: ١/ ٤٨٦ ـ ٤٨٧ وحلية الأولياء: ١/ ١٩٠ ـ ١٩٥ والمعجم الكبير: ٦/ ٢٧٢ ـ ٢٧٧ وتاريخ بغداد: ١/ ١٦٥ ـ ١٦٩ وأسد الغابة: ٢/ ٣٢٨ ـ ٣٣٠ وشرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٧ ـ ٣٧ ـ ٣٩ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٣٦٣ ـ ٣٦٧ ومجمع الزوائد: ٩/ ٣٣٢ ـ ٣٣٦. ومختصر منه في سيرة ابن هشام: ١/ ٢٣٦ وطبقات ابن سعد: ٧/ق ٢/ ٦٥ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٣٦٨.

(٢) الاستيعاب: ٢/ ٥٤ ـ ٥٥. ومثله في شرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٥ ومجمع الزوائد: ٩/ ٣٣٧.

(٣) طبقات خليفة: ١/ ١٦ وطبقات ابن سعد: ٦/ ٩ وأنساب الأشراف: ١/ ٤٨٧ وتاريخ الطبري: ٣/ ١٧١ والاستيعاب: ٢/ ٥٣ وأسد الغابة: ٢/ ٣٢٨ وشرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٤.

وأصبح سلمان منذ اليوم على حالٍ أخرى غير التي كان عليها بالأمس.

وإذا كان الرجل قد بادر إلى الإيمان منذ الأيام الأولى للهجرة النبوية إلى المدينة المنوَّرة[(١)]؛ فكان «سابقَ» قومه إلى الإسلام كما وصفه رسول الله (ص)[(٢)]؛ وأخاً لأبي الدَّرداء عُوَيمر بن ثعلبة بأمر رسول الله (ص)[(٣)]، فإن عبوديته لم تكن تسمح له بما كان يهوى من صحبة النبي (ص) وخدمته؛ وبما كان يفرضه عليه إسلامُه من العمل والجهاد في سبيل تثبيت دعائم هذا الدين وحمايته من كل خطرٍ أو عدوان.

أمَّا اليوم؛ وقد تحرَّر من نير الرقيَّة؛ فقد أصبح الرجل المتفرِّغ في كل آنات الليل والنهار لصحبة النبي (ص) ومرافقته وخدمته؛ وبذل النفس والنفيس؛ إحقاقاً للحق وإعلاءً لكلمته.

وكانت أُولى الحروب الإسلامية التي شارك فيها ـ بعد التحرر والانطلاق ـ هي حرب الخندق[(٤)].

وروى المؤرخون: أن النبي (ص) لمَّا بلغه خبر تجمُّع المشركين

---

(١) طبقات ابن سعد: ٩/٦ والمعجم الكبير: ٦/ ٢٦٠ وتاريخ بغداد: ١/ ١٦٣.

(٢) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ٥٩ و٧/ق ٢/ ٦٥ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٣٦٢ و٣٩٢.

(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٥٢ وطبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ٦٠ وصحيح البخاري: ٥/ ٨٨ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٧١ والمحبَّر: ٧٥ والاستيعاب: ٢/ ٥٧ وأسد الغابة: ٢/ ٣٣٠ وشرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٧ والإصابة: ٢/ ٦١.

(٤) طبقات ابن سعد: ٩/٦ وأنساب الأشراف: ١/ ٤٨٧ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٦٦ والمعجم الكبير: ٦/ ٢٦٠ والاستيعاب: ٢/ ٥٥ وتاريخ بغداد: ١/ ١٦٣ وأسد الغابة: ٢/ ٣٣٠ وشرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٥ و٣٧ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٣٩٣ والإصابة: ٢/ ٦٠.

في مكة وعزمهم على التوجُّه إلى المدينة لإطفاء نور الله «ندب المسلمين إلى قتال الأحزاب. وخرج فارتاد لعسكر المسلمين موضعاً، وأشار عليه سلمان بالخندق، ولم تكن العرب تخندق عليها، فجعل سَلْعاً وراء ظهره، وأمر فحُفِر الخندق أمامه»[١]، «وجعل المسلمون يعملون مستعجلين... وعمل رسول الله (ص) معهم... وفرغوا من حفره في ستة أيام»[٢]، ولما رآه المشركون قالوا: «واللهِ إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدُها»[٣].

واختلف المسلمون في سلمان يوم الخندق، وكان سلمان قوياً شديد البأس، فقالت الأنصار: سلمان منَّا، وقال المهاجرون: سلمان منَّا. فأطلق النبي (ص) كلمته الخالدة في سلمان قائلاً:

«سلمان منَّا أهل البيت»[٤].

وروى الطبري في جملة أخبار حفر الخندق عن عمرو بن عوف قوله:

«كنتُ أنا وسلمان وحذيفة بن اليمان والنعمان بن مقرن المزني وستة من الأنصار في أربعين ذراعاً، فحفرنا... حتى بلغنا النَّدى، فأخرج الله عز وجل من بطن الخندق صخرةً بيضاء مَرْوَةً؛ فكسرتْ

(١) أنساب الأشراف: ١/ ٣٤٣. ويراجع في ذلك طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٤٧ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٦٦ وأسد الغابة: ٢/ ٣٣١.

(٢) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٤٧ ـ ٤٨.

(٣) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥ والاستيعاب: ٢/ ٥٥ وشرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٥.

(٤) سيرة ابن هشام: ١/ ٧٢ و٣/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥ وطبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ٥٩ و٧/ق ٢/ ٦٥ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٦٨ والمعجم الكبير: ٦/ ٢٦٠ ـ ٢٦١ ودلائل النبوة: ٣/ ٤٠٠ و٤١٨ وأسد الغابة: ٢/ ٣٣١ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣.

حَديدَنا وشقَّتْ علينا، فقلنا: يا سلمان؛ ارْقَ إلى رسول الله (ص) فأخْبِرْه خَبَرَ هذه الصخرة، فإمَّا أن نعدل عنها فإن المعدل قريب؛ وإمَّا أن يأمرنا فيها بأمره، فإنّا لا نحبُّ أن نجاوز خَطَّه».

«فرقى سلمان حتى أتى رسولَ الله (ص)... فقال: يا رسول الله؛ بأبينا أنت وأُمّنا، خرجت صخرة بيضاء من الخندق... فمُرْنا فيها بأمرك... فهبط رسول الله (ص) مع سلمان في الخندق... فأخذ رسول الله (ص) المعول من سلمان، فضرب الصخرة ضربة صدعها... فكبَّر رسول الله (ص) تكبير فتحٍ وكبَّر المسلمون... ثم ضربها رسول الله (ص) الثانية... ثم ضربها (ص) الثالثة فكسرها»[1].

وشهد سلمان المشاهد كلّها مع رسول الله (ص)، ولم يتخلف عن غزاةٍ من غزواته[2].

وفي غزوة الطائف أشار سلمان على النبي (ص) أن ينصب عليها منجنيقاً، فأمر النبي (ص) المسلمين أن يتعلّموا ذلك من سلمان، فعملوه ونصبوه[3].

❀ ❀ ❀

وقبل أن ينتهي عصر النبوة الزاهر ويفارق النبي (ص) هذه الحياة ملتحقاً بربّه؛ نال سلمان من أوسمة الشرف وقلائد التكريم النبوية ما تقصر عنه أوسمة الأرض وجميع وسائل تكريمها.

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٥٦٨ ـ ٥٦٩.
(٢) أنساب الأشراف: ١/ ٤٨٧ والمعجم الكبير: ٦/ ٢٧٧ والاستيعاب: ٢/ ٥٥ وأسد الغابة: ٢/ ٣٣٠ وشرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٧ والإصابة: ٢/ ٦٠.
(٣) أنساب الأشراف: ١/ ٣٦٦ و٣٦٧.

وكان من تلك الأوسمة الحديثُ المتقدم الذكر:

«سلمان منَّا أهل البيت».

وقوله (ص):

«نزل عَليَّ الروح الأمين فحدَّثني أن الله تعالى يحب أربعة من أصحابي... عليٌّ وسلمان وأبو ذر والمقداد»[١]. وفي لفظ ابن ماجة: «إن الله أمرني بحب أربعةٍ وأخبرني أنه يحبهم.. إلخ»[٢].

وقوله (ص):

«إن الجنة تشتاق إلى ثلاثة: عليّ وعمّار وسلمان»[٣]. وفي لفظ الطبراني: «ثلاثة يُساق إليهم الحور العين: عليّ وعمار وسلمان»[٤].

وقوله (ص):

«لقد أُشْبِع سلمان علماً»[٥].

وقوله (ص):

«سلمان يُبْعَث أُمَّةً»[٦].

وقوله (ص):

«لو كان الدين عند الثريّا (أو: في الثريّا) لناله سلمان»[٧].

---

(١) حلية الأولياء: ١/ ١٩٠ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٣٩٣ والإصابة: ٢/ ٦١.

(٢) سنن ابن ماجة: ١/ ٥٣ والاستيعاب: ٢/ ٥٦ وشرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٦.

(٣) سنن الترمذي: ٥/ ٦٦٧ وأسد الغابة: ٢/ ٣٣١ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٣٩٣ ومجمع الزوائد: ٩/ ٣٤٤.

(٤) المعجم الكبير: ٦/ ٢٦٣.

(٥) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ٦١.

(٦) أنساب الأشراف: ١/ ٤٨٨.

(٧) الاستيعاب: ٢/ ٥٦ وشرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٦.

وكان من آثار هذا الحب النبوي المقدَّس ما روته السيدة عائشة قالت:

«كان لسلمان مجلس من رسول الله (ص) بالليل، حتى كاد يغلبنا على رسول الله»[١].

كما كان من آثار هذا الحبِّ ما ذكره سلمان نفسه قال:

دخلتُ على النبي (ص) صبيحة قبل اليوم الذي توفي فيه، «فقال لي: يا سلمان؛ ألا تسأل عمَّا كابدتُه الليلة من الألم والسهر أنا وعَليٌّ!، فقلتُ: يا رسول الله؛ ألا أسهر الليلة معك بدله؟ فقال: لا؛ هو أحقُّ بذلك منك»[٢].

---

(١) الاستيعاب: ٢/٥٦ وأسد الغابة: ٢/٣٣١ وشرح نهج البلاغة: ١٨/٣٦.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١٠/٢٦٧.

وفُجِع المسلمون فجيعتهم الكبرى بوفاة النبي (ص).

وحدث ما حدث...

وأصبح أبو بكر خليفة المسلمين.

وكان لسلمان فيما وقع يومذاك رأي صريح وموقف ثابت.

فقد أخرج البلاذري بسنده أن سلمان قال «حين بويع أبو بكر: كرداذ وناكر داذ، أي عملتُم وما عملتم، لو بايعوا علياً لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم»[1].

وروى ابن أبي الحديد بسنده عن جرير بن المغيرة: أن سلمان والزبير والأنصار كان هواهم أن يبايعوا علياً (ع) بعد النبي (ص)، فلما بويع أبو بكر قال سلمان: «أصبتم الخبرة وأخطأتم المعدن»، وقال يومئذٍ أيضاً: «أصبتم ذا السنِّ منكم وأخطأتم أهل بيت نبيكم، لو جعلتموها فيهم ما اختلف عليكم اثنان ولأكلتموها رغداً»[2].

وقال ابن أبي الحديد: «كان سلمان من شيعة عليّ (ع) وخاصَّته... وأصحابنا لا يخالفون في أن سلمان كان من الشيعة»[3].

---

(١) أنساب الأشراف: ١/ ٥٩١.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٤٩ و٦/ ٤٣.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٩.

وروى أيضاً: أن علياً (ع) استنجد بالمسلمين عقيب يوم السقيفة وما جرى فيه، وأن عدداً من المسلمين قد أجابه إلى ما دعاهم إليه، «فبايعهم على الموت»، وكان من هؤلاء: «الزبير والمقداد وأبو ذر وسلمان»[(١)].

وحدَّث الصحابي المعروف البَرَاء بن عازب قال:

«لم أزل لبني هاشم محبّاً، فلما قُبض رسول الله (ص) تخوفتُ أن تتمالأ قريش على إخراج هذا الأمر من بني هاشم، فأخذني ما يأخذ الواله العجول، مع ما في نفسي من الحزن لوفاة النبي (ص)... فكنتُ أتردَّد بينهم وبين المسجد، وأتفقَّد وجوهَ قريش، فإني لكذلك إذ فقدتُ أبا بكر وعمر؛ [وإذا قائل يقول: القوم في سقيفة بني ساعدة، وإذا قائل آخر يقول: قد بويع أبو بكر] ثم لم ألبث إذ أنا بأبي بكر قد أقبل في أهل السقيفة، وهم يحتجزون الأُزُر الصَّنعانية، لا يمرُّون بأحدٍ إلاَّ خبطوه وقدَّموه فمدُّوا يده فمسحوها على يد أبي بكر وقالوا له: بايع؛ شاء ذلك أو أبى. فأنكرت عند ذلك عقلي، وخرجت مسرعاً حتى انتهيتُ إلى بني هاشم، والباب مغلق»، «فمكثتُ أُكابد ما في نفسي. ورأيتُ في الليل المقداد بن الأسود وعُبادة بن الصامت وسلمان الفارسي وأبا ذر وأبا الهيثم بن التّيهان وحذيفة بن اليمان، وإذا هم يريدون أن يعود الأمر شورى بين المهاجرين»[(٢)].

وخلاصة القول:

إن الشواهد والنصوص التاريخية دالَّة ـ بما لا يقبل التأويل ـ على

(١) شرح نهج البلاغة: ١١/ ١٤ و١٨/ ٣٩.

(٢) نثر الدر: ١/ ٤٠٠ ـ ٤٠١ نقلاً من المنثور والمنظوم لابن أبي طاهر وشرح نهج البلاغة: ١/ ٢١٩ ـ ٢٢٠ و٢/ ٥١ نقلاً عن نثر الدر، ومنه زدنا ما بين المعقوفين.

أن سلمان كان يرى أن علياً (ع) هو الإمام الأمثل والخليفة المؤهَّل بعد النبي (ص) لقيادة المسيرة الإسلامية التي لا يختلف عليها اثنان ـ على حدِّ تعبيره ـ.

وليس في موقف سلمان هذا ما يبعث على العجب أو الدهشة، وهو الراوي عن النبي (ص) قوله:

«أول هذه الأمة وروداً عَليَّ الحوض أوَّلُها إسلاماً عليٌّ بن أبي طالب»[١].

وهو الراوي عن النبي (ص) أيضاً قوله:

«أخذ رسولُ الله (ص) بيد عليٍّ ـ (رض) ـ فقال: إن هذا أول مَنْ آمَن بي، وهو أول من يصافحني يوم القيامة، وهذا الصِّدِّيق الأكبر، وهذا فاروق هذه الأُمَّة يفرق بين الحق والباطل، وهذا يعسوب المؤمنين»[٢].

وهو الراوي أيضاً عن النبي (ص) قوله في جملة حديثٍ له أخرجه الطبراني بسنده:

«قلتُ: يا رسولَ الله؛ لكل نبيٍّ وَصيٌّ؛ فمَنْ وصيُّك؟.

«فسكت عني. فلمَّا كان بَعْدُ رآني فقال: يا سلمان. فأسرعتُ إليه قلتُ: لبيك. قال: تعلم مَنْ وصيُّ موسى؟، قلتُ: نعم؛ يوشع بن نون. قال: لِمَ؟ قلتُ: لأنه كان أعلمهم.

---

(١) المعجم الكبير: ٦/ ٣٢٥ وشرح نهج البلاغة: ٤/ ١١٧.

(٢) المعجم الكبير: ٦/ ٣٣٠.

«فقال النبي (ص):

«فإن وصيّي وموضعَ سِرّي وخيرَ مَنْ أترك بعدي؛ ينجز عدتي ويقضي دَيْني؛ عليُّ بن أبي طالب»[١].

❀ ❀ ❀

ولما كان سلمان في الطليعة من المؤمنين بالله تعالى وكتابه المنزل ونبيِّه المرسل (ص)، فإن رأيه الخاص بما أسفرت عنه أحداث الخلافة يومذاك لم يثنه عن المشاركة في كل ما يفرضه التكليف الشرعي والواجب الديني من خدمة الإسلام والجهاد في سبيله، فكان من جملة المجاهدين الذين حملهم إيمانهم الصادق وإخلاصهم المصفّى على الانضمام إلى جيوش فتح العراق وبلاد فارس[٢]، لإعلاء كلمة الله ونشر الإسلام في تلك الربوع.

وقد ذكر المؤرخون: أن سلمان كان داعية المسلمين ورائدهم في معركة القادسية وحروب فتح العراق[٣]، وأنهْ كان يساير سعداً لما اقتحم المسلمون الماءَ عند المدائن[٤]، ثم كان في مجموعة الجيش المتقدم على طريق جيلان وجرجان[٥]، وأنه السفير في المفاوضات بين الجيش الإسلامي وأقوامٍ من الفرس كانوا يتحصَّنون في بعض القرى والمدن والحصون[٦]، وكان يقول للفرس في دعائه إياهم والتفاوض معهم: «إني

---

(١) المعجم الكبير: ٦/ ٢٧١.
(٢) تاريخ بغداد: ١/ ١٦٣ والإصابة: ٢/ ٦٠.
(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٨٩ و٤/ ١٤.
(٤) تاريخ الطبري: ٤/ ١١ ـ ١٢ و١٣.
(٥) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٠٥.
(٦) تاريخ الطبري: ٤/ ١١.

منكم في الأصل، وأنا أرِقُّ لكم، ولكم في ثلاثٍ أدعوكم إليها ما يصلحكم: أن تُسْلموا فإخوانُنا لكم مالنا وعليكم ما علينا؛ وإلاَّ فالجزية؛ وإلاَّ نابذناكم على سواء»[١].

وروى الرواة: أن الخليفة عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبي وقَّاص بعد فتح المدائن كتاباً جاء فيه:

«إن العرب لا يوافقها إلاَّ ما وافق إبلَها من البلدان، فابعث سلمان رائداً وحذيفة ـ وكانا رائديْ الجيش ـ فليرتادا منزلاً برّياً بحريّاً، ليس بيني وبينكم فيه بحرٌ ولا جسر».

«فبعث سعدٌ حذيفةَ وسلمان، فخرج سلمان حتى أتى الأنبار، فسار في غربيِّ الفرات لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة. وخرج حذيفة في شرقيِّ الفرات لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة... فأعجبَتْهما البقعة، فنزلا فصَلَّيَا»[٢].

و«قدم سلمان وحذيفة على سعدٍ وأخبراه عن الكوفة... فارتحل سعد بالناس من المدائن حتى عسكر بالكوفة»[٣].

وعندما عزم سعد على المضيِّ إلى الكوفة والاستقرار فيها، دعا سلمانَ «فاستخلفه على المدائن وأوصاه بحفظ الغنائم»[٤].

ثم كتب الخليفة بعد ذلك إلى سعدٍ يأمره «أن يولّي سلمان المدائن وما والاها»[٥] فأصبح أمير المدائن[٦].

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ١٤.
(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٤١.
(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٢.
(٤) فتوح ابن أعثم: ١/ ٢٧٩.
(٥) فتوح ابن أعثم: ١/ ٢٨٦.
(٦) طبقات ابن سعد: ٧/ق ٢/ ٦٥ والإصابة: ٢/ ٦٠.

وكان أميراً ليس كالأمراء.

ومع أن عطاء سلمان من ديوان الخلافة كان خمسة آلاف[١]؛ لأن الخليفة قد ألحقه بأهل بدر[٢]، فإنه كان ينفق عطاءه كله في سبيل الله ويأكل من عمل يديه[٣]، وروى المؤرخون: أن قوماً دخلوا على سلمان «وهو أمير على المدائن، وهو يعمل الخوص، فقيل له: تعمل هذا وأنت أمير يجرى عليك رزق؟، فقال: إني أُحبُّ أن آكل من عمل يدي.. وذكر أنه تعلَّم عمل الخوص بالمدينة من الأنصار عند بعض مواليه»[٤].

وروى ابن سعد بسنده عن النعمان بن حميد قال:

«دخلتُ مع خالي على سلمان بالمدائن وهو يعمل الخوصَ، فسمعتُه يقول: أشتري خوصاً بدرهم فأعمله فأبيعه بثلاثة دارهم، فأُعيد درهماً فيه وأُنفق درهماً على عيالي وأتصدَّق بدرهم»[٥].

وعلى الرغم من كونه «أميراً على زهاء ثلاثين ألفاً من المسلمين» فإنه كان «يخطب الناس في عباءةٍ يفترش بعضها ويلبس بعضها»[٦].

وقابل جمهورُ المسلمين هذا المنهجَ «السلماني» الممتاز؛ والسلوك العظيم المدهش؛ والزهد الصادق المتشدِّد، بالحبِّ والتقدير والتقديس. وذكر الرواة أن الخليفة عمر بن الخطاب كان يحترم سلمان كثيراً ويسره

---

(١) حلية الأولياء: ١/ ١٩٨ وتاريخ الطبري: ٣/ ٦١٤ والاستيعاب: ٢/ ٥٥ وأسد الغابة: ٢/ ٣٣١ وشرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٥ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٣٩٧.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٦١٤.

(٣) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ٦٢ وحلية الأولياء: ١/ ١٩٨ وأسد الغابة: ٢/ ٣٣١ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٣٩٧ والإصابة: ٢/ ٦١.

(٤) الاستيعاب: ٢/ ٥٥ وشرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٥.

(٥) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ٦٢ و٦٤.

(٦) حلية الأولياء: ١/ ١٩٨ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٣٩٧.

أن يعرف رأيه فيه وتقويمه لعمله، وقد أخرج ابن سعد بسنده: «أن سلمان لمَّا قدم على عمر قال للناس: اخرجوا بنا نتلقَّ سلمان»[١]، كما روى الطبري بسنده أن عمر سأل سلمان يوماً: «أمَلِكٌ أنا أم خليفة؟ فقال له سلمان: إنْ أنتَ جبيتَ من أرض المسلمين درهماً أو أقلَّ أو أكثر؛ ثم وضعتَه في غير حقِّه فأنت مَلِكٌ»[٢].

وأُثِر عن عليٍّ (ع) في سلمان قوله:

«كان بحراً لا يُنْزَف»[٣]، وفي لفظ آخر: «أدرك العلمَ الأوَّل والعلمَ الآخِر، بحرٌ لا يُنْزَح قعرُه، منَّا أهل البيت»[٤]، وفي لفظ ثالث: «أُوتي العلم الأول والعلم الآخر، لا يُدْرَك ما عنده»[٥]، وفي لفظ أبي نعيم: «مَنْ لكم بمثل لقمان الحكيم، ذاك امرؤ منَّا وإلينا أهل البيت، أدرك العلم الأول والعلم الآخر، وقرأ الكتاب الأول والكتاب الآخر، بحرٌ لا يُنْزَف»[٦].

وامتدت الإقامة بسلمان في المدائن بقيَّة أيام حياته، وإنْ تخلَّل ذلك نزولُه الكوفة بعض الوقت[٧]؛ ومكثُه في البصرة بعض الوقت أيضاً[٨].

ثم أزفت ساعة الرحيل إلى الله والقدوم عليه، فاستجاب داعي

---

(١) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ٦١.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٢١١.

(٣) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ٦١.

(٤) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ١٠٧ والمعجم الكبير: ٦/ ٢٦١ والاستيعاب: ٢/ ٥٦ وأسد الغابة: ٢/ ٣٣١ وشرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٦.

(٥) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ٦١.

(٦) حلية الأولياء: ١/ ١٨٧ والمعجم الكبير: ٦/ ٢٦٢ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٣٩٥.

(٧) طبقات خليفة: ١/ ١٦ و٣١٥ وطبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ٦٠ و٦/ ٩.

(٨) طبقات خليفة: ١/ ٤٤٦.

ربه، وذهب إلى جنَّات الخلد راضياً مرضياً، تشيِّعه أعماله الزاكيات الصالحات، وتحوطه الرحمة والمغفرة والبركات.

وروى أبو نعيم: «أن سلمان لما حضرته الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: عهدٌ عهده إلينا رسول الله (ص) قال: ليكن بلاغ أحدكم كزاد الراكب».

فلما مات سلمان «نظروا في بيته فلم يروا في بيته إلاَّ أكافاً ووطاءً ومتاعاً قُوِّم نحواً من عشرين درهماً»(١).

واختلف المؤرخون في سنة وفاته، فقيل: كانت في أول سنة ٣٦هـ(٢)، وقيل: في سنة ٣٥هـ(٣)، وقيل: في خلافة عثمان بلا تعيين عام(٤)، وقيل: في سنة ٣٢ أو ٣٣هـ(٥)، وقيل: في خلافة عمر في آخرها(٦).

وإذا جاز لي أن أُدلي بدلوي في تحديد تاريخ الوفاة؛ فإني أرجح القول الأخير في أواخر أيام خلافة عمر، لأننا لم نجد في المصادر المعنيَّة أيّ نص يدل على معاصرة سلمان لخلافة عثمان، توليةً أو عزلاً؛ مدحاً أو ذمّاً؛ اتصالاً أو قطيعة.

---

(١) حلية الأولياء: ١/١٩٦.

(٢) طبقات خليفة: ١/١٦ والاستيعاب: ٢/٥٨ وأسد الغابة: ٢/٣٣٢ وشرح نهج البلاغة: ١٨/٣٧ وسير أعلام النبلاء: ١/٤٠٣ والإصابة: ٢/٦١ والدرجات الرفيعة: ٢٢٠.

(٣) الاستيعاب: ٢/٥٨ وأسد الغابة: ٢/٣٣٢ وشرح نهج البلاغة: ١٨/٣٧ والدرجات الرفيعة: ٢٢٠.

(٤) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/٦٧ و٦/٩ و٧/ق ٢/٦٥ وأنساب الأشراف: ١/٤٨٧ وتاريخ بغداد: ١/١٦٤ وسير أعلام النبلاء: ١/٤٠٣.

(٥) سير أعلام النبلاء: ١/٤٠٣ والإصابة: ٢/٦١.

(٦) الاستيعاب: ٢/٥٨ ـ ٥٩ وأسد الغابة: ٢/٣٣٢ وشرح نهج البلاغة: ١٨/٣٧.

وكانت وفاته ـ (رض) ـ في مقرِّ سكناه ومركز إمارته بالمدائن[١]. ودفن هناك حيث مرقده الماثل المعروف إلى يومنا هذا.

وقد ذكره الخطيب البغدادي فقال:

«وقبره الآن ظاهر معروف...، عليه بناء، وهناك خادم مقيم لحفظ الموضع وعمارته والنظر في أمر مصالحه. وقد رأيتُ الموضع وزرتُه غير مرة»[٢].

وزار ابن جبير هذا المرقد في يوم الأربعاء ٣ صفر سنة ٥٨٠هـ[٣].

وعندما ذكر ياقوت المدائن نصَّ على قبر سلمان وقال: «وعليه مشهد يُزار إلى وقتنا هذا»[٤].

وما زال هذا المشهد قائماً وعامراً إلى اليوم. والحمد لله ربِّ العالمين.

---

(١) طبقات خليفة: ١/ ١٦ وطبقات ابن سعد: ٦/ ٩ و٧/ق ٢/ ٦٥ وأنساب الأشراف: ١/ ٤٨٧ والاستيعاب: ٢/ ٥٩ وتاريخ بغداد: ١/ ١٦٤ وشرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٧ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٤٠٣.

(٢) تاريخ بغداد: ١/ ١٦٣.

(٣) رحلة ابن جبير: ١٧١.

(٤) معجم البلدان: ٧/ ٤١٤.

مِنَ المؤمنين رجال

[١٢]

أبو ذر الغفاري

أبو ذر الغفاري

اسمه ونسبه

هو: جُنْدب بن جَنَادَة بن كُعَيْب بن صُعَيْر بن الوَقْعَة بن حَرام بن سفيان بن عبيد بن حَرام بن غِفَار بن مُلَيْل بن ضَمْرَة بن بكر بن عبد مَناة بن كِنانة بن خُزَيمة بن مُدْرِكة بن إلياس بن مُضَر بن نزار بن معدٍّ بن عدنان[1].

وأُمُّه: رَمْلَة بنت الوقيعة، من بني غفارٍ أيضاً[2]. وقد أسلمتْ مع وَلَدَيْها[3].

وكنيته: «أبو ذَرّ»[4]، وقد عُرف بها حتى أصبحتْ أشهر من اسمه.

---

(١) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/١٦١. وفي تحديد اسمه وتسلسل نسبه اختلاف كبير جداً، يراجع: طبقات خليفة: ١/٧١ والمعجم الكبير: ٢/١٥٥ والاستيعاب: ١/ ٢١٤ و٤/٦٢ وجمهرة أنساب العرب: ١٨٥ ـ ١٨٦ وأسد الغابة: ١/٣٠١ و٥/ ١٨٦ وسير أعلام النبلاء: ٢/٣١ ـ ٣٣ ومجمع الزوائد: ٩/٣٢٧ والإصابة: ٤/٦٣.

(٢) طبقات خليفة: ١/٧١ والاستيعاب: ١/٢١٤ و٤/٦٢ وجمهرة أنساب العرب: ١٨٦ وأسد الغابة: ٥/١٨٦ والإصابة: ٤/٦٣.

(٣) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/١٦٣ وصحيح مسلم: ٧/١٥٤ وأسد الغابة: ٥/١٨١ وسير أعلام النبلاء: ٢/٣٦ ومجمع الزوائد: ٩/٣٢٨.

(٤) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/١٦١ وطبقات خليفة: ١/٧١ والاستيعاب: ٤/٦٢ وأسد الغابة: ١/٣٠١ و٥/١٨٦ وسير أعلام النبلاء: ٢/٣١ والإصابة: ٤/٦٣.

وأخوه: أنيس بن جَنَادة، وكان أكبر من أبي ذر، وقد بادر إلى الإسلام مع أخيه، وله صحبة[(١)].

وذُكِر له ابنُ أخٍ اسمه «عبد الله بن الصامت، ويكنى أبا النضر، كان ثقةً، وله أحاديث»[(٢)].

❁ ❁ ❁

وُلِدَ، في تاريخ لم نعرفه على وجه التعيين، ولم تتضح معالمه العامة لنعرفه على وجه التخمين؛ سوى ما توحي به كلمة «الشيخ الكبير» في نعته يوم نفيه إلى الربذة في سنة ٣٠هـ[(٣)]، مما يحمل على الظن بأنه من مواليد ما بين ٤٠ ـ ٥٠ سنة قبل الهجرة.

ونشأ في بلاد قومه وأحياء قبيلته غفارٍ كما ينشأ أبناؤها النبهاء اللامعون.

واكتملتْ رجولته خَلْقاً وخُلُقاً وفكراً وسلوكاً، فكان من رجال العشيرة البارزين المعروفين.

وقد وَصَف المؤرخون قوة بأسه وشدة جرأته فقالوا:

«كان شجاعاً يتفرَّد وحده، يقطع الطريقَ ويُغير على الصِّرْم [أي الجماعة] في عماية الصبح؛ على ظهر فرسه أو قدمَيْه؛ كأنه السبع»[(٤)].

ووصفوا ملامحه الخَلْقية وصفاته البدنية فقالوا:

---

(١) جمهرة أنساب العرب: ١٨٦ وأسد الغابة: ١/ ١٣٣ والإصابة: ١/ ٨٨.

(٢) طبقات ابن سعد: ٧/ق ١/ ١٥٤. ولم نعرف لأبي ذر أخاً اسمه الصامت، ولعل «ابن أخيه» تصحيف «ابن أخته».

(٣) شرح نهج البلاغة: ٨/ ٢٥٤.

(٤) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ١٦٣ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٨.

كان آدَمَ؛ ضخماً جسيماً؛ كَثَّ اللحية والشَّعر؛ طويلاً[١]. ثم صار بعد ذلك نحيفاً؛ أبيض الرأس واللحية[٢]؛ خفيف العارضَيْن؛ في ظهره جَنَأٌ [أي حَدَبٌ][٣].

ووصفوا كمال عقله وبُعْدَ نظره وعمق إدراكه وفهمه فقالوا:

كان يتألَّه في الجاهلية ويوحِّد ولا يعبد الأصنام[٤]، وكان ممَّن حرَّم الخمر والأزلام على نفسه في الجاهلية أيضاً[٥]، ورُوي أنه «كان يصلّي قبل أن يلقى رسول الله (ص) ثلاث سنين، فسُئل: لمن كان يصلّي؟ قال: لله»[٦]، وعزا الزمخشريُّ له بيتاً من الشِّعر يهزأ فيه بالأصنام؛ وهو قوله:

أَرَبٌّ يبول الثعلبانُ برأسه لقد ذَلَّ مَنْ بالتْ عليه الثَّعالبُ[٧]

وتزوَّج هذا الرجل المتألِّه المقدام شريكة حياته السيدة أُمَّ ذرّ، وكانت من الصحابيات المؤمنات؛ والصالحات الصابرات، ورُوي أنها أسلمت مع زوجها في أول البعثة والدعوة[٨]، ثم رافقته في رحلات التشريد والعذاب بين الشام والمدينة[٩]؛ وفي رحلة النفي إلى الربذة حتى

---

(١) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ١٦٩ وأسد الغابة: ٥/ ١٨٨ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٢ و٥٣ والإصابة: ٤/ ٦٤.

(٢) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ١٦٩ وفتوح ابن أعثم: ٢/ ١٥٦ وأسد الغابة: ١/ ٣٠٢ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٤ والإصابة: ٤/ ٦٤.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٨/ ٢٥٧.

(٤) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ١٦٣ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٨.

(٥) المحبر: ٢٣٧.

(٦) مسند أحمد بن حنبل: ٥/ ١٧٤.

(٧) المستقصى: ١/ ١٣٦.

(٨) أسد الغابة: ٥/ ٥٨١ والإصابة: ٤/ ٤٣٠.

(٩) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ١٦٦.

وفاته هناك[١].

ولم يكن لأبي ذرٍّ عقب[٢]، وقيل: إنَّ له ابناً قُتِل في سنة ستٍّ من الهجرة كما تأتي الإشارة إليه[٣]، وربما كان المقتول ابن أخيه[٤]. وقيل: إنه خلَّف بنتاً[٥].

ووردت في بعض المصادر رواية عن عبد الملك بن أبي ذر الغفاري يذكر فيها أن علياً (ع) استدعاه يوماً فقال له: «ادْعُ أباك. فجاء إليه أبي مسرعاً، فقال: يا أبا ذر ـ إلى آخر الحديث ـ»[٦]. ولم نقف لعبد الملك هذا على ترجمةٍ أو ذِكر.

(١) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ١٧١ و١٧٢ و١٧٣. وتراجع المصادر التي روينا عنها حادثة وفاة أبي ذر في أواخر كتابنا هذا.

(٢) جمهرة أنساب العرب: ١٨٦.

(٣) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٥٨.

(٤) الدرجات الرفيعة: ٢٤١ ـ ٢٤٢.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٥٤.

(٦) الدرجات الرفيعة: ٢٣٩.

وأرسل الله رسوله بالهدى والخير والنور، ليخرج البشرية من ظلمات الشرك والجاهلية إلى نور الإسلام والتوحيد، ويهديها صراطاً مستقيماً لا أمت فيه ولا عوج ولا زيغ.

وكان أبو ذر من أوائل المبادرين إلى الإيمان بهذا الدين القويم، والإقرار برسالة السماء الخالدة ورسولها العظيم الخاتم.

وقد اتفق المؤرخون على أن أبا ذر كان رابع المسلمين أو خامسهم[1]. ولا غرابة في ذلك ولا عجب، فقد كان من المتألهين الموحدين الرافضين لعبادة الأصنام كما تقدَّم.

وحدَّث ابن الأثير: أن أبا ذر «بايع النبيَّ على أن لا تأخذه في الله لومة لائم؛ وعلى أن يقول الحقَّ وإن كان مُرّاً»[2].

وروى الرواة عن عبد الله بن عباس تفصيل ما سمعه من حديث إسلام أبي ذر، قال:

---

(١) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ١٦٤ وحلية الأولياء: ١/١٥٦ و١٥٧ و٣٥٢ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣١٥ و٣١٧ والمعجم الكبير: ٢/ ١٥٥ و١٥٦ والاستيعاب: ٢/ ٢١٤ ـ ٢١٥ و٤/ ٦٢ وجمهرة أنساب العرب: ١٨٦ وأسد الغابة: ١/ ٣٠١ و٥/ ١٨٦ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٣١ و٣٨ ومجمع الزوائد: ٩/ ٣٢٧ والإصابة: ٤/ ٦٤.

(٢) أسد الغابة: ١/ ٣٠١.

«لما بلغ أبا ذر مبعثُ رسول الله (ص) بمكة قال لأخيه أُنَيْس: اركب إلى هذا الوادي واعلم لي عِلْمَ هذا الرجل الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء؛ واسمع من قوله ثم ائْتني. فانطلق الأخ حتى قدم مكة وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر فقال: رأيتُه يأمر بمكارم الأخلاق؛ وسمعتُ منه كلاماً ما هو بالشِّعر. فقال: ما شفيتَني فيما أردتُ.

«فتزوَّد وحمل شنَّةً له فيها ماء، حتى قدم مكة، فأتى المسجدَ فالتمس النبيَّ (ص) وهو لا يعرفه، وكره أن يسأل عنه، حتى أدركه الليل فاضطجع، فرآه عليُّ بن أبي طالب ـ(رض)ـ فقال: كأنَّ الرجل غريب؟ قال: نعم، قال: انطلق إلى المنزل، فانطلقتُ معه لا يسألني عن شيء ولا أسأله. فلما أصبحتُ من الغد رجعتُ إل المسجد، فبقيتُ يومي حتى أمسيت، وسرتُ إلى مضجعي فمرَّ بي عليٌّ فقال: أمَا آنَ للرجل أن يعرف منزله؟، فأقامه وذهب به معه، وما يسأل واحدٌ منهما صاحبه عن شيء.

«حتى إذا كان اليوم الثالث فعل مثلَ ذلك، فأقامه عليٌّ معه ثم قال له: ألا تحدِّثني ما الذي أقدمك هذا الدار؟ قال: إنْ أعطيتَني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلتُ، ففعل. فأخبره عليٌّ ـ(رض)ـ أنَّه نبي وأنّ ما جاء به حق وأنّه رسول الله، فإذا أصبحتُ فاتبعني، فإني إنْ رأيتُ شيئاً أخاف عليك قمتُ كأني أُريق الماءَ، فإن مضيتُ فاتبعني حتى تدخل معي مدخلي.

«قال: فانطلقتُ أقفوه، حتى دخل على رسول الله (ص) ودخلتُ معه، وحيَّيتُ رسول الله (ص) بتحية الإسلام فقلتُ: السلام عليك يا رسول الله؛ فكنتُ أولَ مَنْ حيَّاه بتحية الإسلام.

«فقال: وعليك السلام، مَنْ أنتَ؟

«قلتُ: رجلٌ من بني غفار.

«فعرض عليَّ الإسلام، فأسلمتُ وشهدتُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فقال لي رسول الله (ص):

«ارجع إلى قومك فأخبرهم؛ واكتم أمرك عن أهل مكة فإني أخشاهم عليك.

«فقلتُ: والذي نفسي بيده لأُصَوِّتَنَّ بها بين ظهرانيهم.

«فخرج حتى أتى المسجدَ فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

«فثار القوم إليه فضربوه حتى أضجعوه. وأتى العباسُ فأكبَّ عليه وقال: ويلكم! ألستم تعلمون أنه من بني غفار؟ وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليهم. وأنقذه منهم.

«ثم عاد من الغد إلى مثلها وثاروا إليه فضربوه، فأكبَّ عليه العباس فأنقذه.

«ثم لحق بقومه. فكان هذا أول إسلام أبي ذر»[١].

وكان لحاقه بقومه بأمرٍ من رسول الله (ص) كما جاء في حديث ابن عباس، وكان الغرض من ذلك أن يدعوهم إلى الإسلام[٢]، وقد

---

(١) الاستيعاب: ٤/ ٦٢ ـ ٦٤ واللفظ له. وورد أيضاً في صحيح البخاري: ٥/ ٥٩ ـ ٦٠ وحلية الأولياء: ١/ ١٥٧ ـ ١٥٩ وأسد الغابة: ٥/ ١٨٧ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٧ والإصابة: ٤/ ٦٣ ـ ٦٤.
وورد حديث إسلام أبي ذر بألفاظ أخرى وتفصيل لا يخلو بعضه من زيادة أو وضعٍ في طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ١٦١ ـ ١٦٥ وصحيح مسلم: ٧/ ١٥٣ ـ ١٥٥ ودلائل النبوة: ٢/ ٢٠٨ ـ ٢١٢ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٤ ـ ٣٦ ومجمع الزوائد: ٩/ ٣٢٧ ـ ٣٢٩.

(٢) المصادر المذكورة في الهامش السابق. ونصَّ الذهبي على أمر النبي (ص) له بذلك في سير أعلام النبلاء: ٢/ ٣١.

«أسلم نِصفُهم قبل أن يقدم رسولُ الله (ص) المدينة، وكان يؤمُّهم إيماءُ بن رَحضَة؛ وكان سيدهم»، ثم أسلم الباقون بعد الهجرة[1].

❀ ❀ ❀

وهاجر رسول الله (ص) إلى المدينة فأصبحت عاصمة النبوة ومركز الإشعاع.

ولما أعلن النبي (ص) المؤاخاة بين المسلمين ـ وكانت إحدى خطواته الأولى في المدينة لتدعيم الروابط وتمتين العلائق ـ، آخى بين أبي ذر والمقداد بن عمرو البهرانيّ[2] مؤاخاة المهاجرين فيما بينهم، كما آخى بين أبي ذر والمنذر بن عمرو الساعدي الخزرجي[3] مؤاخاة المهاجرين والأنصار.

وتدل هذه المؤاخاة على حضور أبي ذر إلى المدينة في تلك الأيام في أول الهجرة، وروى ابن حزم أن أبا ذر قد «رجع إلى بلاد قومه بعد إسلامه فأقام حتى قدم النبي (ص) المدينة»[4]، ويؤكد حضورَه في المدينة في أوائل الهجرة استشهادُ المنذر بن عمرو الساعدي في معركة بئر معونة على رأس ستة وثلاثين شهراً من الهجرة[5].

ويبدو أن أبا ذر قد عاد إلى بلاد قومه بعد الهجرة إلى المدينة وإعلان المؤاخاة، فقد روى الرواة أنه لم يوفَّق إلى حضور بدرٍ وأُحُدٍ

---

(١) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/١٦٣ وصحيح مسلم: ٧/١٥٥ وسير أعلام النبلاء: ٢/٣٦.

(٢) سيرة ابن هشام: ٤/٢٠٦.

(٣) سيرة ابن هشام: ٢/١٥٢ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/١٠٠.

(٤) جمهرة أنساب العرب: ١٨٦. ومثله في المضمون في سير أعلام النبلاء: ٢/٣١.

(٥) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/١٠٠.

والخندق[١]، وإنما قدم المدينة قدمته الثانية بعد الخندق، وذكر بعضهم أنه قدمها بعد أن مضت بدر وأُحُد[٢].

ولكنَّ الخليفة عمر بن الخطاب عندما وضع الديوان وفرض الفروض للمسلمين وجعل لكل من شهد بدراً خمسة آلاف؛ «ألحق بأهل بدرٍ أربعة من غير أهلها: الحسن والحسين وأبا ذر وسلمان»[٣].

وحلَّ أبو ذر في المدينة جندياً من جنود الله، ومجاهداً في طليعة المجاهدين، وفارساً صنديداً من فرسان الإسلام.

ويبدو أن النبي (ص) قد أرسله للعناية ببعض الإبل في موضع يدعى الغابة، وهو على بُعد بريدٍ من المدينة على طريق الشام. وفي شهر ربيع الأول سنة ستٍّ من الهجرة غزا بعضُ المسلمين الغابة، وكان أبو ذر فيها يومذاك يرعى اللقاح ـ وهي عشرون ـ «فأغار عليهم عيينة بن حصن في أربعين فارساً، فاستاقوها وقتلوا ابنَ أبي ذر. وجاء الصريخ... فنودي: يا خيلَ الله اركبي»، وذهب جماعة من أصحاب النبي (ص) «فاستنقذوا عشر لقائح، وأفلت القوم بما بقي وهي عشر»[٤].

وفي شعبان سنة ستّ من الهجرة أيضاً، غزا النبي (ص) بني المصطلق من خزاعة، «واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري، ويقال: نميلة بن عبد الله الليثي»[٥].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ١٠٠؛ و٤/ق ١/ ١٦٣ و١٦٦ والاستيعاب: ٢/ ٢١٥ وأسد الغابة: ١/ ٣٠١ و٥/ ١٨٧.

(٢) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ١٦٣ والإصابة: ٤/ ٦٤.

(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٦١٤ والإصابة: ٤/ ٦٥.

(٤) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٥٨، وبتفصيل أكثر في الدرجات الرفيعة: ٢٤١ ـ ٢٤٢. وإن صحَّت رواية البيهقي في دلائل النبوة: ٤/ ١٨٦ ـ ١٨٧ فلا علاقة لهذه الحادثة بأبي ذر، وإنما هو غفاري آخر.

(٥) سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٠٢.

وعندما غادر رسولُ الله (ص) المدينة في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع من الهجرة «كان خليفة رسول الله (ص) على المدينة أبا ذرٍّ جندب بن جنادة الغفاري، ويقال: عويف بن ربيعة»[١].

وفي فتح مكة سنة ثمان من الهجرة شارك بنو غفار في موكب الفتح؛ وكان عددهم ثلاثمائة «يحمل رايتهم أبو ذر، ويقال: إيماء بن رحضة»[٢].

وفي غزوة حنين سنة ثمان أيضاً كان أبو ذر حامل راية غفار[٣].

وفي غزوة تبوك سنة تسع من الهجرة خرج رسول الله (ص) من المدينة قاصداً تبوك وتخلَّف عنه مَنْ تخلَّف من الجبناء والمنافقين وضعاف النفوس. ولاحظ المسلمون في هذه الرحلة تخلّف أبي ذر عن الركب وكان قد «أبطأ به بعيره»، فلما رأى أبو ذر حال بعيره «أخذ متاعَه فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ماشياً. ونزل رسولُ الله في بعض منازله فنظره ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله؛ إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله (ص): «كُنْ أبا ذر». فلما تأمَّله القوم قالوا: يا رسول الله؛ هو أبو ذر. فقال رسول الله (ص): «يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»»[٤].

«فضرب الدهر من ضربه، وسُيِّر أبو ذر إلى الربذة. فلما حضرته

---

(١) أنساب الأشراف: ١/ ٣٥٣.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١٧/ ٢٧٠.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٨.

(٤) تاريخ الطبري: ٣/ ١٠٧ ومعجم ما استعجم: ٢/ ٦٣٦ ـ ٦٣٧ ودلائل النبوة: ٥/ ٢٢١ ـ ٢٢٢ وأسد الغابة: ٥/ ١٨٨ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٩.

الوفاة. . . فإذا عبد الله بن مسعود. . . فقال: ما هذا؟ قيل: جنازة أبي ذر. فاستهلَّ ابن مسعود يبكي وقال: صدق رسول الله (ص): «يرحم الله أبا ذر؛ يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»(١).

❀ ❀ ❀

وأشرف عهد النبوة الزاهر على الانقضاء، وكانت حصيلة أبي ذر فيه:

١ ـ سَبْقٌ إلى الإسلام، إذ كان رابعَ أربعة أو خامس خمسة.

٢ ـ جهادٌ متواصل في سبيل الله، في السلم والحرب، باللسان والسيف.

٣ ـ أوسمة ذهبية منحها إياه رسولُ الله (ص)، كقوله:

أ ـ «ما أظلَّت الخضراء ولا أقلَّت الغبراء من ذي لهجةٍ أصدق من أبي ذرّ»(٢)، وفي لفظ الترمذي: «ما أظلَّت الخضراء ولا أقلَّت الغبراء من ذي لهجة أصدق ولا أوفى من أبي ذرٍّ شِبهَ عيسى بن مريم (ع). فقال عمر بن الخطاب كالحاسد: يا رسول الله أفنعرف ذلك له؟ قال: نعم فاعرفوه له»(٣).

ب ـ «إن الله أمَرَني بحبِّ أربعة وأخبرني أنه يحبهم، قيل: يا رسول الله سَمِّهم لنا، قال: عليٌّ منهم ـ يقول ذلك ثلاثاً ـ وأبو ذر والمقداد وسلمان»(٤).

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٩.

(٢) مسند أحمد: ٢/ ١٦٣ و١٧٥ و٢٢٣ و٦/ ٤٤٢ وسنن الترمذي: ٥/ ٦٦٩ وسنن ابن ماجة: ١/ ٥٥ وطبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ١٦٧ و١٦٨ والاستيعاب: ١/ ٢١٧ و٤/ ٦٤ وأسد الغابة: ١/ ٣٠١ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٤١ ومجمع الزوائد: ٩/ ٣٢٩ والإصابة: ٤/ ٦٥.

(٣) سنن الترمذي: ٥/ ٦٧٠.

(٤) سنن الترمذي: ٥/ ٦٣٦ ـ واللفظ له ـ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٤٢.

ج ـ «إن الجنة لتشتاق إلى أربعة: عليّ وعمار وأبي ذر والمقداد»[١].

د ـ «من سرَّه أن ينظر إلى تواضع عيسى بن مريم فلينظر إلى أبي ذر»[٢].

هـ ـ «أبو ذر يمشي على الأرض في زهد عيسى بن مريم»[٣]، أو: «في أُمَّتي أبو ذر شبيه عيسى بن مريم في زهده»[٤] أو «... شبيه عيسى بن مريم خَلْقاً وخُلُقاً»[٥].

و ـ «يرحم الله أبا ذر، يعيش وحده ويموت وحده ويحشر وحده»[٦].

ثم أُثِر من عطاء هذا الحب الروحي العظيم بين النبي (ص) وأبي ذرّ:

ـ «كان رسول الله (ص) يبتدىء أبا ذرٍّ إذا حضر؛ ويتفقَّده إذا غاب»[٧].

ـ كان أبو ذر يأخذ بيد رسول الله (ص) وهما يتماشيان[٨].

ـ بينا أبو ذر واقف مع رسول الله (ص) قال له: «يا أبا ذر؛ أنت رجل صالح، وسيصيبك بلاء بعدي»، قال أبو ذر: في الله؟ قال: في الله، قال أبو ذر: «مرحباً بأمر الله»[٩].

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٧/ ٢٩٦.

(٢) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ١٦٨ والاستيعاب: ١/ ٢١٧ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٤١.

(٣) أسد الغابة: ١/ ٣٠١ و٥/ ١٨٧.

(٤) الاستيعاب: ١/ ٢١٧ و٤/ ٦٤.

(٥) المعجم الكبير: ٢/ ١٥٧ ومجمع الزوائد: ٩/ ٣٣٠.

(٦) الإصابة: ٤/ ٦٥. وتقدم تخريج الحديث في حضور أبي ذر غزوة تبوك، ويأتي تخريجه أيضاً في رواية وفاة أبي ذر.

(٧) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٤٠ ومجمع الزوائد: ٩/ ٣٣٠ والإصابة: ٤/ ٦٤.

(٨) تاريخ الطبري: ١/ ٦٤.

(٩) حلية الأولياء: ١/ ١٦٢.

وتوفي رسول الله (ص)؛ فعمت الفاجعة كل الأرجاء، وغمر الألمُ قلبَ كل مسلم ومسلمة.

وكانت شؤون وشجون.

وكان لأبي ذرٍّ ـ رضوان الله عليه ـ في كل ذلك رأي محدَّد وموقف ثابت، وقد جاهر بذلك منذ الأيام الأولى للخلافة، وظل مجاهراً به حتى اختاره الله لجواره في عهد ثالث الخلفاء.

أخرج الجوهري بسنده عن ابن لهيعة قال:

«إن رسول الله (ص) مات وأبو ذر غائب، وقد وَلِيَ أبو بكر فقال: أصبتم قناعَه وتركتم قرابَه، لو جعلتهم هذا الأمر في أهل بيت نبيكم لما اختلف عليكم اثنان»[1].

وحدَّث البَرَاء بن عازب قال:

«لمَّا قُبِض رسول الله (ص) تخوَّفتُ أن تتمالأ قريش على إخراج هذا الأمر من بني هاشم... فمكثتُ أُكابد ما في نفسي، فلما كان بليلٍ... خرجتُ إلى فضاء بني بياضة، وأجد نفراً يتناجون، فلما دنوتُ منهم سكتوا، فانصرفت عنهم، فعرفوني وما أعرفهم فدعوني إليهم،

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٦/ ١٣.

فأتيتهم فأجد المقداد بن الأسود وعُبَادة بن الصامت وسلمان الفارسي وأبا ذر وحذيفة وأبا الهيثم بن التيهان، وإذا حذيفة يقول لهم: واللهِ ليكوننَّ ما أخبرتُكم به... وإذا القوم يريدون أن يعيدوا الأمر شورى»[١].

وروى ابن أبي الحديد قال:

إن علياً (ع): «لمَّا استنجد بالمسلمين عقيب يوم السقيفة وما جرى فيه... أجابه أربعون رجلاً، فبايعهم على الموت» وكان منهم أبو ذر[٢].

كما روى ابن أبي الحديد أيضاً، قال:

ممن قال بتفضيل عليّ (ع) على كل الصحابة: «عمار، والمقداد، وأبو ذر، وسلمان، وجابر بن عبد الله، وأُبَيّ بن كعب، وحُذَيفة، وبُرَيدة، وأبو أيوب، وسَهْل بن حُنَيف، وعثمان بن حنيف، وأبو الهيثم بن التّيهان، وخُزَيمة بن ثابت» وغيرهم ممن سمَّاهم[٣].

ولكن هذه التحفّظات أو المواقف لم تكن تمنع أبا ذر من المشاركة في أي مسعىً يستهدف عزَّ الإسلام وخير المسلمين وإعلاء راية الحق وكلمة التوحيد.

ولذلك شارك في حروب فتح الشام[٤]، وأقام بها ردحاً من الزمن[٥] لكونها ثغراً من ثغور المسلمين.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٥١ ـ ٥٢. ويراجَع هذا النصُّ بتفصيل أكثر في نثر الدرّ: ١/ ٤٠٠ ـ ٤٠١.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١١/ ١٤.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٢٠/ ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٤) فتوح الشام: ١/ ٥٧ و٥٨ و٦٠ و٦١ و١٢٥.

(٥) الاستيعاب: ٢/ ٢١٥ وأسد الغابة: ١/ ٣٠١.

«وشهد فتح بيت المقدس مع عمر»[١].

وكان ممن شارك في غزو الصائفة سنة ٢٣هـ حتى بلغوا عمّورية[٢].

وفي حروب فتح مصر[٣].

كما شارك أيضاً في فتح قبرس سنة ٢٨هـ[٤].

❀ ❀ ❀

وقُتل عمر، وأصبح عثمان هو الخليفة.

ومع أن أبا ذر كان يسكن الشام يومئذٍ، فإنه يتردَّد على المدينة زائراً حاضراً.

وقامت الزمرة الحاكمة بالعبث بأموال الله والمسلمين وتبديدها في المتع والملذات والإثراء غير المشروع حتى استنزفت صبر الصابرين وسكوت الساكتين.

وقد لخص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) ذلك كلَّه بقوله:

«إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مالَ الله خَضْمَ الإبل نبتةَ الربيع»[٥].

وكان من الطبيعي وقد أطبق الباطل واستشرى الفساد أن يتحرك

(١) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٢.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٤١.

(٣) فتوح الشام: ٢/ ٥٢ و١٤١ و١٤٦ و١٥٨ و١٥٩ و١٦٠ وصفحات أخرى والمعجم الكبير: ٢/ ١٥٦ ومجمع الزوائد: ٩/ ٣٣٢.

(٤) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٥٨.

(٥) شرح نهج البلاغة: ١/ ١٩٧.

الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر من صحابة رسول الله (ص) الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فيردعون الظالم عن ظلمه وعدوانه والجائر عن جوره وسوء سيرته، أمراً بتطبيق أحكام الله ونهياً عمّا يخالف سنة رسوله.

وكان أبو ذر في الطليعة من أولئك المجاهدين المجاهرين بكلمة الحق، غير خائف من بطش حاكم؛ أو ملتفت إلى لوم لائم؛ أو آبهٍ بتهديدات سلطان غاشم. وهو القائل:

«إنَّ بني أمية تهددني بالفقر والقتل، ولَبَطْنُ الأرض أحبُّ إليَّ من ظهرها، ولَلْفقر أحبُّ إليَّ من الغنى»[1].

وحدَّث ابن سويد قال:

«كنتُ بالمدينة أيام بويع عثمان، فرأيت رجلاً في المسجد جالساً... والناس حوله، ويقول: واعجبا من قريش... واللهِ إن فيهم لرجلاً ما رأيت رجلاً بعد رسول الله (ص) أوْلى منه بالحق؛ ولا أقضى بالعدل؛ ولا آمَرَ بالمعروف؛ ولا أنهى عن المنكر. فسألتُ عنه فقيل: هذا المقداد، فتقدمت إليه وقلتُ: أصلحك الله؛ مَن الرجل الذي تذكر؟ فقال: ابن عم رسول الله (ص) عليُّ بن أبي طالب. قال: ثم إني لقيتُ أبا ذر ـ رحمه الله ـ فحدَّثته ما قال المقداد، فقال: صدق»[2].

وعلم أبو ذر أن عثمان قد أعطى «مروان بن الحكم ما أعطاه؛ وأعطى الحارث بن الحكم بن أبي العاص ثلاثمائة ألف درهم؛ وأعطى زيد بن ثابت مائة ألف درهم» فجعل يجاهر قائلاً:

---

(١) حلية الأولياء: ١/ ١٦٢.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٩/ ٢١.

«بشِّر الكانزين بعذابٍ أليم، ويتلو قول الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ [التوبة: ٣٤] ـ الآية.

«فرفع ذلك مروانُ بن الحكم إلى عثمان، فأرسل إلى أبي ذرٍّ نائلًا مولاه: أن انتهِ عمّا يبلغني عنك». فقال أبو ذر: «أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله وعَيْبِ مَنْ تَرَكَ أمْرَ الله، فوالله لئن أُرْضي الله بسخط عثمان أحبُّ إليَّ وخيرٌ لي من أن أُسخِط اللهَ برضاه.

«فأغضب عثمانَ ذلك وأحفظه، فتصابر وكفَّ»[1].

وبلغ عثمان أن أبا ذر يجلس في مسجد رسول الله (ص) ويجتمع إليه الناس؛ فيحدِّث بما فيه الطعن عليه، وأنه وقف يوماً بباب المسجد فقال:

«أيها الناس، مَن عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أبو ذر الغفاري جندب بن جنادة، ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٤]، محمد الصفوة من نوح، [إلى أن قال]: «محمد وارث علم آدم وما فُضِّلت به النبيون، وعلي بن أبي طالب وصي محمد ووارث علمه.

«أيتها الأُمَّة المتحيِّرة بعد نبيها؛ أمَا لو قدَّمتم من قدَّم الله، وأخَّرتم من أخَّر الله، وأقررتم الولاية والوراثة في أهل بيت نبيكم؛ لأكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت أقدامكم، ولما عال وليُّ الله؛ ولا طاش سهمٌ من فرائض الله، ولا اختلف اثنان في حكم الله؛ إلاَّ وجدتم علم ذلك عندهم من كتاب الله وسنة نبيه. فأما إذ فعلتم ما فعلتم فذوقوا وبال أمركم، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون»[2].

(١) أنساب الأشراف: ٥/ ٥٢ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٢٥٦.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٤٨.

وقال عثمان يوماً لمن حضره: أيجوز للإمام أن يأخذ من مال المسلمين ما يشاء فإذا أيْسَرَ قضى؟. «فقال كعب الأحبار: لا بأس بذلك. فقال أبو ذر: يا ابن اليهوديَّيْن؛ أتعلِّمنا ديننا؟ فقال عثمان: ما أكثر أذاكَ لي وأوْلَعَك بأصحابي!»(١).

ثم ضاق به الخليفة ذرعاً فأمره بالخروج إلى الشام.

❀ ❀ ❀

ووصل أبو ذر إلى دمشق ـ وقد فرضت عليه الإقامة الإجبارية فيها ـ فلم يزل بها يشاهد ويراقب ويرى ويسمع، حتى لم يعد يطيق صبراً أو يقدر على السكوت، بل لم يجد مسوِّغاً في الشرع لتَرْك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد بلغت الحال هذا المآل، فانفجرت ثورته وقامت قيامته على حاكم الشام يومئذٍ معاوية بن أبي سفيان.

وكان من أمثلة ما أُثر عن أبي ذر في إنكار أعمال معاوية وحاشيته والمقرَّبين إليه:

١ ـ بني معاوية (داره) الخضراء بدمشق، فقال أبو ذر: «يا معاوية؛ إن كانت هذه الدار من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهذا الإسراف. فسكت معاوية»(٢).

٢ ـ كان أبو ذر يقول فيما يرى من المنكرات: «واللهِ لقد حدثتْ أعمالٌ ما أعرفها، والله ما هي في كتاب الله ولا سنة نبيِّه، واللهِ إني لأرى حقّاً يطفأ وباطلاً يحيى وصادقاً يُكَذَّب وأثَرَةً بغير تقىً وصالحاً مستأثَراً عليه»(٣).

---

(١) أنساب الأشراف: ٥/ ٥٢ ومروج الذهب: ٢/ ٢٢٨ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٢٥٦.
(٢) أنساب الأشراف: ٥/ ٥٣ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٢٥٦.
(٣) أنساب الأشراف: ٥/ ٥٣ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٢٥٧.

٣ ـ «غزا يزيد بن أبي سفيان [أخو معاوية] بالناس، فوقعت جارية نفيسة في سهم رجلٍ؛ فاغتصبها يزيد. فأتاه أبو ذر فقال: رُدَّ على الرجل جاريته»[١].

٤ ـ حدَّث جلّام بن جندل الغفاري ـ فيما روى الجاحظ عنه ـ قال: «كنتُ غلاماً لمعاوية على قنّسرين والعواصم؛ في خلافة عثمان، فجئتُ إليه يوماً أسأله عن حال عملي، إذ سمعتُ صارخاً على باب داره يقول: أتَتْكم القطارُ بحمل النار، اللهم العن الآمرين بالمعروف التاركين له، اللهم العن الناهين عن المنكر المرتكبين له.

«فازْبَأرَّ معاوية وتغيَّر لونه وقال: يا جلّام؛ أتعرف الصارخ؟ فقلتُ: اللهمَّ لا، قال: مَنْ عذيري من جندب بن جنادة!؛ يأتينا كل يوم فيصرخ على باب قصرنا بما سمعتَ. ثم قال: أدْخِلوه عليَّ، فجيء بأبي ذر بين قوم يقودونه حتى وقف بين يديه، فقال له معاوية:

«يا عدوَّ الله وعدوَّ رسوله!! تأتينا في كل يوم فتصنع ما تصنع...

«فأقبل على معاوية: وقال: ما أنا بعدوٍّ لله ولا لرسوله، بل أنت وأبوك عدوَّانِ لله ولرسوله، أظهرتما الإسلام وأبطنتما الكفر، ولقد لعنك رسول الله (ص) ودعا عليك مرَّاتٍ أن لا تشبع، سمعتُ رسول الله (ص) يقول: «إذا وَلِيَ الأُمَّةَ الأَعْيَنُ الواسع البلعوم الذي يأكل ولا يشبع فلتأخذ الأُمَّةُ حذرَها منه.

«فقال معاوية: ما أنا ذاك الرجل.

«قال أبو ذر: بل أنت ذلك الرجل، أخبرني بذلك رسول الله (ص)

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١/٢٣٨.

وسمعتُه يقول وقد مررتَ به: اللهم العَنْه ولا تُشبعه إلا بالتراب.

«فأمر معاوية بحبسه»[١]، ثم أطلق سراحه وأصدر مرسوماً ملكياً تولَّت الأجهزة الحكومية نشره بين الناس بأن لا يجالس أبا ذرٍّ أحدٌ ولا يكلمه أحد، فكان الناس يفرون منه خوفاً من بطش السلطة وعنفها، وعندما زار الأحنف بن قيس دمشق شاهد ذلك بأُمِّ عينيه؛ قال:

«أتيتُ الشام فجمَّعتُ [أي حضرت إلى المسجد يوم الجمعة]؛ فإذا أنا برجلٍ لا ينتهي إلى ساريةٍ إلاَّ خرَّ أهلها يصلي... فجلستُ إليه فقلت له: يا عبد الله مَنْ أنتَ؟ قال: أنا أبو ذر. فقال لي: فأنْتَ مَنْ أنت؟ قلتُ: أنا الأحنف بن قيس. قال: قم عني لا أعديك بشرٍّ، فقلت له: كيف تعديني بشرٍّ؟! قال: إن هذا ـ يعني معاوية ـ نادى مناديه ألاَّ يجالسني أحد»[٢].

وهكذا يتجلَّى بوضوح ويقين أن ذنب أبي ذر الأول والأخير هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن الوقائع الفاضحة التي رآها لم يكن يستطيع السكوت عليها وغضَّ النظر عنها أيّاً ما كان أو مَنْ كان فاعلها المفضوح.

وكان هذا الخروج الصارخ والتمرد الجريء على أحكام الله وشريعته هو سبب ثورة أبي ذر ومنشأ نقمته، وهو الذي بايع النبيَّ (ص) يوم إسلامه على أن لا تأخذه في الله لومة لائم.

غير أن واضع الأكاذيب ومفتعل الحوادث ومزوِّر الوقائع سيف بن عمر يزعم: أن ابن السوداء ـ يعني مَنْ سمَّاه عبد الله بن سبأ ـ لما ورد

(١) شرح نهج البلاغة: ٨/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨.
(٢) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ١٦٨.

الشام في سنة ٣٠هـ أثار أبا ذر على معاوية[١]، ولولا هذا اليهودي الحاقد الذي سمَّم أفكار أبي ذر لَمَا فعل أبو ذر ما فعل ولَمَا وقع ما وقع.

وحسبنا في التعليق على أكاذيب سيف ومختلقاته هذه؛ أن نقتطف بعض ما كتبه الدكتور عبدالعزيز صالح الهلابي الأستاذ بقسم التاريخ في جامعة الملك سعود في الرياض في هذا الموضوع؛ فقال بعد رواية ما أسلفنا ذكره من نص الطبري المروي عن سيف بشأن ابن السوداء وإثارته أبا ذر:

«الحقيقة أن سيفاً ينفرد في إيراد هذه القصة ويخالف المؤرخين الآخرين الذين أوردوا قصة هذا الخلاف.

«وأبو ذرّ الصحابي الجليل ليس ـ عند سيفٍ ـ إلاَّ إمَّعة يغرِّر به يهوديٌّ حاقد على الإسلام ويملي عليه أفكاره، فأخذ أبو ذر يخلق المشاكل لأمير الشام معاوية ويحرِّض عليه وعلى الأغنياء الفقراءَ والغوغاء.

«لكن سيفاً لم يخبرنا ماذا فعل معاوية به [أي بابن سبأ]، وماذا حلَّ بابن سبأ بعد ذلك!..

«وثمة نقطة في غاية الأهمية يجب أن نلفت الأنظار إليها وهي أن هذه الحادثة وقعت في سنة ٣٠ من الهجرة، على حين يخبرنا سيف في رواية ثانية أن ابن سبأ لم يدخل في الإسلام إلّا بعد ثلاث سنوات من إمارة عبدالله بن عامر على البصرة أي في سنة ٣٢هـ أو ٣٣هـ ـ وهو الأرجح ـ، وقد أخرجه ابن عامر من البصرة.

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٨٣.

«والسؤال الذي نطرحه هنا: متى كان ابنُ سبأ في الشام؟ هل كان فيها في سنة ٣٠هـ أي قبل أن يُسْلِم بثلاث سنوات كما في الرواية الأولى، أم بعد أن اعتنق الإسلام أي في سنة ٣٤هـ كما في رواية ثالثة؟

«لكن سيفاً يروي عن يزيد الفقعسي أن أبا ذر توفي في الربذة في سنة ٣٢هـ، وعن غير يزيد الفقعسي أنه توفي سنة ٣١هـ».

ويضيف الدكتور الهلابي قائلاً:

«والذي نخلص إليه من المقارنات السابقة أن قصة علاقة ابن سبأ بأبي ذر مختلقة من أساسها لاستحالة وقوعها حقيقة، وإذا كان الأمر كذلك فما الدافع لاختلاقها؟. الذي أعتقده أن الهدف من اختلاق هذه القصة هو الطعن على أبي ذر بسبب نقده الشديد للخليفة عثمان ولمعاوية عامله على الشام ولقريش عامة بسبب إثرائهم في عهدَيْ عمر وعثمان. والقصة تجعل نقد أبي ذر لا يستند إلى تعاليم دينية ولكن إلى أفكار يهودي حاقد على الإسلام.

«والذي يجمع عليه المؤرخون أن أبا بذر بدأ نقده للخليفة عثمان في المدينة في مرحلة مبكرة، فلما تبرم الخليفة من حدَّته في نقده أمَرَه أن يلحق بمكتبه في الشام، أي أن عطاءه مدوَّن أصلاً بديوان الشام، لكن أبا ذر استمر في نقده اللاذع لمعاوية وللأغنياء، وفي دعوته إلى الزهد والتقشف الشديد، فشكاه معاوية إلى الخليفة عثمان، فكلَّف الأخيرُ معاويةَ أن يسيِّره إلى المدينة.

«وإذا كان أبو ذر استاء عندما أبدى كعب الأحبار رأيه في مجلس الخليفة عثمان في أمرٍ من أمور الدين؛ وشتمه قائلاً: وما يدريك يا ابن

اليهودية. فكيف يُعقَل أن يملي عليه عبد الله بن سبأ أفكاره في أمور الدين والدنيا؟!»[١].

❀ ❀ ❀

ولمَّا فشلتْ محاولات معاوية ومساعيه في منع هذا الصحابي الجليل المجاهد من الجهر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وثارت ثائرة رجال عصابة الأمير ووجوه حاشيته مما لحقهم على لسان هذا المسلم الجريء من فضيحة وتشهير[٢]، كتب معاوية إلى عثمان كتاباً في ذلك قال فيه:

«أمَّا بعد: فإن كان لك بالشام حاجة أو بأهله؛ فابعثْ إلى أبي ذر؛ فإنه قد وغَّل صدور الناس!»[٣].

فكتب عثمان إلى معاوية: «أما بعد: فاحمل جندباً إليَّ على أغلظ مركبٍ وأوْعَرِه».

«فوجَّه معاوية مَنْ سارَ به الليلَ والنهار»[٤]، «وحمله على شارفٍ [أي ناقة مسنَّة] ليس عليها إلاَّ قَتَبٌ، حتى قدم به المدينة؛ وقد سقط لحم فخذيه من الجهد»[٥].

(١) عبد الله بن سبأ: ١٨ ـ ٢٠. وكانت نتيجة دراسة هذا الباحث أن «عبد الله بن سبأ» شخصية أسطورية مختلقة لا واقع لها ولا وجود.
(٢) أنساب الأشراف: ٥/٥٣.
(٣) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٥٠. ومضمون ذلك مروي عند الكل كفتوح ابن أعثم: ٢/ ١٥٥ ومروج الذهب: ٢/٢٢٨ وغيرهما.
(٤) أنساب الأشراف: ٥/ ٥٣ وشرح نهج البلاغة: ٥/ ١٣١ و٨/٢٥٨.
(٥) شرح نهج البلاغة: ٥/ ١٣١ و٨/٢٥٨. ومضمونه في تاريخ اليعقوبي: ٢/١٤٩ وفتوح ابن أعثم: ٢/١٥٦ ومروج الذهب: ٢/٢٢٨.

ودخل أبو ذر المدينة مقيماً بها، وبدأ حملته الشعواء على الخليفة وتصرفاته المنكرة، وجعل يعرِّض به تارة ويصرِّح أخرى قائلاً: يستعمل الصبيان ويحمي الحمى ويقرِّب أولاد الطلقاء[1].

ثم أُدخِل على عثمان، فقال له الخليفة:

«أنت الذي تزعم أنَّا نقول: يد الله مغلولة؛ وأن الله فقير ونحن أغنياء؟».

«فقال أبو ذر: لو كنتم لا تقولون هذا لأنفقتم مالَ اللهِ على عباده. ولكني أشهد أني سمعتُ رسول الله (ص) يقول: إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً؛ جعلوا مالَ الله دُوَلاً؛ وعباده خولاً؛ ودينه دخلاً».

«فقال عثمان لمن حضر: أسمعتموها من رسول الله؟.

«قالوا: لا.

«قال عثمان: ويلك يا أبا ذر! أتكذب على رسول الله (ص)؟.

«فقال أبو ذر لمن حضر: أما تدرون أني صدقتُ؟

«قالوا: لا واللهِ؛ ما ندري.

«فقال عثمان: ادعوا لي علياً. فلما جاء قال عثمان لأبي ذر: اقصص عليه حديثك في بني أبي العاص. فأعاده. فقال عثمان لعليّ: أسمعتَ هذا من رسول الله (ص)؟

قال عليٌّ (ع): «لا، وقد صدق أبو ذر.

فقال عثمان: «كيف عرفتَ صدقَه؟.

---

(١) أنساب الأشراف: ٥/ ٥٣.

قال عليٌّ (ع): «لأني سمعتُ رسولَ الله (ص) يقول: «ما أظلَّت الخضراء ولا أقلَّت الغبراء من ذي لهجةٍ أصدق من أبي ذر.

«فقال مَنْ حضر: أمَّا هذا فسمعناه كلنا من رسول الله (ص).

«فقال أبو ذر: «أُحدِّثكم أني سمعتُ هذا من رسول الله (ص) فتتهمونني، ما كنتُ أظنُّ أني أعيش حتى أسمع هذا من أصحاب محمد (ص)»[(١)].

وفي رواية الواقدي التي أخرجها بإسناده عن صهبان قال:

«رأيت أبا ذر يوم دُخِل به على عثمان؛ فقال له: أنتَ الذي فعلتَ وفعلتَ.

«فقال له أبو ذر: نصحتُك فاستغششتَني، ونصحتُ صاحبك فاستغشَّني.

«فقال عثمان: كذبتَ؛ ولكنك تريد الفتنة وتحبها، وقد أنغلتَ الشامَ علينا.

«فقال له أبو ذر: اتَّبِعْ سنَّة صاحبَيْك لا يكن لأحدٍ عليك كلام.

«قال عثمان: ما لك وذلك لا أُمَّ لك.

«قال أبو ذر: واللهِ ما وجدتُ لي عذراً إلاَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

«فغضب عثمان وقال: أشيروا عَليَّ في هذا الشيخ الكذَّاب؛ إمَّا أن أضربه أو أحبسه أو أقتله؛ فإنه قد فرَّق جماعة المسلمين، أو أنفيه من أرض الإسلام.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٥٥ ـ ٥٦ و٨/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩، وقريب منه في فتوح ابن أعثم: ٢/ ١٥٦ ـ ١٥٧.

«فتكلَّم عليٌّ (ع) وكان حاضراً... فأجابه عثمان بجوابٍ غليظ... وأجابه (ع) بمثله»[١].

«ثم إنَّ عثمان حظر على الناس أن يقاعدوا أبا ذر أو يكلّموه»[٢]، كما حظر على أبي ذر نفسه أن يحدِّث الناس ويفتيهم. وأخرج ابن سعد عن ابن مرثد عن أبيه قال:

«جلستُ إلى أبي ذر الغفاري؛ إذ وقف عليه رجل فقال: ألم ينهك أمير المؤمنين عن الفتيا؟ فقال أبو ذر: واللهِ لو وضعتم الصمصامة على هذه ـ وأشار إلى حلقه ـ على أن أترك كلمة سمعتُها من رسول الله (ص) لأنفذتُها قبل أن يكون ذلك»[٣].

وفي لفظ أبي كثير عن أبيه قال:

«أتيتُ أبا ذر وهو جالس عند الجمرة الوسطى؛ وقد اجتمع الناس عليه يستفتونه، فأتاه رجل فوقف عليه فقال: ألم ينهك أمير المؤمنين عن الفتيا؟ فرفع رأسَه ثم قال: أرقيب أنت عَليّ؟ لو وضعتم الصمصامة على هذه ـ وأشار بيده إلى قفاه ـ ثم ظننتُ أني أُنفذ كلمة سمعتُها من رسول الله (ص) قبل أن تحتزوا عَليّ لأنفذتُها»[٤].

وفي حديث الأحنف بن قيس قال:

«كنتُ بالمدينة فإذا أنا برجلٍ يفرُّ الناس منه حين يرونه، قلتُ: مَنْ أنت؟ قال: أنا أبو ذر صاحب رسول الله (ص). قلتُ: ما يُفِرُّ الناسَ؟

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٥٦ ـ ٥٧ و٨/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠، وقريب منه في فتوح ابن أعثم: ٢/ ١٥٨.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٥٧ و٨/ ٢٦٠.
(٣) طبقات ابن سعد: ٢/ق ٢/ ١١٢.
(٤) حلية الأولياء: ١/ ١٦٠ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٤٥.

قال: إني أنهاهم عن الكنوز بالذي كان ينهاهم عنه رسول الله (ص)»[١].

وهذا الأحنف هو نفسه الذي روينا فيما تقدَّم مشاهدته فرار الناس بالشام من أبي ذر؛ خوفاً من بطش حاكم دمشق وانتقامه.

❀ ❀ ❀

ولم يجد عثمان لهذه المعضلة حلاً إلاَّ أن ينفي أبا ذر من المدينة؛ وأن يكون هذا النفي إلى مكان قفر خالٍ من الناس ليس فيه من يسمع ويصغي ويتأثر بهذا المجاهد المجاهر بالحق. وكانت «الرَّبَذَة»[٢] هي المكان الأوحد الجامع لمواصفات المنفى المطلوب، فاختارها الخليفة موضع نفيه.

وروى المؤرخون خلاصة اللقاء الأخير بين الخليفة وصاحب رسول الله (ص) فقالوا:

جيء بأبي ذر إلى عثمان، فلما «وقف بين يديه قال:

«ويحك يا عثمان! أما رأيتَ رسولَ الله (ص) ورأيتَ أبا بكر وعمر؟ هل رأيتَ هذا هَدْيَهم؟، إنك لتبطش بي بطش جبَّار!.

«فقال: اخرج عنَّا من بلادنا!!.

«فقال أبو ذر: ما أبغض إليَّ جوارك، فإلى أين أخرج؟

«قال: امض على وجهك هذا، ولا تعدوَنَّ الربذة»[٣].

وهكذا فُرِض على أبي ذر مغادرة مدينة رسول الله (ص) جوراً

(١) مسند أحمد بن حنبل: ٥/ ١٦٤ و١٧٦.
(٢) يراجع في الربذة: معجم ما استعجم: ٢/ ٦٣٦ ومعجم البلدان: ٤/ ٢٢١ ـ ٢٢٢.
(٣) فتوح ابن أعثم: ٢/ ١٥٨ ـ ١٥٩ وشرح نهج البلاغة: ٣/ ٥٧.

وتعسفاً؛ وأُكره على الإقامة الجبرية في هذه القرية الموحشة ظلماً وعدواناً. وقد نصَّ على ذلك معظم الرواة والمؤرخين؛ ومنهم البلاذري وابن أعثم والمسعودي وابن عبد البَرِّ وابن الأثير وابن أبي الحديد، وكثير غيرهم[(١)].

و«أمر عثمان فنودي في الناس أن لا يكلِّم أحدٌ أبا ذر ولا يشيِّعه»[(٢)]، و«أمر مروانَ بن الحكم أن يُخْرِج أبا ذر من المدينة على بعيرٍ بغير وطاء»، «فخرج به، وتحاماه الناس»، وتمرَّد جماعة على أمر الخليفة فتبعوه «يشيِّعونه ويحزنون لحزنه، منهم: علي بن أبي طالب والحسن والحسين ـ (رض) ـ وعمار بن ياسر والمقداد بن الأسود» و«عقيل بن أبي طالب»[(٣)].

وكان من كلام علي (ع) لأبي ذر وهو يودِّعه:

«يا أبا ذر؛ إنك غضبتَ لله فارْجُ مَنْ غضبتَ له. إن القوم خافوك على دنياهم وخفتَهم على دينك، فاتركْ في أيديهم ما خافوك عليه، واهربْ منهم بما خفتَهم عليه، فما أحوجهم إلى ما منعتَهم، وما أغناك عما منعوك. وستعلم مَن الرابح غداً؛ والأكثر حسداً، ولو أن السماوات والأرضين كانتا على عبدٍ رتقاً ثم اتَّقى الله؛ لجعل اللهُ له منهما مخرجاً. لا يؤنسنَّك إلا الحق، ولا يوحشنك إلا الباطل، فلو قبلتَ دنياهم لأحبُّوك، ولو قرضتَ منها لأمنوك»[(٤)].

---

(١) أنساب الأشراف: ٥/ ٥٣ و٥٤ و٥٧ ومروج الذهب: ٢/ ٢٢٩ والاستيعاب: ٢/ ٢١٥ وأسد الغابة: ١/ ٣٠١ وشرح نهج البلاغة: ١/ ١٩٩ و٣/ ٢٨ و٨/ ٢٥٨ و٢٦٠.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٨/ ٢٥٢.

(٣) فتوح ابن أعثم: ٢/ ١٥٩ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٢٥٢.

(٤) شرح نهج البلاغة: ٨/ ٢٥٢.

ثم التفت عليٌّ (ع) إلى مَنْ معه وقال: ودِّعوا أبا ذر.

«فتكلم عقيل فقال: ما عسى أن نقول يا أبا ذر؛ وأنت تعلم أنَّا نحبك، وأنت تحبنا، فاتق الله فإن التقوى نجاة، واصبر فإن الصبر كرم. واعلم أن استثقالك الصبر من الجزع؛ واستبطاءك العافية من اليأس؛ فدع اليأس والجزع».

«ثم تكلم الحسن فقال: يا عماه؛ لولا أنه لا ينبغي للمودِّع أن يسكت؛ وللمشيِّع أن ينصرف؛ لقَصُرَ الكلامُ وإن طال الأسف. وقد أتى القومُ إليك ما ترى، فضع عنك الدنيا بتذكُّر فراغها، وشُدَّ ما اشتدَّ منها برجاء ما بعدها، واصبر حتى تلقى نبيك (ص) وهو عنك راضٍ».

«ثم تكلم الحسين فقال: يا عماه؛ إن الله تعالى قادر أن يغيِّر ما قد ترى، واللهُ كل يوم هو في شأن، وقد منعك القوم دنياهم ومنعتَهم دينك، فما أغناك عما منعوك وأحوجهم إلى ما منعتَهم، فاسألِ اللهَ الصبر والنصر، واستعِذْ به من الجشع والجزع، فإن الصبر من الدين والكرم، وإن الجشع لا يقدِّم رزقاً؛ والجزع لا يؤخر أجلاً».

«ثم تكلَّم عمار مغضباً فقال: لا آنَسَ اللهُ من أوحشك؛ ولا آمَنَ من أخافك. أمَا واللهِ لو أردتَ دنياهم لأمنوك، ولو رضيتَ أعمالهم لأحبُّوك. وما منع الناسَ أن يقولوا بقولك إلا الرضا بالدنيا والجزع من الموت، ومالوا إلى ما سلطان جماعتهم عليه ـ والملك لمن غلب ـ فوهبوا لهم دينَهم؛ ومنحهم القوم دنياهم، فخسروا الدنيا والآخرة؛ ألا ذلك هو الخسران المبين».

«فبكى أبو ذرّ ـ رحمه الله ـ وكان شيخاً كبيراً وقال: رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة. إذا رأيتُكم ذكرتُ بكم رسول الله (ص)، ما لي بالمدينة سكن ولا شجن غيركم. إني ثقلتُ على عثمان بالحجاز؛ كما ثقلتُ على

معاوية بالشام، وكره أن أُجاور أخاه وابن خاله بالمِصرَيْن [يعني الكوفة والبصرة] فأُفسِد الناسَ عليهما، فسيَّرني إلى بلدٍ ليس لي به ناصر ولا دافع إلاَّ الله، واللهِ ما أُريد إلا اللهَ صاحباً، وما أخشى مع اللهِ وحشة»[١].

«وتقدَّم مروان بن الحكم إلى علي ـ(رض) ـ فقال: أليس قد أمر أمير المؤمنين أن لا يخرج أحدٌ مع هذا الشيخ ولا يشيِّعه أحد من الصحابة؟.

«فرفع علي ـ(رض) ـ قضيباً كان في يده فضرب به بين أُذني بعير مروان ثم قال: إليك عنَّا يا ابن الزرقاء، أمثلك يعترض علينا في الذي نصنع».

«فرجع مروان إلى عثمان فأخبره بذلك... فأرسل إليه عثمان فدعاه فقال: ألم آمرْ أن لا يُشَيَّع أبو ذر فلِمَ شيَّعتَه أنت وغيرك؟. فقال علي ـ(رض) ـ: ليس كل ما تأمر به أنت يجب أن نقبل وإن كان غير صواب... ثم وثب علي ـ(رض) ـ من عند عثمان مغضباً حتى صار إلى منزله»[٢].

وفي لفظ أبي بكر الجوهري وقد رواه عن ابن عباس: أن عثمان قال لعليّ: «أما بلغكَ نَهْيي عن كلام أبي ذر؟، قال: أوَ كلما أمرتَ بأمرِ معصيةٍ أطعناك فيه؟!»[٣].

وفي نصِّ البلاذري قال: «وجرى بين علي وعثمان في ذلك كلام، حتى قال عثمان: ما أنت بأفضل عندي منه، وتغالظا. فأنكر الناس قول عثمان»[٤].

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٨/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤.
(٢) فتوح ابن أعثم: ٢/ ١٦٠.
(٣) شرح نهج البلاغة: ٨/ ٢٥٤.
(٤) أنساب الأشراف: ٥/ ٥٤.

وروى الحافظ ابن عبد البَرِّ: أن أبا الدرداء لما بلغه نبأُ نفي أبي ذر إلى الربذة قال: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، لو أن أبا ذرٍّ قطع مني عضواً ما هجتُه؛ لِمَا سمعتُ من رسول الله (ص) يقول فيه»[1].

وفي رواية الإمام أحمد بن حنبل فيما أسنده إلى أبي الدرداء: أنه قال: «ارتقبهم واصطبر؛ كما قيل لأصحاب الناقة. اللهم إن كذَّبوا أبا ذر فإني لا أكذِّبه، اللهم وإن اتَّهموه فإني لا أتَّهمه، اللهم وإن استغشُّوه فإني لا أستغشه، فإن رسول الله (ص) كان يأتمنه حين لا يأتمن أحداً، ويسرُّ إليه حين لا يسرُّ إلى أحد. أمَا والذي نفس أبي الدرداء بيده لو أن أبا ذر قطع يميني ما أبغضتُه؛ بعد الذي سمعتُ رسول الله (ص) يقول: (ما أظلَّت الخضراء ولا أقلَّت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذرّ)[2]».

❀ ❀ ❀

لقد كانت إجراءات الخلافة وموقفها الفظّ من هذا الصحابي الزاهد المجاهد الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر؛ مثيراً لسخط الساخطين ونقمة الناقمين، كما كان في الوقت نفسه بياناً عملياً لأساليب الحكم وطرائقه في مطاردة خصومه ومخالفيه وإن يكن أحدهم حبيب رسول الله (ص) ورابع المسلمين.

ويبدو أن ضجة السخط والإنكار قد بلغت من الشدة والعنف حداً أجبر مؤرخي السلطة وكتَّاب الدولة على محاولة إخفاء هذه الفضيحة والتستّر عليها بالمقدار الممكن، بل لم يجد الطبري بدّاً من الاعتراف

---

(١) الاستيعاب: ١/ ٢١٨.

(٢) مسند أحمد بن حنبل: ٥/ ١٩٧ ومجمع الزوائد: ٩/ ٣٣٠.

بذلك قائلاً: «كرهتُ ذِكْرَ أكثرها»[١] ومقتصراً على سرد ما يقول العاذرون دون غيرهم من الرواة.

وكان أبرز من روى عنه أولئك العاذرون وأسندوا إليه في هذا الموضوع هو سيف بن عمر التميمي الكوفي[٢] الذي زعم أن أبا ذر قد خرج إلى الربذة برغبته واختياره، وأنه قد استأذن عثمان في ذلك فأذن له، فخرج أبو ذر «حتى نزل الربذة فخطَّ بها مسجداً، وأقطعه عثمان صرمةً من الإبل، وأعطاه مملوكَيْن»[٣].

ثم زاد سيف بن عمر في تلفيقاته وموضوعاته فادعى أن أبا ذر لما نزل الربذة ـ وكان ذلك من قبل نفسه ـ «أُقيمت الصلاة؛ وعليها رجل يلي الصدقة، فقال: تقدَّم يا أبا ذر، فقال: لا؛ تقدَّم أنت، فإن رسول الله (ص) قال لي: اسمعْ وأطعْ وإن كان عليك عبد مجدَّع!!»[٤].

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٨٣.

(٢) كانت معظم روايات العاذرين التي أوردها الطبري هي رواياته عن السريّ عن شعيب عن سيف بن عمر، وهؤلاء الثلاثة مرفوضون رفضاً قاطعاً من المعنيين بأحوال الرجال وموازينهم وشؤون حديثهم: إن السري مطعون فيه، سواء أكان المراد به السري بن إسماعيل الهمداني (تهذيب التهذيب: ٣/ ٤٥٩ ـ ٤٦٠) أم السري بن عاصم الهمداني (لسان الميزان: ٣/ ١٣).
وإن شعيب بن إبراهيم كذلك (لسان الميزان: ٣/ ١٤٥).
أما سيف بن عمر فقد قال عنه ابن معين: ضعيف الحديث، وقال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال أبو داوود: ليس بشيء، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الأثبات؛ وكان يضع الحديث؛ واتهم بالزندقة، وقال البرقاني عن الدارقطني: متروك، وقال الحاكم: اتهم بالزندقة وهو في الرواية ساقط، وقال ابن أبي حاتم: متروك الحديث، وقال ابن حجر العسقلاني: سيف متروك فبطل الحديث. (الاستيعاب: ٣/ ٢٥٢ والإصابة: ٣/ ٢٣٠ و٤/ ٣٨٦ وتهذيب التهذيب: ٤/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦ ومجمع الزوائد: ١٠/ ٢١).

(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٨٤.

(٤) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥.

وبعد أن أفرغ سيفٌ هذا كلَّ ما في جعبة اختلاقه من أقاصيص وأساطير ـ وقد أوردها الطبري غير متأثم ولا متحرج ـ، ختم ابن جرير حديثه قائلاً:

«وأما الآخرون فإنهم رووا في سبب ذلك أشياء كثيرة وأموراً شنيعة، كرهتُ ذكرها»[١]، فطوى عنها كشحه ولوى جيده؛ ولكنه لم ينفها ولم يحكم بكذبها بل لم يشك في صحتها أدنى شك. ولعله أراد بهذه الجملة الصغيرة لفظاً والعظيمة معنىً أن يجمع بين رضا ضميره في إشارته إلى تلك «الأشياء الكثيرة» و«الأمور الشنيعة» بلا تشكيك فيها أو تكذيب؛ وبين السير ضمن الخط التاريخي (السلطوي) العام بكراهةِ ذكرِها كما قال.

وخَلَفَ بعد الطبري خَلْفٌ سَرَّته أكاذيبُ سيف ومخاريقه ـ وإن يكن وضّاعاً متروكاً ساقطاً متهماً بالزندقة ـ، فاعتمدوا عليه[٢] وعلى بعض من كان على شاكلته، فأبوا القول بنفي عثمان أبا ذرٍّ قسراً، بل افترضوا أن مسير أبي ذر إلى الربذة ومفارقته مدينة الرسول وعودته بعد الهجرة أعرابياً إنما كان باختياره المحض ورغبته الخالصة.

وأبهج هؤلاء جدّاً ما زعمه سيفٌ من أن أبا ذر قد استأذن عثمان

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٨٦. وقد علق بروكلمان على رواية الطبري عن سيف قائلاً: «كان سيف... يحرِّف الأحاديث والأحداث، يعظِّم بعضاً ويحقِّر بعضاً، ولكنه كان يحسن الوصف والبيان، فاغترَّ الطبري بذلك واختار كتبه مصدراً أصيلاً في تاريخه» تاريخ الأدب العربي/ الترجمة العربية: ٣/٣٦.

(٢) ذهب أحمد راتب عرموش في مقدمة كتاب الفتنة: ٢٧؛ إلى التفريق بين سيف المحدّث (وأنه لم يكن من رواة الحديث المعتمدين) وسيف المؤرخ (وأنه عمدة في التاريخ). ولم نفهم لهذا التفريق وجهاً أو معنى، لأن العمدة عمدة في الحديث والتاريخ، وغير المعتمد مرفوض في كليهما على كل حال.

في الخروج من المدينة، فقال له عثمان: «أو تستبدل بها إلاَّ شرّاً منها، قال: أمرني رسول الله (ص) أن أخرج منها إذا بلغ البناءُ سَلْعاً، قال: فانفذْ لما أمركَ به. فخرج حتى نزل الربذة»، وأرسل إليه عثمان: «أنْ تَعاهَدِ المدينةَ حتى لا ترتدَّ أعرابياً[1]»!!!.

وكان آخر ما وقفنا عليه من وحي هذه «السيفيَّات» وعطائها الخالد ما كتبه صادق الجميلي عن مأساة أبي ذر، وقد جاء فيه:

«اختلفت نظرية أبي ذر ومن تبعه؛ ونظرية معاوية ومن على رأيه ومنهم سيدنا عثمان ـ (رض) ـ وهو خليفة المسلمين ورأيه هو النافذ شرعاً وعلى الرعية السمع والطاعة... وأراد الخليفة عثمان ـ (رض) ـ أن يجتمع بأبي ذر ـ (رض) ـ فطلبه إليه. فبُلِّغ أبو ذر بأمر الخليفة، وكان أبو ذر قد عاهد الرسول الكريم على أن يطيع خلفاءه، فاستجاب لدعوة عثمان ـ (رض) ـ وقال: لو أمرني عثمان أن أمشي على رأسي لمشيتُ!!. ووصل أبو ذر المدينة وطلب مقابلة الخليفة ليطمئنه على حسن مقصده، فلما دخل عليه استقبله عثمان والابتسامة لا تفارق محيَّاه!! قائلاً له: مرحباً وأهلاً بأخي، فقال أبو ذر: مرحباً وأهلاً بأخي... وبعد حوار طويل مع أمير المؤمنين راجع أبو ذر نفسه ورأى أن الأمور لا تصلح إلاَّ بطاعة من بيده الأمر... ثم خرج أبو ذر مبتسماً... يقول: لو أن عثمان صلبني على أطول خشبةٍ لسمعتُ وأطعتُ وصبرتُ واحتسبتُ ورأيتُ أن ذلك خير لي»!!!.

ويقول هذا الكاتب في ختام كلامه:

«وتنتهي قصة هذا الرجل الكريم أن يطلب من أمير المؤمنين عثمان

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٨٤.

أن يعتزل القوم ليعيش بقية أيامه بعيداً عنهم؛ فيختار لنفسه منطقة الربذة، فسار إليها فمكث فيها حتى أدركته الوفاة»[١].

وهكذا أراد الحاكمون ومرتزقتهم وكُتَّاب التاريخ (السلطوي) على امتداد العصور؛ إسدال الستار على هذه القضية المفجعة والحادثة المؤلمة؛ والتغافل عن كل أخبارها الكثيرة ومصادرها الشهيرة، فجعلوا من بضعة روايات مهلهلة نسجها الوضاعون والمتروكون والمجهولون مصدراً وحيداً فريداً لا يشوبه شك ولا يعتريه ريب.

ولكنَّ باحثاً محققاً كعز الدين بن أبي الحديد المعتزلي ـ وقد أبى أن يقتصر على روايات (العاذرين) ـ درس ملفَّ هذه القضية بروح المؤرخ المحايد، فوصل إلى نتيجة حاسمة في هذا الشأن، فقال:

«اعلم أن الذي عليه أكثر أرباب السيرة وعلماء الأخبار والنقل: أن عثمان نفى أبا ذرٍّ أولاً إلى الشام، ثم استقدمه إلى المدينة لما شكا منه معاوية، ثم نفاه من المدينة إلى الربذة لما عمل بالمدينة نظير ما كان يعمل بالشام»[٢].

وكان قد روى هذا الباحث نفسه عن الشريف المرتضى علي بن الحسين قوله في هذا الموضوع:

«الأخبار في هذا الباب أكثر من أن تُحصَر... وما يحمل نفسَه على ادِّعاء أن أبا ذرٍّ خرج مختاراً إلى الربذة إلاَّ مكابر. ولسنا ننكر أن يكون... قد رُوِي؛ إلاَّ أنه من الشاذِّ النادر. وبإزاء هذه الرواية الفذَّة

(١) مجلة التربية الإسلامية البغدادية/ العدد ١٢ ـ السنة ٢٨/١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م/ ص٣٥ ـ ٣٧.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٨/٢٥٥ ـ ٢٥٦.

كل الروايات التي تتضمن خلافها. . . وكيف يظن عاقل أن أبا ذر يختار الربذة منزلاً»[١].

ولما وقف على هذا الملف باحثٌ حافظ للحديث كالذهبي ـ يعلم شموخ مقام أبي ذر في الإسلام؛ وشدة حب النبي (ص) له والتصاقه به ـ لم ير مناصاً من محاولة تلطيف الأجواء وتأويل الوقائع فقال:

«كان أبو ذر يسمع الحديث من رسول الله فيه الشدَّة، ثم يخرج إلى قومه فيسلّم عليهم. ثم إن رسول الله يرخِّص فيه بعدُ فلم يسمعه أبو ذر. فتعلق أبو ذر بالأمر الشديد»[٢].

وكلام الذهبي هذا ـ إذ يصحح (نظرية) السلطة في تفسير النصوص ـ يحمل من معاني الدفاع عن أبي ذر ما لا يخفى على القارىء اللبيب، ويدين الخلافة من طرف خفي فيما فعلت مع هذا الصحابي الجليل الذي تعلَّق بما سمع من رسول الله (ص) وإن يكن فيه الشدة في مصطلح الحاكمين.

والغريب في أمر رحلة أبي ذر إلى الربذة أنها أثارت غضب بني غفار وأحلافهم على عثمان[٣]، ولا نعلم لماذا يغضبون على عثمان مما عمل صاحبهم بمحض إرادته ورغبته؟!.

وإذا كانت هذه الرحلة باختيار أبي ذر ورضاه كما زعم السيفيون فلماذا أنكر الزبير ذلك على عثمان فقال له:

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٥٨.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٥٠.
(٣) أنساب الأشراف: ٥/ ٢٦ و٦٨ وفتوح ابن أعثم: ٢/ ٢١٢ ومروج الذهب: ٢/ ٢٣٢.

«ما لك ولأبي ذرٍّ حبيب رسول الله (ص)، سيَّرْتَه حتى مات غريباً طريداً»(١).

وهل يلتئم هذا الاختيار المدَّعى مع ما رواه البلاذري عن المهاجرين، قال:

«لما بلغ عثمانَ موتُ أبي ذرٍّ بالربذة قال: رحمه الله. فقال عمار بن ياسر: نعم؛ فرحمه الله من كل أنفسنا. فقال عثمان: يا عاضَّ أير أبيه أتراني ندمتُ على تسييره، وأمر فدُفِع في قفاه وقال: الحقْ بمكانه... فقال له عليٌّ: يا عثمان؛ اتَّقِ الله، فإنك سيَّرتَ رجلاً صالحاً من المسلمين فهلك في تسييرك، ثم أنت الآن تريد أن تنفي نظيره. وجرى بينهما كلام حتى قال عثمان: أنت أحق بالنفي منه، فقال علي: رُمْ ذلك إن شئتَ. واجتمع المهاجرون فقالوا: إن كنتَ كلما كلَّمك رجل سَيَّرْتَه ونفيتَه فإن هذا شيء لا يسوغ»(٢).

وانتهى أبو ذر إلى الربذة في مسيره هذا منفِّذاً أمر السلطان، وأقام بها صابراً محتسباً يشكو إلى الله تعالى عنت الحاكمين وظلم الظالمين. وكانت تُسمَع منه بين الفينة والفينة نفثة من نفثات الشجا المكبوت؛ وفضض من طغيان الألم الدفين، مثل قوله:

«ما ترك الحقُّ لي صديقاً»(٣).

وقوله:

«ما زال بي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لم يترك الحقُّ لي صديقاً»(٤).

---

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/ ١٨٧.
(٢) أنساب الأشراف: ٥/ ٥٤ ـ ٥٥.
(٣) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٥٨.
(٤) أنساب الأشراف: ٥/ ٥٥.

وقوله:

«ردّني عثمان بعد الهجرة أعرابياً»[(١)].

❀ ❀ ❀

وبقي هذا الصحابي الصادق الإيمان منفيّاً في الربذة؛ حتى توفي هناك ـ في الأصح ـ سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة[(٢)].

وأخرج ابن سعد تفصيل خبر وفاته ودفنه فقال:

«لما حضر أبا ذرٍّ الموتُ بكتْ امرأتُه، فقال لها: ما يُبكيكِ؟، قالت: أبكي لأنه لا يَدَ لي بتغييبك وليس لي ثوب يسعك. قال: فلا تبكي؛ فإني سمعتُ رسول الله (ص) يقول لنفرٍ أنا فيهم: ليموتنَّ منكم رجلٌ بفلاةٍ من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين، وليس من أولئك النفر رجلٌ إلاّ قد مات في قرية وجماعة من المسلمين، وأنا الذي أموت بفلاة. واللهِ ما كَذبتُ ولا كُذِّبت، فأبصري الطريق، فقالت: أنّى وقد انقطع الحاجُّ وتقطَّعت الطرق. فكانت تشتدُّ إلى كثيب تقوم عليه تنظر ثم ترجع إليه فتمرِّضه، ثم ترجع إلى الكثيب.

«فبينا هي كذلك إذا هي بنفرٍ تخدّبهم رواحلُهم كأنهم الرَّخَم على رحالهم، فألاحتْ بثوبها فأقبلوا حتى وقفوا عليها؛ قالوا: ما لكِ؟، قالت: امرؤ من المسلمين يموت تكفِّنونه، قالوا: ومَنْ هو؟، قالت: أبو ذر. ففدَّوه بآبائهم وأمَّهاتهم. . . حتى جاؤوه، فقال: أبشِروا، فحدَّثهم

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٥٨.

(٢) طبقات خليفة: ١/ ٧١ والاستيعاب: ١/ ٢١٦ والمعجم الكبير: ٢/ ١٥٦ وأسد الغابة: ١/ ٣٠٢ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٥٤ والإصابة: ٤/ ٦٥ ومجمع الزوائد: ٩/ ٣٣٢.

الحديث الذي قال رسول الله (ص)، ثم قال: لو كان لي ثوب يسعني كفناً لم أُكَفَّن إلاَّ في ثوبٍ هو لي؛ أو لامرأتي ثوب يسعني لم أكفَّن إلا في ثوبها، فأُنشدكم اللهَ والإسلامَ أن يكفنّي رجل منكم كان أميراً أو عريفاً أو نقيباً أو بريداً، فكلُّ القوم قد كان قارف بعضَ ذلك إلاَّ فتىً من الأنصار قال: أنا أكفِّنك فإني لم أُصبْ مما ذكرتَ شيئاً، أكفِّنك في ردائي هذا الذي عَليَّ وفي ثوبين في عيبتي من غَزْل أُمّي حاكَتْهما لي، قال: أنت فكفِّنّي»، فلما توفي كفَّنه الأنصاري في النفر الذين شهدوه، وكلهم يمانٍ[1].

وفي نصّ ابن أعثم في خبر وفاة أبي ذرٍّ قال:

«لما حضرتْ أبا ذر الوفاةُ جعلت امرأته أُمُّ ذرّ تبكي... قال: لا تبكي يا أمَّ ذر؛ فإن رسول الله (ص) خبَّرني أني أموت في أرض غربة؛ ويلي أمري ودفني قوم صالحون. ولكن انظري يا أمَّ ذر إذا أنا متُّ فاستعيني بمن يذبح لكِ شاة من غنمي فاطبخيها والزمي قارعة الطريق، فإذا مرَّ بكِ نفر من أهل الإسلام فقولي لهم: هذا أبو ذر صاحب رسول الله (ص) قد قضى نحبه ولحق بربِّه؛ فواروه رحمكم الله. فإنهم سيلون أمري...

«ثم توفي أبو ذر ـ رحمه الله ـ فجلست امرأته عند رأسه مغمومة بأمره؛ وقد اصطنعت الشاةَ كما أمرها أبو ذر. فإذا هي برهط قد أقبلوا

---

(١) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ١٧٢ ـ ١٧٣. والنص في مسند أحمد: ٥/١٥٥ وحلية الأولياء: ١/ ١٧٠ ودلائل النبوة: ٦/ ٤٠٢ وأسد الغابة: ١/ ٣٠٢ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٥٥ ـ ٥٦. وقريب منه في الاستيعاب: ١/ ٢١٦ ـ ٢١٧ ومن وافقت كنيته كنية زوجه من الصحابة: ١٧ ـ ١٨ وشرح نهج البلاغة: ١٥/٩٩ ـ ١٠٠ ومجمع الزوائد: ٩/ ٣٣١ ـ ٣٣٢.

من بيت الله الحرام؛ منهم: الأحنف بن قيس التميمي وصعصعة بن صوحان العبدي... وتاسع القوم الأشتر... فنظروا إلى امرأة قاعدة على قارعة الطريق فظنوا أنها متعرِّضة لمعروفهم، فلما دنوا منها وثبتْ قائمة وقالت: يا هؤلاء؛ هذا أبو ذر صاحب رسول الله (ص) قد قضى نحبه ولحق بربه، وقد عجزتُ عن أمره وما أدري ما أصنع. فضجَّ القوم بالبكاء والنحيب، ثم قالوا: رحم الله أبا ذر وصلَّى على روحه، ثم نزلوا عن رواحلهم، وأخذوا في غسله، ثم تنافسوا في كفنه... وأخرج بعضهم حنوطاً فحنَّطه، ثم كُفِّن، وحُفرت له حفيرة، وصلّوا عليه، وألحدوه في حفرته.

«فلما سوَّوا عليه التراب قام الأشتر على قبره فحمد الله وأثنى عليه، وذكر نبيه محمداً (ص)، ثم قال:

«اللهم هذا أبو ذر جندب بن جنادة بن سكن الغفاري صاحب رسولك محمد (ص)، اتَّبع ما أنزلتَ من آياتك، وجاهد في سبيلك، ولم يغيِّر ولم يبدِّل، ولكن رأى منكراً فأنكره بلسانه وقلبه، فحُقر وحُرم حتى افتقر، وضُيِّع حتى مات غريباً في أرض غربة. اللهم فأعطه من الجنة حتى يرضى، واقصم مَنْ طرده وحرمه ونهاه من مهاجرة حرم رسولك محمد (ص)»[١].

وفي نص الطبري الذي أخرجه عن عبد الله بن مسعود قال:

«لما نفى عثمان أبا ذرٍّ إلى الربذة وأصابه بها قَدَرُه، ولم يكن معه أحدٌ إلاَّ امرأته وغلامه، فأوصاهما أن غسِّلاني وكفِّناني وضَعاني على قارعة الطريق، فأول ركبٍ يمرُّ بكم فقولوا: هذا أبو ذر صَاحب

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/ ١٦٠ ـ ١٦٢.

رسول الله (ص) فأعينونا على دفنه. فلما مات فَعَلا ذلك به ثم وضعاه على قارعة الطريق. وأقبل عبد الله بن مسعود في رهطٍ من أهل العراق عُمَّاراً، فلم يَرُعْهم إلا بالجنازة على ظهر الطريق قد كادت الإبل أن تطأها، فقام إليه الغلام فقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله (ص) فأعينونا على دفنه، فاستهلَّ عبد الله يبكي ويقول: صدق رسول الله، تمشي وحدك وتموت وحدك وتُبعَث وحدك. ثم نزل هو وأصحابه فواروه، ثم حدَّثهم عبد الله بن مسعود حديثه وما قال له رسول الله (ص) في مسيره إلى تبوك»[1].

وكان جزاء عبد الله بن مسعود على قيامه بشؤون جنازة هذا الميت المسلم الغريب «أن عثمان ضرب ابن مسعود أربعين سوطاً في دفنه أبا ذر»[2].

وهكذا فليكن جزاء مَنْ سعى إلى تطبيق حكم الله تعالى في تجهيز أحد أموات المسلمين؛ على يد رأس السلطة التي تدَّعي أنها تستمد شرعية وجودها من حكم الله تعالى؛ وتبطش بكل خصومها بحجة خروجهم على هذه الشرعية المدَّعاة!!!.

۞ ۞ ۞

وانتقل أبو ذر إلى جوار ربه تحفه الرحمة والرضوان، وغادر الحياة الدنيا ـ كما يغادرها المؤمنون الصالحون ـ طاهر الثوب ثابت القدم لم تأخذه في الحق لومة لائم، وبقي اسمه الكريم ـ على مرِّ الدهور

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ١٠٧. ومثله في طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ١٧٣ وشرح نهج البلاغة: ٣/ ٤٤ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٥٦، ومختصر منه في الاستيعاب: ٢/ ٢١٥. ونُصَّ على صلاة ابن مسعود عليه في طبقات خليفة: ١/ ٧١ وأنساب الأشراف: ٥/ ٥٦ وجمهرة أنساب العرب: ١٨٦ والاستيعاب: ٤/ ٦٤ وأسد الغابة: ٥/ ١٨٧ والإصابة: ٤/ ٦٥.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٤٤.

والعصور ـ خالداً في أعماق التاريخ رمزاً من رموز الجهاد الإسلامي الأصيل، وظلت ذكراه العطرة في مصادر التراث محاطةً بما هو أهله من الإجلال والتقدير وجميل الثناء.

وحسبه عزاً ومجداً أن يؤثر عن أمير المؤمنين عليّ (ع) ـ وهو باب مدينة العلم ـ قوله فيه:

«ذاك رجل وعى علماً عجز عنه الناس»[١].

وكفاه انتصاراً على جميع فصائل أعدائه قول القائلين فيه:

«ما رُؤي لأبي ذر في أصحاب النبي (ص) شبيه»[٢].

«لم تكن تأخذه في الحق لائمة اللُّوَّام، ولا تفزعه سطوة الولاة والحكّام»[٣].

«كان من أوعية العلم المبرزين في الزهد والورع والقول بالحق»[٤].

«كان من كبار الصحابة، قديم الإسلام»[٥].

«كان رأساً في الزهد والصدق والعلم والعمل، قَوَّالاً بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم»[٦]، «أحد السابقين الأولين، من نجباء أصحاب محمد (ص)»[٧].

---

(١) الاستيعاب: ١/ ٢١٧ و٤/ ٦٤ وأسد الغابة: ٥/ ١٨٧ ومجمع الزوائد: ٩/ ٣٣٢ والإصابة: ٤/ ٦٥.

(٢) مسند أحمد بن حنبل: ٥/ ١٨١، وقد أخرجه عن أبي الأسود الدؤلي.

(٣) حلية الأولياء: ١/ ١٥٦.

(٤) الاستيعاب: ١/ ٢١٧ ومجمع الزوائد: ٩/ ٣٣٢.

(٥) الاستيعاب: ٤/ ٦٢ وأسد الغابة: ٥/ ١٨٦.

(٦) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٢.

(٧) المصدر نفسه: ٢/ ٣١.

«الزاهد المشهور الصادق اللهجة... من السابقين إلى الإسلام»[١].

وإلى أشباه ذلك مما ضمته بطون الكتب وكنوز السلف؛ من إقرارٍ بحق هذا الرجل العظيم واعترافٍ بما كان عليه طيلة حياته الجهادية المباركة، علماً وزهداً؛ وصدقاً واستقامة؛ وسبقاً وتضحية؛ وثباتاً وإصراراً.

وسيجتمع غداً بين يدي جبَّار السماوات والأرض بكل من آذاه وظلمه، فيقف معهم وقفة الحساب الصارم في محكمة العدل المطلق، وأمامهم الكتاب الذي لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولم يفرط بمثقال ذرَّة من خير أو شر في قول أو فعل.

وسيعض الظالمون حينذاك إصبع الندم ولات حين مندم، وسيتمنّى كل واحد منهم الخلاص مما هو فيه ولات حين مناص.

---

(١) الإصابة: ٤/ ٦٣.

مِنَ المؤمنين رجال

[١٣]

المقداد بن عمرو

المِقداد بن عَمرو

اسمه ونسبه

هو: المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن ثُمامة بن مَطْرود بن عمرو بن سعد بن زهير بن لؤي بن ثعلبة بن مالك بن الشَّريد بن أبي أهوز بن أبي فائش بن دُرَيم بن القَيْن بن أهود بن بَهْراء بن عمرو بن الحاف بن قُضَاعة(١).

وتختلف سلسلة النسب ـ زيادة ونقصاناً وكتابة لبعض الأسماء ـ فيما رواه ابن إسحاق في مكان آخر من كتابه؛ وفيما رواه ابن هشام وآخرون من مؤلفي كتب الطبقات والتراجم(٢).

أمّا اشتهاره باسم المقداد بن الأسود؛ فلأنه حالف الأسودَ بن عَبْد يَغُوث بن وَهْب بن عبد مَناف بن زُهرة في الجاهلية؛ فتبنَّاه الأسود ونسبه إليه(٣)، فلما نزل قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥] دُعِي المقداد بن عمرو(٤).

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٣٤٨.

(٢) سيرة ابن هشام: ١/ ٣٤٨ و٢/ ٣٣٧ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١١٤ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٠٤ والمعجم الكبير: ٢٠/ ٢٣٥ وجمهرة أنساب العرب: ٤٤١ وأسد الغابة: ٤/ ٤٠٩ والإصابة: ٣/ ٤٣٣ والدرجات الرفيعة: ٢٢١.

(٣) سيرة ابن هشام: ١/ ٣٤٩ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١١٤ والمعجم الكبير: ٢٠/ ٢٣٥ والاستيعاب: ٣/ ٤٥١ وجمهرة أنساب العرب: ٤٤١ وأسد الغابة: ٤/ ٤٠٩ والدرجات الرفيعة: ٢٢١.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٢٩ و١١٤ والإصابة: ٣/ ٤٣٣.

وكان يلقَّب بالكندي والحضرمي، ولكنه لم يكن كندياً في النسب ولا حضرمياً في موطن القبيلة، وإنما لُقِّب بذلك لأن أباه عمرو بن ثعلبة كان أصاب دماً في قومه، فلحق بحضرموت فحالف كندة وسكن هناك، وتزوَّج[1] فيها «امرأةً من الصَّدِف من بطنٍ يقال لهم: بنو شَكل... فولدتْ له المقداد»[2]، ثم تزوَّجها الأسود بن عبد يغوث الزهري بعد وفاة عمرو والد المقداد[3].

❀ ❀ ❀

ولد المقداد ـ كما أسلفنا ـ في حضرموت، وكانت ولادته قبل البعثة النبوية بـ(٢٤) سنة تقريباً، ومع أن المؤرخين لم ينصوا على تاريخ الولادة هذا؛ فقد اتفقوا على أنه توفي وهو ابن سبعين عاماً أو نحوه كما يأتي، ويكون مقتضى ذلك مولده في التاريخ المذكور أو فيما يقرب منه قبله أو بعده.

وكان له من الكنى: أبو معبد[4]، وأبو الأسود[5]، وقيل: كنيته أبو عمرو[6]، وقيل: أبو سعيد[7].

ونشأ هذا الفتى وترعرع بين لداته ورفاق صباه من أبناء كندة

(١) المنمق: ٤٥٣ وأسد الغابة: ٤/ ٤٠٩ والإصابة: ٣/ ٤٣٣ والدرجات الرفيعة: ٢٢١.
(٢) المنمق: ٤٥٣.
(٣) أنساب الأشراف: ١/ ٢٠٥.
(٤) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ١١٤ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٠٥ والمعجم الكبير: ٢٠/ ٢٣٧ وأسد الغابة: ٤/ ٤٠٩ والدرجات الرفيعة: ٢٢١.
(٥) أسد الغابة: ٤/ ٤٠٩ والدرجات الرفيعة: ٢٢١.
(٦) المعجم الكبير: ٢/ ٢٣٥ والإصابة: ٣/ ٤٣٤.
(٧) الإصابة: ٣/ ٤٣٤.

وفتيانها، ثم حدث بينه وبين أبي شمر بن حجر الكندي نزاعٌ طغى فيه العنف والتعصب على صوت العقل ونداء المنطق، حتى آل الأمر بالمقداد إلى أن يضرب رِجْلَ خصمِه بالسيف ثم يهرب إلى مكة ناجياً بنفسه من الانتقام وأخذ الثأر. ولما انتهى إلى مكة كان لا بدَّ له من الالتجاء إلى أحد رجالاتها الأشدّاء؛ ليحميه من بطش أعدائه ومطاردتهم إياه، وسرعان ما شاهد ـ وهو يتأمل الموقف ويبحث عن الحليف القوي ـ رجلاً «يطوف بالبيت متقلِّداً سيفين»، فقال في نفسه: «ما تقلَّد هذا سيفين إلاَّ وهو منيع، فسأل عنه، فقيل: هذا الأسود بن عبد يغوث بن [وهب بن] عبد مناف بن زهرة [ابن أخي السيدة آمنة بنت وهب؛ وابن خال النبي (ص)][1]، فأتاه المقداد وأخبره وسأل أن يحالفه وأن يجيره»، فرضي الأسودُ بذلك[2].. وتبنَّى المقدادَ فعُرف به. ثم كتب المقداد إلى أبيه يخبره الخبر بتفصيله، فقدم عليه أبواه، واجتمع شمل الأسرة في جوار بيت الله وفي حماية بني زهرة[3].

❀ ❀ ❀

وتزوج المقداد بمكة بعد ذلك بحين، وربما كان بعد عودته من الهجرة إلى الحبشة في الأرجح، وقد ساعده التوفيق على اختيار شريكة حياته ورفيقة جهاده؛ وهي السيدة الجليلة ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف[4]، وأُمها عاتكة بنت أبي وَهْب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم[5].

---

(١) جمهرة أنساب العرب: ٤٤١.

(٢) المنمق: ٤٥٤.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١/ ٢٧٨ والإصابة: ٣/ ٤٣٣.

(٤) المحبر: ٦٤ والاستيعاب: ٤/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣ والإصابة: ٤/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣ و٣/ ٤٣٤.

(٥) طبقات ابن سعد: ٨/ ٣١.

ويروي المؤرخون في هذا الصدد: أن المقداد وعبد الرحمن بن عوف كانا يوماً جالسَيْنِ، فقال ابن عوف للمقداد: «ما لكَ لا تتزوَّج؟ قال: زَوِّجني ابنتك، فغضب عبد الرحمن وأغلظ له. فشكا ذلك للنبي (ص) فقال: أنا أُزوِّجك، فزوَّجه بنت عمه ضباعة»[١]، «ولم يكن للزبير بن عبد المطلب عقب إلاّ من ضباعة وأختها أُمّ الحكم... وروت ضباعة عن النبي (ص) وعن زوجها المقداد. وروى عنها ابن عباس وعائشة وبنتها كريمة بنت المقداد وابن المسيَّب وعروة والأعرج وغيرهم»[٢].

وولدتْ ضباعةُ للمقداد عبدَ الله وكريمة[٣]، وقد قتل عبد الله يوم الجمل ـ وكان من أتباعه ـ، «فمرَّ به علي بن أبي طالب قتيلاً فقال: بئس ابن الأخت أنت»[٤]. ويبدو أن عبد الله هذا لم يتزوج أو تزوَّج ولم يعقب، فقد ذكر ابن حزم أنه «لا عقب للمقداد»[٥].

❀ ❀ ❀

وتكتمل معالم النضج والرجولة وسمات الفروسية والبطولة في هذا الصحابي المجاهد المقدام، فإذا به ملء السمع والبصر؛ ومثار الإعجاب والتقدير. وحسبنا من ذلك ما وصفه به واصفوه فقالوا:

«كان رجلاً فارساً»[٦].

---

(١) الإصابة: ٣/ ٤٣٤. وورد الخبر في طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١١٥ ولم يُسَمَّ فيه ابن عوف؛ وإنما هو «رجل من قريش».
(٢) أسد الغابة: ٥/ ٤٩٥ والإصابة: ٤/ ٣٤٣.
(٣) طبقات ابن سعد: ٨/ ٣١ وأسد الغابة: ٥/ ٤٩٥.
(٤) طبقات ابن سعد: ٨/ ٣١ والإصابة: ٣/ ٦٦.
(٥) جمهرة أنساب العرب: ٤٤١.
(٦) حلية الأولياء: ١/ ١٧٢ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٣٤.

«كان من الرماة المعدودين»[١].

«كان من الفضلاء النجباء»[٢].

كان رجلاً مهيباً، طُوالاً، ضخماً، آدم، ذا بطنٍ، أَعْيَنَ، كثير شعر الرأس، يُصفِّر لحيته ولم تكن بالعظيمة ولا الخفيفة، أقنى، مقرون الحاجبين[٣].

ثم كان ـ قبل ذلك وبعده ـ:

«من أعيان البدريين»[٤].

و«أول مَنْ عدا به فرسٌ في سبيل الله»[٥].

و«مناقبه كثيرة»[٦].

وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

---

(١) أنساب الأشراف: ١/ ٣٢٣ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١١٥ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ٢٥٠.

(٢) الاستيعاب: ٣/ ٤٥١ والدرجات الرفيعة: ٢٢١.

(٣) يراجَع في هذه الصفات كلاً أو بعضاً: أنساب الأشراف: ١/ ٢٠٥ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١١٥ والمعجم الكبير: ٢٠/ ٢٣٥ وأسد الغابة: ٤/ ٤١١ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٧٨ والإصابة: ٣/ ٤٣٤.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١/ ١٨٥.

(٥) المنمق: ٥١٣ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١١٤ والإصابة: ٣/ ٤٣٤.

(٦) أسد الغابة: ٤/ ٤١٠.

ولما بعث الله محمداً (ص) بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وأمره بأن يصدع بالأمر ويجهر بالدعوة ولا تأخذه في سبيل ذلك لومة لائم. أطلق محمد (ص) صرخته الهدَّارة وصيحته المدوِّية، ونادى قومه بأعلى صوته: قولوا لا إله إلاَّ الله تفلحوا. فبادرت قلَّة من أهل مكة إلى الاستجابة لهذه الرسالة السماوية الخالدة والنداء المحمدي المبارك، فدخلوا في دين الله مؤمنين، ولبوا داعي الخير مخلصين، وأطاعوا الأمر الإلهي مذعنين، وعاهدوا الله ورسوله على الجهاد والتضحية والمفاداة حتى الرمق الأخير فصدقوا ما عاهدوا الله عليه.

وكان المقداد بن عمرو من جملة تلك الطليعة الرائدة المتقدمة من المسلمين.

وقد تظافرت الروايات التاريخية على أنه من الأوائل السابقين إلى الإسلام[١]، كما تظافرت في النقل عن الصحابي عبد الله بن مسعود قوله: «أول مَنْ أظهر الإسلام سبعة، فذكر منهم المقداد»[٢].

وثارت ثائرة مشركي مكة ـ وفي طليعتهم القرشيون ـ على هذه

---

(١) حلية الأولياء: ١/ ١٧٢ وأسد الغابة: ٤/ ٤٠٩ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٧٨ والإصابة: ٣/ ٤٣٤.

(٢) الاستيعاب: ٣/ ٤٥١ وأسد الغابة: ٤/ ٤١٠ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٥١ و٢٩٣ والإصابة: ٣/ ٤٣٤ والدرجات الرفيعة: ٢٢١.

الرسالة الإلهية ورسولها الكريم، وأجمع رأي قادتهم وكبرائهم على ضرورة إعلان الحرب الشاملة الضروس على كل من يتَّبع محمداً ويؤمن بدينه ويهتدي بهداه؛ وفي مقدّمتهم المستضعفون الذين لم يكونوا من صميم البيوتات الكبيرة والأسر العريقة، كما اتفقوا على ضرورة الاستمرار في هذه الحرب بلا رأفة ولا هوادة ولا انقطاع حتى القضاء على محمد وصحبه؛ وقَبْر هذه الرسالة المقدَّسة في مهدها قبل التوسع والانتشار.

وبدأ أعداء الله في تنفيذ ما اتفقوا عليه.

وتلقَّى المسلمون الأوائل ـ والمستضعفون منهم خاصة ـ من ألوان الأذى والبلاء والمطاردة والتعذيب؛ ما لا عين رأتْ ولا أُذن سمعتْ، وهم في كل ذلك صابرون ثابتون كالأطواد الشامخة والجبال الراسخة؛ لا تهزهم العواصف ولا تزلزلهم القواصف، بل لا يزيدهم مرور الأيام ـ بما تحمل من تلك الشدائد والمصائب ـ إلاَّ عمقاً في الإيمان؛ وصلابة في الاعتقاد؛ وإصراراً على المضيّ في الطريق.

ولكن رسول الله (ص) ـ وهو العطوف الرؤوف ـ لم يطق صبراً على مشاهدة أصحابه وأحبابه وهم يعانون ما يعانون من عنت وأذىً وهوان على أيدي المشركين ولا يستطيع درء الأذى عنهم وتخفيف العنت عليهم، فأمر هؤلاء المضطَهَدين بالهجرة إلى دار الأمان في الحبشة؛ حتى يأذن الله بالفرج ويجعل لهم مخرجاً مما هم فيه من العذاب. فأطاعوا الأمر وخرجوا متسلِّلين من مكة حتى انتهوا إلى مقصدهم من أرض الحبشة.

وكان المقداد بن عمرو من جملة هؤلاء المهاجرين(١).

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٣٤٨ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١١٤ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٠٥ وأسد الغابة: ٤/ ٤٠٩.

وبلغ المهاجرين الفارّين بدينهم ـ بعد حينٍ من هجرتهم واغترابهم ـ إسلامُ أهل مكة وإذعانهم للحق، فأقبلوا لِمَا بلغهم من ذلك، حتى إذا دنوا من مكة علموا أن ما حُدِّثوا به من إسلام المكيِّين كان باطلاً، فلم يدخل منهم أحدٌ إلاَّ بجوارٍ أو مستخفياً.

وكان المقداد بن عمرو من جملة هؤلاء القادمين[١].

وبقي المقداد في مكة لائذاً بجوار حليفه الأسود الزهري، منذ عودته من الحبشة حتى الهجرة النبوية إلى المدينة المنوَّرة.

❀ ❀ ❀

ولما هاجر النبي (ص) والمسلمون إلى المدينة المنورة لتثبيت دعائم الإسلام وتشييد صرح دولة الحق والعدل، لم يكن المقداد بين أولئك المهاجرين، لعدم قدرته حينذاك على التخلص من القيود المحيطة به[٢]، ولكنه بقي متحرِّقاً إلى الهجرة والالتحاق برفاق العقيدة، ليشاركهم حظهم من الجهاد في سبيل الله، ويساهم معهم في بناء أسس الكيان الإسلامي الوليد.

ويشاء الله تعالى أن يحقق للمقداد حلمه السعيد وأمله المنشود، حين بعث رسول الله (ص) عبيدة بن الحارث بن المطلب في سَرِيَّةٍ فيها ستون رجلاً أو ثمانون، لملاقاة قريش في أسفل ثنيَّة المرَّة، فاستنفر المشركون على عجلٍ كلَّ ما أمكنهم استنفاره من الرجال لصدِّ المسلمين عن الوصول إلى هدفهم الذي يريدون، فرأى كلٌّ من المقداد وعتبة بن غزوان أن الفرصة قد سنحت ولا بدَّ من انتهازها على كل حال، فخرجا

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣ ـ ٥ وأسد الغابة: ٤/ ٤٠٩.
(٢) أسد الغابة: ٤/ ٤٠٩.

فيمن خرج من المشركين، ولكنهما لم يكونا يريدان بذلك محاربة المسلمين، وإنما خرجا ليتوصَّلا إلى الالتحاق بإخوانهم المهاجرين[١]، إذ فرَّا من هناك واتَّجها نحو المدينة المنورة.

وهكذا يصبح المقداد بهجرته هذه من جملة أولئك المسلمين الذين هاجروا الهجرتين[٢].

ونزل في المدينة ـ إثر وصوله إليها ـ على كلثوم بن الهِدْم[٣]، فلم يبرح منزله حتى توفي كلثوم قبل بدرٍ بقليل، فتحوَّل فنزل على سعد بن عبادة فلم يزل عنده حتى فُتحت قريظة[٤].

ويستفاد من مجموع النصوص التاريخية أن المقداد قد استقل بمسكنه بعد هذا التاريخ، فقد رُوِي أن النبي (ص) أقطعه أرضاً في بني جديلة[٥]، وأنه أعطاه نصيباً من خمس خيبر بعد مصادرتها من اليهود[٦]، وكانت له أموال بخيبر يتعاهدها[٧]. كما رُوِي أنه ابتنى داراً ببني جديلة، وكانت داراً فخمة واسعة «جعل أعلاها شرفات، وجعلها مجصَّصة الظاهر والباطن»[٨]. ولما قدم وفدُ بهراء ـ وهم قومه وعشيرته ـ على رسول الله (ص) في سنة تسع من الهجرة، وكانوا ثلاثة عشر رجلاً، «أقبلوا يقودون رواحلهم، حتى انتهوا إلى باب المقداد بن عمرو ببني

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٤١ ـ ٢٤٢ وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ٥٣ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٠٤ وأسد الغابة: ٤/ ٤٠٩ والدرجات الرفيعة: ٢٢١.
(٢) الإصابة: ٣/ ٤٣٤.
(٣) أنساب الأشراف: ١/ ١٧٧ و٢٠٥ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١١٤.
(٤) أنساب الأشراف: ١/ ١٧٧ وطبقات ابن سعد: ٣/ ق ١/ ١١٧ وق٢/ ١٤٩.
(٥) طبقات ابن سعد: ٣/ ق ١/ ١١٤ وق٢/ ١١٥ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٠٥.
(٦) سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٦٧.
(٧) سيرة ان هشام: ٣/ ٣٧٢.
(٨) مروج الذهب: ٢/ ٢٢٣.

جديلة، فخرج إليهم المقداد فرحَّب بهم وأنزلهم في منزل من الدار، وأتوا النبي (ص) فأسلموا وتعلَّموا الفرائض، وأقاموا أياماً»[١].

⊛ ⊛ ⊛

ولمَّا كانت المؤاخاة بين المسلمين إحدى اللبنات الأساسية في الصرح الجديد، آخى رسول الله (ص) بين المقداد حين قدم المدينة وبين جبَّار بن صخر[٢]. وقيل: إنه آخى بين المقداد وجَبْر بن عتيك[٣]. وفي رواية ابن إسحاق: أنه (ص) آخى بينه وبين أبي ذرٍّ الغفاري[٤] إخاء المهاجرين فيما بينهم.

ثم بدأت على أثر ذلك مسيرة الجهاد والتضحية بالنفس والنفيس في سبيل الله وتحت راية محمد والقرآن، فشهد المقداد المشاهد كلَّها مع النبي (ص)[٥] طيلة أيام حياته المباركة.

وكانت أُولى المشاركات العسكرية للمقداد: «حمله راية الإسلام في السريَّة التي بعثها النبي (ص) إلى الخرَّار لاعتراض عير قريش حين تمرُّ به ـ والخرَّار: بين الجحفة ومكة أبْآرٌ عن يسار المحجَّة قريب من خمّ ـ، فلما صبحوهم وجدوا العير قد مرت بالأمس، فانصرفوا إلى المدينة»[٦].

(١) طبقات ابن سعد: ١/ق ٢/٦٦. وملخص منه في تاريخ الطبري: ٣/ ١٢٢.
(٢) أنساب الأشراف: ١/ ٢٠٥ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١١٤ وق٢/ ١١٥.
(٣) المحبر: ٧٣.
(٤) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٠٦.
(٥) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١١٥ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٠٥ وأسد الغابة: ٤/ ٤١٠ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٧٨ والإصابة: ٣/ ٤٣٤.
(٦) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٣ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٠٣.

ثم شارك في السنة الثانية من الهجرة، في سريَّة عبد الله بن جحش الأسدي إلى بطن نخلة ـ وهو بستان ابن عامر بقرب مكة ـ، وقد قاتل فيها المسلمون المشركين بكل بسالةٍ وعنف، «وشدَّ المسلمون عليهم، فاستأسر عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحَكَم بن كيسان. . . . وكان الذي أسر الحكمَ بن كيسان المقدادُ بن عمرو»[١].

ثم كانت المعركة الرئيسة الكبرى يوم بدر، وقد أُبليَ فيها المقداد بلاءً حسناً، وكان له من الصولات والجولات ما هو خالد أبد الدهر؛ وإلى يوم الحشر.

ولمَّا أراد النبي (ص) أن يعدَّ لهذه الحرب ويتهيأ للقتال بعدما أتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عِيرهم ويحموا أموالهم، قام بين أصحابه خطيباً فأخبرهم بمقدم قريش واستشارهم فيما ينبغي فعله.

ويحدِّث الصحابي عبد الله بن مسعود عن مشاهداته في تلك الساعات التي سبقت الحرب فيقول:

«لقد شهدتُ من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحبَّ إليَّ مما في الأرض من شيء، كان رجلاً فارساً، وكان رسول الله (ص) إذا غضب احمارَّتْ وجنتاه، فأتاه المقْداد على تلك الحال» فسمع كلام النبي واستشارته أصحابَه في الأمر، فقال:

«يا رسول الله؛ امضِ لِما أراك الله فنحن معك، واللهِ لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن اذهبْ أنت وربك فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون. فوالذي بعثك بالحق لو سرتَ بنا إلى بَرْك الغِماد [وهي منطقة

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٥ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٧٢.

نائية جدّاً عن المدينة] لجالدنا معك مَنْ دونه حتى تبلغه»، و«لنكوننَّ من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك أو يفتح الله لك»[١].

فأشرق وجهُ رسول الله (ص) وسُرَّ بذلك، وقال للمقداد خيراً ودعا له به[٢].

وكان المقداد أحد قادة الجيش في هذه المعركة، وقد جعله رسول الله (ص) على الميسرة[٣].

وعلى الرغم من اختلاف المؤرخين في عدد الفرسان من الصحابة في ذلك اليوم، إذ ذكر بعضهم الزبير بن العوَّام؛ وذكر بعضهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي. فإن المتفق عليه أن المقداد كان فارساً في هذه الحرب[٤]، بل جاء في عدد من الروايات أنه لم يكن فارس يوم بدر إلاّ المقداد[٥]. وذكروا أن فرسه كان يقال له سَبْحَة[٦] أو بَعْزَجة[٧]، وذكر

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٦٦ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١١٥ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٣٤ وحلية الأولياء: ١/ ١٧٢ ـ ١٧٣ والاستيعاب: ٣/ ٤٥٣ وأسد الغابة: ٤/ ٤١٠ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ١١٢ والدرجات الرفيعة: ٢٢٣.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٦٦ وطبقات ابن سعد: ٣/ق١/ ١١٥ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٣٤ والاستيعاب: ٣/ ٤٥٣ وأسد الغابة: ٤/ ٤١٠ والدرجات الرفيعة: ٢٢٣.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١/ ٢٩.

(٤) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٢١ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٨٩ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٧٨ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٧٨ والإصابة: ٣/ ٤٣٤.

(٥) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١١٤ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٢٧ ودلائل النبوة: ٣/ ٣٨ و٤٩ وأسد الغابة: ٤/ ٤١٠ والدرجات الرفيعة: ٢٢١.

(٦) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٢١ و٣/ ٢٩٦ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١١٤ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٨٩ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٧٨ والمعجم الكبير: ٢٠/ ٢٦١ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ٩٠ ـ ٩١ والإصابة: ٣/ ٤٣٤.

(٧) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٢١ و٣/ ٢٩٦ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٧٨.

ابن حبيب أن فرس المقداد الذي شهد عليه بدراً كان يقال له ذو العتق؛ و«له فرس آخر شهد عليه يوم سرح المدينة يقال له بعزجة»[١].

وروى الطبراني أن النبي (ص) أسهم للمقداد سهماً ولفرسه سهماً من غنائم بدر[٢].

وكان من نتائج مباشرته الحرب في بدر أسْرُه النَّضْرَ بن الحارث العبدري، وقد أمر رسولُ الله (ص) عليّاً بضرب عنقه صَبراً بالأُثَيْل[٣].

كما كان من آثار هذه المباشرة أيضاً ما رُوِي من أنه قَتَل من المشركين يومذاك: زيدَ بن مُلَيْص حليف بني عبد الدار[٤].

۞ ۞ ۞

وفي السنة الثالثة من الهجرة كانت معركة أُحُد.

وقد شارك فيها المقداد مشاركة فعَّالة وقاتل قتال المستميت، وكان من تلك القلَّة الصابرة التي بقيت مع النبي (ص)[٥] ـ حين فرَّ مَنْ فرَّ ـ فثبتتْ وشدَّت على المشركين حتى هزمت جمعهم وفرَّقت شملهم.

ويقول ابن أبي الحديد:

إن جمهور المؤرخين وأرباب السِّير: على أنه لم يبق مع النبي (ص) بعد الهزيمة في يوم أُحُدٍ «إلاَّ عليّ وطلحة والزبير وأبو

(١) المنمق: ٥١٤. والنصُّ في أسماء خيل العرب: ٣٨، وفيه /ذو العُنُق.
(٢) المعجم الكبير: ٢٠/ ٢٦١.
(٣) أنساب الأشراف: ١/ ١٤١ و١٤٣ و٢٩٨ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ١٧١.
(٤) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٦٧.
(٥) تاريخ الطبري: ٢/ ٥١٠.

دُجانة، وقد رُوِي عن ابن عباس أنه قال: ولهم خامس وهو عبد الله بن مسعود، ومنهم مَنْ أثبت سادساً وهو المقداد بن عمرو»[١].

❁ ❁ ❁

وفي شهر ربيع الأول؛ سنة ستٍّ من الهجرة، أغار عُيَيْنة بن حصن الفزاري في خيلٍ من غطفان، على لقاح لرسول الله (ص) ترعى بالغابة ـ وهي موضع من المدينة على بريدٍ منها من جهة طريق الشام ـ، وكانت عشرين لقحة، وفيها أبو ذر الغفاري وعائلته، فقتلوا ابن أبي ذرٍّ واحتملوا المرأة واللقاح. فجاء الصريخ إلى المدينة، فنودي فيها: يا خيل الله اركبي، فترامت الخيول إلى رسول الله (ص)، «فكان أول مَنْ أقبل إليه المقداد بن عمرو وعليه الدرع والمِغْفَر شاهراً سيفه. فعقد له رسول الله (ص) لواءً في رمحه وقال: امضِ حتى تلحقك الخيول، أنا على أثرك»، «فخرج الفرسان في طلب القوم حتى تلاحقوا»، «وسار رسول الله (ص) حتى نزل بالجبل من ذي قَرَد».

وكتب الله تعالى النصر لرسوله في هذه الوقعة، وتمَّ استنقاذ المرأة وعشرٍ من اللقاح. وكان من قتلى المشركين فيها بسيف المقداد كلٌّ من حبيب بن عُيَيْنة بن حِصْن وقرفة بن مالك بن حذيفة بن بدر[٢].

❁ ❁ ❁

وفي سنة ثمان من الهجرة نقض مشركو مكة معاهدة الصلح المبرمة بينهم وبين النبي (ص)، فعزم النبي على التوجه إلى مكة لفتحها وتطهير

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٢٩٣.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٩٤ ـ ٢٩٧ وطبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٥٨ ـ ٥٩ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٤٨ ـ ٣٤٩ وتاريخ الطبري: ٢/ ٦٠١.

بيتها الحرام وثراها المقدس من أدناس الأوثان والشرك والبغي والعدوان. وعلم ـ وهو يعدُّ العدة لذلك ـ أنّ حاطب بن أبي بلتعة كتب إلى قريش يخبرهم بذلك ليكونوا على أُهبة منه، «فبعث عليَّ بن أبي طالب والمقداد بن عمرو، فأخذا رسوله وكتابه، فجاءا به إلى رسول الله (ص)»(١).

ولمَّا تمَّ الإعداد وتحرك الركب إلى مكة حيث ينتظرهم نصر الله والفتح، عيَّن النبي (ص) قادة الجيش وأُمراءه وذوي الرايات فيه، فجعل المقداد «على المجنَّبة اليمنى» من الجيش(٢)، مضافاً إلى حمله راية بني سُلَيم وهم ألفٌ من الرجال(٣).

⊛ ⊛ ⊛

وقبل انتهاء عصر النبوة وانقطاع وحي السماء ولحاق محمد (ص) بربِّه، كان من القضاء الإلهي العادل والمروءة المحمدية الفاضلة، أن يُكرَّم المؤمنون المخلصون والسابقون المقرَّبون؛ وأن يُكافَأوا على ما قدَّموا في سبيل الله من عمل خالص وجهاد صادق وتضحيات لا تعرف الحدود؛ وأن يُعلَن ذلك على رؤوس الأشهاد لتسمعه الأجيال وترويه العصور؛ برهاناً على ما يستحق هؤلاء الرجال من إشادة وتبجيل؛ وحبّ وتقدير.

وكان المقداد بن عمرو في الطليعة من أولئك المكرَّمين المنتجبين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، بل كان في ذلك رابع أربعة لا خامس لهم على وجه الضبط والتحديد.

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٩٧.
(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٧٣.
(٣) شرح نهج البلاغة: ١٧/ ٢٧٠.

ولقد جاء هذا الإنعام الإلهي والتكريم النبوي متمثلاً في حديثٍ شريفٍ على لسان الصادق المصدَّق الذي ما ينطق عن الهوى؛ والحَكَم العدل الذي لا يحيد عن سنن الحق، فكان ـ وأيم الله ـ أرفع ما عرفت البشرية من أوسمة المجد وقلائد الخلود.

يقول النبي (ص):

«إن الله أمرني بحبِّ أربعة وأخبرني أنه يحبهم، قيل: يا رسول الله؛ مَنْ هم؟ قال: عليٌّ منهم ـ يقول ذلك ثلاثاً ـ وأبو ذر وسلمان والمقداد»(١).

وإن القلم ليعجز عن بيان ما يعنيه «حبُّ الله ورسوله» وما يدل عليه من شرف عظيم ومكانة سامية. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون وليفتخر المفتخرون.

---

(١) سنن ابن ماجة: ١/ ٥٣ ومسند الإمام أحمد: ٥/ ٣٥١ و٣٥٦ وحلية الأولياء: ١/ ١٧٢ والاستيعاب: ٣/ ٤٥٣ ـ ٤٥٤ وأسد الغابة: ٤/ ٤١٠ وشرح نهج البلاغة: ٧/ ٢٩٦ (وفيه: عمار؛ بدل سلمان) وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٨٠ و٣٩٣ والإصابة: ٣/ ٤٣٤ والدرجات الرفيعة: ٢٢٣.

وتوفي رسول الله (ص) فصعق المسلمون لهول ذلك، وكان ما كان.

وانقسم المسلمون منذ ذلك اليوم في أمر الخلافة إلى فريقين: فريق يؤمن بأن الخلافة لعليٍّ لأنه الأَوْلى بها نصّاً وتعييناً وأهلية وكفاية، وفريق يرى أن الخلافة لأبي بكر لأنه الأكبر سنّاً ولأنه أصبح الخليفة على كل حال.

وكان المقداد من الفريق الأول ومن المجاهرين بذلك بعنف وحماس.

وقد ذكر اليعقوبي أسماء بعضِ مَنْ تخلَّف عن بيعة أبي بكر من المهاجرين والأنصار «ومالوا مع علي بن أبي طالب» وعدَّ من جملتهم المقداد بن عمرو[1]، كما ذكر ابن أبي الحديد: أنه كان يختلف «في جماعة من الناس إلى عليٍّ وهو في بيت فاطمة، فيتشاورون ويتراجعون أمورهم»[2].

وروى الشعبي ـ فيما أُسنِد إليه ـ بعضاً من الحوادث التي وقعت بعد استخلاف أبي بكر، وجاء فيها مما يتعلق بالمقداد قوله:

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/١٠٣.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٢/٤٥.

«قال أبو بكر: يا عمر؛ أين خالد بن الوليد؟

قال: هو هذا.

فقال: انطَلِقا إليهما ـ يعني علياً والزبير ـ فأْتِياني بهما.

فانْطَلَقا. فدخل عمر، ووقف خالد على الباب من خارج، فقال عمر للزبير: ما هذا السيف؟ قال: أعددتُه لأُبايع علياً.

قال: وكان في البيت ناس كثير منهم المقداد بن الأسود»... إلخ[1].

وتفيد بعض الروايات التاريخية أن المقداد لم يكن يرى ما يمنع من شهر السلاح وإعلان الحرب على الخليفة[2] إحقاقاً للحق وتصحيحاً لما وقع، وأنه كان يعقد الاجتماعات المطوَّلة مع رفاق العقيدة للوصول إلى قرار حاسم في هذا الشأن، وكان من جملتها ذلك الاجتماع الذي حدَّث به الصحابي البَرَاء بن عازب وكان من حضَّاره: المقداد بن عمرو؛ وعبادة بن الصامت؛ وسلمان الفارسي؛ وأبو ذرٍّ الغفاري؛ وحذيفة بن اليمان وأبو الهيثم بن التيِّهان؛ وعمَّار بن ياسر[3].

❀ ❀ ❀

وفي سنة ٢٣هـ أشرف الخليفة عمر بن الخطاب على الموت؛ فجعل الخلافة وتعيين الخليفة إلى الستة الذين عُرِفوا باسم «أهل الشورى»، وأوصاهم بالاجتماع حين موته للنظر والتداول في الأمر.

ويروي الطبري أن الخليفة عمر قد عهد إلى المقداد ابن عمرو ـ لمقامه الرفيع بين صحابة النبي (ص) ـ أن يتولَّى أمر جمع هؤلاء الستة

(١) شرح نهج البلاغة: ٦/٤٨.
(٢) شرح نهج البلاغة: ١١/١٤.
(٣) نثر الدر: ١/ ٤٠٠ ـ ٤٠١ وشرح نهج البلاغة: ١/ ٢٢٠ و٢/٥١ ـ ٥٢.

ويوالي مراقبة الموقف بعد اجتماعهم «حتى يختاروا رجلاً منهم»، وقد نفَّذ المقداد هذه الوصية فجمعهم لهذا الغرض ومكث هو خارج مكان الاجتماع ينتظر النتائج[١].

وظلّ «أهل الشورى» ثلاثة أيام بلياليها يتداولون أمر الخلافة وهم مختلفون فيمن يكون الخليفة، والمسلمون على أحرّ من الجمر ينتظرون ما ستسفر عنه هذه المداولات المطوَّلة.

وعيل صبر المقداد، فأقبل على الناس بحماسه الديني العارم واندفاعه العقيدي الحازم؛ فقال:

«أيها الناس؛ اسمعوا ما أقول، أنا المقداد بن عمرو، إنكم إنْ بايعتم عليّاً سمعنا وأطعنا، وإن بايعتم عثمان سمعنا وعصينا».

فقاطعه عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي فنادى:

«أيها الناس؛ إنكم إن بايعتم عثمان سمعنا وأطعنا، وإن بايعتم عليّاً سمعنا وعصينا».

فقال له المقداد:

«يا عدوَّ الله وعدو رسوله وعدو كتابه؛ ومتى كان مثلك يسمع له الصالحون!؟».

فلم يجد عبد الله من جواب للمقداد إلاَّ ما يكشف عن دخائله الجاهلية الأولى التي لم يطهرها الدين ولم يغسل درنها الإسلام؛ فقال له:

«يا ابن الحليف العسيف؛ ومتى كان مثلك يجترىء على الدخول في أمر قريش»[٢].

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٢٩ و٢٣٠ و٢٣٢.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٩/ ٥٢.

فسكت المقداد وزوى وجهه عنه، لأنه لم يرد إشعال نار الفتنة في تلك اللحظات الرهيبة الخطيرة.

وروى الطبري أن عمار بن ياسر قال ـ على أثر ذلك ـ مخاطباً المِسْوَر بن مخرمة:

«إنْ أردتَ ألاَّ يختلف المسلمون فبايع عليّاً».

فعلَّق المقداد على ذلك فقال لابن مخرمة:

«صدق عمار، إنْ بايعتَ عليّاً قلنا: سمعنا وأطعنا»[١].

ثم تقدَّم المقداد إلى أهل الشورى خلال أيام المداولة بنصائحه المخلصة فخاطبهم قائلاً:

«لا تبايعوا رجلاً لم يشهد بدراً ولا بيعة الرضوان؛ وانهزم يوم أُحُد». فعرف عثمان أن المقداد يعرِّض به؛ فقال له: «لئن وليتُ رددتُك إلى مولاك الأول»[٢].

ثم أسفرت تلك الشورى عن نتيجتها المعروفة، إذ «صغا رجلٌ منهم لضِغنه، ومال الآخر لصهره، مع هَنٍ وهَنٍ» كما وصفها عليٌّ (ع)[٣].

ولمَّا بلغت هذه النتيجة سَمْعَ المقداد كان تعليقه عليها قوله:

«واعجباً لقريش ودفعهم هذا الأمر عن أهل بيت نبيِّهم، وفيهم أول المؤمنين وابن عمِّ رسول الله؛ أعلم الناس وأفقههم في دين الله؛ وأعظمهم عناءً في الإسلام؛ وأبصرهم بالطريق؛ وأهداهم للصراط

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٣٢.
(٢) الدرجات الرفيعة: ٢٢٣ ـ ٢٢٤.
(٣) نهج البلاغة: ٤٩.

المستقيم. واللهِ لقد زووها عن الهادي المهتدي الطاهر التقي، وما أرادوا إصلاحاً للأمة ولا صواباً في المذهب، ولكنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة، فبعداً وسحقاً للقوم الظالمين»[١].

وفي رواية أخرى أنه قال:

«واعجباً من قريش واستئثارهم بهذا الأمر على أهل هذا البيت: معدن الفضل ونجوم الأرض ونور البلاد، واللهِ إنَّ فيهم لرجلاً ما رأيتُ رجلاً بعد رسول الله (ص) أوْلى منه بالحق؛ ولا أقضى بالعدل؛ ولا آمَرَ بالمعروف؛ ولا أنهى عن المنكر».

فقال له أحد سامعيه مستفهماً:

«أصلحك الله؛ مَنِ الرجل الذي تذكر؟».

«فقال: ابن عم نبيك رسول الله (ص): عليّ بن أبي طالب»[٢].

ثم لقي المقداد بعد ذلك عبد الرحمن بن عوف ـ وكان لابن عوف الدور الأكبر في فوز عثمان بالخلافة ـ فقال له المقداد في رواية الطبري:

«يا عبد الرحمن؛ أمَا واللهِ لقد تركتَه؛ وهو من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون. . . . ما رأيتُ مثلَ ما أُوتي إلى أهل هذا البيت بعد نبيهم، إني لأعجب من قريش أنهم تركوا رجلاً ما أقول أن أحداً أعلم ولا أقضى منه بالعدل. أمَا واللهِ لن أجد عليه أعواناً».

«فقال عبد الرحمن: يا مقداد؛ اتَّق الله فإني خائف عليك الفتنة»[٣].

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٤٠.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٩/ ٢١.
(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٣٣.

وفي روايةٍ أخرى أكثر تفصيلاً عن هذا اللقاء ـ وربما كان الطبري قد اختصرها ـ أن عبد الرحمن قال للمقداد:

«وما أنت وذاك يا مقداد؟.

«قال المقداد: إني واللهِ أُحبُّهم لحب رسول الله (ص)، وإني لأعجب من قريش وتطاولهم على الناس بفضل رسول الله ثم انتزاعهم سلطانه من أهله.

«قال عبد الرحمن: أمَا واللهِ لقد أجهدتُ نفسي لكم.

«قال المقداد: أمَا واللهِ لقد تركتَ رجلاً من الذين يأمرون بالحق وبه يعدلون. أمَا واللهِ لو أن لي على قريش أعواناً لقاتلتهم قتالي إياهم ببدرٍ وأُحُدٍ.

«فقال عبد الرحمن: ثكلتك أُمُّك؛ لا يسمعنَّ هذا الكلامَ الناسُ؛ فإني أخاف أن تكون صاحبَ فتنةٍ وفرقة.

«قال المقداد: إنَّ مَنْ دعا إلى الحقِّ وأهله وولاة الأمر لا يكون صاحب فتنة، ولكنَّ مَنْ أقحم الناسَ في الباطل وآثر الهوى على الحق فذلك صاحب الفتنة والفرقة.

«فتربَّد وجه عبد الرحمن ثم قال: لو أعلم أنك إيايَ تعني لكان لي ولك شأن.

«قال المقداد: إياي تهدِّد يا ابن أمِّ عبد الرحمن. ثم قام وانصرف»[١] ومضى مسرعاً «حتى دخل على عليٍّ (ع) فقال: قم فقاتِلْ حتى نقاتل معك»[٢].

(١) شرح نهج البلاغة: ٩/ ٥٦ ـ ٥٧ ومختصرٌ منه في شرح النهج أيضاً: ١/ ١٩٤ والدرجات الرفيعة: ٢٢٤.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٩/ ٥٥ و١٢/ ٢٦٥ والدرجات الرفيعة: ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

وبلغ سمعَ المهاجرين والأنصار ـ وما زال الغليان على أشدِّه ـ قولُ أبي سفيان لما أُخبر باستخلاف عثمان: «يا بني أُميَّة؛ تلقَّفوها تلقُّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما زلتُ أرجوها لكم، ولتصيرنَّ إلى صبيانكم وراثةً» فاستنكروا ذلك بعنف، ورأوا فيه تحدِّياً لكل قيمهم ومُثُلهم وخروجاً صارخاً على شرع ربِّهم وسنة نبيِّهم. وأُثرت عن بعضهم نصوص إنكارهم وتنديدهم بهذه الوقاحة الأموية والصلف السفياني، وكان من جملة أولئك المنكرين المقداد بن عمرو، إذ قال ـ فيما روى المسعودي ـ لمَّا بلغه ذلك:

«ما رأيتُ مثلَ ما أُوذيَ به أهلُ هذا البيت بعد نبيهم.

«فقال له عبد الرحمن بن عوف: وما أنت وذاك يا مقداد!.

«فقال المقداد: إني واللهِ لأُحبُّهم بحبِّ رسول الله (ص)، وإن الحق معهم وفيهم.... أما وأيم الله يا عبد الرحمن؛ لو أجد على قريشٍ أنصاراً لقاتلتهم كقتالي إياهم مع رسول الله (ص) يوم بدر.

«وجرى بينهم من الكلام خطبٌ طويل»[(١)].

❀ ❀ ❀

وعلى الرغم من كل تلك المواقف المقدادية السلبية أو الرافضة للخلافات المتعاقبة؛ منذ تخلُّفه عن بيعة أبي بكر حتى امتناعه من الاعتراف بشرعية خلافة عثمان، فإن مما يثير الانتباه ويلفت النظر في سيرة هذا الرجل العظيم ويحكي مقدار عمق إيمانه وإخلاصه لدينه؛ أن ذلك السلب أو الرفض لم يقعده عن المساهمة الجدِّية الصادقة في أي مسعىً أو عمل يوصل في النتيجة إلى إعلاء كلمة الله وتثبيت دعائم

(١) مروج الذهب: ٢/ ٢٣٠ ـ ٢٣١.

الإسلام. ولذلك نراه قد شارك في حروب الفتح الإسلامي بكل حماس واندفاع، وجاهد في سبيل الله ما وجد إلى ذلك مجالاً.

لقد شارك المقداد مشاركة فعَّالة في حرب اليرموك[١]، وكان القارىء للقرآن في هذه المعركة، «ومن السُّنَّة التي سنَّ رسولُ الله (ص) بعد بدرٍ أن تُقْرَأ سورة الجهاد عند اللقاء؛ وهي الأنفال. ولم يزل الناس بعد ذلك على ذلك»[٢].

وشارك ـ فيما روى الطبري ـ في فتح حمص، وكان يقود مقاتلي بَلِيٍّ في هذه الوقعة[٣].

كما شارك بعد ذلك في حروب فتح مصر[٤]، وعدَّه الخليفة في نصِّ كتابه الموجَّه إلى قائد الجيش بأنه يقوم مقام ألف رجل[٥].

ثم كانت آخر مواقفه الجهادية مشاركته في فتح قبرس بصحبة جماعة من رفاق العقيدة «فيهم أبو ذر وعبادة بن الصامت وأبو الدرداء وشدَّاد بن أوس»[٦].

❁ ❁ ❁

وفي سنة ثلاث وثلاثين من الهجرة انتقل المقداد إلى جوار ربه[٧]،

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٩٧ وفتوح الشام: ١/ ١١٣ و١٢٥ و١٤٣.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٩٧.

(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٦٠٠.

(٤) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٢٦ والاستيعاب: ٣/ ٤٥٢ وأسد الغابة: ٤/ ٤١٠ وفتوح الشام: ٢/ ٣٦ و٣٧ و٣٨ و٤٢ و٥٩.

(٥) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٢٦ وفتوح الشام: ٢/ ٣٦.

(٦) فتوح البلدان: ١٥٩ وتاريخ الطبري: ٤/ ٢٥٨.

(٧) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١١٥ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٠٥ والمعجم الكبير: ٢٠/ ٢٣٧ والاستيعاب: ٣/ ٤٥٢ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٧٨ والإصابة: ٣/ ٤٣٤ والدرجات الرفيعة: ٢٢٥.

ورجعت نفسه المطمئنة إلى خالقها راضية مرضيَّة، إذ وافته المنية وهو في أرضه بالجرف[١] على ثلاثة أميالٍ من المدينة[٢]، وحُمِل إلى المدينة «على رقاب الرجال» فدُفن بالبقيع[٣]، وكان عمره يومئذٍ سبعين سنة أو نحوه[٤].

وحدَّث ابن سعد: «أن عثمان بن عفَّان جعل يثني على المقداد بعدما مات، فقال الزبير:

لا ألفينَّك بعد الموت تندبني وفي حياتيَ ما زوَّدتَني زادي[٥]

«فقال عثمان: تستقبلني بمثل هذا يا زبير!، فقال: ما كنتُ أحبُّ أن يموت مثلُ هذا من أصحاب رسول الله (ص) وهو عليك ساخطٌ»[٦].

---

(١) أنساب الأشراف: ١/ ٢٠٥ والمعجم الكبير: ٢٠/ ٢٣٧ والاستيعاب: ٣/ ٤٥٢ وأسد الغابة: ٤/ ٤١١ والدرجات الرفيعة: ٢٢٥.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١١٥ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٠٥.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١١٥ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٠٥ والمعجم الكبير: ٢٠/ ٢٣٧ والاستيعاب: ٣/ ٤٥٢ وأسد الغابة: ٤/ ٤١١ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٧٨ والدرجات الرفيعة: ٢٢٥.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١١٥ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٠٥ والاستيعاب: ٣/ ٤٥٣ والمعجم الكبير: ٢٠/ ٢٣٥ و٢٣٧ وأسد الغابة: ٤/ ٤١١ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢٧٨ والإصابة: ٣/ ٤٣٤.

(٥) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١١٥ ـ ١١٦.

(٦) الدرجات الرفيعة: ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

من المؤمنين رجال

[١٤]

حذيفة بن اليمان

حُذَيفة بن اليمان

اسمه ونسبه

هو: حُذَيفة بن اليَمَان ـ واسم اليمان حِسْلٌ أو حُسَيْل ـ بن جابر بن عمرو بن ربيعة بن جِرْوَة (أو: فروة) بن الحارث بن مازن بن قُطَيعة بن عَبْس بن بَغِيض بن رَيْث بن غطفان(١).

وكُنيته: أبو عبد الله(٢).

وأبوه: الملقَّب باليمان كان من أوائل مَنْ أسلم من أهل المدينة، وقد سبق أصحابه الأنصار في ذلك. وعمل جاهداً مخلصاً في سبيل الله حتى رُزِق الشهادة ونال السعادة.

وكان النبي (ص) قد أمر لما خرج إلى أُحُدٍ أن يُرْفَع «حُسَيل بن جابر أبو حذيفة بن اليمان وثابت بن وَقْش» في الآطام مع النساء والصبيان. فقال أحدهما لصاحبه ـ وهما شيخانِ كبيرانِ ـ: لا أباً لك ما تنتظر؟ فوالله ما بقي لواحدٍ منَّا من عمره إلاَّ ظِمْءُ حمارٍ، إنما نحن هامة

---

(١) جمهرة النسب: ٤٤٧ وطبقات خليفة: ١/ ١١٢ و٢٩٢ وطبقات ابن سعد: ٧/ق ٢/ ٦٤ وفتوح البلدان: ٣٠٤ والاستيعاب: ١/ ٢٧٦ وتاريخ بغداد: ١/ ١٦١ وأسد الغابة: ١/ ٣٩٠ والإصابة: ١/ ٣٣٠. وفي هذه المصادر خلاف في أسماء آباء حذيفة وسلسلة نسبه.

(٢) طبقات خليفة: ١/ ١١٢ وطبقات ابن سعد: ٦/ ٨ و٧/ق ٢/ ٦٤ وحلية الأولياء: ١/ ٢٧٠ والاستيعاب: ١/ ٢٧٦ والمعجم الكبير: ٣/ ١٧٨ وتاريخ بغداد: ١/ ١٦١ وأسد الغابة: ١/ ٣٩٠ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٦١ والدرجات الرفيعة: ٢٨٣.

اليوم أو غد، أفلا نأخذ أسيافَنا ثم نلحق برسول الله (ص) لعل الله يرزقنا شهادةً مع رسول الله (ص) فأخذا أسيافهما ثم خرجا، حتى دخلا في الناس، ولم يُعْلَم بهما».

«فأمَّا ثابت بن وقش فقتله المشركون، وأما حُسَيل بن جابر فاختلفت عليه أسيافُ المسلمين، فقتلوه ولا يعرفونه. فقال حذيفة: أبي، فقالوا: واللهِ إنْ عرفناه؛ وصدقوا، قال حذيفة: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين. فأراد رسول الله (ص) أن يَدِيَه، فتصدَّق حذيفة بديته على المسلمين، فزاده ذلك عند رسول الله (ص) خيراً»[١].

ويقول الرواة: إن أبا حذيفة إنما اشتهر باليمان «لأنه نُسِب إلى جدِّه اليمان بن الحارث بن قطيعة بن عبس بن بغيض، واسم اليمان جروة بن الحارث...، وإنما قيل لجروة: اليمان؛ لأنه أصاب في قومه دماً فهرب إلى المدينة فحالف بني عبد الأشهل، فسماه قومه اليمان لمحالفته اليمانية» وهم الأنصار[٢]، ولذلك كان عداده في الأنصار[٣]. وتذهب بعض الروايات إلى أنَّ حسلاً أبا حذيفة هو الذي أصاب الدم وهرب إلى المدينة[٤]. والله العالم.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٩٢ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٣٠ ودلائل النبوة: ٣/ ٢١٨ وأسد الغابة: ٢/ ١٦ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ٢٤١ والإصابة: ١/ ٣٣٠ والدرجات الرفيعة: ٢٨٣ ـ ٢٨٤. ومختصر منه في طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٣١ وصحيح البخاري: ٥/ ٤٩ و١٢٥ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٢٢ و٣٢٩ وفتوح البلدان: ٣٠٤ والاستيعاب: ١/ ٢٧٧ و٣٦٤.

(٢) جمهرة النسب: ٤٤٠ و٤٤٧ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩ وفتوح البلدان: ٣٠٤ والاستيعاب: ١/ ٢٧٦ و٢٧٧ و٣٦٤ وأسد الغابة: ١/ ٣٩٠.

(٣) جمهرة النسب: ٤٤٧ والمعجم الكبير: ٣/ ١٧٨.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٦١ والإصابة: ١/ ٣١٦.

وأُمُّه: «الرباب بنت كعب بن عَدِيّ بن كعب بن عبد الأشهل»[(١)] من الأنصار الأوسيِّين من بني عبد الأشهل[(٢)]، وقد تزوجها أبو حذيفة بالمدينة وولدت له أولاده هناك[(٣)]. وكانت من النسوة المبايعات لرسول الله (ص)[(٤)].

وكان لحذيفة من الإخوة والأخوات:

١ ـ صفوان: وكان ممن شهد أُحُداً[(٥)].

٢ ـ سعد: وقد ورد ذكره في عداد أولاد الرباب زوج اليمان[(٦)].

٣ ـ ليلى: وهي أُمُّ سلمة بن ثابت بن وقش بن زُغْبة بن زعوراء بن عبد الأشهل، وكان سلمة هذا قد شهد بدراً وأحداً، واستشهد في أُحُد[(٧)].

٤ ـ فاطمة: وكانت من النساء اللائي بايَعْنَ رسول الله (ص) وروَيْنَ عنه، ولها أحاديث، وكان من جملة مَنْ روى عنها ابن أخيها أبو عبيدة[(٨)].

---

(١) المحبر: ٤١٧ وطبقات ابن سعد: ٧/ق ٢/ ٦٤ وفتوح البلدان: ٣٠٣ والاستيعاب: ١/ ٢٧٦.

(٢) طبقات خليفة: ١/ ١١٢ والاستيعاب: ١/ ٢٧٦ وتاريخ بغداد: ١/ ١٦١.

(٣) الإصابة: ١/ ٣١٦.

(٤) المحبر: ٤١٧ وطبقات ابن سعد: ٨/ ٢٣٤.

(٥) طبقات ابن سعد: ٧/ق ٢/ ٦٤ و٨/ ٢٣٤ والاستيعاب: ١/ ٢٧٧ و٣٦٤ و٢/ ١٨١ وأسد الغابة: ٢/ ١٥ و٣/ ٢٧ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٦٥ والإصابة: ١/ ٣٣٠ و٢/ ١٨٥.

(٦) المحبر: ٤١٧ وطبقات ابن سعد: ٨/ ٢٣٤.

(٧) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ١٧ و٨/ ٢٣٤.

(٨) طبقات خليفة: ٢/ ٨٧٥ وطبقات ابن سعد: ٨/ ٢٣٨ والاستيعاب: ٤/ ٣٧٣ وأسد الغابة: ٥/ ٥٢٨ والإصابة: ٤/ ٣٧٤.

٥ ـ خولة[١].

٦ ـ مُدْلج[٢].

وذكر المؤرخون أنه كانت لحذيفة أخوات «قد أدْركن النبي (ص)»[٣]، ولكنهم لم يسموا منهنَّ سوى ليلى وفاطمة.

❁ ❁ ❁

وُلِد حذيفة في المدينة المنوَّرة قبل البعثة النبوية الشريفة ولكننا لم نعلم متى كان ذلك، ونشأ فيها كما ينشأ لداته من فتيان الأوس والخزرج ولكننا لم نقف على شيء محدَّد من تفاصيل ذلك وخصوصياته.

وبادر إلى الاقتران بشريكة حياته في مطلع شبابه، فتزوَّج «جمانة بنت المُسَيَّب بن نجبة الفزاري... وروتْ عنه»[٤]، وروى ابن الأثير: أن حذيفة لمَّا نزل نصيبين بعد فتحها تزوَّج بها[٥]، ولم نجد في المصادر الأخرى ما يؤيد ذلك أو يؤكده. ورُزِق حذيفة من الأولاد:

١ ـ صفوان: وكان ممن استشهد تحت لواء عليٍّ (ع) بصفّين[٦].

٢ ـ سعيد: وقد استشهد بصفين أيضاً.

وكان حذيفة قبل وفاته قد أمر ولديه صفوان وسعيداً بمبايعة عليّ (ع) ومتابعته والمشاركة في حروبه حتى الشهادة[٧].

---

(١) الاستيعاب: ٤/ ٢٨٤ والإصابة: ٤/ ٢٨٧.
(٢) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٣٤.
(٣) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٣٩ والاستيعاب: ٤/ ٣٧٣ والإصابة: ٤/ ٣٧٤.
(٤) طبقات ابن سعد: ٨/ ٣٥٤.
(٥) أسد الغابة: ١/ ٣٩١.
(٦) مروج الذهب ٢/ ٢٦٥ والاستيعاب: ١/ ٢٧٧.
(٧) مروج الذهب ٢/ ٢٦٥ والاستيعاب: ١/ ٢٧٧.

٣ ـ أبو عبيدة[١].

٤ ـ سعد: وكان من الرواة عن أبيه[٢]. وتحدَّث الطبري كثيراً عمَّا كان لسعدٍ هذا من نشاط كبير وجهد فاعل في مساندة التوَّابين الكوفيين الذين قاموا بثورتهم المعروفة للأخذ بثأر الحسين (ع) في سنة ٦٤هـ؛ وعما دار بينه وبين كلٍّ من سليمان بن صرد الخزاعي والمختار بن أبي عبيد الثقفي من مراسلات واتصالات بهذا الشأن[٣]، وروى الكلبي أن سعداً هذا كان على رأس مَنْ خرج من المدائن للمشاركة في معركة عَيْن الوردة[٤].

٥ ـ أُمُّ موسى بن عبد الله بن يزيد بن زيد الخطمي الأنصاري؛ من الأوس[٥]. ولم نقف على اسمها.

٦ ـ أُمُّ سلمة: وقد روت عن أبيها[٦].

٧ ـ عبد الله، وقبره بقرافة القاهرة[٧]، ولعلَّه من أحفاد حذيفة.

وأرسل الله تعالى إلى الأرض الغارقة في ديجور الشقاء والمتخبطة في مهاوي الجهل والتخلف؛ رسالةَ الحق والهدى والعدل، لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، وتأخذ بأيديهم إلى المنهج القويم والصراط المستقيم. فآمن بها ـ بادىء بدء ـ ذلك النفر القليل من ذوي

---

(١) ورد ذكره في سند روايةٍ يرويها عن عمته فاطمة، كما في الاستيعاب: ٤/ ٣٧٣ وأسد الغابة: ٥/ ٥٢٨ والإصابة: ٤/ ٣٧٤.

(٢) طبقات ابن سعد: ٦/ ١٥٠.

(٣) تاريخ الطبري: ٥/ ٥٥٥ ـ ٥٥٧ و٦٠٠ و٦٠٥ و٦/ ٨ و٣٤.

(٤) جمهرة النسب: ٤٤٧.

(٥) طبقات ابن سعد: ٦/ ٢٠٧.

(٦) طبقات ابن سعد: ٨/ ٣٥٠.

(٧) معجم البلدان ٨/ ٧٧.

العقول الحصيفة والبصائر المتفتحة، وكفرت بها الأكثرية الكاثرة من الجهلاء الذين لم يستوعبوا حقيقة الأمر؛ والمعاندين الذين أخذتهم العزة بالإثم.

وكان حذيفة من السابقين المبادرين إلى الإيمان بالرسالة والرسول، وقد ذكر بعض المؤرخين أن إسلامه كان قديماً[١]، أي قبل إسلام حلفائه الأنصار، ولكننا لم نقف على تاريخ محدَّد لذلك.

وحسبنا دليلاً على صحة هذا ما رُوِيَ من كونه وأبيه من المهاجرين[٢]، وما رُوِي من أنه «هاجر إلى النبي (ص) فخيَّره بين الهجرة والنصرة، فاختار النصرة»[٣].

وعندما بدأ تطبيق شرعة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة النبوية الشريفة إلى المدينة، كان عمَّار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أخَوَيْن في الله[٤].

❀ ❀ ❀

وضاق المشركون ذرعاً بما هيَّأ الله تعالى لرسوله (ص) في دار الهجرة؛ من المكان الآمن والأنصار المخلصين، ومن العمل الجادِّ الدؤوب لهؤلاء المؤمنين جميعاً لتثبيت دعائم الدين؛ وإقامة الدولة المنشودة؛ وبناء الإنسان الجديد الذي لا يعرف الكلل والخوف والتراجع إلى الوراء.

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١٧٩.

(٢) حلية الأولياء: ١/ ٣٥٤.

(٣) أسد الغابة: ١/ ٣٩٠ ـ ٣٩١.

(٤) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٥٢ والمحبر: ٧٣ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١٧٩ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٣٦١.

ولمّا أعلن هؤلاء الأعداء الحربَ على الله ورسوله؛ في السنة الثانية من الهجرة؛ رجاء تدمير هذه المكتسبات والقضاء على نواة دولة السماء في الأرض، أعدَّ المسلمون أنفسهم لمواجهة كل تطورات الموقف واحتمالاته الطارئة. وكان حذيفة من جملة أولئك الرجال الصادقين الذين أعدُّوا لصدِّ العدوان كل ما استطاعوا من قوة.

وكانت بدر أُولى المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام.

وحاول حذيفة وأبوه الخروج إليها ونيل شرف المشاركة فيها، ولكن المحاولة لم تنجح، فقد ظفر بهما المشركون وصدُّوهما عن الحضور، وفي ذلك يقول حذيفة نفسه:

«ما منعني أن أشهد بدراً إلاَّ أني خرجت أنا وأبي حُسَيل، فأخَذَنا كفَّارُ قريش فقالوا: إنكم تريدون محمداً، فقلنا: ما نريده. فأخذوا منَّا عهد الله وميثاقه لننصرفنَّ إلى المدينة ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله (ص) فأخبرناه، فقال: انصرفا»[١].

وشهد بعد ذلك أُحُداً؛ ومعه أبوه حسيل وأخوه صفوان[٢]. واستشهد أبوه في هذه المعركة كما تقدَّم.

ثم شهد بعد ذلك حرب الخندق، وكان من العاملين في حفر الخندق وإعداده[٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٦٢ والإصابة: ١/ ٣١٦ و٣٣٠. ويراجع طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١٧٩ والمعجم الكبير: ٣/ ١٧٨ ـ ١٧٩ وتاريخ بغداد: ١/ ١٦١ وأسد الغابة: ١/ ٣٩١.

(٢) طبقات ابن سعد: ٦/ ٨ و٧/ق ٢/ ٦٤ والاستيعاب: ١/ ٢٧٧ و٣٦٤ وتاريخ بغداد: ١/ ١٦١ وأسد الغابة: ١/ ٣٩١ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٦١ والإصابة: ١/ ٣١٦.

(٣) طبقات ابن سعد: ٤/ق ١/ ٥٩ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٦٨.

ولمَّا اشتدَّ الحصار على المسلمين وبلغت القلوب الحناجر، نصر الله عبده وأعزَّ جنده بضربة عليّ (ع) لعمرو بن عبد ودّ، فخرَّ عمرو من جرائها صريعاً يتشحط بدمه، ثم بعث الله الريح ـ في تلك الليلة الشاتية الشديدة البرد ـ فكفأتْ قدور المشركين، وطرحت أبنيتهم وأخبيتهم. فوقع الخلاف بين مشركي مكة وحلفائهم من يهود المدينة فيما ينبغي فعله في هذه الحال؛ بعد الفشل والهزيمة.

وانتهى إلى رسول الله (ص) ما اختلف من أمرهم؛ وما فرَّق الله من جماعتهم، فدعا حذيفة بن اليمان «وألبسه عباءته، وبعثه إليهم لينظر ما فعل القوم» ويفعلون في تلك الليلة الليلاء.

وقد حدَّثنا حذيفة نفسه عن مهمته الخطيرة التي أمره بها رسول الله (ص) فقال:

«صلَّى رسول الله (ص) هويّاً من الليل. ثم التفت إلينا فقال: مَنْ رجلٌ يقوم فينظر لنا ما فعل القوم... أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة. فما قام رجل من القوم؛ من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد. فلما لم يقم أحدٌ؛ دعاني رسول الله (ص)... فقال: يا حذيفة اذهبْ فادخلْ في القوم فانظر ماذا يصنعون، ولا تُحْدِثَنَّ شيئاً حتى تأتينا».

قال حذيفة: «فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل؛ لا تُقِرُّ لهم قِدْراً ولا ناراً ولا بناءً. فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش؛ لينظر امرؤ مَنْ جَليسُه؟، قال حذيفة: فأخذتُ بيد الرجل الذي كان إلى جنبي فقلتُ: مَنْ أنتَ؟ قال: فلان بن فلان».

«ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش؛ إنكم واللهِ ما أصبحتم بدار مُقَام، لقد هلك الكراع والخفُّ، وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي

نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون؛ ما تطمئن لنا قِدْر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء، فارتحِلوا فإني مرتحل. ثم قام إلى جَمَله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب على ثلاث، فوالله ما أطلق عِقاله إلاّ وهو قائم، ولولا عهد رسول الله (ص) إليَّ: أنْ لا تُحدث شيئاً حتى تأتيني، لقتلتُه بسهم... وجعل الناس يرحلون وأبو سفيان قائم، حتى خفَّ العسكر. فأقام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد في مائتي فارس؛ ساقةً للعسكر ورِدءاً لهم مخافة الطلب».

«قال حذيفة: فرجعتُ إلى رسول الله (ص) وهو قائم يصلّي... فلما سلَّم أخبرته الخبر... ولما أصبح... انصرف عن الخندق راجعاً إلى المدينة؛ والمسلمون»[1].

ثم شهد حذيفة مع النبي (ص) سائر مشاهده الأخرى[2]، مجاهداً في سبيل الله؛ وباذلاً النفس والنفيس فداء للحق وحماية للرسالة من الكيد والتآمر والعدوان.

❀ ❀ ❀

وما إن أشرف عصر النبوة الزاهر على الانتهاء حتى كان حذيفة قد نال من أوسمة الشرف والمجد ما يتصاغر أمامه كل شرفٍ في الأرض وكل مجد يتنافس فيه المتنافسون.

لقد أخرج الترمذي بسنده عن النبي (ص) قوله:

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٤٢ ـ ٢٤٤ وطبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٥٠ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٨٠ ـ ٥٨١ ودلائل النبوة: ٣/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧ و٤٤٩ ـ ٤٥٥. ومختصر منه في حلية الأولياء: ١/ ٣٥٤ والاستيعاب: ١/ ٢٧٧.

(٢) طبقات ابن سعد: ٦/ ٨ و٧/ ق ٢/ ٦٤ وتاريخ بغداد: ١/ ١٦١.

«ما حدَّثكم حذيفة فصدِّقوه»[١].

وروى ابن معصوم المدني في نص آخر عن النبي (ص) قال:

«حذيفة بن اليمان من أصفياء الرحمن وأبصركم بالحلال والحرام»[٢].

ولمقام حذيفة الشامخ أسرَّ النبي (ص) إليه «أسماء المنافقين، وضبط عنه الفتن الكائنة في الأمة»، حتى عُرِف بين الصحابة «بصاحب سرِّ رسول الله (ص)»[٣].

وأُثِر عن حذيفة قوله: «واللهِ إني لأعلمُ الناسِ بكل فتنةٍ هي كائنة فيما بيني وبين الساعة»[٤].

وأخرج الطبراني بسنده عن الشعبي قال:

«قلنا: كيف أصاب حذيفة ما لم يصب أبو بكر ولا عمر» من معرفة أسماء المنافقين؟».

قال: «قال صلة بن زُفَر: قد واللهِ سألنا حذيفة عن ذلك فقال: كنتُ أمشي مع رسول الله (ص) في مسيرٍ ذات ليلة، فأدلجنا دلجة، فنعس رسول الله (ص) على راحلته. فقال أُناس: لو دفعناه الساعة فوقع فاندقت عنقه استرحنا منه. فلما سمعتُهم تقدمتهم فسرتُ بينه وبينهم، فجعلت أقرأ سورة من القرآن، فاستيقظ رسول الله (ص) فقال: مَنْ هذا؟ قلت: حذيفة يا رسول الله، قال: ادْنُ، فدنوتُ، فقال: ما سمعتَ هؤلاء

(١) سنن الترمذي: ٥/ ٦٧٥.
(٢) الدرجات الرفيعة: ٢٨٤.
(٣) صحيح البخاري: ٥/ ٣١ ـ ٣٢ والاستيعاب: ١/ ٢٧٧ وتاريخ بغداد: ١/ ١٦٢ وأسد الغابة: ١/ ٣٩١ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٦٠ و٢٦٢.
(٤) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٦٣.

خلفك ما قالوا؟ قلت: بلى يا رسول الله؛ ولذلك سرتُ بينك وبينهم. قال: أمَا إنهم منافقون فلانٌ وفلان وفلان»[١].

ومن مجموع ما تقدَّم ذكره يتضح مقدار جلالة شأن حذيفة ورفيع درجته وقدسية حاله وأمره، ولقد كان ـ حقاً ـ كما قال ابن عبد البَرِّ: «من كبار أصحاب رسول الله (ص)»[٢]، وكما قال الذهبي: «من نجباء أصحاب محمد (ص)... ومن أعيان المهاجرين»[٣].

---

(١) المعجم الكبير: ٣/ ١٨١ و١٨٢ ـ ١٨٣.

(٢) الاستيعاب: ١/ ٢٧٧.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٦٠ و٢٦١ و٢٦٣.

وفي أوائل السنة الحادية عشرة من الهجرة اختار الله تعالى إلى جواره رسولَه الأمين وحبيبه المصطفى، وانتقل محمد إلى عالم النور والخلود والرضوان، وصعق المسلمون مما نزل بهم من هول الفاجعة وفداحة الخطب، فقد ارتحل القائد وانقطع الوحي وآن أوان الانقلاب على الأعقاب كما أخبر الله في محكم كتابه المبين.

وانقسم المسلمون في أمر الخلافة إلى أكثر من فريق.

وكان لحذيفة في كل ذلك رأي خاص وموقف محدَّد.

والمستفاد من بعض النصوص التاريخية الواردة بهذا الشأن أن حذيفة لم يقرّ بصحة ما وقع بيوم السقيفة في عملية الاستخلاف؛ ولم ير فيه الاختيار الأفضل والأمثل الذي يجمع الشمل ويوحِّد الكلمة ويحفظ للمسيرة منهجها الأصيل وخطوطها الثابتة. فقد روى الآبي وابن أبي الحديد عن البَراء بن عازب قوله:

«لمَّا قُبِض رسول الله (ص) تخوَّفتُ أن تتمالأ قريش على إخراج هذا الأمر من بني هاشم، فأخذني ما يأخذ الوالِهَ العَجُول. . فمكثتُ أُكابد ما في نفسي، فلما كان بليلٍ خرجتُ إلى المسجد، فلما صرتُ فيه تذكَّرتُ أني كنتُ أسمع همهمة رسول الله (ص) بالقرآن، فامتنعتُ من مكاني، فخرجت إلى الفضاء فضاء بني بَيَاضة، وأجد نفراً يتناجون، فلما

دنوت منهم سكتوا، فانصرفت عنهم، فعرفوني وما أعرفهم، فدعوني إليهم فأتيتُهم، فأجد المقداد بن الأسود وعُبَادة بن الصامت وسلمان الفارسي وأبا ذرّ وأبا الهيثم بن التيهان وحذيفة بن اليمان.. وإذا هم يريدون أن يعود الأمر شورى»(١).

ولا عجب من حذيفة هذا الموقف الرافض للأمر الواقع ما دام غير مقتنع بسلامة أسسه وقواعده، فقد كان يرى أن الخلافة من حق عليّ بن أبي طالب (ع) دون غيره من الصحابة وذوي القربى، ويقول فيما يقول:

«لو قُسمتْ فضيلة عليّ (ع) بقتل عمرٍو يوم الخندق بين المسلمين بأجمعهم لوسعتْهم»(٢).

ويزيد ربيعة بن مالك السعدي هذا الموضوع بياناً وشرحاً فيقول:

«أتيتُ حذيفة بن اليمان فقلتُ: يا أبا عبد الله؛ إن الناس يتحدَّثون عن عليٍّ بن أبي طالب ومناقبه، فيقول لهم أهل البصيرة: إنكم لَتُفْرِطون في تقريظ هذا الرجل. فهل أنتَ مُحَدِّثي بحديثٍ عنه أذكره للناس؟ فقال: يا ربيعة؛ وما الذي تسألني عن عليٍّ وما الذي أُحدِّثك عنه؟ والذي نفس حذيفة بيده لو وُضِع جميع أعمال أُمَّة محمد (ص) في كفَّة الميزان منذ بعث الله تعالى محمداً إلى يوم الناس هذا؛ ووُضِع عملٌ واحد من أعمال عليٍّ في الكفة الأخرى لرجح على أعمالهم كلها».

«فقال ربيعة: هذا المدح الذي لا يُقام له ولا يُقْعَد ولا يُحْمَل، وإني لأظنه إسرافاً يا أبا عبد الله».

---

(١) نثر الدر: ١/ ٤٠٠ ـ ٤٠١ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ٥١ ـ ٥٢.
(٢) شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٢٨٤.

«فقال حذيفة: وكيف لا يُحْمَل!، وأين كان المسلمون يوم الخندق وقد عبر إليهم عمرو وأصحابه فملكهم الهلع والجزع، ودعا إلى المبارزة فأحجموا عنه، حتى برز إليه عليٌّ فقتله. والذي نفس حذيفة بيده؛ لَعَمَلُه ذلك اليوم أعظم أجراً من أعمال أُمَّة محمد (ص) إلى هذا اليوم وإلى أن تقوم القيامة»[١].

❀ ❀ ❀

وعلى الرغم من رأي حذيفة الخاص في قضية الخلافة وشخص الخليفة؛ لم يُحْرَم من نعمة الجهاد في سبيل الله كلَّما وجد إلى ذلك مجالاً وكلَّما دعا الداعون إليه، ولم تصدَّه وجهة نظره تلك عن المشاركة في مواكب الفتوح الإسلامية، وعن الاستعداد للتضحية بالنفس والنفيس؛ إعلاءً لراية القرآن؛ وبسطاً لدعوة الحق في أرجاء الأرض.

وانطلاقاً من هذه المعطيات العقيدية الراسخة شارك حذيفة في حروب فتح العراق[٢]. وقد ولاَّه الخليفة عمر بعد فتح المدائن في سنة ١٦هـ شؤوناً إداريَّة فيها[٣].

وروى الرواة: أنه كتب كتاباً إلى الخليفة بعد فتح المدائن ذكر فيه: «أن العرب قد أُتْرِفتْ بطونُها، وخَفَّتْ أعضادُها، وتغيَّرت ألوانها»[٤]. فكتب الخليفة إلى سعدٍ يأمره بأن يبعث «سلمان رائداً وحذيفة ـ وكانا رائدي الجيش ـ فليرتادا منزلاً برّيّاً بحريّاً، ليس بيني

(١) شرح نهج البلاغة: ١٩/ ٦٠ ـ ٦١.
(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٩٧.
(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٣.
(٤) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٠ ـ ٤١.

وبينكم فيه بحر ولا جسر»، فبعث سعدٌ حذيفةَ وسلمان، فخرج سلمان حتى أتى الأنبار فسار في غربي الفرات لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة، وخرج حذيفة في شرقي الفرات لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة «فأعجبتهما البقعة، فنزلا فصلّيا... ولما قدم سلمان وحذيفة على سعد وأخبراه عن الكوفة» ارتحل بالناس من المدائن حتى عسكر بالكوفة؛ في المحرم سنة ١٧هـ[١].

وشارك حذيفة في حروب فتوح الشام[٢]؛ وفتح الجزيرة[٣]. وكان هو أحد حاملي كتابِ البشرى إلى الخليفة بالنصر المؤزَّر في تلك المعارك[٤].

ودعاه الخليفة عمر ذات يوم، و«كتب معه كتاباً إلى ملك الروم... فسار حذيفة من المدينة إلى الشام، ثم صار من أرض الشام إلى أرض الروم، وعلمتِ الرومُ أنه رسول؛ فكانوا يبذرقونه من موضع إلى موضع حتى بلغ إلى القسطنطينية، ثم دخل على هرقل فدفع إليه الكتاب»، ثم عاد إلى المدينة فحدَّث الخليفة بما كان من أمر هذه السِّفارة ومن ردِّ هرقل على الكتاب[٥].

وشارك حذيفة أيضاً في حروب فتوح بلاد فارس. وذكر الرواة في جملة ذلك مشاركته في وقعة فتح تستر[٦]، وكان فيها قائد الرجَّالة[٧] أو

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٤١ ـ ٤٢.
(٢) فتوح الشام: ١/ ١٠٤.
(٣) أسد الغابة: ١/ ٣٩١.
(٤) فتوح الشام: ١/ ١٤٢.
(٥) فتوح ابن أعثم: ١/ ٣٠٩.
(٦) فتوح ابن أعثم: ٢/ ١١.
(٧) فتوح ابن أعثم: ٢/ ١٣.

قائد الميسرة[١]. ثم شارك في فتح نهاوند، وقد أوصى النعمان بن مقرن قائدُ الجيش أن يكون حذيفة هو القائد بعده ـ إذا ما قُتِل النعمان في هذه الحرب ـ[٢]، وذكرت بعض الروايات أن تعيين حذيفة نائباً لقائد الجيش وقائداً له إنْ قُتِل النعمان كان بأمرٍ من الخليفة نفسه[٣].

فلما قُتِل النعمان وآلت القيادة إليه، أخذ حذيفة الراية «فرفعها للمسلمين، ثم قال: إني حامل. وحمل حذيفة وحمل الناس معه، فاقتتلوا قتالاً شديداً يومهم ذلك إلى أن جاء الليل... فلما أصبح القومُ زحف بعضهم إلى بعض... ودنت الفُرْسُ حتى تقاربت من صفوف المسلمين... وهَمَّ المسلمون بالحملة عليهم، فقال حذيفة: لا تعجلوا حتى آذن لكم. فصبر المسلمون ساعة، والفُرْس في خلال ذلك لا يفترون من الرَّمْي... ثم كبَّروا وحملوا على الفُرس فكشفوهم... ثم رجعوا إلى مراكزهم... فأقبل حذيفة بن اليمان على الناس فقال: أيها المسلمون؛ إن هؤلاء الأعاجم ليست معهم نَصَفة أن يخرج منهم رجل إلى رجل... وهذا عسكر لجب قد برز إليكم في مثل هذه التعبية من الخيل والجنود والفيلة. فثقوا بربكم، وقاتِلوا عن دينكم، وصلُّوا على نبيكم»، فحملوا وصبروا وثبتوا وقاتلوا قتال الأبطال حتى كتب الله لهم النصر[٤]. وكان فتح نهاوند في سنة تسع عشرة، ويقال: في سنة عشرين[٥].

وبعد أن تمت الغلبة للمسلمين «قسم حذيفة بن اليمان بين الناس

(١) فتوح البلدان: ٣٧٣.
(٢) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٤٨ وتاريخ الطبري: ٤/ ١١٥ و١١٦ و١١٩ و١٢٠.
(٣) فتوح البلدان: ٣٠٠ وتاريخ الطبري: ٤/ ١٢٧ وشرح نهج البلاغة: ٩/ ١٠١.
(٤) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٥٠ ـ ٥٦.
(٥) فتوح البلدان: ٣٠٢ وتاريخ الطبري: ٤/ ١٣٦.

غنائمهم... وقد نفل حذيفة من الأخماس مَنْ شاء من أهل البلاء يوم نهاوند، ورفع ما بقي من الأخماس إلى السائب بن الأقرع... فخرج بها إلى عمر... وأقام حذيفة... ينتظر جواب عمر»(١).

«وقسم حذيفة لمن خُلِّفوا بمَرْج القَلْعَة ولمن أقام بغَضى شَجَرٍ ولأهل المسالح جميعاً في فيء نهاوند مثل الذي قسم لأهل المعركة، لأنهم كانوا ردءاً للمسلمين لئلّا يُؤْتَوا من وجهٍ من الوجوه»(٢).

ثم شارك في فتوح أخرى في هذه البلاد، «وكان فتح همدان والريّ والدينور على يده»(٣)، وقد تمَّ ذلك كله في سنة اثنتين وعشرين(٤).

وشارك أيضاً في فتوح أصبهان(٥) وجرجان وطبرستان(٦) وموقان وجيلان وقومس وأذربيجان(٧)، وولاَّه الخليفة أمْرَ أذربيجان(٨).

ولمَّا فُتِحتْ انكل بعد فتح آمد «سميت باليمانية، لأنها فُتِحت على يدي حذيفة بن اليمان»(٩).

❀ ❀ ❀

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ١٣٣.
(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ١٣٤.
(٣) فتوح البلدان: ٣١٤ وتاريخ الطبري: ٤/ ١٤٧ والاستيعاب: ١/ ٢٧٧ وأسد الغابة: ١/ ٣٩١ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٦٣.
(٤) الاستيعاب: ١/ ٢٧٧.
(٥) مروج الذهب: ٢/ ٢١٣.
(٦) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٦٩.
(٧) فتوح البلدان: ٣١٤ و٣٢١ و٣٢٢ وتاريخ الطبري: ٤/ ٢٤٧ و٢٦٩ و٢٨١.
(٨) فتوح البلدان: ٣٢١ و٣٢٢ و٣٢٣.
(٩) فتوح الشام: ٢/ ١٠٢.

وكما كانت لحذيفة تلك المشاركات الكبيرة في الفتوح الإسلامية في جانبها الحربي العسكري، كانت له المشاركة الفعَّالة أيضاً في الأمور الإدارية في المناطق المفتوحة التي حرَّرها الإسلام من رجس الكفر والوثنية.

ويأتي في طليعة تلك الأعمال قيامه بمسح جانب من الأراضي الزراعية في العراق لتحديد مقدار خراجها الذي تأخذه الدولة. وقد روى الرواة أن الخليفة عمر بن الخطاب كتب إلى أهل الكوفة بعد فتح نهاوند:

«أما بعد: فإني قد بعثتُ إليكم عمار بن ياسر أميراً، وابن مسعود معلِّماً ووزيراً، وهما من النجباء من أصحاب محمد (ص) من أهل بدر... وقد جعلتُ ابن مسعود على بيت مالكم؛ وحذيفة وعثمان بن حنيف على السواد»[1].

وفي نصٍّ آخر: «ولَّيتُ حذيفة بن اليمان ما سَقَتْ دجلةُ وما وراءها، وولَّيتُ عثمان بن حنيف الفراتَ وما سقى»[2].

وتنفيذاً لذلك «مسح حذيفة سَقْيَ دجلة... وكان ذراعه وذراع ابن حنيفٍ ذراعَ اليد وقبضةً وإبهاماً ممدودة»[3]. و«وضع على جريبٍ قفيزاً ودرهماً»[4].

ثم عيَّنه عمر بعد ذلك والياً على المدائن[5]، وكتب في عهده: «أن اسمعوا له وأطيعوا، وأعطوه ما سألكم»[6].

(١) أنساب الأشراف: ١/ ١٦٣.
(٢) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٢٩ وتاريخ الطبري: ٤/ ١٣٩.
(٣) فتوح البلدان: ٢٧١.
(٤) فتوح البلدان: ٢٦٩.
(٥) طبقات ابن سعد: ٦/ ٣ و٧/ق ٢/ ٦٤ وتاريخ الطبري: ٣/ ٥٨٨ وتاريخ بغداد: ١/ ١٦٢ وأسد الغابة: ١/ ٣٩١ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٦٢ والإصابة: ١/ ٣١٦.
(٦) تاريخ بغداد: ١/ ١٦٢ وأسد الغابة: ١/ ٣٩١ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٦٢.

فلما قدم المدائن ـ وكان قدمها على حمار، على أكاف، وبيده رغيف، وهو سادل رجليه من جانب[1] ـ استقبله الناس، فقرأ عليهم عهده فقالوا له: «سلنا ما شئتَ. قال: أسألكم طعاماً آكله؛ وعلفَ حماري ما دمتُ فيكم»[2].

وكانت لحذيفة في المدائن أعمال عمرانية مشهودة، منها: توسيع مسجد المدائن وإحكام بنائه[3]، ومنها: بناء «قناطر حذيفة بسواد بغداد، منسوبة إلى حذيفة بن اليمان الصحابي؛ لأنه نزل عندها. وقيل: لأنه رقَّمها وأعاد عمارتها»[4].

❁ ❁ ❁

وفي سنة ٣٢هـ وكان الخليفة عثمان بن عفان؛ استعمل عثمان حذيفة قائداً لجيش الكوفة الذي أرسله إلى بَلَنْجَر مدداً للجيش الذي كان مقيماً هناك، «فغزاها حذيفة ثلاث غزوات، فقُتِل عثمان في الثالثة»[5].

ويبدو أن حذيفة كان يغزو ويرجع إلى الكوفة أو المدائن، وقد عدَّه المؤرخون فيمن نزل هاتين المدينتين، وذكروا أن له عقباً بالمدائن[6]. ورووا أنه كان موجوداً في الكوفة يوم ثار أهلها على سعيد بن العاص والي عثمان في سنة ٣٤هـ[7]. وقد أعلن قائد الثورة

---

(١) طبقات ابن سعد: ٧/ق ٢/ ٦٤ وحلية الأولياء: ١/ ٢٧٧ وتاريخ بغداد: ١/ ١٦٢.

(٢) أسد الغابة: ١/ ٣٩٢ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٦٣.

(٣) فتوح البلدان: ٢٨٨.

(٤) معجم البلدان: ٧/ ١٦٤، ومختصر منه في فتوح البلدان: ٢٧١.

ورد ذكر قناطر حذيفة في أثناء الحديث عن معركةٍ بين الحجاج والخوارج في تاريخ الطبري: ٦/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨ وشرح نهج البلاغة: ٤/ ٢٦١.

(٥) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٠٤ و٣٠٧ و٣٣٦.

(٦) طبقات ابن سعد: ٦/ ٨ و٧/ق ٢/ ٦٤.

(٧) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٣٥.

مالك الأشتر باسم أهل الكوفة أن يلي أبو موسى الأشعري الصلاة؛ وحذيفة بن اليمان الفيءَ أي الخراج[١]؛ حتى يصل المدينة والٍ جديد يرضاه الناسَ، وكتب إلى عثمان يطلب منه إقرار ذلك، فلبّى الخليفة هذا الطلب، «وكتب إلى أبي موسى وحذيفة: أنتما لأهل الكوفة رضىً؛ ولنا ثقة، فتولّيا أمرهم»[٢]، على الرغم من كون حذيفة من جملة الصحابة الذين يذكرون عثمان بالاستئثار وإساءة الأثرة[٣].

ولما عزل عثمان واليَه على أرمينية حبيب بن مسلمة «ولّى مكانه حذيفة بن اليمان»[٤]، وبعد ردح من الزمن عزل عثمان حذيفة فعاد إلى المدائن وكان الحارث بن الحكم والياً عليها، وكان «يتعسّف أهلها ويُسيء معاملتهم، فوفد منهم إلى عثمان وفدٌ يشكونه وأعلموه بسوء ما يعاملهم به. . . فولّى حذيفة بن اليمان عليهم، وذلك آخر أيامه. فلم ينصرف حذيفة عن المدائن إلى أن قُتِل عثمان»[٥].

❀ ❀ ❀

وقُتِل عثمان.

وبايع المسلمون علياً تلك البيعة الحماسية الهادرة.

وبلغ ذلك حذيفة ـ وكان عليلاً بالمدائن ـ فقال لمن حوله: «أخرجوني، وادعوا الصلاة جامعة. فوُضِع على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلّى على النبي وعلى آله، ثم قال:

---

(١) طبقات ابن سعد: ٥/ ٢٢.

(٢) أنساب الأشراف: ٥/ ٤٦.

(٣) أنساب الأشراف: ٥/ ٨٧.

(٤) فتوح ابن أعثم: ٢/ ١١٥ ـ ١١٦ وفتوح البلدان: ٢٠٧.

(٥) الدرجات الرفيعة: ٢٨٦.

«أيها الناس؛ إن الناس قد بايعوا علياً، فعليكم بتقوى الله وانصروا علياً ووازِروه، فواللهِ إنه لعلى الحقِّ آخراً وأولاً، وإنه لَخَيْرُ مَنْ مضى بعد نبيكم ومَنْ بقي إلى يوم القيامة».

«ثم أطبق يمينه على يساره، ثم قال: اللهم اشهد أني قد بايعتُ علياً. وقال: الحمد لله الذي أبقاني إلى هذا اليوم».

«وقال لابنَيْه صفوان وسعد: احملاني، وكونا معه فسيكون له حروب كثيرة يهلك فيها خلق من الناس، فاجتهدا أن تُسْتَشْهَدا معه، فإنه ـ واللهِ ـ على الحق، ومَنْ خالفه على الباطل»[1].

وبادر عليٌّ (ع) كما هو المتوقَّع منه في انتقاء ولاته على الأمصار إلى اختيار حذيفة ـ وهو الصحابي السابق الصادق ـ والياً على المدائن، وكتب (ع) إلى حذيفة كتاب ولايته، وهذا نصُّه بعد البسملة.

«من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى حذيفة بن اليمان».

«سلام عليك، أمَّا بعد»:

«فإني قد ولَّيتُك ما كنتَ عليه لمن كان قبلي من جرف المدائن، وقد جعلتُ إليك أعمال الخراج والرستاق وجباية أهل الذمة، فاجمع إليك ثقاتك ومَنْ أحببتَ ممن ترضى دينه وأمانته، واستعنْ بهم على أعمالك، فإن ذلك أعزُّ لك ولوليك وأكبتُ لعدوِّك. وإني آمرك بتقوى الله وطاعته في السرِّ والعلانية، وأحذِّرك عقابه في الغيب والمشهد، وأتقدَّم إليك بالإحسان إلى المحسن والشدَّة على المعاند، وآمرك بالرفق في أمورك؛ والدين والعدل في رعيتك ـ فإنك مُساءَلٌ عن ذلك ـ وإنصاف المظلوم والعفو عن المسيء وحسن السيرة ما استطعتَ، فإن الله

(١) مروج الذهب: ٢/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

يجزي المحسنين. وآمرك أن تجبي خراج الأرضين على الحق والنصفة، ولا تجاوز ما تقدمتُ به إليك، ولا تدع منه شيئاً، ولا تبدع فيه أمراً. ثم اقسم بين أهله بالسويَّة والعدل، واخفض لرعيتك جناحك، وواسِ بينهم في مجلسك، وليكن القريب والبعيد عندك في الحق سواء، واحكم بين الناس بالحق، وأقم فيهم بالقسط، ولا تتَّبع الهوى، ولا تخف في الله لومة لائم، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

«وقد وجهت إليك [كتاباً] لتقرأه على أهل مملكتك، ليعلموا رأينا فيهم وفي جميع المسلمين. فأحضرهم، واقرأه عليهم، وخذ البيعة لنا على الصغير والكبير منهم؛ إن شاء الله تعالى».

«فلما وصل عهد أمير المؤمنين إلى حذيفة؛ جمع الناسَ فصلَّى بهم، ثم أمر بالكتاب فقرىء عليهم، وهو:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من علي بن أبي طالب إلى مَنْ بلغه كتابي هذا من المسلمين. سلام عليكم. فإني أحمد اللهَ الذي لا إله إلاَّ هو، وأسأله أن يصلِّي على محمد وآله»:

«أمَّا بعد: فإن الله تعالى اختار الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله، إحكاماً لصنعه وحسن تدبيره؛ ونظراً منه لعباده، وخصَّ به مَنْ أحبَّه من خلقه، فبعث إليهم محمداً فعلَّمهم الكتاب والحكمة؛ إكراماً وتفضُّلاً لهذه الأمة، وأدَّبهم لكي يهتدوا، وجمعهم لئلاَّ يتفرَّقوا، ووقَّفهم لئلا يجوروا. فلما قضى ما كان عليه من ذلك مضى إلى رحمة الله حميداً محموداً. ثم إن بعض المسلمين أقاموا بعده رجلين رضوا بهديهما وسيرتهما، فأقاما ما شاء الله؛ ثم توفاهما الله عز وجل. ثم ولوا بعدهما الثالث فأحدث أحداثاً؛ ووجدت الأمة عليه فعالاً، فاتفقوا عليه ثم نقموا منه فغيَّروا. ثم جاؤوني كتتابع الخيل فبايعوني، إني أستهدي الله بهداه

وأستعينه على التقوى، ألا وإن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة نبيه (ص)؛ والقيام عليكم بحقِّه؛ وإحياء سنَّته؛ والنصح لكم بالمغيب والمشهد. وبالله نستعين على ذلك، وهو حسبنا ونعم الوكيل».

«وقد ولَّيتُ أموركم حذيفة بن اليمان، وهو ممن أرضى هداه وأرجو صلاحه، وقد أمرتُه بالإحسان إلى محسنكم، والشدة على مريبكم، والرفق بجميعكم. أسأل الله لنا ولكم حسن الخيرة والإسلام؛ ورحمته الواسعة في الدنيا والآخرة، [والسلام عليكم] ورحمة الله وبركاته».

«ثم إنِ حذيفة صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وصلَّى على النبي، ثم قال:

«الحمد لله الذي أحيا الحق وأمات الباطل وجاء بالعدل ودحض الجور وكبَت الظالمين. أيها الناس؛ إنه ولاّكم الله أمير المؤمنين حقّاً حقاً، وخير مَنْ نعلمه بعد نبينا، وأولى الناس بالناس، وأحقهم بالأمر، وأقربهم إلى الصدق، وأرشدهم إلى العدل، وأهداهم سبيلاً، وأدناهم إلى الله وسيلة، وأمسّهم برسول الله (ص) رحماً. أنيبوا إلى طاعة أول الناس سلماً؛ وأكثرهم علماً؛ وأقصدهم طريقة؛ وأسبقهم إيماناً؛ وأحسنهم يقيناً؛ وأكثرهم معروفاً؛ وأقدمهم جهاداً؛ وأعزهم مقاماً، أخي رسول الله (ص) وابن عمه، وأبي الحسن والحسين، وزوج الزهراء البتول سيدة نساء العالمين. فقوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب الله وسنة نبيه، فإن لله في ذلك رضىً، ولكم مقنع وصلاح. والسلام».

«فقام الناس فبايعوا أمير المؤمنين (ع)»[1].

---

(١) الدرجات الرفيعة: ٢٨٨ ـ ٢٩٠، وهذه الطبعة كثيرة الغلط، وقد أثبتنا النص كما ورد فيها.

واشتدَّ المرض بحذيفة حتى أشرف على الموت، وشاع ذلك بين الناس فبادروا إلى عيادته واغتنام هذه الفرصة للسؤال منه عن مجمل الأوضاع السائدة والمتوقعة في المجتمع الإسلامي ـ وهو كما يعلمون ـ صاحب سرِّ رسول الله (ص)، فأتاه رهطٌ من جهينة فقالوا: «يا أبا عبد الله؛ إن رسول الله (ص) استجار من أن تُصْطَلَمَ أُمَّتُه فأُجير من ذلك، واستجار من أن يذوقَ بعضها بأسَ بعضٍ فمُنع من ذلك. قال حذيفة: إني سمعتُ رسول الله (ص) يقول: إنَّ ابن سُمَيَّة لم يخيَّر بين أمرين قط إلاَّ اختار أرْشَدَهما ـ يعني عمَّاراً ـ فالزموا سَمْتَه»[1].

وأخرج ابن سعد بسنده قال:

«لما حضر حذيفةَ الموتُ... قيل له: يا أبا عبد الله؛ إنَّ هذا الرجل قد قُتِل ـ يعني عثمان ـ فما ترى؟»، قال حذيفة: «سمعتُ رسول الله (ص) يقول: أبو اليقظان على الفِطْرة؛ أبو اليقظان على الفطرة»[2] يعني عمار بن ياسر.

وأخرج الطبري بسنده عن حَبَّة العُرَني قال:

«انْطلقتُ أنا وأبو مسعود إلى حذيفة بالمدائن فدخلنا عليه، فقال:

---

(١) وقعة صفين: ٣٤٣ وشرح نهج البلاغة: ٢٦/٨.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١٨٨/١ وسير أعلام النبلاء: ٢٩٨/١.

مرحباً بكما. . . فأسندتُه إلى أبي مسعود فقلنا: يا أبا عبد الله؛ حدِّثنا فإنَّا نخاف الفتن»، فقال لهما حذيفة: «عليكما بالفئة التي فيها ابن سميَّة، إنّي سمعتُ رسول الله (ص) يقول: تقتله الفئة الباغية الناكبة عن الطريق؛ وإنّ آخر رزقه ضَيَاحٌ من لبن»(١).

وأخرج ابن قتيبة من حديث حذيفة أنه ذكر خروج عائشة إلى البصرة فقال:

«تُقاتِل معها مُضَرُ مضَّرها الله في النار؛ وأزدُ عُمَان سَلَت اللهُ أقدامها، وإنَّ قيساً لن تنفكَّ تبغي دين الله شرّاً حتى يركبها اللهُ بالملائكة فلا يمنعوا ذَنَبَ تَلْعَة»(٢).

ثم بلغ حذيفةَ ـ وهو على فراش الموت ـ أن علياً (ع) قد توجَّه إلى البصرة لحرب البغاة الناكثين للبيعة، وأنه قد قَدِم ذاقار في طريقه إلى هناك، فلم تمنع شدةُ المرض والحال حذيفةَ من أن يعظ أصحابه ويذكِّرهم ويزهِّدهم في الدنيا ويرغِّبهم في الآخرة ويحثهم على الجهاد. وقال لهم:

«الحقوا بأمير المؤمنين ووصيِّ سيد المرسلين، فإن من الحق أن تنصروه. وهذا الحسن ابنه وعمَّار قد قدما الكوفة يستنفران الناسَ، فانفروا».

فنفر أصحاب حذيفة إلى أمير المؤمنين»(٣).

---

(١) تاريخ الطبري: ٥/٣٨ ـ ٣٩.

(٢) غريب الحديث: ٢/ ٢٥٠. ورواه ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: ١١/ ١٢١ ـ ١٢٢ وقال معلقاً عليه: «هذا الحديث من أعلام نبوة سيدنا محمد (ص)، لأنه إخبار عن غيبٍ تلقَّاه حذيفة عن النبي (ص)، وحذيفة أجمع أهل السيرة على أنه. . . لم يدرك الجمل».

(٣) شرح نهج البلاغة: ٢/١٨٧ ـ ١٨٨.

ونزل بحذيفة الموت، وكان آخر ما أُثِر عنه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة قوله:

«اللهم إنك تعلم أني أحبُّك، فبارك لي في لقائك»[١].

ثم عرجت روحه إلى ربِّه.

وكانت وفاته بالمدائن[٢]، سنة ستٍّ وثلاثين[٣]، بعد قتل عثمان بأشهر[٤]، وبعد قدوم عليّ ذاقار في طريقه إلى البصرة بخمس عشرة ليلة[٥]. وهذا هو أرجح الأقوال المستفادة من مجموع النصوص التاريخية المعنية بالأيام الأخيرة من حياة هذا الصحابي الكريم المجاهد.

ودُفن ـ رضوان الله عليه ـ في المدائن حيث توفي، وكان قبره معروفاً يزوره الناس على ضفاف دجلة، ثم نقلتْ رفاته إلى جوار قبر الصحابي «سلمان الخير» لمَّا طغى النهر وخرَّب القبر وهدم الضفاف.

---

(١) أسد الغابة: ١/ ٣٩٠.

(٢) طبقات ابن سعد: ٦/ ٨ و٧/ق ٢/ ٦٤ وفتوح البلدان: ٢٨٨ وتاريخ بغداد: ١/ ١٦٣ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٦٣ و٢٦٥.

(٣) المصادر المذكورة في الهامش المتقدم والمعجم الكبير: ٣/ ١٨٢ والاستيعاب: ١/ ٢٧٧ وطبقات خليفة: ١/ ١١٢ وأسد الغابة: ١/ ٣٩١.

(٤) طبقات ابن سعد: ٧/ق ٢/ ٦٤.

(٥) شرح نهج البلاغة: ٢/ ١٨٨ والدرجات الرفيعة: ٢٨٧.

[١٥]

زيد بن صوحان

زيد بن صوحان

اسمه ونسبه

هو: زيد بن صُوحان[1] بن حُجْر بن الحارث بن الهِجْرِس بن صَبرة بن حِذْرِجان بن عِسَاس بن ليث بن حُدَاد بن ظالم بن ذُهْل بن عِجْل بن عمرو بن وديعة بن أفْصى بن عبد القيس بن أفصى بن دُعْميّ بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار[2].

وأبوه: كان رأساً في الجاهلية وسيِّداً في الإسلام[3]، ولم يصلنا من خبره أكثر من ذلك.

إخوته:

١ ـ صَعْصَعَة بن صُوحان، وهو «أخوه لأبيه وأُمِّه» كما نصَّ المؤرخون[4]. وقد خصصناه بكتابٍ من هذه السلسلة؛ يُعنى

---

(١) نصَّ في الإصابة: ١/ ٥٥٠ على ضمِّ الصاد وسكون الواو وحاءٍ مهملة.

(٢) طبقات ابن سعد: ٦/ ٨٤ وطبقات خليفة: ١/ ٣٢٦ وأسد الغابة: ٢/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤. وورد النسب كلاً أو بعضاً في جمهرة النسب: ٥٨٩ والاستيعاب: ١/ ٥٣٩ وجمهرة أنساب العرب: ٢٩٧ وتاريخ بغداد: ٨/ ٤٣٩ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٢٥ والإصابة: ١/ ٥٦٥ (وفيها اختلاف في أسماء رجال السلسلة).

(٣) العقد الفريد: ٤/ ٣١٧، وقد ورد هذا التعريف بصوحان على لسان أم المؤمنين عائشة في رسالتها إلى زيد قبيل حرب الجمل، وسوف يرد نصها في موضعها من الكتاب.

(٤) طبقات ابن سعد: ٦/ ٨٤ والاستيعاب: ١/ ٥٣٩ وأسد الغابة: ٢/ ٢٣٤ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٢٦ والإصابة: ١/ ٥٦٥.

بعرض جوانب من مسيرة حياته وأقباسٍ من جهده وجهاده، فلا نكرر ولا نعيد.

٢ ـ سَيْحَان بن صُوحان: وكان صحابياً صدوقاً وفارساً صنديداً، ومن أُمراء جيش المسلمين في بعض الحروب، وقد روى المؤرخون في أخبار خروج لقيط بن مالك الأزديِّ: أن دولة الخلافة كانت قد أرسلت مدداً للمسلمين المحاربين للقيطٍ؛ رهطاً من بني ناجية عليهم الحارث بن راشد ومن بني عبد القيس وعليهم سيْحان بن صوحان العبدي[1]، «فقوي المسلمون، وانهزم لقيطٌ، وقُتِل مَنْ كان معه»[2]، وكانت الخلافة يومذاك لا تُؤمِّر إلاَّ الصحابة[3].

واشترك هذا الصحابي الكريم في حرب أتباع الجمل؛ إطاعةً لإمامه الشرعيِّ أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب (ع)؛ وتلبيةً لندائه بالتوجُّه إلى البصرة لنصرته، فنفر من الكوفة ـ مقرِّ داره ومسكنه ـ يريد البصرة، وخطب في مسلمي الكوفة فيمن خطب من الرؤساء والزعماء، وكان مما قال لهم:

«أيها الناس؛ إنه لا بدَّ لهذا الأمر وهؤلاء الناس من والٍ يدفع الظالمَ ويعزُّ المظلومَ ويجمع الناس. وهذا واليكم [يعني أمير المؤمنين] يدعوكم لينظر فيما بينه وبين صاحِبَيْه [يعني طلحة والزبير]، وهو المأمون على الأمَّة؛ الفقيهُ في الدِّين. فمن نهض إليه فإنَّا سائرون معه»[4].

وقدم سَيحانُ البصرة، وشارك في حرب «الناكثين» حاملاً راية قومه

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٣١٥.

(٢) الإصابة: ٢/ ١٩٣، وسُمي فيها (صيحان) بالصاد، ولكن السين أشهر.

(٣) الإصابة: ٢/ ١٠٢.

(٤) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٨٤.

عَبْد القيس، فنال هناك السعادة بشرف الشهادة على يد الخارجين على إمام زمانهم، ودُفِن مع أخيه زيدٍ في قَبْر واحد[١].

وسيحان هذا معدود في الطبقة الأولى من سُكَّان الكوفة[٢].

❀ ❀ ❀

وُلِد زيدٌ في الجاهلية قبل الإسلام في تاريخ لم يصل إلينا خبرُه، كما لم يصلنا أيّ خبرٍ يُعنى بشؤون صباه وشبابه؛ وزواجه وأولاده، سوى ما أورد أبو عبيد من خبر صعصعة بن صوحان وهو ينصح ابناً لأخيه زيد[٣]؛ ولم يُسَمِّه. وذكر الطبري في أخبار العلويّ الثائر بالبصرة سنة ٢٥٥هـ: أنه استمال جماعةً من سكَّان بغداد؛ منهم جعفر بن محمد الصوحاني الذي كان ينتسب إلى زيد بن صوحان[٤].

وعلمنا من روايات المؤرخين أن زيداً كان يكنى «أبا سَلْمان»[٥] لأنه كان يحبُّ سلماناً حُبّاً جمّاً و«من شدة حبه له اكتنى أبا سلمان»[٦]، وقيل: إن كنيته «أبو سليمان»[٧]، وقيل: «أبو عبد الله»[٨]، وقيل: «أبو عائشة»[٩].

---

(١) جمهرة النسب: ٥٨٩ وطبقات ابن سعد: ٦/٨٦ وتاريخ خليفة: ١/٢١٣ وتاريخ الطبري: ٤/٥١٥ و٥٢١ وسير أعلام النبلاء: ٣/٥٢٨.
(٢) طبقات خليفة: ١/٣٢٧.
(٣) الأمثال: ١٥٧.
(٤) تاريخ الطبري: ٩/٤١٢.
(٥) الاستيعاب: ١/٥٣٩ وتاريخ بغداد: ٨/٤٣٩ وأسد الغابة: ٢/٢٣٤.
(٦) الإصابة: ١/٥٦٦. ويراجع دلائل النبوة: ٢/٨٢ في مودة زيد لسلمان.
(٧) الاستيعاب: ١/٥٣٩ وأسد الغابة: ٢/٢٣٤ وسير أعلام النبلاء: ٢/٥٢٥ والإصابة: ١/٥٦٥.
(٨) تاريخ بغداد: ٨/٤٣٩ والإصابة: ١/٥٦٦.
(٩) طبقات خليفة: ١/٣٢٦ وأنساب الأشراف: ٢/٢٤٤ والاستيعاب: ١/٥٣٩ وتاريخ بغداد: ٨/٤٣٩ وأسد الغابة: ٢/٢٣٤ وسير أعلام النبلاء: ٣/٥٢٥ والإصابة: ١/٥٦٥ و٥٦٦.

ومع أن بني عبد القيس بصريُّون خليجيون؛ فإن زيداً سكن الحجاز ردحاً من الزمن، وقد روى ابن حجر عن ابن مندة: أن عداد زيدٍ في أهل الحجاز(١).

ولا ينافي ذلك ما تقدَّم ذكرُه من كون أخيه معدوداً في الطبقة الأولى من أهل الكوفة، لأنه سكنها مع بني قومه عبد القيس بعد تمصيرها ومشاركته في معارك فتح العراق كما يأتي.

(١) الإصابة: ١/ ٥٥٠.

وأشرقت الأرضُ بنور ربِّها، وأرسل اللهُ تعالى رسوله محمداً (ص) بالهدى ودين الحق، فزهق الباطل، وبدأت فلول الظلام والجاهلية بالانحسار عن الجزيرة العربية، لتعيش في ظلال الإسلام حياة الخير والرغد والسعادة والرفاه.

وكان زيد بن صوحان ممن أسلم في عصر النبوة بلا ريب، ولكننا لم نعلم متى كان إسلامه وكيف تمَّ ذلك، فقد اكتفى الرواة بالنصِّ على أنه «كان مسلماً على عهد النبي (ص)»[1]، ورووا: أن بعضهم ذكر وفادته على رسول الله (ص)[2].

وحدَّث ابن سعد وغيره: أن رسول الله (ص) كان في سفرٍ، «فنزل رجلٌ من القوم فساقَ بهم ورَجَزَ، ثم نزل آخر، ثم بدا لرسول الله (ص) أن يواسي أصحابه، فنزل فجعل يقول:

«جُنْدَب وما جُنْدَب؛ والأقطع الخير زيد».

«ثم ركب، فدنا منه أصحابهُ فقالوا: يا رسول الله؛ سمعناك الليلة

---

(١) الاستيعاب: ١/ ٥٣٩ وأسد الغابة: ٢٣٤ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٢٥ والإصابة: ١/ ٥٦٥.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٢٥، ولعل هذه الوفادة هي المشار إليها بقول الحافظ ابن عبد البرِّ: «أدرك النبي (ص) بسنةٍ مسلماً»، فقد كانت السنة الأخيرة من حياة النبي (ص) سنة الوفود.

تقول: جندب وما جندب والأقطع الخير زيد؟. فقال: رجلان يكونان في هذه الأمَّة: يَضْرِب أحدُهما ضربةً تفرق بين الحق والباطل؛ والآخَرُ تُقْطَع يَدُه في سبيل الله ثم يُتْبِع اللهُ آخِرَ جسدِه بأوَّله»[١].

وفي لفظ ابن عبد البرّ:

«رُوِيَ من وُجُوهٍ: أن النَّبيَّ (ص) كان في مسيرٍ له، فبينا هو يسير إذ هَوَّم فجعل يقول: زيد وما زيد؛ جندب وما جندب؟ فسُئل عن ذلك فقال: رجلان من أُمَّتي: أمَّا أحدهما فتسبقه يَدُه ـ أو قال: بعضُ جسده ـ إلى الجنة ثُم يتبعه سائرُ جسده، وأمَّا الآخرُ فيَضْرِب ضربةً يفرق فيها بين الحقِّ والباطل».

«قال أبو عمر: أُصيبت يَدُ زيدٍ يوم جلولاء ثم قُتِل يوم الجمل مع علي ـ (رض) ـ، وجندب قاتل الساحر»[٢].

وقد ذكر هذه الحادثةَ أحَدُ شعراء عبد القيس في قصيدةٍ له يفخر فيها بقبيلته ورجالها، فقال:

وكفى بزيدٍ حين يُذْكَر فعلُهُ   طوبى لذلك من صريعٍ مُكرَمِ
ذاك الذي سبقتْ لطاعة ربِّه   منه اليمينُ إلى جنان الأنعمِ
فدعا النبيُّ لهم هنالك دعوةً   مقبولةً بين المقام وزمزمِ[٣]

وقد اختصر المحدِّثون هذه القصة فرووا خلاصتها في حَديثٍ شريف هذا نصُّه:

---

(١) طبقات ابن سعد: ٦/ ٨٤، والنص بتفصيل أكثر في الأغاني: ٥/ ١٤٤.
(٢) الاستيعاب: ١/ ٥٤٠ ـ ٥٤١، ويُراجَع في هذا النص أيضاً: المعارف: ٤٠٢ وأسد الغابة: ٢/ ٢٣٤ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٢٥ ـ ٥٢٦ والإصابة: ١/ ٥٦٦.
(٣) الإصابة: ١/ ٥٥٧.

«قال رسولُ الله (ص): «مَنْ سَرَّه أن ينظر إلى رجلٍ يسبقه بعضُ أعضائه إلى الجنة فلينظر إلى زيد بن صوحان»[١].

❀ ❀ ❀

ثم ينتهي عهد النبوة الزاهر، وليس لدينا من أخبار زيدٍ إلاَّ هذه النتف الموجزة التي لا تشبع نهم الباحث ولا تملأ فراغات البحث، ولكنَّ فيها ـ على إيجازها ـ ما يفوق كلَّ مقاييس الدنيا ويسمو على جميع موازين البشر؛ وهو إخبار النبي (ص) بكون زيدٍ من أهل الجنة.

وحسبه ذلك شرفاً وعزاً؛ يوم لا يتمايز الناس بغير شرف الإيمان؛ ولا ينفعهم إلاَّ عزُّ الطاعةِ الصادقة والعمل الصالح والإذعان المطلق لله ربِّ العالمين.

(١) دلائل النبوة: ٦/ ٤١٦ وتاريخ بغداد: ٨/ ٤٤٠ والإصابة: ١/ ٥٦٥ ـ ٥٦٦.

وآلت أمور الحكم وشؤون الدولة ـ بعد وفاة رسول الله (ص) إلى خلفاء العصر وأمراء الزمان.

ولسنا هنا بمعنيِّين بهذا الموضوع إلا بمقدار ما يخصُّ صاحبنا زيداً من ذلك كلِّه.

ولم ترو لنا مصادر التاريخ أيّ خبرٍ عن موقف زيدٍ من الخلافة في عهدها الأول، فلم نعلم أكان من المؤيدين لما وقع أو المعارضين له، ولم نقف على نصٍّ يوضح لنا رأيه فيما سُمِّي يومذاك «حروب الردَّة»، وهي الحروب التي قامت بين السلطة التي خلفت النبيَّ (ص) وبين جمهور غير قليل من المسلمين، وقد قمعتها الحكومة الجديدة بكل عنف وشدة باسم محاربة المرتدين.

بل لم نقف على أيّ خبرٍ لزيد ـ فيما يتعلق بروابطه بالخلافة في عهدها الثاني ـ إلاَّ مشاركته في حروب الفتح الإسلامي؛ إعلاءً لكلمة الله؛ ونشراً لدين الحق والعدل في أرجاء الأرض.

ولولا ما رواه المؤرخون من قطع يده في إحدى هذه الحروب ـ كما أخبر بذلك رسول الله (ص) وهو الصادق المصدَّق ـ لما علمنا بوجوده في جيش الفتح، فقد حدَّث المحدِّثون عن الأعمش «أن يدَ زيدٍ

قُطِعت يوم نهاوند»[١]، ونصَّ بعضُهم على أنها كانت الشِّمال وأن ذلك كان يوم جلولاء[٢]، وقيل: إن ذلك كان يوم القادسية[٣]، وأجمل الخطيب البغدادي ذلك فقال: «قُطعت يدُ زيدٍ في جهاده المشركين»[٤]، وربما تشعر عبارة الخطيب بأن الحادث كان في عصر النبوة؛ لأن حروب الفتح لم تكن ـ باصطلاح المؤرخين ـ ضدّ المشركين.

وأضاف المؤرخون إلى ذلك فرووا: «أنه كان في جيشٍ عليهم سلمان الفارسي، فكان يؤمُّهم زيدُ بن صوحان، يأمره بذلك سلمان»[٥].

ولمَّا مُصِّرَت الكوفة وسكنها المسلمون؛ كان زيدٌ ـ مع لفيف من بني قومه عبد القيس ـ من جملة مَنْ سكنها[٦]، وكانت لهم خطَّةٌ من خططها، ولا بدَّ أنه قد انتقل إليها من الحجاز لأنه كان معدوداً في أهل ذلك الإقليم كما تقدَّم.

وبعد لأيٍ من تمصير الكوفة روى الرواة أن وفداً من أهلها «قدموا على عمر؛ وفيهم زيد بن صوحان... فقال عمر:

«يا أهل الكوفة؛ إنكم كنز أهل الإسلام، إن استمدَّكم أهلُ البصرة أمددتموهم، وإن استمدَّكم أهل الشام أمددتموهم.

---

(١) طبقات ابن سعد: ٦/ ٨٥ والمحاسن والمساوئ: ١/ ٣٥ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٢٦.
(٢) الاستيعاب: ١/ ٥٤٠ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٢٧.
(٣) الإصابة: ١/ ٥٦٦.
(٤) تاريخ بغداد: ٨/ ٤٤٠.
(٥) طبقات ابن سعد: ٦/ ٨٥ والاستيعاب: ١/ ٥٤٠ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٢٧.
(٦) تاريخ بغداد: ٨/ ٤٣٩.

«وجعل عمرُ يُرَحِّل لزيدٍ وقال: يا أهل الكوفة؛ هكذا فاصنعوا بزيدٍ»[١].

وفي نصّ آخر:

«دعا عمرُ بن الخطاب زيدَ بن صوحان فضَفَّنه على الرَّحْلِ... ثم التفت إلى الناس فقال: اصنعوا هذا بزيدٍ وأصحاب زيد»[٢].

ثم ينتهي العهدانِ الأولان من عهود الخلافة؛ وليس لدينا من أخبار زيد إلاَّ القليل القليل، ولكنها على قلّتها تدل على أن زيداً معدود في المقدمة من الصحابة وفي طليعتهم البارزة المحاطة بالاحترام والتقدير، وحسبنا من شواهد ذلك أن يكون إمام الصلاة بأمر سلمان؛ وأن يُرَحِّل له الخليفةُ عمر بنفسه؛ وأن يصف الوفدَ المرافق له بـ«أصحاب زيد».

❀ ❀ ❀

وانتهت نوبة الخلافة إلى الخليفة الثالث عثمان بن عفان.

وكان بعض أعمال هذا الخليفة وتصرفاته مورداً للنقد والاستنكار من جمهورٍ غفير من المسلمين، مما لا مجال للخوض في تفاصيله إلاَّ بقدر ما يخص صاحبنا زيداً من أحداثه وملابساته.

وبذل غيارى المسلمين وأهلُ الرأي الصادق والدين الخالص قصارى جهدهم وغاية مقدورهم في نصح الخليفة وثنيه عما هو فيه، فلم يُجْدِ ذلك نفعاً ولم يجدْ له سمعاً أمام إصرار الحاكم على السير في النهج الذي اختاره ورغب فيه.

---

(١) طبقات ابن سعد: ٦/ ٨٥ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٢٦.

(٢) طبقات ابن سعد: ٦/ ٨٥ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٢٦ والإصابة: ١/ ٥٦٦.

ويروي المؤرخون في جملة ذلك أن زيد بن صوحان قام يوماً إلى عثمان فقال له فيما قال:

«يا أمير المؤمنين؛ مِلْتَ فمالتْ أُمَّتُك، اعْتدِلْ تعتدل أمتك، ثلاث مرارٍ»[١].

ولكن المستفاد من سير الأحداث أن جميع تلك النصائح والتوجيهات والمحاولات لتقويم المسيرة وتجنّب الفتنة قد باءت بالفشل. بل بدأ الموقف بالتفجُّر في عددٍ من أمصار المسلمين، وكانت أولى الانفجارات في مدينة الكوفة، وهي التي سماها الخليفة عمر في خطابه لزيدٍ وأصحابه: «كنز أهل الإسلام» كما تقدَّم.

وتتلخص بداية المشكلة أو الانفجار في الكوفة ـ كما روى غير واحد من المؤرخين ـ بالحادثة الآتية:

كان سعيدُ بن العاص لمَّا وَلِيَ الكوفة «يجالس قرَّاءها ووجوهَ أهلها ويسامرهم، فيجتمع عنده منهم: مالك بن الحارث الأشتر النخعي وزيد وصعصعة ابنا صوحان العبديّان» وآخرون.

«فإنهم لَعِنْدَه قد صلوا العصر إذ تذاكروا السوادَ والجبلَ ففضَّلوا السواد... فقال عبد الرحمن بن خنيس الأسدي صاحب شُرَط الوالي: لوددتُ أنه للأمير وأن لكم أفضل منه. فقال له الأشتر: تَمنَّ للأمير أفضلَ منه ولا تمنَّ له أموالنا.

«فقال عبدُ الرحمن: ما يضرُّك من تَمَنِّيَّ حتى تزوي ما بين عينيك، فواللهِ لو شاء كان له.

«فقال الأشتر: واللهِ لو رام ذلك ما قدر عليه.

(١) طبقات ابن سعد: ٦/ ٨٥ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٢٧.

«فغضب سعيدٌ وقال: إنما السَّوَاد بستان قريش.

«فقال الأشتر: أتجعل مراكزَ رماحِنا وما أفاء اللَّهُ علينا بستاناً لك ولقومك، واللهِ لو رامه أحَدٌ لقُرِعَ قرعاً يتصأصأ منه، ووثب بابن خنيسٍ، فأخَذَتْه الأيدي.

«فكتب سعيد بن العاص بذلك إلى عثمان وقال: إني لا أملك من الكوفة مع الأشتر وأصحابه الذين يُدْعَوْنَ القُرّاء ـ وهم السُّفهاء!! ـ شيئاً.

«فكتب إليه: أنَّ سَيِّرْهم إلى الشام.

«فسَيَّرَ سعيدٌ الأشترَ ومَنْ كان وثب مع الأشتر وهم: زيد وصعصعة ابنا صُوحان؛ وعائذ بن حَمَلَةَ الطُّهَوي من بني تميم؛ وكُمَيل بن زياد النخعي؛ وجُندب ابن زهير الأزدي» وآخرون[١].

هكذا بدأ الانفجار كما حكت هذه الرواية، وهي رواية راجحة الصدق والوقوع، بل ربما تعكس بعض الحقيقة لا كلّها، وإنها لمنسجمة تماماً مع ما عرفنا من مشاعر أولئك الحاكمين المعقَّدة ونفسيتهم المشبعة بالمرض والانحراف؛ وهم يتصنَّعون التَّعالي و(الأرستقراطية) والغطرسة على الناس، مما ورد في كتب التاريخ الكثير من شواهده الصارخة وأمثلته التي لا تقبل الجدل والمناقشة.

ولكن الطبري إذ يروي خلاصة الحادثة لا يذكر أسبابها ولا يتطرق إلى إيراد شيء من مقدِّماتها ـ وهذا ديدنه في أمثال هذه المواقف ـ، فهو يقول:

---

(١) أنساب الأشراف: ٥/ ٤٠ ـ ٤١، وبتفصيل أكثر في الأغاني: ١٢/ ١٤١ ـ ١٤٢.
ويُراجَع في النص: فتوح ابن أعثم: ٢/ ١٧١ ـ ١٧٨ وشرح نهج البلاغة: ٢/ ١٢٩ ـ ١٣٤ والإصابة: ١/ ٥٦٦.

«اجتمع نفرٌ بالكوفة يطعنون على عثمان؛ من أشراف أهل العراق: مالك بن الحارث الأشتر وثابت بن قيس النخعي وكميل بن زياد النخعي وزيد بن صوحان العبدي وجندب بن زهير الغامدي وجندب بن كعب الأزدي وعروة بن الجعد وعمرو بن الحمق الخزاعي.

«فكتب سعيد بن العاص إلى عثمان يخبره بأمرهم، فكتب إليه أنْ سيِّرْهم إلى الشام وألْزِمْهم الدُّروب»[١].

ومهما يكن من أمرٍ، فقد أثار أمْرُ عثمان بتشريد هذه النخبة من قرّاءِ المسلمين وذوي الشأن فيهم؛ سخطَ الجماهير بالكوفة واستنكارَهم لذلك، «فكتب جماعة من القرَّاء إلى عثمان... إن سعيداً كَثَّر على قومٍ من أهل الورع والفضل والعَفاف؛ فَحَمَلَكَ في أمرهم على ما لا يحلُّ في دينٍ ولا يحسن في سماع. وإنَّا نذكُرك اللهَ في أمَّة محمد؛ فقد خفنا أن يكون فسادُ أمرهم على يديك، لأنك قد حملتَ بني أبيك على رقابهم. واعلمْ أن لك ناصراً ظالماً وناقماً عليك مظلوماً، فمتى نَصَرَكَ الظالم ونقم عليك الناقم؛ تَبَايَن الفريقان واختلفت الكلمة، ونحن نُشْهِد عليك اللهَ وكفى به شهيداً؛ فإنك أميرُنا ما أطعتَ اللهَ واستقمتَ، ولن تجد دون اللهِ ملتَحَدا؛ ولا عنه منتَقَذا».

«ولم يُسَمِّ أحدٌ منهم نفسَه في الكتاب، وبعثوا به مع رجل من عَنَزَة يُكنى أبا ربيعة. وكتب كعبُ بن عبدة كتاباً من نفسه تَسمّى فيه؛ ودَفَعَه إلى أبي ربيعة أيضاً.

«فلما قدم أبو ربيعة على عثمان سأله عن أسماء القوم الذين كتبوا الكتاب فلم يُخْبِره، فأراد ضَرْبَه وحبسَه، فمنعه عليٌّ من ذلك وقال: إنما هو رسولٌ أدّى ما حُمِّل».

(١) تاريخ الطبري: ٤/٣٢٦.

فلم يكن جواب عثمان على هذه الرسالة أو النصيحة إلاَّ أن يكتب إلى سعيدٍ أن يضرب كعبَ بن عبدة عشرين سوطاً ويحوِّل ديوانه إلى الريِّ. ففعل[١].

وبقي قرَّاء الكوفة المسيَّرون إلى دمشق أسرى الإقامة الجبرية المفروضة عليهم هناك، ويبدو أن معاوية كان يجتمع بهم بين حينٍ وآخر، وربما كان ذلك لغرض اختبار مدى تأثير هذه العقوبة عليهم، وقد رُوي أنه «جرى بين معاوية وبين الأشتر قولٌ حتى تغالظا»[٢].

ولمَّا أيس معاوية من تراجعهم عمَّا هم عليه؛ لم يطق صبراً على وجودهم في عاصمته، «فكتب إلى عثمان: إنك بعثتَ إليَّ قوماً أفسدوا مصرهم وأنغلوه، ولا آمَن أنْ يُفْسِدوا طاعة مَنْ قِبَلي ويعلِّموهم ما لا يحسنونه؛ حتى تعود سلامتهم غائلةً واستقامتهم اعوجاجاً».

فكتب عثمان إلى معاوية «يأمره أن يُسَيِّرهم إلى حمص. ففعل».

«ويُقال: أن عثمان كتب في ردِّهم إلى الكوفة، فضجَّ منهم سعيدٌ ثانيةً، فكتب في تسييرهم إلى حمص، فنزلوا الساحل»[٣].

وأقام القومُ هناك مدة من الزمن قبل أن يعودوا إلى الكوفة بعد ذلك؛ منتهزين فرصة غياب معاوية عن الشام وسعيد بن العاص عن الكوفة[٤]. ولكنهم لم يغيِّروا شيئاً مما كانوا عليه؛ ولم تردعهم عقوبات الخليفة وواليَيْه عن إنكار المنكر والأمر بالمعروف والذكر العلني لسوء الأوضاع يومذاك. وقد نصَّ المؤرخون على أسماء بعض هؤلاء الداعين

(١) أنساب الأشراف: ٥/ ٤١ ـ ٤٢.
(٢) المصدر نفسه: ٥/ ٤٣.
(٣) أنساب الأشراف: ٥/ ٤٣.
(٤) أنساب الأشراف: ٥/ ٤٤.

للإصلاح والثائرين بالحق، ومنهم: الأشتر وزيد بن صوحان وكميل بن زياد وآخرون(١).

ثم أوفد أهلُ الكوفة ـ زيادة في إقامة الحجة واتِّقاء الفتنة ـ وفداً منهم إلى الخليفة بالمدينة، وقد ضمَّ فيمن ضمَّ من الوجوه البارزين كلاً من مالك بن الحارث الأشتر ويزيد بن مكفف وثابت بن قيس وكميل بن زياد النخعي وزيد وصعصعة ابني صوحان العبدِيَّيْن وغيرهم، وكان مطلبهم الأهم هو عزل سعيد بن العاص عنهم(٢)، عسى أن يكون في عزله ما يرضي الناس ويقضي على بذور الشرِّ والفساد ويخمد النار التي توشك أن تحرق الأخضر واليابس وتفكُّكَ المجتمعَ وتماسُكَه ووحدته.

وذهبت جميع تلك المحاولات الإصلاحية الخيِّرة أدراج الرياح. وأصرَّ الخليفة على مواقفه المثيرة لسخط المسلمين واحتجاجهم، وأبى أن يتراجع عن أيٍّ منها مهما كانت النتائج والمحتملات.

ولم يجد المسلمون بدّاً ـ وقد عيل صبرهم على جرائم مروان بن الحكم والفساد العام المنتشر في كل قطر ومصر؛ وعلى رضا الخليفة بكل ذلك أو سكوته عنها في أحسن تقدير ـ من التوجُّه إلى المدينة على هيئة مجموعاتٍ كبرى تمثل كل مجموعة منها مصراً من أمصار الإسلام في مشرق الجزيرة العربية ومغربها، منبهين الخليفة على الواقع المرِّ المؤلم، وطالبين منه الكفَّ عن ذلك والعودة إلى العمل بكتاب الله وسنَّة رسوله؛ على نحوٍ واضح صريح ليس فيه أي مجال للتلاعب والتأويل واللَّفِّ والدوران.

«وخرج أهل الكوفة في أربع رِفاق، وعلى الرفاق: زيد بن صوحان

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٠٣ والأغاني: ١٢/ ١٤٣.
(٢) طبقات ابن سعد: ٥/ ٢٢.

العبدي؛ والأشتر النخعي؛ وزياد بن النضر الحارثي؛ وعبد الله بن الأصمّ أحد بني عامر بن صعصعة. وعددهم كعدد أهل مصر» ستمائة أو ألف[١].

واشتدَّ لهيب الثورة في المدينة المنورة بعد فشل كل محاولات الإصلاح والتهدئة، وأسفرت نتائجها عن انهيار النظام ومقتل عثمان.

❁ ❁ ❁

وكان لا مناص للثوار وهم يريدون إصلاح ما فسد؛ وتقويم ما انحرف؛ والعودة بالمسيرة الإسلامية إلى طريقها النبوي المهيع، أن يتجهوا إلى بيعة الرجل الأمين على ذلك كله؛ والعامل حقاً بكتاب الله وسنة رسوله؛ والمنفِّذ بصدقٍ لقوانين الشرع وأحكام الدين، والمطبِّق بكل صرامةٍ لسنن العدل والمروءة والإنصاف؛ بلا محاباة ولا ميل ولا انحراف.

وهكذا بويع عليٌّ (ع) لخلافة المسلمين.

واجتمعت لأول مرة بعد وفاة النبي (ص) حكومةُ الأرض وإمامةُ الدين في هذه الخلافة الشرعية الجديدة، كما التقى - ولأول مرةٍ أيضاً - تنفيذُ النصِّ النبوي والانتخابُ الجماهيري في شخص الخليفة الجديد.

وبادر المسلمون الصادقون والمؤمنون المخلصون في الأرض الإسلامية كلها إلى البيعة باستثناء أولئك الذين سمَّاهم النبي (ص) «القاسطين»[٢]، وهم معاوية وأتباعه وبنو أمية ورفاقهم من بقايا مشركي

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٤٩، ويراجع شرح نهج البلاغة: ٢/ ١٤٠.

(٢) يراجع في الحديث النبوي الشريف بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين: الاستيعاب: ٣/ ٥٣ وتاريخ بغداد: ٨/ ٣٤١ و١٣/ ١٨٧ وشرح نهج البلاغة: ١/ ٢٠١ و٨/ ٢٩٧ و١٣/ ١٨٣ ومجمع الزوائد: ٧/ ٢٣٨.

مكة الكفَّارِ بالتنزيل وبعض الذين أطلق الله تعالى عليهم في محكم كتابه اسم «المؤلَّفة قلوبهم».

وكان زيد بن صوحان العبدي أحد أولئك المبادرين إلى بيعة عليّ[1].

وسرعان ما تجمَّعت الأحقاد الدفينة والمطامع الذاتية والانتهازية الدنيئة؛ في حلفٍ خسيس غير مقدَّس، لوضع كل العراقيل والمعوّقات في طريق الخلافة الجديدة ومنعِها من الوصول إلى هدفها الأسمى وهو تطبيق حكم الله في الأرض تطبيقاً سليماً منزَّهاً من كل الشوائب والانحرافات.

وتحرَّك موكبُ هذا الحلف من المدينة المنورة باتجاه البصرة؛ للتحشد هناك أوَّلاً ثم الانطلاق نحو ثغرٍ ثغرٍ من ثغور المسلمين؛ للشغب وإثارة الفتنة والحض على التمرد ونكث البيعة.

وتسلَّم قيادةَ هذا التجمُّع المشؤوم كلٌّ من الزبير بن العوَّام وطلحة بن عبيد الله ـ ولكل واحدٍ من هذين الرجلين دوافعه الخاصة وطموحاته النفسية ونوازعه الشخصية المعروفة ـ، وصحبوا معهم أُمَّ المؤمنين عائشة ليجعلوا منها ومن «جملها» المسكين الذي كانت تركبه «رمزاً» لهذه الحرب العدوانية الباغية.

وبدأ هذا التجمع يعدُّ العُدَّة للعمل ويتخذ الخطوات الأولى للتنفيذ.

وكان من جملة تلك الخطوات رسائل السيدة عائشة إلى عدد من وجوه المسلمين؛ لإثارتهم على عليّ (ع) أو منعهم من المشاركة في دعم

---

(١) الجمل: ٥٠.

موقفه من هؤلاء البغاة، ومنها رسالة إلى زيد بن صوحان بالكوفة كَتَبَتْها لما قدمت البصرة، جاء فيها في رواية الطبري:

«من عائشة ابنة أبي بكر أُمِّ المؤمنين حبيبة رسول الله (ص) إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان. أمَّا بعد: فإذا أتاك كتابي هذا فاقدمْ فانصرنا على أمرنا هذا، فإن لم تفعل فخَذِّل الناسَ عن عليّ»[١].

وفي لفظ الشيخ المفيد:

«من عائشة ابنة أبي بكر أُمِّ المؤمنين زوج النبي (ص) إلى ابنها المخلص زيد بن صوحان. أمَّا بعد: إذا جاءك كتابي هذا فأقِمْ في بيتك وخَذِّلِ الناسَ عن عليٍّ حتى يأتيك أمري، ولْيَبْلغني عنك ما أقرُّ به فإنك من أوثق أهلي عندي. والسلام»[٢].

وفي نصِّ ابن عبد رَبِّه الأندلسي:

«من عائشة أمِّ المؤمنين إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان: سلامٌ عليك، أمَّا بعد: فإن أباك كان رأساً في الجاهلية وسيداً في الإسلام، وإنك من أبيك بمنزلة المُصَلّي من السابق يقال كادَ أو لحق. وقد بلغك الذي كان في الإسلام من مصاب عثمان بن عفان، ونحن قادمون عليك، والعيان أشفى لك من الخبر، فإذا أتاك كتابي هذا فثَبِّط الناسَ عن علي بن أبي طالب، وكن مكانك حتى يأتيك أمري. والسلام»[٣].

ولمَّا وصل كتابُ أُم المؤمنين إلى زيدٍ سارع زيد إلى الجواب وقال في كتابه بلفظ الطبري:

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٧٦.
(٢) الجمل: ٢٢٩ وشرح نهج البلاغة: ٦/٢٢٦.
(٣) العقد الفريد: ٤/٣١٧.

«من زيد بن صوحان إلى عائشة ابنة أبي بكر الصديق: أمّا بعد؛ فأنا ابنك الخالص إن اعتزلت هذا الأمر ورجعت إلى بيتك، وإلاّ فأنا أول من نابذك».

ثم قال زيد معلقاً على خروجها إلى البصرة: «رحم الله أُمَّ المؤمنين، أُمِرَتْ أن تلزم بيتها وأُمِرْنا أن نُقاتِل، فتركتْ ما أُمِرَتْ به وأَمَرَتْنا به، وصنعت ما أُمِرْنا به ونَهَتْنا عنه»(١).

وفي نص الشيخ المفيد في رواية الجواب:

«من زيد بن صوحان إلى عائشة ابنة أبي بكر: أما بعد؛ فإن الله أمركِ بأمرٍ وأمَرَنا بأمرٍ؛ أمَرَكِ أن تقرّي في بيتك وأمرنا بالجهاد، فأتاني كتابُكِ بضدِّ ما أمَرَ اللَّهُ به، وذلك خلاف الحق. والسلام»(٢).

هكذا كان جواب زيدٍ على كتاب أُم المؤمنين، وهو جواب صريح وواضح في مبانيه ومعانيه ومنطلقاته الإسلامية الأصيلة.

ثم كان جوابه الأفصح والأوضح لمّا قدم الحسن بن عليّ (ع) وعمار بن ياسر إلى الكوفة يستنفران أهلها لمحاربة أتباع الجمل، وكان أبو موسى الأشعري ـ وهو والي الكوفة يومذاك ـ يثبِّط الناس عن الذهاب إلى البصرة لنصرة علي (ع)، «فوثب زيد بن صوحان وأصحابه مع شيعة عليّ بالسيوف وقالوا: مَنْ لم يطع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فما له عندنا إلاّ السيف».

ثم قرأ زيد: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن

(١) تاريخ الطبري: ٤/٤٧٦ ـ ٤٧٧.

(٢) الجمل: ٢٣٠، وقريب منه في العقد الفريد: ٤/٣١٧ ـ ٣١٨ وشرح نهج البلاغة: ٦/٢٢٦ ـ ٢٢٧.

يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[١]، أيها الناس؛ سيروا إلى أمير المؤمنين، وانفروا إليه أجمعين، تُصِيبوا الحَقَّ راشدين»[٢].

وفي لفظ الشيخ المفيد:

قال زيد بن صوحان: «يا أبا موسى؛ تريد أن تردَّ الفرات عن أدراجه؛ إنه لا يرجع من حيث بدأ، فإن قدرتَ على ذلك فستقدر على ما تريد. ويلك ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾».

«ثم قال: أيها الناس؛ سيروا إلى أمير المؤمنين، وأطيعوا ابن سيد المرسلين [يعني الحسن بن علي]، «وانفروا إليه أجمعين تصيبوا الحق وتظفروا بالرَّشَد قد واللهِ نصحتُكم فاتبعوا رَأيي ترشدون»[٣].

وفي نصّ الطبري:

«وثار زيد بن صوحان... وقال: أُمِرَتْ بأمرٍ وأُمِرْنا بأمر، أُمِرَتْ أنْ تقرَّ في بيتها وأُمِرنا أن نُقاتِل حتى لا تكون فتنة، فأَمَرَتْنا بما أُمِرَت به، وركبتْ ما أُمِرْنا به. ثم قرأ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ إلى آخر الآيتين. سيروا إلى أمير المؤمنين وسيد المسلمين، وانفروا إليه أجمعين تصيبوا الحقَّ»[٤].

❀ ❀ ❀

ولم يكن لدى عليٍّ (ع) من بُدٍّ وقد تجمَّع الناكثون والقاسطون في

(١) سورة العنكبوت، الآيات: ١ ـ ٣.
(٢) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٢٩١ ـ ٢٩٢.
(٣) الجمل: ١٣٤ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ٢٠.
(٤) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٨٤ وشرح نهج البلاغة: ١٤/ ١٩ ـ ٢٠.

البصرة؛ إلاَّ التوجُّه نحوها لمقاتلة هؤلاء البغاة حتى يفيئوا إلى أمر الله.

ونزل عليٌّ (ع) ذاقار ـ وهو في الطريق إلى البصرة ـ، وبدأت وفود أنصاره بالتجمع هناك، فاجتمع منهم عدد كثير، و«كان رؤساء النفَّار: زيد بن صوحان؛ والأشتر مالك بن الحارث؛ وعَديّ بن حاتم؛ والمُسَيَّب بن نَجَبَة؛ ويزيد بن قيس، ومعهم أتباعهم»[1].

وبدأ أمير المؤمنين (ع) يُكتِّب الكتائب وينظِّم شؤون الجيش استعداداً للحرب وساعة المنازلة، وكان من جملة ذلك: أنه استعمل «على خيل عبد القيس من أهل الكوفة زيدَ بن صوحان العبدي»[2]، فكانت بيده يومذاك راية عبد القيس[3].

ثم أراد (ع) أن يستثمر كلَّ احتمالات السلام والموادعة، بإقامة الحجة على هؤلاء الناكثين البغاة قبل أن تُشْهَر السيوف وتُشْرَع الرماح، عسى أن يرتدعوا عن غيِّهم ويثوبوا إلى رشدهم ولات حين مندم، فخرج راكباً فرس رسول الله (ص) «المرتجز»، ولم يأخذ معه سلاحاً، فنادى: يا طلحة يا زبير؛ اخرجا إليَّ، فلم يخرجا.

فنادى ـ للمرة الثانية ـ يا زبير؛ اخرجْ إليَّ، فخرج وهو شاكٍ في السلاح.

والتقيا . . . فقال له عليٌّ: ما أخْرَجَك؟

قال الزبير: الطلب بدم عثمان.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٨٨.
(٢) الجمل: ١٧١ والإصابة: ١/ ٥٦٦.
(٣) جمهرة النسب: ٥٨٩ وفتوح ابن أعثم: ٢/ ٣١٨ والاستيعاب: ١/ ٥٤٠ وأسد الغابة: ٢/ ٢٣٤.

قال علي: «قتل الله قاتل عثمان. أما تذكر يا زبير يوم لقيتُكَ وأنت مع رسول الله (ص) في بني بياضة، فضحكتُ إليه وضحك إليَّ، فقلتَ أنتَ: يا رسول الله؛ لا يدع عليٌّ زَهْوَه، قال رسولُ الله: «ليس به زهوٌ؛ أتحبُّه؟»، فقلتَ أنتَ: أي واللهِ إني لأُحبُّه. فقال: أمَا إنك ستقاتله وأنتَ له ظالم».

قال الزبير: «أستغفر الله، لو ذكرتُها ما خرجتُ، فكيف أرجع الآن وقد التقتْ حلقتا البطان، هذا ـ والله ـ العارُ الذي لا يُغْسَل».

قال عليٌّ: «يا زبير؛ ارجع بالعار قبل أن يجتمع العار والنار».

فرجع الزبير وهو يقول:

اخترتُ عاراً على نارٍ مؤجَّجةٍ ... أنّى يقوم لها خلقٌ من الطينِ
نادى عليٌّ بأمرٍ لستُ أجهله ... قد كان عمر أبيك الخير مذ حينِ

فقلتُ:

حسبك من عذلي أبا حسنٍ ... فإنَّ بعض الذي قد قلتَ يكفيني(١)

ثم استدعى طلحةَ، ودار بينهما الحوار الآتي:

قال عليٌّ: «يا أبا محمد؛ ما أخرجك؟».

قال: «الطلب بدم عثمان».

فقال علي: «قتل اللّه قاتل عثمان، أما تذكر يا أبا محمد قول النبي (ص): اللّهم والِ مَنْ والاه وعادِ من عاداه».

---

(١) وقعة الجمل: ٣٨ ـ ٣٩. ويراجع في هذه المحاورة بين علي والزبير: تاريخ اليعقوبي: ٢/١٥٨ ـ ١٥٩ والأخبار الطوال: ١٤٧ ـ ١٤٨ وأنساب الأشراف: ٢/٢٥١ و٢٥٢ وتاريخ الطبري: ٤/٥٠١ ـ ٥٠٢ وفتوح ابن أعثم: ٢/٣٠٩ ـ ٣١٠ ومروج الذهب: ٢/٢٤٧ والاستيعاب: ١/٥٦٤ ودلائل النبوة: ٦/٤١٤ ـ ٤١٥ والكامل لابن الأثير: ٣/١٢٢ ـ ١٢٣ والإصابة: ١/٥٢٧.

فقال طلحة: «أستغفر اللهَ؛ لو ذكرتُها ما خرجتُ»[١].

فرجع طلحة، فرأى مروانُ بن الحكم عليه أمارات الندم، فقال مروان في نفسه: «ما أُبالي أرميتُ بسهمي هاهنا أم هاهنا»، ثم رمى طلحةَ فأصاب أكحَلَه فقتله[٢].

ثم دعا عليٌّ (ع) كلًّا من زيد بن صوحان وعبد الله بن عباس فقال لهما: امضيا إلى عائشة فقولا لها:

«ألم يأمركِ الله تبارك وتعالى أن تقرّي في بيتك؟!، فخُدِعتِ وانخدعتِ؛ واستُنْفِرتِ فنَفَرْتِ، فاتَّقي الله الذي إليه مرجعك ومعادك، وتوبي إليه فإنه يقبل التوبة عن عباده، ولا يحملنَّكِ قرابةُ طلحة وحبُّ عبد الله بن الزبير على الأعمال التي تسعى بكِ إلى النار».

«فانطلقا إليها، وبلَّغاها رسالةَ عليّ ـ(رض) ـ، فقالت عائشة: ما أنا برادَّةٍ عليكم شيئاً، فإني أعلم أني لا طاقة لي بحجج علي بن أبي طالب».

«فرجعا إليه وأخبراه بالخبر»[٣].

وهكذا فشلت كل محاولات السلم والإصلاح وإطفاء الحريق، وأصرَّ أهل البغي على ضلالهم وغيِّهم وفتنتهم وتمردهم على حكم الله ورسوله، ولم يكن من بدٍّ في هذه الحال من تحكيم السيف وبدء المنازلة.

(١) وقعة الجمل: ٤١/ ٤٢. ويراجع في هذه المحاورة: مروج الذهب: ٢/ ٢٤٨.

(٢) يراجع في قتل مروان بن الحكم لطلحة: تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٥٨ وأنساب الأشراف: ٢/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧ ومروج الذهب: ٢/ ٢٤٩ والاستيعاب: ٢/ ٢١٣ ـ ٢١٤ والكامل لابن الأثير: ٣/ ١٢٤ وشرح نهج البلاغة: ٩/ ٣٦ و١١٣ ـ ١١٤ والإصابة: ٢/ ٢٢٢.

(٣) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٣٠٦.

ودقت ساعة الجلاد والحرب، والتحم الفريقان في صفَّيْن متقابليْن: صفت يقاتل دفاعاً عن الإمامة الدينية والخلافة الشرعية ممثلة بعلي بن أبي طالب (ع)، وصفٌّ يقاتل في سبيل الأطماع الدنيوية والأحقاد البدرية والمصالح الذاتية ممثلة برمزها الأبكم المسكين «الجمل» المشؤوم.

و«حملتْ مضرُ الكوفة فاجتلدوا قدَّام الجمل حتى ضرِسوا، والمجنّبات على حالها... ومع عليّ أقوام غير مضر، فمنهم زيد بن صوحان، فقال له رجلٌ من قومه: تَنَحَّ إلى قومك، ما لكَ ولهذا الموقف، ألستَ تعلم أن مضر بحيالك؛ وأن الجمل بين يديك وأن الموت دونه. فقال: الموت خير من الحياة، الموت أريد»[(١)].

وبرز زيد إلى القوم فصال وجال حتى قُتِل هو وأخوه سَيحان[(٢)]، وذهبا إلى ربِّهما شهيدَيْ بغي البغاة ونكث الناكثين. وارتجز راجز من أتباع الجمل يفخر بقتل الصحابي المشهود له بالجنة زيد بن صوحان[(٣)].

ورُوي أن زيداً لمَّا أراد التوجُّه نحو المبارزة ذهب إلى علي (ع) فقال له: «يا أمير المؤمنين؛ إني رأيتُ يداً أشرفتْ عَليَّ من السماء وهي تقول: هلمَّ إلينا. وأنا خارج إلى ابن يثربي، فإذا قتلني فادفنّي بدمي ولا تغسِّلني، فإني مخاصم عند ربي. ثم خرج فقتله عمرو»[(٤)].

وروى الرواة أن زيداً لمَّا ارْتُثَّ يوم الجمل دخل عليه بعضُ أصحابه فقالوا: أبْشِر بالجنة. فقال لهم: «لا تغسلوا عنّي دماً، ولا

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ٥١٤.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٥١٤ و٥٢١ و٥٢٨ و٥٣٠ و٥٤٢.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/ ٥١٧ و٥٢٣ و٥٣١ والجمل: ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٤) شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

تنزعوا عني ثوباً . . . فإني مخاصِمٌ أُحاجُّ يوم القيامة»[١]، وأوصى كذلك «أن يُدفَن معه مصحفُه»[٢].

وأُبْلغت السيدة عائشة بمقتل زيد فقالت: «أمعي أم عَلَيَّ؟، قالوا: عليكِ، قالت: إنّا لله وإنَّا إليه راجعون، سمعتُ رسولَ الله (ص) يقول: «زيد بن صوحان في الجنة»[٣].

وفي رواية البيهقي: أنها لما علمتْ بمقتل زيد قالت: «إنّا لله وإنَّا إليه راجعون، يرحمه الله»[٤].

۞ ۞ ۞

وهكذا ذهب زيد إلى جنته الموعود بها شهيداً بسيف البغي واللؤم والحقد الدفين، طاهر الذيل؛ تقيَّ النفس؛ صادق الدين؛ ثابت القدم؛ وفياً بما عاهد الله عليه من رسوخ الإيمان وصلابة الاعتقاد، فلا غرابة إذا ما بلغنا عن عليّ (ع) حزنُه الشديد عليه[٥]، فإن فقدانه وفقدان أمثاله من نجباء الصحابة ـ في ذلك المجتمع الذي غمرته الأطماع ودبَّ إليه التخلخل والفساد ـ خسارة لا تعوَّض وثلمة لا تُسَدُّ.

وحسبنا معرفةً بهذا الرجل العظيم؛ وتخليداً لذكراه العطرة وسيرته الزكيَّة؛ أن نقرأ بعض ما روى الرواة في شأنه وما قال العلماء والمؤرخون فيه، ولعل في الوقوف على ذلك ـ على إيجازه وعدم استيعابه ـ ما يغني عن كثير من التطويل والتفصيل:

---

(١) أنساب الأشراف: ٢/ ٢٤٥ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٢٨، وقريب من ذلك في غريب الحديث لأبي عبيد: ٤/ ٣٧٧.
(٢) طبقات ابن سعد: ٦/ ٨٦ وسير أعلام النبلاء: ٣/ ٥٢٨.
(٣) وقعة الجمل: ٤٤.
(٤) دلائل النبوة: ٦/ ٤١٧.
(٥) مروج الذهب: ٢/ ٢٥٣.

١ ـ بلغ سلمانَ الفارسيَّ أن زيداً يقوم الليل ويصوم النهار وإذا كانت ليلة الجمعة أحياها حتى مطلع الفجر، فأتى داره سائلاً عنه، «قالت امرأته: ليس هاهنا. قال: فإني أُقسم عليكِ لما صنعتِ طعاماً ولبستِ محاسن ثيابكِ. ثم بعث إلى زيدٍ، فجاء زيدٌ، فقُرِّب الطعام، فقال سلمان: كُلْ يا زُيَيْد، قال: إني صائم، قال: كُلْ يا زييد لا ينقص ـ أو: لا تُنْقِصْ ـ دينك، إنَّ شَرَّ السَّيْرِ الحَقْحَقة [أي الذي لا يُطاق]، إنَّ لعينكَ عليك حقاً، وإن لبدنك عليك حقاً، وإن لزوجتك عليك حقاً، كُلْ يا زُيَيد. فأكل، وترك ما كان يصنع»(١).

٢ ـ طلب معاوية من عقيل بن أبي طالب أن يحدِّثه عن أصحاب عليٍّ (ع) لأنه ذو معرفةٍ بهم، «فقال عقيل: سل عمَّن بدا لك»، فسأله عن جماعةٍ منهم حتى بلغ آل صوحان، فقال عقيل عن زيد وأخيه: «إنهما نهران جاريان، يصبُّ فيهما الخلجان، ويغاث بهما البلدان، رَجُلا جدٍّ لا لَعِبَ معه»(٢).

٣ ـ وصف صعصعةُ بن صوحان لعبد الله بن عباس أخاه زيداً فقال:

«كان ـ والله ـ يا ابنَ عباس عظيم المروة؛ شريف الأخوَّة؛ جليل الخطر؛ بعيد الأثر؛ كميش العروة؛ أليف البدوة، سليم جوانح الصدر؛ قليل وساوس الدهر؛ ذاكر الله طرفي النهار وزلفاً من الليل، الجوع والشبع عنده سيّان، لا ينافس في الدنيا وأقلُّ أصحابه مَنْ ينافس فيها، يطيل السكوت؛ ويحفظ الكلام، وإنْ نطق نطق بعقام، يهرب منه الدعَّار الأشرار؛ ويألفه الأحرار الأخيار.

«فقال ابن عباس: ما ظنُّك برجلٍ من أهل الجنة. رحم الله زيداً»(٣).

---

(١) تاريخ بغداد: ٨/ ٤٣٩.

(٢) مروج الذهب: ٢/ ٣٣٧.

(٣) مروج الذهب: ٢/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥.

٤ ـ «كان ثقةً»[١].

٥ ـ «كان فاضلاً دَيِّناً سيداً في قومه»[٢].

٦ ـ «من الخِيَار الأبرار»[٣].

٧ ـ «كان من العلماء العبَّاد»[٤].

٨ ـ كان «صوَّاماً قوَّاماً»[٥]، «من الصلحاء الأتقياء»[٦].

❁ ❁ ❁

ثم كان لهذا الصحابي الأمين من الذكرى الخالدة في هذه الدنيا؛ بعد تلك النصوص التاريخية المعرّفة به والمتحدِّثة عنه: ذلك المسجد الصغير الذي وضع زيدٌ قواعده أيام سكناه بالكوفة كي يتعبَّد لربه ويتهجَّد فيه، وهو قريب من مسجد (السهلة) المعروف في مدينة الكوفة. وما زال مسجد زيد قائماً ماثلاً للعيان إلى اليوم[٧]، معلناً عمق إيمان هذا المسلم العابد الزاهد، ومؤكداً صدق ما ذكر المؤرخون فيما تقدَّم نقله؛ من تقاه وصلاحه؛ وتديُّنه وعبادته؛ وصيامه وقيامه.

وروى المعنيُّون بشؤون الصلوات والأذكار والأدعية في كتبهم: استحباب صلاة ركعتين فيه تقرباً إلى الله تعالى؛ وأن يبسط المصلي يديه بعد الصلاة ويقرأ الدعاء «الذي كان يدعو به زيدُ بن صوحان في صلاة الليل، وهو:

---

(١) طبقات ابن سعد: ٦/٨٦ وسير أعلام النبلاء: ٣/٥٢٨.
(٢) الاستيعاب: ١/٥٤٠ وأسد الغابة: ٢/٢٣٤.
(٣) الفائق: ١/٧٨.
(٤) سير أعلام النبلاء: ٣/٥٢٥.
(٥) مرآة الجنان: ١/٩٩.
(٦) شذرات الذهب: ١/٤٤.
(٧) تاريخ الكوفة: ٥٢، ويراجع الهامش الآتي.

«إلهي؛ قد مدَّ إليك الخاطىءُ المُذنبُ يديه لحُسْن ظنّه بك، إلهي؛ قد جلس المُسِيءُ بين يديك مُقرّاً لك بسُوء عمله؛ وراجياً منك الصَّفح عن زلله، إلهي؛ قد رفع إليك الظالم كفّيه راجياً لِما لديك فلا تخيّبه برحمتك من فضلك، إلهي؛ قد جَثَا العائدُ إلى المعاصي بين يديك خائفاً من يومٍ تجثو فيه الخلائقُ بين يديك، إلهي؛ قد جاءك العبد الخاطىءُ فَزِعاً مُشفِقاً؛ ورَفَعَ إليك طرفه حَذِراً راجياً؛ وفاضت عبرته مستغفراً نادماً. وعِزَّتِك وجلالك ما أردتُ بمعصيتي مخالفتك، وما عصيتُك إذ عصيتك وأنا بك جاهل ولا لعقوبتك متعرِّض ولا بنظرك مستخف، ولكن سوَّلتْ لي نفسي؛ وأعانني (وأعانتني) على ذلك شقوتي؛ وغرَّني سترك المُرخى عليَّ، فمَنِ الآن من عذابك من يستنقذني، وبحبل مَنْ أعتصم إن قطعتَ حبلك عني. فوا سوأتاه غداً من الوقوف بين يديك إذا قيل للمُخِفّين: جُوزوا؛ وللمُثقَلين: حطُّوا، أفمع المخفين أجوز؛ أم مع المثقلين أحطّ. وَيْلي كلما كبر سنّي كثرت ذنوبي، ويلي كلما طال عمري كثرتْ معاصِيَّ، فكم أتوب وكم أعود، أما آن لي أن أستحيي من ربي. اللهم فبحقِّ محمد وآل محمد اغفر لي وارحمني، يا أرحم الراحمين وخير الغافرين»(١).

---

(١) ذكر المجلسي مسند زيد في بحار الأنوار: ١٠٠/ ٤٤٤ ـ ٤٤٥؛ وأورد خبر الصلاة فيه ونصَّ الدعاء الذي يقرأ بعدها مروياً عن مصباح الزائر للسيد علي رضي الدين آل طاووس المتوفى سنة ٦٦٤هـ عن كتاب المزار للشيخ محمد ابن المشهدي المعدود في علماء أواخر السادس وأوائل القرن السابع الهجري، وقد روى المشهدي هذا الخبر عن أبي المكارم حمزة بن علي بن زهرة الحلبي في سنة ٥٧٤هـ عن والده عن جدّه عن الشيخ أبي جعفر محمد بن علي بن بابويه عن الشيخ محمد بن يعقوب عن علي بن إبراهيم عن أبيه [إبراهيم بن هاشم] من رجال أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري.
وعن تلك المصادر رُوِيت الصلاة وألفاظ الدعاء في كتب متعددة من مؤلفات القرون المتأخرة، ومنها: عمدة الزائر: ١٣٢ ـ ١٣٣ ومفتاح الجنات: ٢/ ١٠١ ـ ١٠٢.

من المؤمنين رجال

[١٦]

خزيمة بن ثابت

«ذو الشهادتين»

خُزَيمة بن ثابت

اسمه ونسبه

«خُزَيمة بن ثابت بن الفاكِه بن ثَعلبة بن ساعدة بن عامر بن غَيَّان[1] بن عامر بن خَطْمة ـ واسم خَطْمة: عبد الله ـ بن جُشَم بن مالك بن الأوس»[2]؛ صحابي سابق، ومؤمن صادق، ومجاهد مِغوار.

وسرد الطبراني نَسَبَ الرجل على النحو الآتي: «خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن عمرو بن عَدِي بن وائل بن مُنبِّه بن امرىء القيس بن سُلميّ بن حبيب بن عدي بن ثعلبة بن امرىء القيس بن علقمة بن معاوية بن جُشَم بن مالك بن الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن غسَّان بن الأزد بن الغوث بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود»[3].

وأُمُّه: كَبْشة أو كَبيْشة بنت أوس بن عَدي بن أُميَّة بن عامر بن

---

(١) قال ابن الأثير: «غَيَّان: بفتح الغين المعجمة وتشديد الياء تحتها نقطتان وآخره نون، وقيل: بفتح العين المهملة وبالنونين، وقيل: بكسر العين المهملة والنونين، والله أعلم» أسد الغابة: ٢/ ١١٤ ـ ١١٥.

(٢) طبقات ابن سعد: ٤/ق ٢/ ٩٠. وقد ورد النسب ـ كلاً أو بعضاً، ومع شيء من الاختلاف فيه ـ في جمهرة النسب: ٦٤٢ ـ ٦٤٣ والمحبر: ٢٩١ وطبقات خليفة: ١/ ١٩٢ والاستيعاب: ١/ ٤١٦ وجمهرة أنساب العرب: ٣٤٣ ـ ٣٤٤ وأسد الغابة: ٢/ ١١٤ وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٨ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٤٨٥ والإصابة: ١/ ٤٢٤ وتهذيب التهذيب: ٣/ ١٤٠.

(٣) المعجم الكبير: ٤/ ٩٤ ـ ٩٥.

خَطْمة ـ وهو عبد الله ـ بن جُشَم بن مالك بن الأوس، وأُمُّها: ليلى بنت عبيد بن أمية بن عامر بن خَطْمة. تزوَّجها ثابت بن الفاكه في الجاهلية قبل البعثة الشريفة فأنجبت خزيمة وسائر ولده، وأسلمت كبشة فيمن أسلم من أهلها وبني قومها، وبايعت رسول الله (ص)[١].

وكنيته: أبو عُمَارة[٢].

ولقبه: الذي اشتهر به في التاريخ: ذلك اللقب المبارك الخطير الشأن؛ الذي لقَّبه به رسول الله (ص)؛ وهو «ذو الشهادتين»، إذ جعل شهادته بشهادة رجلَيْن[٣].

وكان سبب تلقيبه بذلك ـ كما روى الإمام أحمد بن حنبل ـ: «أن النبي (ص) ابتاع فرساً من أعرابي، فاستتبعه النبي (ص) ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبي (ص) المشي وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومون بالفرس لا يشعرون أن النبي (ص) ابتاعه، حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه به النبي (ص)، فنادى الأعرابي النبيَّ (ص) فقال: إن كنتَ مبتاعاً هذا الفرس فابتعه؛ وإلا بعتُه. فقام النبي (ص) ـ حين سمع نداء الأعرابي فقال: أو ليس قد

(١) طبقات ابن سعد: ٤/ق ٢/ ٩٠؛ و٨/ ٢٥٨ والمحبر: ٤٢٠ وطبقات خليفة: ١/ ١٩٢ و٣٠٤ وأسد الغابة: ٥/ ٥٣٦ ـ ٥٣٧ والإصابة: ٤/ ٣٨٢.

(٢) طبقات ابن سعد: ٤/ق ٢/ ٩٢؛ و٦/ ٣٣ وأسد الغابة: ٢/ ١١٤ وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٩ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٤٨٥ والإصابة: ١/ ٤٢٤. وصُحِّف في الاستيعاب: ١/ ٤١٦ إلى (أبو عبادة) ولعله من أغلاط الطبع.

(٣) جمهرة النسب: ٦٤٣ والمحبر: ٢٩١ ووقعة الجمل: ٣٢ وطبقات ابن سعد: ٤/ ق ٢/ ٩١؛ و٦/ ٣٣ والاستيعاب: ١/ ٤١٦ والمعجم الكبير: ٤/ ٩٥ وأسد الغابة: ٢/ ١١٤ وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٨ ـ ١٠٩ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٤٨٦ والإصابة: ١/ ٤٢٥.

ابتعتُه منك؟ قال الأعرابي: لا والله ما بعتُك، فقال النبي (ص): بلى قد ابتعتُه منك... فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أني بايعتُك، فمَنْ جاء من المسلمين قال للأعرابي: ويلك! النبي لم يكن يقول إلا حقّاً. حتى جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبي (ص) ومراجعة الأعرابي، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهداني بايعتُك، قال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعتَه، فأقبل النبي (ص) على خزيمة فقال: بِمَ تشهد؟ فقال: بتصديقك يا رسول الله. فجعل النبي (ص) شهادة خزيمة شهادة رجلين»[١].

وفي لفظ البلاذري في ذيل الخبر: «فقال له النبي (ص): كيف شهدتَ ولم تحضر؟ قال: لتصديقي إياك يا رسول الله؛ وإن قولك كالمعاينة، قال: أنت ذو الشهادتين. فسُمِّيَ ذا الشهادتين»[٢].

وروى الرواة أن النبي (ص) قال على أثر ذلك: «من شهد له خزيمة أو عليه فحسبه»[٣].

وأُسرته: هم الأوس أنصار الله ورسوله؛ ممن آووا ونصروا بنصِّ القرآن المجيد. وكان له من الأخوة:

١ ـ عبد الله بن ثابت: ممن شهد الخندق، وله عقب بالمدينة[٤].

٢ ـ وحوح بن ثابت: من الصحابة، ولا عقب له[٥].

---

(١) مسند أحمد: ٥/ ٢١٥ ـ ٢١٦، ويراجع أيضاً: سنن أبي داوود: ٢/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧ ومجمع الزوائد: ٩/ ٣٢٠.

(٢) أنساب الأشراف: ١/ ٥٠٩؛ وقريب منه في طبقات ابن سعد: ٤/ق ٢/ ٩١ وأسد الغابة: ٢/ ١١٤.

(٣) المعجم الكبير: ٤/ ١٠١ وأسد الغابة: ٢/ ١١٤ والإصابة: ١/ ٤٢٥.

(٤) طبقات ابن سعد: ٤/ق ٢/ ٩١ والإصابة: ١/ ٤٢٥ و٢/ ٢٧٥.

(٥) طبقات ابن سعد: ٤/ق ٢/ ٩١ والإصابة: ١/ ٤٢٥ و٣/ ٥٩٤.

ومن الأخوات:

١ ـ رفاعة ـ وهي أمُّ القاسم ـ بنت ثابت بن الفاكه: أسلمتْ وبايعتْ رسول الله (ص)، وتزوَّجها محمود بن وَحْوَح بن الأسلت[١].

٢ ـ الرائعة؛ أو رابعة ـ وهي حسنة ـ بنت ثابت: أسلمت وبايعت رسول الله (ص)[٢].

٣ ـ مُلَيْكة بنت ثابت: أسلمت وبايعت رسول الله (ص)، وتزوجها شُتَيم بن زيد بن جُمحة بن حريش بن لوذان بن خَطْمة[٣].

٤ ـ صفية بنت ثابت: أسلمت وبايعت رسول الله (ص)، وتزوَّجها عبد الرحمن بن أوس بن عمرو الخَطْميّ[٤].

❀ ❀ ❀

ولد خزيمة في المدينة المنورة؛ في حَيِّ قومه بني خَطْمة من الأوس، وإن كنّا لا نعلم تاريخ ولادته على وجه التحديد.

ونشأ فيها نشأة السادة ذوي الأمجاد والمفاخر، وروى المبرّد: أنَّ خزيمة كان معدوداً «من أذواء اليمن في الإسلام»[٥]، ولم يتضح لنا المراد من ذلك ومدى أهميته وشأنه في مجتمع المدينة يومذاك.

وامتاز هذا الرجل منذ شبابه بالفروسية والشجاعة والبطولة، كما

(١) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٥٩ والمحبَّر: ٤١٩ وأسد الغابة: ٥/ ٤٥٣ والإصابة: ٤/ ٢٩٥.

(٢) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٥٩ والمحبر: ٤١٩ وأسد الغابة: ٥/ ٤٥١.

(٣) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٥٩ والمحبر: ٤٢٠ والإصابة: ٤/ ٣٩٥.

(٤) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩ والمحبر: ٤٢٠ وأسد الغابة: ٥/ ٤٩٠ والإصابة: ٤/ ٣٣٧.

(٥) الكامل: ٤/ ١٠٠.

امتاز بموهبة نظم الشعر وإجادته وسرعة بديهته وإن لم يكن مكثراً فيه، وسيتجلى ذلك بكل وضوح لمن يقف على النماذج التي سوف ترد في أماكنها من البحث تبعاً لمناسباتها من الأحداث.

وتزوَّج في عنفوان الشبيبة: السيدةَ صفيةَ بنت عامر بن طُعمة بن زيد الخَطْمية، فولَدَتْ له:

١ ـ عُمارة بن خزيمة، أبا محمد، وكان ثقة قليل الحديث، وهو أبو إسحاق ومحمد وصفية ومنيعة وحَمَّادة وتوفي عمارة بالمدينة في أول خلافة الوليد بن عبدالملك؛ وهو ابن خمس وسبعين سنة[١]، وروى الذهبي أنه حدَّث عن أبيه[٢].

٢ ـ عمرو بن خزيمة: ذكره ياقوت في سلسلة نسب أحد أفراد ذريته وهو أبو الحسن علي بن أبي القاسم زيد، المولود في سنة ٤٩٩هـ، والمتوفى ببيهق ـ وكان قد تولّى قضاءها وأقام فيها ـ في سنة ٥٦٥هـ، وهو أحد شرَّاح نهج البلاغة المتقدمين؛ وقد سمّى شرحه هذا: «معارج نهج البلاغة»[٣].

ثم تزوج خزيمة أيضاً جميلةَ بنتَ خالد بن مالك من بني قَوقل، ووُلِد له منها:

١ ـ عبدالله بن خزيمة.

٢ ـ عبدالرحمن بن خزيمة[٤].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٤/ق ٢/ ٩٠ و٥/ ٥١.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٤٨٥.
(٣) معجم الأدباء: ١٣/ ٢١٩ ـ ٢٤٠ وسير أعلام النبلاء: ٢٠/ ٥٨٥ ـ ٥٨٧.
(٤) طبقات ابن سعد: ٤/ق ٢/ ٩٠.

وأرسل الله تعالى رسوله محمداً بالهدى ودين الحق، فأشرقت الأرض بنور ربها، وأشرف عهد الوثنية على الزوال، ودوَّت صيحة التوحيد في أرجاء الجزيرة العربية؛ فكان لها من الأصداء ما بشَّر بطيِّ تلك الصفحة المظلمة بكل ما كانت تحمله من جهل وتخلُّف وضلال.

والتقى النبي (ص) في أحد المواسم في مكة فيمن كان يلقاه ويدعوه إلى الله؛ نفراً من أهل يثرب من الأوس والخزرج، فعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، فأجابوه فيما دعاهم إليه.

ثم تمت على أثر ذلك بيعة العقبة الأولى والثانية ـ على تفصيلٍ تقدَّم ذكره في بعض الحلقات السابقة ـ، فانتشر الإسلام في المدينة المنورة، ودخل فيه أبناء هاتين القبيلتين زرافات ووحدانا، حتى لم يبق بيت من بيوتها لم يدخله اسم رسول الله (ص).

وكان خزيمة بن ثابت أحد أولئك المبادرين إلى الإيمان بالله تعالى؛ والمسارعين إلى الإقرار بدينه القويم ورسوله الخاتم الكريم؛ بل يعدُّ في هذا الميدان «من السابقين الأولين»[(١)] المتحمسين لدعوة الحق والعاملين في هذه السبيل، وكان هو وصاحبه عمير بن عديّ بن خَرَشَة «يكسران أصنامَ بني خَطْمَة»[(٢)] وهم قومهما الأقربون.

❀ ❀ ❀

ثم هاجر النبي (ص) إلى المدينة المنورة عندما أذن له الله تعالى بذلك، واجتمع شمل المسلمين هناك أنصاراً ومهاجرين، وانطلقت مسيرة

(١) الإصابة: ١/ ٤٢٤.

(٢) طبقات ابن سعد: ٤/ق ٢/ ٩٠ وأسد الغابة: ٢/ ١١٤ والإصابة: ١/ ٤٢٥ وتهذيب التهذيب: ٣/ ١٤٠.

التوحيد بكل عزمٍ وقوة، ترصُّ الصفوف؛ وتشق الطريق؛ وتضع قواعد البناء والازدهار؛ وتشيِّد الحياة الجديدة؛ في إطار شرع الله عز وجل وقانونه العادل الشامل.

ولما أدرك المشركون في مكة وأطراف الحجاز أبعاد الخطر الذي يتهدَّدهم من انتشار الإسلام واستقرار المسلمين في عاصمتهم الجديدة ودولتهم الوليدة، لم يجدوا بدّاً من اللجوء إلى العدوان، فبدأت المعارك والحروب والغارات. وكان صاحبنا خزيمة بن ثابت ـ كما هو المنتظر منه ـ جندياً شجاعاً من جنود العقيدة، ومقاتلاً باسلاً في سبيل حياطة الدين وكيانه الغضِّ الطريّ، ومؤمناً صادق الإيمان في امتثال أوامر الرسول الأكرم (ص) في كل مجالات السلم والحرب؛ وميادين العمل والجهاد.

وبهذا العزم الضاري المتوثِّب شهد خزيمة بدراً[1].

ثم شهد أُحداً[2].

وشهد بعد ذلك جميعَ المشاهد النبوية وحروب الإسلام[3]؛ ومنها معركة مؤتة[4].

وروى ابن شهر آشوب السروي أن خزيمة قد أنشأ هذه الأبيات في معركة خيبر، ويظهر من سياقها أنها بعض قصيدةٍ له في هذه المناسبة، قال:

---

(١) الاستيعاب: ١/ ٤١٦ وأسد الغابة: ٢/ ١١٤ وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٩ والإصابة: ١/ ٤٢٤ و٤٢٥ وتهذيب التهذيب: ٣/ ١٤٠.

(٢) الاستيعاب: ١/ ٤١٦ وأسد الغابة: ٢/ ١١٤ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٤٨٥ والإصابة: ١/ ٤٢٥.

(٣) الاستيعاب: ١/ ٤١٦ وأسد الغابة: ٢/ ١١٤ وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٩ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٤٨٥ والإصابة: ١/ ٤٢٥ وتهذيب التهذيب: ٣/ ١٤٠.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٤٨٥.

وكان عليٌّ أرمدَ العين يبتغي ... دواءً فلمَّا لم يحسَّ مُداويا
شفاه رسولُ الله منه بتفلةٍ ... فبورك مرقيّاً وبورك راقيا
وقال سأُعطي الرايةَ اليومَ صارماً ... كميّاً محبّاً للرسول مُواليا
يحبُّ الإلهَ والإلهُ يحبُّه ... به يفتح اللهُ الحصونَ الأوَابِيا
فأصفى بها دون البريَّةِ كلِّها ... عليّاً وسَمَّاه الوزير المؤاخيا(١)

وتضافرت الروايات التاريخية تؤكِّد أن راية بني خَطْمَة كانت بيده يوم الفتح(٢).

❀ ❀ ❀

وأشرف العهد النبوي الزاهر على الانقضاء، وكانت حصيلة خزيمة بن ثابت منه أنه أصبح «ذا الشهادتين» على لسان النبي الأعظم (ص) كما أسلفنا ذكره، وحَسْبُه ذلك فخراً حين تُذكَر المفاخر وتُروى المآثر.

وروى رواة الحديث بأسانيدهم: «أن خزيمة رأى في المنام أنه يسجد على جبهة رسول الله (ص)، فأتى خزيمةُ رسولَ الله (ص) فأخبره. فاضطجع رسولُ الله (ص) ثم قال له: صَدِّقْ رؤياك، فسجد على جبهة رسول الله (ص)»(٣).

ومما يؤثر عن خزيمة ـ أيضاً ـ في تلك الحقبة من الزمن أنه كان

(١) المناقب: ١/٥٩٦ ـ ٥٩٧ وبحار الأنوار: ٤١/٨٧، ووردت هذه الأبيات في بحار الأنوار: ٣٩/١٥ ـ ١٦ معزوةً لحسان بن ثابت.

(٢) المحبَّر: ٢٩١ وطبقات ابن سعد: ٤/ق ٢/٩٢ والاستيعاب: ١/٤١٦ وأسد الغابة: ٢/١١٤ وشرح نهج البلاغة: ١٠/١٠٩ والإصابة: ١/٤٢٥.

(٣) مسند أحمد بن حنبل: ٥/٢١٥ و٢١٦ ومجمع الزوائد: ٩/٣٢٠ وتهذيب التهذيب: ٣/١٤١.

أحد أولئك المؤمنين القلائل الذين جمعوا القرآن الكريم وكتبوه في عهد النبوة، ولذلك رجع المسلمون إليه لمّا أرادوا جمع القرآن، وروى خارجةُ بن زيد بن ثابت عن أبيه قوله: «فقدتُ آيةً من سورة الأحزاب قد كنتُ أسمع رسول الله (ص) يقرؤها، فالتَمَسُوها فوَجَدوها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري... فألحقتُها في سورتها»[١].

(١) دلائل النبوة: ٧/ ١٥٠ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٤٨٦.

وتوفي النبي (ص) في العام الحادي عشر من الهجرة، فانقطع وحي السماء، وانقلب الناس على الأعقاب كما أخبر الله تعالى ووعد؛ وهو أصدق القائلين.

وحدث ما حدث في ذلك اليوم، وأصبح أبو بكر خليفةً في ظروفٍ وملابسات لا مجال لبحثها في هذه الرسالة.

وروى الرواة: أن الأنصار كانت بعد وفاة النبي (ص) «تُعظِّم عليّاً وتهتف باسمه حينئذٍ»[1]، بل جاء في إحدى روايات الطبري أنهم كانوا يقولون: «لا نبايع إلاَّ عليّاً»[2]؛ ويرونه المؤهَّل الأوحد للخلافة.

وكان صاحبنا خزيمة أحد أولئك المعظِّمين الهاتفين باسم عليّ؛ ومن الثابتين الراسخين على القول بإمامته، وقد عدَّه الإمام علي بن موسى الرضا ـ فيما أُثِر عنه ـ في جملة الصحابة «الذين مضوا على منهاج نبيهم (ص) ولم يغيِّروا ولم يبدِّلوا»، وسمّى جملةً منهم: «مثل سلمان الفارسي؛ وأبي ذر الغفاري؛ والمقداد بن الأسود؛ وعمَّار بن ياسر؛ وحذيفة [بن] اليمان؛ وأبي الهيثم بن التّيهان؛ وسهل بن حنيف؛

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٣٣.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٠٢.

وعبادة بن الصامت؛ وأبي أيوب الأنصاري؛ وخزيمة بن ثابت ذي الشهادتين؛ وأبي سعيد الخدري ـ (رض) ـ»[١].

وحدَّث بعض المؤرخين: أنه قد اجتمع يومذاك رجال «من سفهاء قريش ومثيري الفتن منهم؛ إلى عمرو بن العاص» وحرَّضوه على شتم الأنصار والتشهير بهم، ففعل عمرو ما طُلِب منه، فبلغ ذلك علياً (ع) فغضب غضباً شديداً وقال: إن عمراً قد «آذى اللهَ ورسوله» بطعنه في الأنصار، ثم خطب في المسجد في جمعٍ من قريش، مستنكراً هذا الفعل الشنيع المخالف لوصايا النبي (ص) بالأنصار وتأكيده على وجوب رعاية حقِّهم واحترام مقامهم.

وقال خزيمة بن ثابت ـ على أثر ذلك ـ يخاطب قريشاً:

أيا آلَ قريشٍ أصْلِحوا ذاتَ بَيْنِنا
وبينكم قد طال حبلُ التماحكِ
فلا خير فيكم بعدنا فارفقوا بنا
ولا خير فينا بعد فهرِ بن مالكِ
كلانا على الأعداء كفٌّ طويلةٌ
إذا كان يومٌ فيه جَبُّ الحواركِ
فلا تذكروا ما كان منّا ومنكم
ففي ذِكْرِ ما قد كانَ مشيُ التساوكِ[٢]

ويبدو من سكوت المصادر التاريخية عن خزيمة وإعراضها عنه أنه كان ذا موقف سلبيّ صلبٍ تجاه الخلفاء الثلاثة؛ مبتعداً عن أجوائهم

(١) عيون أخبار الرضا: ٢٦٨ ـ ٢٦٩.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٦/ ٣٣ ـ ٣٤.

وعن التعاون معهم إلى أبعد الحدود، وأنه استمر على ذلك بكل ثبات إلى حين قيام الثورة على عثمان في أخريات أيامه؛ لما اجتمعت طلائع المسلمين من كل حدب وصوب من حواضر العالم الإسلامي في المدينة المنورة، يريدون حمل الخليفة على الالتزام بأحكام الإسلام والسير بسيرة رسول الله (ص) وهَدْيه ونهجه.

وكان يومذاك ما كان، وقُتِل عثمان، وتوجَّه المسلمون على أثر ذلك نحو علي بن أبي طالب ـ وهو صاحب الحق نصّاً ووليُّ الأمر شرعاً ـ فبايَعُوه، وسمّى المؤرخون ممن بادر إلى بيعته «طلحةَ والزبيرَ... وخزيمةَ بن ثابت، وجميعَ مَنْ كان بالمدينة من أصحاب رسول الله (ص)»[1].

وكانت مبادرة خزيمة إلى البيعة وحماسته الكبرى لها؛ منسجمةً تماماً مع ما عُرِف به هذا الرجل منذ وفاة النبي (ص) ويوم السقيفة؛ من القول بإمامة أمير المؤمنين، وقد أكَّد اليوم إيمانَه بهذا الأمر في شعره الذي نظمه بمناسبة بيعة عليّ (ع) وعودة الحقِّ لأهله، فقال:

إذا نحن بايعنا عليّاً فحسبنا
أبو حسنٍ مما نخاف من الفتنْ
وجدناه أوْلى الناس بالناس إنَّه
أطبُّ قريشٍ بالكتاب وبالسننْ
وإنَّ قريشاً لا تشقُّ غبارَهُ
إذا ما جرى يوماً على الضُّمَّر البدنْ
ففيه الذي فيهم من الخير كلُّه
وما فيهمُ مثل الذي فيه من حَسَنْ

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٢٠ والجمل: ٥١.

وصـــيُّ رســـول الله مـــن دون أهـــلِـــه
وفـارســه قـد كـان فـي سـالـف الـزمـنْ
وأوَّلُ مَـنْ صـلَّـى مـن الـنـاس كـلِّـهـم
سـوى خـيـرة الـنـسـوان، والله ذو الـمـنـنْ
وصـاحـب كـبـش الـقـوم فـي كـل وقـعـةٍ
يـكـون لـهـا نـفـس الـشـجـاع لـدى الـذَّقـنْ
فـذاك الـذي تُـثْـنـى الـخـنـاصـرُ بـاسـمـه
إمـامُـهـم حـتـى أُغـيَّـب فـي الـكـفـنْ[1]

وأُثِر عن خزيمة - أيضاً - من الشعر قولُه: «يصف مَحَاسِنَ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومَنْ حَضَرَه - كرَّم اللهُ وجهه - في قصيدةٍ له:

رأوا نعمةً لله - ليست عليهم - عليكَ وفضلاً بارعاً لا تُنازَعُهْ
فعضُّوا من الغيظ الطويل أكُفَّهم عليك، ومَنْ لم يَرْضَ فاللهُ خادِعُهْ
من الدين والدنيا جميعاً لك المنى وفوق المنى أخلاقُه وطبائعُهْ[2]

❀ ❀ ❀

ولما تجمَّع ذلك الجمع المشؤوم في البصرة بقيادة راكبة الجمل - التي نبحَتْها كلابُ الحَوْأب - وطلحة والزبير ومَنْ شايعهم وتابعهم من ناكثي البيعة والخارجين على إمام زمانهم. دعا عليٌّ (ع) أهلَ المدينة

(١) وردت الأبيات ١ - ٣ و٥ - ٨ في الفصول المختارة: ٢/ ٦٧، والثمانية بأجمعها في بحار الأنوار: ٣٨/ ٢٧٣ - ٢٧٤، والبيتان ٥ - ٦ في شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٢٣١، والبيتان ١ و٤ في الإصابة: ١/ ٤٢٥، والأول بمفرده في فتوح ابن أعثم: ٢/ ٢٧٤ - ٢٧٥ وذكر أنه من أبيات.
(٢) المحاسن والمساوئ: ١/ ٧١ - ٧٢.

فيمن دعا إلى الخروج معه لحرب هؤلاء البغاة، فكان «ممن سارع إلى إجابة دعوته رجلان من أعلام الأنصار: أبو الهيثم بن التّيهان ـ وهو بدري ـ وخزيمة بن ثابت»[1].

وكان فيما رُوِي عن خزيمة أنه قال يوماً لعليّ (ع) وهو يتأهَّب لهذه الحرب:

«واللهِ يا أمير المؤمنين؛ لقد بغوا عليك ونكثوا عهدك ومكروا بك، ولقد علم الزبير بأنه ما له مثلُ نجدتك؛ ولا لطلحة مثل علمك؛ ولا لعائشة مثل طاعتك، ومالُ اللهِ أكثرُ من مال يعلى بن منبه؛ ولقد جمعه ظلماً وأنفقه جهلاً. ثم جعل يقول أبياتاً مطلعها:

وأمَّا الزبير فأكفيكَهُ وطلحةُ يكفيكه وَحْوَحَهْ[2]

وشهد هذا الصحابيُّ الصادقُ الإيمان حربَ الجمل[3] قائداً لجَمع من المجاهدين، وجاء في وصف شاهد عيانٍ لكتائب جيش علي (ع) لمَّا قدم البصرة؛ قولُه في خزيمة وكتيبته:

وقدم «فارسٌ... على فرس أشقر... عليه درع فوق ثيابه، متقلِّد سيفاً، متنكِّبٌ قوساً، عليه عمامة سوداء قد سد لها من بين يديه ومن خلفه، قد ظفر لحيته، في جمعٍ من الناس، فقلنا: مَنْ هذا؟ فقيل: خزيمة بن ثابت الأنصاري»[4].

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٤٧، وفي نصّ ابن الأثير: «رجلان صالحان من أعظم الأنصار» الكامل: ٣/ ١١٣.

(٢) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١٨٥ وطبقات خليفة: ١/ ٤٥٠ والمحبر: ٢٩١ وأنساب الأشراف: ٢/ ٣١٣ والمعجم الكبير: ٤/ ٩٨ والاستيعاب: ١/ ٤١٧ وأسد الغابة: ٢/ ١١٤ والإصابة: ١/ ٤٢٥.

(٤) وقعة الجمل: ٣٢.

وفي نصِّ المسعودي ـ وقد رواه عن شاهد عيان هو المنذر بن الجارود ـ:

«ثم تلاهم فارس آخر عليه عمامة صفراء وثياب بيض، متقلِّد سيفاً، متنكِّب قوساً، معه راية، على فرس أشقر، في نحو ألف فارس.. فقلتُ: مَنْ هذا؟ فقيل: هذا خزيمة بن ثابت الأنصاري ذو الشهادتين»(١).

وعندما اشتبكت الحرب بين الفريقين وحمي الوطيس اقتتلوا قتالاً شديداً، «وتقدَّم الحجاج بن عمرو... فجعل يضرب بسيفه قدماً... ثم تقدَّم في إثره خزيمة بن ثابت الأنصاري ذو الشهادتين وهو يقول شعراً»(٢)، وحمل «في جمعٍ من الأنصار كثيرٌ منهم من أهل بدر»(٣)، وقال يخاطب محمداً ابن الحنفية ـ وكانت الراية العظمى بيده ـ:

محمد ما في عُودِك اليوم وصمةٌ
ولا كنتَ في الحرب الضروس معرِّدا
أبوكَ الذي لم يركبِ الخيلَ مثلُه
عليٌّ، وسمَّاك النبيُّ محمَّدا
فلو كان حقاً من أبيك خليفةٌ
لكنتَ، ولكن ذاك ما لا يُرى بَدا
وأنت بحمد الله أطول غالبٍ
لساناً وأنداها بما ملكتْ يدا

(١) مروج الذهب: ٢/ ٢٤٤.
(٢) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٣٣١.
(٣) شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٤٥.

وأقــربــهــا مــن كــل خــيــرٍ تــريــدُه
قــريــشٌ وأوفــاهــا بــمــا قــال مــوعــدا
وأطــعــنُــهــم صــدرَ الــكــمــيِّ بــرمــحــه
وأكــســاهُــمُ لــلــهــام عــضــبــاً مــهــنَّــدا
ســوى أخــويــك الــســيــدَيْــن كــلاهــمــا
إمــامــا الــورى والــداعــيــانِ إلــى الــهــدى
أبــى الله أن يــعــطــي عــدوَّك مــقــعــداً
من الأرض أو في الأوج مرقىً ومصعدا[١]

واستعر القتال، «واحمرَّت الأرض بالدماء... ووقع الجمل لجنبه وضرب بجرانه الأرضَ ورغا رغاء شديداً»[٢]، وفرَّ البغاة لمَّا عُقِر الجمل، فوضعت الحرب أوزارها بهزيمة الناكثين وفشلهم الذريع.

وكان مما أُثِر لخزيمة من الشعر في هذا النصر قوله:

ليس بين الأنصار في جَحْمة الحَرْ ب وبين العداة إلاَّ الطِّعانُ
وقراعُ الكماة بالقُضُب البيـ ـضِ إذا ما تحطَّم المُرَّانُ
فادْعُها تستجبْ فليس من الخز رجِ والأوسِ ـ يا عليُّ ـ جبانُ
يا وصيَّ النبيِّ قد أجْلَتِ الحر بُ الأعادي وسارت الأظعانُ
واستقامتْ لك الأمورُ سوى الشا م، وفي الشام تظهر الأضغان[٣]
حسبهم ما رأوا وحسبك منَّا هكذا نحن حيث كنَّا وكانوا[٤]

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦ وبحار الأنوار: ٤٢ / ١٠٠ ـ ١٠١.
(٢) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣.
(٣) في شرح النهج المطبوع: يظهر الأذعان، وما أثبتناه من البحار لأنه الأنسب بالسياق.
(٤) شرح نهج البلاغة: ١/ ١٤٥ وبحار الأنوار: ٣٨/ ٢٢ ـ ٢٣.

وقال خزيمة ـ أيضاً ـ في هذه الحرب:

أعائشَ خلّي عن عليٍّ وعَيبِه — بما ليس فيه إنما أنتِ والِدَهْ
وصيُّ رسول الله من دون أهله — وأنتِ على ما كان من ذاك شاهدَهْ
وحسبكِ منه بعض ما تعلمينه — ويكفيكِ لو لم تعلمي منه واحِدَهْ
إذا قيل ماذا عِبْتِ منه رميتِه — بخَذْل ابن عفَّانٍ وما تلك آبِدَهْ
وليس سماءُ اللهِ قاطرةً دماً — لذاك وما الأرضُ الفضاء بمائدَهْ[1]

❀ ❀ ❀

ولم يكفّ الخارجون على إمام زمانهم من جند الشيطان وأتباع الجمل؛ ما حلَّ بهم في البصرة من خزي الدنيا وإثم الآخرة، فعادوا مرة أخرى إلى تكرار ما نُهوا عنه شرعاً وفشلوا فيه عملاً، وأعدوا كل ما استطاعوا إعدادَه لحرب خليفة الحق المنتخب وإمام الأمة المنصوص، فكانت وقعة «صفين»، وكان القائمون بها هم الذين سمَّاهم النبيُّ (ص) «القاسطين»[*].

وشهد خزيمة هذه الوقعة فارساً من فرسان عليّ (ع) ومقاتلاً باسلاً في الدفاع عن كلمة الحق وروح الإسلام، و«كان حاملَ راية بني خَطْمَة»[2] فيها؛ كما كان يحملها يوم فتح مكة، ولا غرو في ذلك ولا عجب وهو المسلم الصادق الإيمان، وقد عُرف بين الصحابة يومذاك بأنه «من كبار جيش عليّ»[3]، كما سمعه المسلمون يكرِّر ترداد بيتين مما

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١/١٤٦، والبيتان الأولان في بحار الأنوار: ٣٨/ ٢٣.

(*) يراجع في هذا الحديث النبوي الشريف: الاستيعاب: ٣/ ٥٣ وتاريخ بغداد: ٨/ ٣٤١ و١٣/ ١٨٧ وشرح نهج البلاغة: ١/ ٢٠١ و٨/ ٢٩٧ و١٣/ ١٨٣ ومجمع الزوائد: ٧/ ٢٣٨.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٤٨٥.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٤٨٥.

سبق له نظمه في مدح عليّ (ع)؛ تعبيراً عن عمق إخلاصه لإمامه وإعلاناً لصدق بيعته له، وهما:

إذا نحن بايعنا عليّاً فحسبنا
أبو حسنٍ مما نخاف من الفتنْ
وفيه الذي فيهم من الخير كلّه
وما فيهم بعضُ الذي فيه من حَسَنْ[1]

وقامت الحرب على قدمٍ وساق، وكانت ضروساً طاحنة كأعنف ما عرفت الحروب من لهيب وشدة، وذهب من صحب رسول الله (ص) مَنْ ذهب صريعاً تحت راية عليّ (ع) بسيوف أهل البغي والضلال، ودخل خزيمة فسطاطه، «وطرح عليه سلاحَه، وشنَّ عليه من الماء فاغتسل»[2]، ثم خرج إلى المعركة مرتجزاً يقول:

قد مرَّ يومان وهذا الثالثُ   هذا الذي يلهث فيه اللاهثُ
هذا الذي يبحث فيه الباحثُ   كم ذا يُرَجّي أن يعيش الماكثُ
النَّاسُ موروثٌ ومنهم وارثٌ   هذا عليٌّ مَنْ عَصَاه ناكثُ[3]

وكان ممَّا أُثِر عنه من الشعر في هذه الحرب قوله في عليّ (ع)، وكأنَّه من جملة أبيات:

كلُّ خيرٍ يزينهم فهو فيهِ   وله دُونهمْ خصالٌ تزِيْنُهْ[4]

وقاتل هذا المجاهد البطل قتال المؤمن المستميت في سبيل الله؛

(١) الإصابة: ١/ ٤٢٥، والأول منهما في فتوح ابن أعثم: ٢/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥، وقد تقدَّم منَّا إيراد هذه المقطوعة.
(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٢١ و١٨٨.
(٣) وقعة صفين: ٣٩٨.
(٤) الاستيعاب: ٣/ ٦٧.

حتى نال السعادة، وفاز بالشهادة[١]، وارتحل إلى أعلى عليّين حيث يجتمع الشهداء والصالحون؛ والأُمناءُ والصِّدِّيقون.

وعزَّ على بعض الرواة من رجال الدسِّ والبهتان أن يكون هذا الصحابي الجليل من جملة المتحمسين لبيعة علي (ع)؛ ومن طلائع المجاهدين بين يديه، ومن المستشهدين في هذه الوقعة بيد البغاة القاسطين، فانبرى سيف بن عمر ـ وهو الكذَّاب المعروف بالوضع والتلفيق ـ يسوق خبر مَنْ لبَّى دعوة عليّ (ع) إلى الخروج معه إلى صفين فقال فيه: «وخزيمة بن ثابت وليس بذي الشهادتين، مات ذو الشهادتين في زمن عثمان»[٢].

وقال ابن أبي الحديد معلِّقاً على ذلك:

«ومن غريب ما وقعتُ عليه من العصبية القبيحة: أن أبا حيان التوحيدي قال في كتاب البصائر: أن خزيمة بن ثابت المقتول مع عليّ (ع) بصفين؛ ليس هو خزيمة بن ثابت ذا الشهادتين، بل آخر من الأنصار صحابي اسمه خزيمة بن ثابت. وهذا خطأٌ، لأن كتب الحديث والنسب تنطق بأنه لم يكن في الصحابة من الأنصار؛ ولا من غير الأنصار؛ خزيمة بن ثابت إلاَّ ذو الشهادتين، وإنما الهوى لا دواء له، على أن الطبري صاحب التاريخ قد سبق أبا حيان بهذا القول، ومن كتابه نقل أبو حيان، والكتب الموضوعة لأسماء الصحابة تشهد بخلاف ما ذكراه».

وأضاف هذا الباحث المعتزليُّ معقّباً:

«ثم أيّ حاجة لناصري أمير المؤمنين أن يتكثَّروا بخزيمة وأبي

(١) يراجع الهامش ذو الرقم ٢٩.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٤٧.

الهيثم وعمار وغيرهم، ولو أنصف الناسُ هذا الرجلَ ورأوه بالعين الصحيحة؛ لعلموا أنه لو كان وحده وحاربه الناس كلهمن أجمعون؛ لكان على الحق وكانوا على الباطل»[١].

والحقُّ أن استشهاد خزيمة في صفين؛ مما يُعَدُّ من مسلَّمات التاريخ[٢] التي لا تقبل التردد والتشكيك؛ على رغم أنف المتعصبين الحاقدين والملفّقين الكاذبين.

وحسبنا من كل النصوص المرويَّة بهذا الشأن أن نعلم أن أمير المؤمنين (ع) قد ذكر ذلك في إحدى خطبه التي خطبها بعد شهور من هذه الوقعة لمَّا ثارت في نفسه ذكرى أولئك الشهداء المخلصين، فقال في خلال تلك الخطبة:

«ما ضرَّ إخوانَنا الذين سُفِكتْ دماؤهم بصِفّين ألاَّ يكونوا اليوم أحياءَ، يسيغون الغَصص، ويشربون الرَّنق. قد ـ واللهِ ـ لقوا اللهَ فوَفَّاهم أُجورَهم، وأحلَّهم دار الأمْن بعد خوفهم».

«أين إخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق؟ أين عَمَّار؟ وأين ابنُ التَّيِّهان؟ وأين ذو الشَّهادتين؟ وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على المنيَّة؟»[٣].

(١) شرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٩ ـ ١١٠.
(٢) ورد النصُّ على ذلك في وقعة صفين: ٣٦٣ والمحبر: ٢٩١ وطبقات ابن سعد: ٣/ ق ١/ ٢١ و١٨٨؛ و٦/ ٣٣ وأنساب الأشراف: ٢/ ٣١٤ و٣٢٧ و٣٦٠ والمعجم الكبير: ٤/ ٩٨ والعقد الفريد: ٦/ ١٥٣ والاستيعاب: ١/ ٤١٧ وأسد الغابة: ٢/ ١١٤ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٤٢ و١٠/ ١٠٩ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٤٨٥ والإصابة: ١/ ٤٢٥ وشذرات الذهب: ١/ ٤٦.
(٣) شرح نهج البلاغة: ١٠/ ٩٩.

ولن نجد في تاريخ تكريم الشهداء بعد هذا الرثاء الفريد؛ بل الوسام العلويّ النضيد؛ أية إضافةٍ لقائل أو زيادةٍ لمستزيد.

وروى الرواة: أن ضبيعة ابنة خزيمة لما علمتْ بشهادة أبيها قالت ترثيه:

عينُ جُودي على خزيمة بالدمـ ـمع قتيل الأحزاب يوم الفراتِ
قتلوا ذا الشهادتين عُتُوّاً أدرك اللهُ منهم بالتِّرَاتِ
قتلوه في فتيةٍ غير عُزْلٍ يُسرعون الركوبَ للدعواتِ
نصروا السيِّدَ الموفَّقَ ذا العد لِ ودانوا بذاك حتى المماتِ
لعن اللهُ معشراً قتلوهُ ورماهم بالخزي والآفاتِ[1]

❀ ❀ ❀

ولعل خير ما نختم به هذا البحث تعليقاً على تلك الحروب الدامية التي ذهب ضحيتها خيرةُ صحب رسول الله (ص) شهداءَ بسيف البغاة الناكثين القاسطين؛ أن نقتبس بعض ما أورده الباحث الأردني الدكتور حسن أحمد الحياري؛ في إيضاح سيئات هذه الحروب وآثارها الخطيرة السوداء على تاريخ الإسلام، فقال في خلال ذلك:

«إن الحروب الثلاث التي حصلت في فترة الخلافة الرابعة كانت السبب المباشر وراء حدوث الانقسامات الفكرية والمذهبية بين المسلمين؛ منذ تلك اللحظات حتى هذه الأيام. والذي يود أن يجتلي حقيقة تلك المدارس والمذاهب لا بدَّ له من الوقوف على حقيقة تلك الحروب وأيّ الأطراف منها على حقٍّ وأيّ منها على باطل، والقرآن الحكيم فيه قول الفصل في ذلك، كيف لا وهو يمثِّل الحقَّ الذي شاءت

(١) وقعة صفين: ٣٦٥ ـ ٣٦٦ وشرح نهج البلاغة: ٨/ ٤٢ ـ ٤٣.

حكمته أن يكون للناس جميعاً وكاملاً غير منقوص... فإذا كان القرآن الكريم لا يوجد فيه ما يبيِّن لنا إذا ما أردنا الحق دون تحكيم الهوى والمزاج في تلك الحروب وغيرها، فأين المصدر الذي يمكن أن نركن إليه؟ قول الطلقاء وأكاذيبهم؟ أم الذين يتربصون الدوائر؟ أم الذين مردوا على النفاق؟ أم الذين هم أشدُّ كفراً ونفاقاً؟ أم الذين ارتضوا الحياة الدنيا وما فيها من أموال وما لهم في الآخرة من خَلاق؟ أم حكّام الهوى والمزاج وما يدور في فلكهم من فقهاء وسلاطين؟»[1].

وسيجتمع أولئك الشهداء المؤمنون المدافعون عن الحق وجمهور الطلقاء والمنافقين من ناكثين وقاسطين، بين يدي الحاكم العادل الذي لا يضيع لديه مثقال ذرّة من خير أو شرّ، ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧].

«صدق الله العظيم»

---

(١) أصول التربية في ضوء المدارس الفكرية: ٢١٣.

مِنَ المؤمنين رجالٌ

[١٧]

أبو الهيثم بن التيّهان

أبو الهيثم بن التيهان

اسمه ونسبه

مالك بن التَّيِّهَان[1] بن مالك بن عمرو بن زيد بن عمرو بن جُشَم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو ـ وهو النَّبيت ـ بن مالك بن الأوس[2]، صحابي سابق، ومؤمن صادق، ومجاهد مغوار.

وزعم بعض الزاعمين أنه كان حليفاً لبني الأشهل[3]، وقال ابن حزم: «وهذا خطأ بلا شك، لأنه لم يكن أحد من النقباء حليفاً، وإنما كان النقباء من الصميم الصريح»[4].

وأُمُّه: ليلى بنت عتيك بن عمرو بن عبد الأعلم بن عامر بن زَعوراء بن جُشَم بن الحارث بن الخَزرج بن عمرو ـ وهو النَّبيت ـ بن مالك بن الأوس[5].

---

(١) قال ابن أبي الحديد: «التيهان: بالياء المنقوطة باثنتين تحتها؛ المشدَّدة المكسورة، وقبلها تاء منقوطة باثنتين فوقها، شرح نهج البلاغة: ١٠/١٠٧.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/٢٢ وسير أعلام النبلاء: ١/١٣٩. وفي سلسلة النسب بين المؤرخين خلاف كبير كما يتضح من مراجعة جمهرة النسب: ٦٣٧ وجمهرة أنساب العرب: ٣٤٠ والاستيعاب: ٣/٣٤٨ و٤/١٩٩ وأسد الغابة: ٣/٣٣٨ و٤/٢٧٤ و٥/٣١٨ والروض الأنف: ٢/١٩٥ وشرح نهج البلاغة: ١٠/١٠٧ وسير أعلام النبلاء: ١/١٣٨ والإصابة: ٢/٤٢٩ و٤/٢٠٩.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/٢١ والمعارف: ٢٧٠ وبعض المصادر المتقدمة في الهامش السابق.

(٤) جمهرة أنساب العرب: ٣٤٠.

(٥) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/٢٢.

وقومه: هم الأوس؛ من أنصار الله ورسوله؛ الذين أثنى عليهم الله تعالى في كتابه المجيد، وأوصى بهم النبي (ص) في جملة من الأحاديث الصحيحة الثابتة.

وكنيته التي اشتهر بها: «أبو الهيثم»، وقد عُرِف بذلك في عصره وعلى لسان الأجيال اللاحقة حتى أصبحت أشهر من اسمه الحقيقي «مالك» الذي ذكره النسّابون والمؤرخون. ويبدو أنها كانت مجرد كنيةٍ على المعتاد يومذاك، إذ لم يُرْوَ وجود ابنٍ له بهذا الاسم فيما بين أيدينا من مصادر وروايات.

وعرفنا من أهل بيته في تاريخ الإسلام إخوته الثلاثة الآتي ذكرهم:

١ ـ عُبَيْد الله بن التَّيِّهان: من المسلمين المجاهدين الذين شهدوا أُحُداً[١].

٢ ـ أبو نَضِير بن التيِّهان: وقد شهد أُحُداً مع النبي (ص)[٢].

٣ ـ عُبَيْد بن التَّيِّهان، وقيل: اسمه عتيك؛ ولكنَّ عبيداً هو الأشهر: كان من سُبّاق الأنصار إلى الإسلام، ومن شهود بيعة العقبة مع السبعين من الأوس والخزرج، ثم شهد بدراً وأُحداً، واستشهد في أُحدٍ على يد عدوِّ الله عكرمة بن أبي جهل؛ في شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً من الهجرة. وقد آخى رسول الله (ص) يوم المؤاخاة في أوائل الهجرة بينه وبين الصحابي البدريّ مسعود بن الربيع القاري[٣].

---

(١) الاستيعاب: ٢/ ٤٢٧ وأسد الغابة: ٣/ ٣٣٨ والإصابة: ٢/ ٤٢٨.

(٢) الاستيعاب: ٤/ ١٩٤ وأسد الغابة: ٥/ ٣١٣ والإصابة: ٤/ ١٩٦. وصُحّف الاسم في الاستيعاب: ٢/ ٤٢٧ إلى (أبو نصر)، ونصَّ ابن حجر في الإصابة على كونه (أبو نضير).

(٣) اقتبسنا ترجمة عبيد من سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٤٣ و٣/ ١٣٠ والمحبَّر: ٧٣ وتاريخ =

وجاء في كتاب ابن الأثير: أن عبيد بن التيهان أخا أبي الهيثم قد قُتِل في صفين[١]. ولعله خطأٌ نَسْخي أو مطبعي؛ وأن المراد به عبيد الله المذكور.

وكان لعبيدٍ هذا من الولد: عُبَيْد الله وعبَّاد، وأُمهما الصعبة بنت رافع بن عَديّ بن زيد من ولد عُلْبَة بن جَفْنَة الغسَّاني ـ وهم حلفاؤهم ـ، وقد انقرضوا فلم يبق لعبيدٍ عقب. وروى المؤرخون أن عبَّاد بن عبيد قد شهد بدراً[٢]، وأن عبيد الله قد قُتِل يوم اليمامة[٣].

❀ ❀ ❀

وُلِد أبو الهيثم في المدينة المنوَّرة حيث تقطِن أسرته ويستقر بنو قومه؛ غير أننا لم نعلم متى كان ذلك، ولكنه كان قبل البعثة الشريفة بزمن غير يسير، كما هو مقتضى اختياره نقيباً في بيعة العقبة بعد اثني عشر عاماً من البعثة ـ كما يأتي تفصيله ـ، وكما تقتضيه زعامته لقومه في ذلك الوقت.

ونشأ في المدينة حيث وُلِد كما ينشأ لداته وأترابه، فكان ـ كما أُريد له ـ عزماً ومضاء، وشجاعة وفروسية، بل بلغ من البسالة والبطولة حدَّ اشتهاره بلقب «ذي السَّيفَيْن» لأنه كان يتقلد في الحروب سيفين[٤].

= خليفة: ١/ ٣٣ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ١١٩ و٣/ق ٢/ ٢٣ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٢٩ وجمهرة أنساب العرب: ٣٤٠ والاستيعاب: ٢/ ٤٢٩ وأسد الغابة: ٣/ ٣٤٧ و٣٦٩ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٠٤ والتاريخ الكبير: ١/ ٢١٤ والإصابة: ٢/ ٤٢٩ ـ ٤٣٠ و٤٣٥.

(١) الكامل: ٣/ ١٧٧.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٢٣ والاستيعاب: ٢/ ٤٤٨ وأسد الغابة: ٣/ ١٠٢ والإصابة: ٢/ ٢٥٧.

(٣) الاستيعاب: ٢/ ٤٢٣ والإصابة: ٢/ ٤٣١.

(٤) كامل المبرد: ٤/ ١٠٠ والغيث المسجم: ٢/ ١٠٨.

وتزوَّج في شبابه مُلَيْكَةَ بنت سهل بن زيد بن عامر بن عمرو بن جُشَم، وكانت من المسلمات الصادقات اللواتي بايَعْنَ رسولَ الله (ص)[١].

وعرفنا من ذريته ابنته أُمَيمة بنت أبي الهيثم؛ التي ذكرها المؤرخون فيمن بايَعْنَ رسولَ الله (ص) من النساء[٢].

وقال ابن قتيبة: «وليس له عقب باقٍ»[٣].

(١) طبقات ابن سعد: ٨/٢٣٨ والمحبَّر: ٤١٧ وأسد الغابة: ٥/٥٤٩ والإصابة: ٤/٣٩٦.

(٢) طبقات ابن سعد: ٨/٢٣٨ والمحبَّر: ٤١٧ وأسد الغابة: ٥/٤٠٥ والإصابة: ٤/٢٣٧.

(٣) المعارف: ٢٧٠.

وأرسل الله تعالى رسوله محمداً (ص) إلى أهل الأرض كافَّةً؛ بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

وكان النبي (ص) يحضر المواسم التي تجتمع فيها العرب بمكة؛ ليخبرهم برسالته، ويدعوهم إلى الإيمان بها، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبيِّن لهم ما جاء به من قبل ربِّه.

وبينما كان يوماً يرقب حضَّار مكة من العرب لقي رهطاً من أهل المدينة فحدَّثهم وحدَّثوه، «فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن... فأجابوه فيما دعاهم إليه... ثم انصرفوا عن رسول الله (ص) راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدَّقوا... وكانوا ستة نفر»[1].

وكان أبو الهيثم أحد أولئك الستة المؤمنين السابقين الذين تقدَّموا قومهم في الإسلام، «وقدموا المدينة بذلك وأفشوا فيها الإسلام»[2].

وروى الرواة: أن مما ساعد أبا الهيثم على المسارعة إلى الإيمان

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٦٤ ـ ٧٢.

(٢) طبقات ابن سعد: ١/ق ١/ ١٤٧ و٣/ق ٢/ ٢٢ والاستيعاب: ٣/ ٣٤٩ ودلائل النبوة: ٢/ ٤٣٠ ـ ٤٣١ وأسد الغابة: ٤/ ٢٧٤ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٣٩.

أنه كان «يكره الأصنام في الجاهلية ويؤفّف بها، ويقول بالتوحيد هو وأسعد بن زرارة»(١).

وفي العام المقبل «وافى الموسمَ من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوا النبي (ص) بالعقبة - وهي العقبة الأولى - فبايعوا رسول الله (ص)».

وكان من هؤلاء الاثني عشر: أبو الهيثم مالك بن التيهان، من الأوس، من بني عبد الأشهل»(٢).

وفي العام الذي تلا ذلك قدم لفيف من الأنصار إلى مكة، وواعدوا رسول الله (ص) العقبة من أوسط أيام التشريق، ثم اجتمعوا برسول الله (ص) في الموعد المقرَّر وكانوا سبعين رجلاً يزيدون رجلاً أو رجلين، «فتكلَّم رسول الله (ص) فتلا القرآن ودعا إلى الله... ثم قال: أُبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»(٣).

وتمت البيعة، و«كان أول مَنْ بايع رسولَ الله (ص) يوم العقبة أبو الهيثم بن التيهان وقال:

«يا رسول الله؛ إن بيننا وبين الناس حِبالاً [والحبال: الحلف والمواثيق]، فلعلنا نقطعها ثم ترجع إلى قومك وقد قطعنا الحبال وحاربنا الناس».

«فضحك رسول الله (ص) من قوله وقال: الدَّم الدم؛ الهَدْم الهدم».

---

(١) طبقات ابن سعد: ١/ق ١٤٦/١ و٣/ق ٢٢/٢ وسير أعلام النبلاء: ١٣٩/١.

(٢) سيرة ابن هشام: ٧٣/٢ - ٧٥ وطبقات ابن سعد: ١/ق ١٤٨/١ وأنساب الأشراف: ٢٣٩/١ ودلائل النبوة: ٤٣٥/٢ وأسد الغابة: ٢٧٤/٤ وسير أعلام النبلاء: ١٣٩/١.

(٣) سيرة ابن هشام: ٨٤/٢ وتاريخ الطبري: ٣٦٢/٢ و٣٦٣ ودلائل النبوة: ٤٤٣/٢.

«فلما رضي أبو الهيثم بما رجع إليه رسولُ الله (ص) من قوله؛ أقبل على قومه فقال:

«يا قوم؛ هذا رسول الله (ص) أشهد أنه لَصَادق، وأنه اليوم في حرم الله وأمنه وبين ظهرَيْ قومه وعشيرته، فاعلموا أنكم إنْ تُخْرِجوه بَرَتْكم (رَمَتْكم) العربُ عن قوس واحدة، فإن كانت طابت أنفسكم بالقتال في سبيل الله وذهاب الأموال والأولاد فادعوه إلى أرضكم، فإنه رسولُ الله حقاً. وإن خفتم خذلاناً فمن الآن».

«فقال عبد الله: قبلنا عن الله وعن رسوله ما أعطانا، وقد أعطيناك من أنفسنا الذي سألتَنا يا رسول الله، فخَلِّ بيننا يا أبا الهيثم وبين رسول الله (ص) فلنبايعه».

«فقال أبو الهيثم: أنا أول من أُبايع. ثم تَبَايعوا كلهم»(١).

ثم طلب رسول الله (ص) منهم أن يختاروا اثني عشر نقيباً «ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً؛ تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس»(٢)، وكان أبو الهيثم بن التيهان أحد هؤلاء النقباء المنتخبين(٣).

---

(١) المعجم الكبير: ١٩/ ٢٥٠ ـ ٢٥١. وتراجع: سيرة ابن هشام: ٢/ ٨١ ـ ٨٩ و٩٨ وطبقات ابن سعد: ١/ق ١/ ١٤٩ و١٥٠ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٥٦ و٣٦٤ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٧٧.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٨٥ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٦٣ ودلائل النبوة: ٢/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨ وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٧.

(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ٨٦ ـ ٨٧ والمحبّر: ٢٦٨ و٢٧٣ وطبقات ابن سعد: ٣/ ق ٢/ ٢٢ و١٣٨ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٥٢ وتاريخ أبي زرعة: ١/ ٥٧٥ والاستيعاب: ٤/ ١٩٩ والمعجم الكبير: ١٩/ ٢٥٠ وجمهرة أنساب العرب: ٣٤٠ وأسد الغابة: ٤/ ٢٧٤ و٥/ ٣١٨ والروض الأنف: ٢/ ١٩٥ وسير أعلام النبلاء: ١/ ٢١٩ والإصابة: ٤/ ٢٠٩.

وفي نصّ البلاذري: أن النبي (ص) قال للحاضرين: «إني آخذ منكم اثني عشر، فلا يجدنَّ أحدٌ منكم في نفسه شيئاً، فإنما يختار لي جبريل»[١].

❁ ❁ ❁

وهاجر النبي (ص) بعد ذلك بقليل إلى المدينة المنورة، فدوَّت دعوة الحق في أرجاء الحجاز والجزيرة العربية؛ وانطلقت إشارة البدء لوضع قواعد الدولة الجديدة وبناء أُسسها الثابتة المتينة.

ولما آخى النبي (ص) بين المهاجرين والأنصار إثر وصوله المدينة، آخى بين أبي الهيثم وعثمان بن مظعون[٢].

وشهد هذا المؤمن السبَّاق الشجاع بدراً وأُحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله (ص)[٣]، وكان يعدُّ «من أعيان البدريين»[٤].

ويبدو من روايات السيرة أن الرابطة التي كانت تشدُّه برسول الله (ص) قد تجاوزت في عمقها ووثوقها حدود الروابط القائمة بين غالب الصحابة ونبيهم الأعظم (ص)، فقد ذكر الرواة:

(١) أنساب الأشراف: ١/ ٢٥٤.

(٢) المحبَّر: ٧٤ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ١/ ٢٨٨ و٣/ق ٢/ ٢٢ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٧١ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٣٩ والإصابة: ٤/ ٢٠٩.

(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٤٣ وجمهرة النسب: ٦٣٧ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٢٢ و١٣٨ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٤٠ والاستيعاب: ٣/ ٣٤٩ و٤/ ١٩٩ والمعجم الكبير: ١٩/ ٢٤٩ و٢٥٠ والروض الأنف: ٢/ ١٩٥ وأسد الغابة: ٤/ ٢٧٤ و٥/ ٣١٨ وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٧ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٣٩ و١٨٥ والإصابة: ٣/ ٣٢١ و٤/ ٢٠٩ وبحار الأنوار: ٣٨/ ٢٠.

(٤) التاريخ الكبير للذهبي: ١/ ١٥٣، ونُصَّ على ذلك أيضاً في كامل ابن الأثير: ٣/ ١٧٧.

أنّ النبي (ص) كان يزور أبا الهيثم، ويأكل عنده ويقيل، فإذا حضرت الصلاة صلّى في بيت أبي الهيثم[١].

ورووا أيضاً: أن النبي (ص) كان يُؤتى بالماء من بئر أبي الهيثم بن التيهان التي تسمى «بئر جاسم»، وكان ماؤها معروفاً بالعذوبة والطِّيب[٢].

ولثقة رسول الله (ص) بعمق إيمان أبي الهيثم واطمئنانه بصدقه وعدله وكفايته «بعثه إلى خيبر خارصاً» يخرص على أهلها الثمرة، وذلك بعد شهادة عبد الله بن رواحة بمؤتَة، حتى عُرِف بأنه كان «يخرص على عهد رسول الله (ص)»[٣]. ويبدو أن خبرة أبي الهيثم في مجال الزراعة وتربية الماشية؛ وما اشتهر به من كونه «رجلاً كثير الخيل والشياه»[٤] قد جعلاه المقدَّم على أصحابه في القيام بهذه المسؤولية الدينية الصعبة التي تحتاج إلى كثير من التجربة والممارسة والمعرفة.

---

(١) أنساب الأشراف: ١/ ٥٣٥ والمعجم الكبير: ١٩/ ٢٥٢ ـ ٢٥٨ ودلائل النبوة: ١/ ٣٦٠ ـ ٣٦١ والروض الأنف: ٢/ ١٩٥.

(٢) طبقات ابن سعد: ١/ق ٢/ ١٨٤ وأنساب الأشراف: ١/ ٥٣٥.

(٣) المعارف: ٢٧٠ وطبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٢٢ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٣٩.

(٤) المعجم الكبير: ١٩/ ٢٥٦ وأسد الغابة: ٤/ ٢٧٥.

وتوفي رسول الله (ص) ففُجع به المسلمون أشدَّ الفجيعة، وهزَّتهم الصدمة هزّاً عنيفاً صعب الاحتمال، وعبَّر عدد منهم بالشعر عن مدى حزنهم العميق وألمهم البالغ بهذا الحادث الجلل، وكان من جملة أولئك المفجوعين الراثين نبيهم بشعرهم صاحبنا أبو الهيثم، فقد نظم مرثية بهذه المناسبة الحزينة لم يرو لنا الرواة منها إلاَّ قوله:

لقد جُدِعتْ آذانُنا وأُنوفُنا ... غداة فُجِعنا بالنبي محمَّدِ[1]

ثم كان ما كان؛ من حوادث السقيفة وأحداث تلك الأيام.

وحدَّث الصحابي المعروف البَرَاءُ بن عازب؛ قال:

«لم أزل لبني هاشم محبّاً، فلما قُبِض رسول الله (ص) تخوَّفتُ أن تتمالأ قريش على إخراج هذا الأمر من بني هاشم، فأخذني ما يأخذ الوالِهَ العجول، مع ما في نفسي من الحزن لوفاة النبي (ص)..... فكنتُ أتردَّد بينهم وبين المسجد، وأتفقَّد وجوه قريش، فإني لكذلك إذ فقدتُ أبا بكر وعمر [وإذا قائل يقول: القوم في سقيفة بني ساعدة، وإذا قائل آخر يقول: قد بويع أبو بكر]، ثم لم ألبث إذ أنا بأبي بكر قد أقبل في أهل السقيفة، وهم يحتجزون الأزر الصنعانية، لا يمرون بأحدٍ إلا خبطوه وقدَّموه فمدّوا يده فمسحوها على يد أبي بكر وقالوا له: بايع،

(١) الإصابة: ٤/ ٢١٠.

شاء ذلك أو أبى. فأنكرتُ عند ذلك عقلي.... فمكثتُ أكابد ما في نفسي، ورأيتُ في الليل المقداد بن الأسود وعُبادة بن الصامت وسلمان الفارسي وأبا ذر وأبا الهيثم بن التيهان وحذيفة بن اليمان، وهم يريدون أن يعود الأمر شورى بين المهاجرين»[١].

ويبدو من سياق الأحداث وشواهدها أن أبا الهيثم لم يعترف بالأمر الواقع يومذاك، بل كان له رأي خاص فيه وموقف محدَّد منه.

ومن أمثلة ذلك ما رواه بعض المؤرخين: من أن الخليفة أبا بكر قد طلب منه القيام بالخرص كما كان يفعل في العهد النبوي فأبى[٢].

وقد عبَّر بإبائه القيام بهذه المهمة في العهد الجديد عن سلبية صريحة ورفضٍ واضح لما أسفرت عنه تلك الأيام من نتائج وآثار، ويمكن القول في ضوء ابتعاد أبي الهيثم عن دائرة الأضواء التاريخية أن تلك السلبية قد امتدَّت طوال عهود حكم أبي بكر وعمر وعثمان، إذ لم يُرْوَ عنه أي تعاون معهم وأي ارتباط بهم.

ولكنه على الرغم من ذلك لم يرفض طلب الخليفة عمر بن الخطاب عندما استنجد به للذهاب إلى فدك مع «سهل بن أبي حثمة وزيد بن ثابت الأنصاريين فقوَّموا نصف تربتها بقيمة عدل، فدفعها إلى اليهود وأجلاهم إلى الشام»[٣]، ولعله كان يرى صواب هذه الخطوة ويؤمن بضرورة إجلاء اليهود وتطهير الجزيرة العربية منهم.

❀ ❀ ❀

(١) نثر الدر: ١/ ٤٠٠ ـ ٤٠١ ـ نقلاً من المنثور والمنظوم لابن أبي طاهر ـ وشرح نهج البلاغة: ١/ ٢١٩ ـ ٢٢٠ و٢/ ٥١، ومنه زدنا ما بين المعقوفين.
(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ق ٢/ ٢٢ وسير أعلام النبلاء: ١/ ١٣٩.
(٣) فتوح البلدان: ٤٢.

وبعد قيام الثورة على عثمان؛ وفشل المفاوضات بين وفود الثوار الذين قدموا المدينة المنورة وبين الخليفة لإعادة المسيرة الإسلامية إلى سابق عهدها، اقتحم فريق منهم دار عثمان فقتلوه.

وتدفق المسلمون زرافات ووحداناً على أثر ذلك للاجتماع في المسجد النبوي، «فقام نفر من الأنصار منهم أبو الهيثم بن التيهان ورفاعة بن رافع ومالك بن العجلان وخزيمة بن ثابت والحجاج بن عمرو بن غزيّة وأبو أيوب خالد بن يزيد، فقالوا:

«أيها الناس؛ إنكم رأيتم ما سار فيكم عثمان، وأنتم اليوم على شرف أن تقعوا في مثلها، فاسمعوا قولنا، وأطيعوا أمرنا».

فقال الثوار من أهل الكوفة ومصر: «أشيروا علينا فإنكم أهل السابقة، وقد سمّاكم الله أنصاراً، فأْمُرونا بأمركم».

فقالت الأنصار: «إنكم قد عرفتم فضل علي بن أبي طالب وسابقته وقرابته ومنزلته من النبي (ص)، مع علمه بحلالكم وحرامكم؛ وحاجتكم إليه من بين الصحابة، ولن يألوكم نصحاً. ولو علمنا مكان أحدٍ هو أفضل منه وأجمل لهذا الأمر وأولى به منه لدعوناكم إليه».

«فقال الناس كلهم بكلمةٍ واحدة: رضينا به طائعين غير كارهين».

فبايع الناس علياً (ع) على كتاب الله عز وجل وسنّة نبيه (ص)[(١)].

وكان من طلائع المبادرين إلى البيعة من الأنصار: أبو الهيثم بن التيهان[(٢)].

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/ ٢٤٤ ـ ٢٤٧، وقريب منه في شرح نهج البلاغة: ٤/ ٨ و٧/ ٣٦.

(٢) الجمل: ٥١.

وأصبح عليٌّ (ع) منذ اليوم الخليفة القائم بأمر المسلمين، بعد أن كان إمامهم الشرعي بالنص والتعيين؛ منذ توفي رسول الله (ص).

وتحرَّكت الأحقاد الجاهلية والتِّرات الأموية والنزعات الشخصية الضيقة من كل حدبٍ وصوب؛ لتلتقي في حلفٍ غير مقدَّس ضدَّ عليٍّ وضد كلِّ ما يمثِّله من قيم العدالة الإسلامية السامية، والمساواة الإنسانية القويمة، والتطبيق الصارم لشريعة الله، بلا رضوخٍ للومة لائم؛ أو مجاملة لمصلحة آثم؛ أو محاباة لهذا وذاك من بني البشر.

وتمثَّل تجمُّع تلك الأحقاد في أولى محاولاته المنكرة؛ في خروج أولئك النفر الذين نكثوا البيعة ونقضوا العهد وتمرَّدوا على إمام زمانهم ووليِّ أمرهم، فكانوا أول «بغاةٍ» في تاريخ الإسلام.

وذهب «أبو الهيثم وعمار وأبو أيوب وسهل بن حنيف وجماعة معهم، فدخلوا على عليٍّ (ع) فقالوا:

«يا أمير المؤمنين؛ انظر في أمرك، وعاتب قومك هذا الحيَّ من قريش، فإنهم قد نقضوا عهدك، وأخلفوا وعدك، وقد دَعَوْنا في السرِّ إلى رفضك، هداك الله لرشدك. وذلك لأنهم كرهوا الأسوة، وفقدوا الأثرة، ولمَّا آسيتَ بينهم وبين الأعاجم أنكروا واستشاروا عدوَّك وعظَّموه، وأظهروا الطلب بدم عثمان فرقةً للجماعة؛ وتألّفاً لأهل الضلالة. فرأيك»[1].

وقال أبو الهيثم:

«يا أمير المؤمنين؛ إن حسد قريش إياك على وجهين: أمَّا خيارهم فحسدوك منافسة في الفضل وارتفاعاً في الدرجة. وأمَّا شرارهم فحسدوك

(١) شرح نهج البلاغة: ٣٩/٧.

حسداً أحبط الله به أعمالهم، وأثقل به أوزارهم، ـ إلى أن قال ـ: ونحن أنصارك وأعوانك، فمُرْنا بأمرك، ثم أنشأ يقول:

إنَّ قوماً بغوا عليك وكادو ... ك وعابوك بالأمور القباحِ
ليس من عيبها جناح بعوضٍ ... فيك حقاً ولا كعُشر جناحِ

«الأبيات. فجزاه أمير المؤمنين (ع) خيراً»[(١)].

وصمَّم عليٌّ (ع) على تلقين هؤلاء البغاة درساً لن ينسوه، فعزم على الخروج من المدينة المنورة إلى حيث تجمَّعوا في البصرة، ودعا أهل المدينة إلى الخروج معه، فبادر جمع من أجلَّة الصحابة وأخيار التابعين إلى إطاعة أمره، وفي طليعتهم «رجلان من أعلام الأنصار: أبو الهيثم بن التيهان ـ وهو بدري ـ وخزيمة بن ثابت»[(٢)].

وليس عجيباً هذا الحماس والامتثال من أبي الهيثم ومَنْ خرج معه من صفوة الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فقد سمعوا من النبي (ص) نفسِه حديثَه في قتال عليٍّ «الناكثين» و«القاسطين» و«المارقين»[(٣)].

والتقى الجيشان في البصرة.

وأرسل عليٌّ (ع) إلى عائشة مَنْ يبلِّغها قوله: «ألم يأمركِ الله تبارك وتعالى أن تقرّي في بيتكِ، فخُدِعتِ وانخدعتِ، واستُنْفِرتِ فنفرتِ، فاتقي الله الذي إليه مرجعكِ ومعادكِ، وتوبي إليه فإنه يقبل التوبة عن

(١) سفينة البحار: ٢/ ٦٩٦.
(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٤٤٧.
(٣) يراجع في هذا الحديث النبوي الشريف: الاستيعاب: ٣/ ٥٣ وتاريخ بغداد: ٨/ ٣٤١ و١٣/ ١٨٧ وشرح نهج البلاغة: ١/ ٢٠١ و٨/ ٢٩٧ و١٣/ ١٨٣ ومجمع الزوائد: ٧/ ٢٣٨.

عباده. ولا يحملنَّك قرابةُ طلحة وحبُّ عبد الله بن الزبير على الأعمال التي تسعى بكِ إلى النار».

فما كان جواب عائشة على ذلك إلا قولها: «ما أنا برادَّةٍ عليكم شيئاً، فإني أعلم أني لا طاقة لي بحجج علي بن أبي طالب».

فرجع الرسولان إليه فأخبراه بقول عائشة، فأنشأ أبو الهيثم بن التيهان الأنصاري يقول أبياتاً مطلعها:

نحن الذين رأتْ قريش فعلَنا ... يوم القليب وقد هوى الكفَّارُ

إلى آخرها[1].

ورُويت هذه الأبيات في أحد المصادر بالنص الآتي:

قل للزبير وقل لطلحة إننا ... نحن الذين شعارنا الأنصارُ
نحن الذين رأتْ قريش فعلنا ... يوم القليب، أولئك الكفَّارُ
كنَّا شعار نبيِّنا ودثاره ... تفديه منَّا الروحُ والأبصارُ
إنَّ الوصيَّ إمامُنا ووليُّنا ... برح الخفاء وباحت الأسرارُ[2]

وقامت الحرب على ساق.

ثم وضعت أوزارها عندما عُقِر الجمل ولم يجد أتباعه طريقاً إلى السلامة غير الفرار.

ودخل جيش أمير المؤمنين (ع) المكلَّل بظفر الدنيا ورضا الله تعالى مدينة البصرة من مكانٍ يُقال له: «الزاوية»، ووقف الناس ينظرون إليه وهو يدخل كتائب كتائب يلي بعضها بعضاً؛ وأمام كل كتيبة قائدها المقدام. ويقول أحد شهود العيان:

(١) فتوح ابن أعثم: ٢/٣٠٦ ـ ٣٠٧.
(٢) بحار الأنوار: ٣٨/٢٠ ـ ٢١.

ومنهم: فارس... على فرس أدهم... متقلِّد سيفاً، متنكِّب قوساً، عليه قباء أبيض وعمامة سوداء قد سدلها من بين يديه ومن خلفه، في جمع من الناس، فقلنا: مَنْ هذا؟ فقيل: أبو الهيثم بن التيهان؛ عَقَبيٌّ بَدْري»[١].

❀ ❀ ❀

وعادت تلك الثارات والأحقاد للتجمع مرة أخرى ضدَّ تلك الخلافة الراشدة، وكانت قيادة التجمع في هذه الجولة الجديدة بيد الطلقاء ومسلمة الفتح الذي قالوا أسلمنا ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم.

وقامت حرب صفين.

وشارك فيها أبو الهيثم بكل الإخلاص والعزم والاندفاع، لأن ذلك هو تكليفه الشرعي وفرضه الديني بوجوب مقاتلة «البغاة» بنصِّ القرآن الكريم؛ و«القاسطين» بنصِّ رسول الله (ص).

وسار في ركب إمامه الواجب الطاعة أمير المؤمنين، حتى انتهى الركب إلى موضع الصدام في صفين.

وتقابل الجيشان، وعبَّأ كل فريق منهما كتائبه وراياته، وعيَّن أُمراءه وقادته.

«وأقبل أبو الهيثم بن التيهان ـ وكان من أصحاب رسول الله (ص) بدرياً نقيباً عَقَبياً ـ يسوّي صفوف أهل العراق ويقول:

«يا معشر أهل العراق؛ إنه ليس بينكم وبين الفَتْح في العاجل والجنة في الآجل؛ إلاَّ ساعة من النهار، فأرْسُوا أقدامكم، وسَوُّوا

---

(١) وقعة الجمل: ٣١.

صفوفكم، وأعيروا ربَّكم جماجمكم، واستعينوا بالله إلهكم، وجاهدوا عدوَّ الله وعدوَّكم، واقتلوهم قتلهم الله وأبادهم، واصبروا فإنَّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين»(١).

وبدأت الحرب.

وقاتل هذا البطل المؤمن جيش البغي بكل بسالة وضراوة وعنف، حتى كتب الله له السعادة، وختم له بالشهادة، فسقط هذا «العَقَبيُّ» «النقيب» «البدري» شهيداً بذلك السيف الذي أُشهر ضد الله ورسوله في بدر وأُحد والأحزاب؛ وبتلك الأيدي التي حاربت رسول الله (ص) في مكة والمدينة؛ وهي تريد إطفاء نور الله، ولكن الله متمُّ نوره ولو كره المشركون.

وعزَّ على بعض المتعصبين من المؤرخين كابن قتيبة أن يكون هذا النقيب البدري اللامع أحد المنضوين تحت راية عليّ (ع) والمستشهدين بين يديه؛ وأن يكون قتيلاً بسيوف البغاة القاسطين، فحاول نفي هذه الحقيقة وإنكارها فقال:

«ذكر قوم أنه شهد صفين مع علي بن أبي طالب، وليس يعرف ذلك أهلُ العلم ولا يثبتونه، وتوفي في خلافة عمر بن الخطاب ـ (رض) ـ في المدينة سنة عشرين»(٢).

وليس هذا الكلام الغريب إلا من وحي النصب والتطرف، لأن القول بشهادته في صفين هو المتواتر لدى رواة التاريخ وكتَّاب السِّيَر(٣)، وقال ابن أبي الحديد معلِّقاً على كلام ابن قتيبة:

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٥/ ١٩٠.
(٢) المعارف: ٢٧٠.
(٣) طبقات خليفة: ١/ ١٧٨ والمحبَّر: ٢٧٢ وأنساب الأشراف: ١/ ٢٤٠ و٢/ ٣١٩ و٣٦٠ و٣٧٠ والاستيعاب: ٣/ ٣٤٩ و٤/ ١٩٩ والروض الأنف: ٢/ ١٩٥ وأسد الغابة: ٥/ ٣١٨ وكامل ابن الأثير: ٣/ ١٧٧ وشرح نهج البلاغة: ١٠/ ١٠٧.

«إن تعصُّب ابن قتيبة معلوم، وكيف يقول: لا يعرفه أهل العلم، وقد قاله أبو نعيم وقاله صالح بن الوجيه ورواه ابن عبد البَرِّ، وهؤلاء شيوخ المحدِّثين»[١].

وحسبنا من كل ما قيل في ذلك أن نقرأ القول الفصل فيه، وهو ما جاء في إحدى خطب أمير المؤمنين (ع) وقد هاجت في نفسه ذكرى أولئك الشهداء في صفين من أصحابه المجاهدين المخلصين؛ فقال:

«ما ضرَّ إخوانَنا الذين سُفِكتْ دماؤهم بصفين أن لا يكونوا اليوم أحياء، يسيغون الغصص ويشربون الرنق، قد ـ واللهِ ـ لقوا اللهَ فوفَّاهم أجورهم، وأحلَّهم دار الأمن بعد خوفهم. أين إخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق؟ أين عمار؟ وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين؟ وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على المنية؟»[٢].

وليس بعد هذا الرثاء السامي والتأبين البليغ؛ مجال لقائل أو زيادة لمستزيد. وقالت أمينة الأنصارية ترثي أبا الهيثم:

منع اليومَ أنْ أذوق رقادا ... مالكٌ إذ مضى وكان عمادا
يا أبا الهيثم بن تَيْهَان إني ... صرتُ للهم معدناً ووسادا
إذ غدا الفاسقُ الكفورُ عليهم ... إنه كان مثلَها مُعْتادا
أصبحوا مثلَ مَنْ ثوى يوم أُحُدٍ ... يرحم اللهُ تلكم الأجسادا[٣]

(١) شرح نهج البلاغة: ١٠/١٠٨.
(٢) شرح نهج البلاغة: ١٠/٩٩.
(٣) وقعة صفين: ٣٦٥.

المصادر والمراجع

* الاحتجاج/ للطبرسي، النجف ١٣٥٠هـ.
* الأخبار الطوال/ لأبي حنيفة الدينوري، القاهرة ١٩٦٠م.
* اختيار معرفة الرجال ـ رجال الكشي/ لمحمد بن عمر بن عبد العزيز، مشهد إيران ١٣٨٩هـ.
* الإرشاد/ للشيخ المفيد، بيروت ١٤١٤هـ.
* الاستيعاب/ لابن عبد البرّ ـ هامش الإصابة ـ، القاهرة ١٣٥٨هـ.
* أسد الغابة/ لابن الأثير عز الدين، القاهرة ١٢٨٥هـ.
* أسماء المغتالين/ لمحمد بن حبيب/ نوادر المخطوطات، القاهرة ١٣٧٣هـ.
* الاشتقاق/ لابن دريد، القاهرة ١٣٧٨هـ.
* الإصابة/ لابن حجر العسقلاني، القاهرة ١٣٥٨هـ.
* أصول التربية في ضوء المدارس الفكرية/ للدكتور حسن أحمد الحياري، عمّان ١٤١٣هـ.
* الأضداد/ للأنباري، الكويت ١٩٦٠م.
* الأعلام/ للزركلي، بيروت ١٣٨٩هـ.
* أعيان الشيعة/ للسيد محسن الأمين، بيروت ١٤٢٠هـ.

* الأغاني/ لأبي الفرج الأصبهاني ـ ج ١٥، القاهرة (طبعة مصورة).
ج ٢١، القاهرة ١٣٩٢هـ.
* الإقبال/ لعلي رضي الدين آل طاووس، قم/إيران ١٤١٨هـ.
* الأمالي/ لابن الشجري، بيروت (طبعة مصورة).
* الأمالي/ لأبي علي القالي، القاهرة ١٣٤٤هـ.
* الأمالي/للشيخ المفيد، بيروت ١٤١٤هـ.
* الإمام علي بن أبي طالب (ع)/ [موسوعة العلامة الكبير الشيخ محمد حسن آل ياسين ﷺ/ المؤلفات] بيروت.
* الإمامة والسياسية/ لابن قتيبة ـ طبعة مصطفى محمد ـ، القاهرة (بلا تاريخ).
* الأمثال/ لأبي عبيد، بيروت ١٤٠٠هـ.
* الأنساب /للسمعاني، بيروت ١٤١٩هـ.
* أنساب الأشراف/ للبلاذري ـ ج ١ ـ، القاهرة ١٩٥٩م.
ـ ج٢ ـ، بيروت ١٣٩٧هـ.
ـ ج٥ ـ، القدس ١٩٣٦م.
* بحار الأنوار/للمجلسي ج٣٨، طهران ١٣٨٠هـ.
* البداية والنهاية/ لابن كثير الدمشقي، القاهرة ١٣٥١هـ.
* بلاغات النساء/ لابن طيفور ـ طبعة أحمد الألفي ـ، القاهرة ١٣٦١هـ.
* بهجة المجالس/ لابن عبد البرّ القرطبي، القاهرة ١٩٦٧م.
* البيان والتبيين/ للجاحظ، القاهرة ١٣٥١هـ.
* تاج العروس/ لمحمد مرتضى الزبيدي، القاهرة ١٣٠٦ هـ.
* تاريخ الكوفة/للسيد حسين البراقي، النجف ١٣٦٧هـ.
* تاريخ الكوفة الحديث/لكامل سلمان الجبوري، النجف ١٣٩٤.
* تاريخ/ أبي زرعة الدمشقي، دمشق ١٤٠٠هـ.

* تاريخ/أبي الفدا، القاهرة ١٣٢٥هـ.
* تاريخ بغداد/ للخطيب البغدادي، بيروت (طبعة مصورة).
* تاريخ خليفة بن خياط، دمشق ١٩٦٨م.
* تاريخ دمشق/لابن عساكر، ج٣٥ دمشق ١٤١٨هـ.
* تاريخ الطبري، القاهرة ١٩٦٠م.
* التاريخ الكبير/الذهبي ـ ج١ ـ، القاهرة ١٩٧٥م.
* تاريخ الكوفة/للبراقي، النجف ١٣٨٩هـ.
* تاريخ اليعقوبي، النجف ١٣٥٨هـ.
* التبيين/لابن قدامة المقدسي، الموصل ١٤٠٢م.
* تجريد أسماء الصحابة/للذهبي، الهند ١٣٨٩هـ.
* تحف العقول/ لابن شعبة الحراني، النجف ١٣٨٣هـ.
* تذكرة الخواص/ لسبط ابن الجوزي، النجف ١٣٦٩هـ.
* التذكرة السعدية/للعبيدي، النجف ١٣٩١هـ.
* التعازي والمراثي/للمبرد، دمشق ١٣٩٦هـ.
* تهذيب التهذيب/ لابن حجر العسقلاني، الهند ١٣٢٦هـ.
* تهذيب اللغة/ للأزهري، القاهرة ١٣٨٤هـ.

تونس ١٩٨١م.
* الجمل/ لمحمد بن محمد المفيد، النجف ١٣٨٢هـ.
* جمهرة أنساب العرب/لابن حزم، القاهرة ١٣٨٢هـ.
* جمهرة النسب/ للكلبي، بيروت ١٤٠٧هـ.
* حلية الأولياء/لأبي نعيم، بيروت ١٣٨٧هـ.
* الحماسة/ لابن تمام ـ شرح المرزوقي ـ، القاهرة ١٣٨٧هـ.
* الحماسة/للبحتري ـ ط. اليسوعية ـ، بيروت (بلا تاريخ).

* الحماسة البصرية/لصدر الدين البصري، بيروت ١٤٠٣هـ.
* الحماسة الشجرية/لهبة الله ابن الشجري، دمشق ١٩٧٠م.
* حياة الحيوان/للدميري، القاهرة ١٣٥٦هـ.
* الحيوان/للجاحظ، القاهرة ١٣٨٤هـ.
* الخرائج والجرائح/لقطب الدين الراوندي، بيروت ١٤١١هـ.
* الدرجات الرفيعة/ لعلي بن أحمد المدني، النجف ١٣٨١هـ.
* الدرجات الرفيعة/للسيد علي (خان) المدني، النجف ١٣٨١هـ.
* دلائل النبوة/ للبيهقي، بيروت ١٤٠٥هـ.
* الديارات/للشابشتي، بغداد ١٣٨٦هـ.
* ديوان/حسان بن ثابت، لندن ١٩٧١م.
* ديوان المتنبي ـ شرح العكبري، القاهرة ١٣٩١هـ.
* الذريعة/للشيخ محمد محسن (آقابزرك) الطهراني (طبعة دار الأضواء)، بيروت الطبعة الثانية.
* ربيع الأبرار/ للزمخشري ـ ج١ ـ، بغداد ١٤٠٠هـ.
* رجال/الطوسي، النجف ١٣٨١هـ.
* رجال/الكشي، مشهد ١٣٨٩هـ.
* رجال/النجاشي، الهند ١٣١٧هـ.
* رجال/النجاشي، بومباي الهند ١٣١٧هـ.
* الروض الأُنُف/ للسهيلي ـ طبعة دار الفكر ـ، بيروت (بلا تاريخ).
* الزهرة للأصبهاني ج٢، بغداد ١٣٩٤هـ.
* سفينة البحار/لعباس القمي، طهران ١٤١٦هـ.
* سمط اللآلىء/ لأبي عبيد البكري، القاهرة ١٣٥٤هـ.
* سنن/ ابن ماجة، القاهرة ١٣٧٢هـ.
* سنن/الترمذي، القاهرة ١٣٥٦هـ.

* سنن/ الترمذي، القاهرة ١٣٨٢هـ.
* سنن/ النسائي ـ شرح السيوطي ـ، القاهرة ١٣٤٨هـ.
* سير أعلام النبلاء/ للذهبي، بيروت ١٤٠٦هـ.
* سيرة/ ابن هشام، بيروت ١٣٩١هـ.
* السيرة الحلبية/ لعلي الحلبي، القاهرة ١٣٥١هـ.
* السير والمغازي/ لمحمد بن إسحاق، بيروت ١٣٩٨هـ.
* السيرة النبوية/ لابن هشام، بيروت ١٣٩١هـ.
* شذرات الذهب/ لابن العماد الحنبلي، القاهرة ١٣٥٠هـ.
* شرح نهج البلاغة/ لابن أبي الحديد، القاهرة ١٣٧٨هـ.
* الشعور بالعور/ للصفدي، عمّان ١٤٠٩هـ.
* صبح الأعشى/ للقلقشندي، القاهرة (طبعة مصورة).
* صحيح/ البخاري ـ طبعة محمد علي صبيح ـ، القاهرة (بلا تاريخ).
* صحيح/ مسلم ـ طبعة محمد علي صبيح ـ، القاهرة (بلا تاريخ).
* الصواعق المحرقة/ للحافظ ابن حجر الهيتمي، القاهرة ١٣١٢هـ.
* طبقات/ ابن سعد، ليدن ١٣٢٢هـ.
* طبقات/ خليفة بن خياط، دمشق ١٩٦٦م.
* العبر/ للذهبي، بيروت ١٤٠٥هـ.
* العبر/ للذهبي ـ طبعة دار الكتب العلمية ـ، بيروت (بلا تاريخ).
* العقد الفريد/ لابن عبد ربه الأندلسي، القاهرة ١٣٨١هـ.
* الغارات/ لأبي إسحاق الثقفي، طهران ١٣٩٥هـ.
* الغارات/ لأبي أعثم الكوفي، طهران ١٣٩٥هـ.
* غدير الحديث/ للخطابي، دمشق ١٤٠٢هـ.
* الغدير/ للشيخ عبد الحسين الأميني، بيروت ١٣٩٧هـ.

* غريب الحديث/ لابن الجوزي، بيروت ١٤٠٥هـ.
* غريب الحديث/ لأبي عبيد، بيروت ١٤٠٦هـ.
* غريب الحديث/ لابن قتيبة، بيروت ١٤٠٨هـ.
* غريب الحديث/ للخطابي، دمشق ١٤٠٢هـ.
* الفائق/ للزمخشري ـ الطبعة الثانية، القاهرة (بلا تاريخ).
* الفتوح/ لابن أعثم الكوفي، الهند ١٣٨٨هـ.
* فتوح البلدان/ للبلاذري، القاهرة ١٣٥٠هـ.
* فتوح الشام/ للواقدي، القاهرة ١٣٥٤هـ.
* الفرج بعد الشدة/ لأبي علي التنوخي، بيروت ١٣٩٨هـ.
* الفصول المختارة/ للمفيد محمد بن محمد بن النعمان، النجف (بلا تاريخ).
* الفهرست/ لابن النديم، طهران ١٣٩١هـ.
* الفهرست/ للطوسي، النجف ١٣٥٦هـ.
* الكافي/ للكليني محمد بن يعقوب، طهران ١٣٧٥هـ.
* الكامل في الأدب/ للمبرد ـ طبعة دار نهضة مصر ـ، القاهرة (بلا تاريخ).
* الكامل في التاريخ/ لابن الأثير عز الدين، القاهرة ١٣٥٦هـ.
* كشف المشكل/ للحيدرة اليمنى، بغداد ١٤٠٤هـ.
* كفاية الطالب/ لابن الأثير، الموصل ١٩٨٢م.
* اللباب/ لابن الأثير، القاهرة ١٣٥٧هـ.
* مالك بن الحارث الأشتر/ [موسوعة العلامة الكبير الشيخ محمد حسن آل ياسين ﷺ/ المؤلفات] بيروت.
* المثل السائر/ لابن الأثير، الرياض ١٤٠٣هـ.
* مجاز القرآن/ لأبي عبيدة، القاهرة ١٣٧٤هـ.

* مجلة أكتوبر المصرية/العدد (٣٣٢)، القاهرة ١٩٨٣م.
* مجلة (الرافدين) العدد ١٥٣/ص ٨، بغداد ٢٠٠١م.
* مجمع الرجال/للقهبائي، إيران ١٣٨٤هـ.
* مجمع الزوائد/لابن حجر، بيروت ١٩٦٧م.
* محاضرات الأدباء/ للراغب، بيروت (بلا تاريخ).
* المحبَّر/ لمحمد بن حبيب، الهند ١٣٩١هـ.
* محمد بن أبي بكر/لمحمد حسن آل ياسين، بيروت ١٤٢٠هـ.
* مرآة الجنان/ لليافعي، الهند ١٣٣٧هـ.
* مروج الذهب/للمسعودي، القاهرة ١٣٥٧هـ.
* مسند/أحمد بن حنبل، بيروت ١٣٨٩هـ.
* المعارف/لابن قتيبة، القاهرة ١٩٦٠م.
* معجم الأدباء/لياقوت، القاهرة ١٣٥٥هـ.
* معجم البلدان/لياقوت الحموي، القاهرة ١٣٢٣هـ.
* معجم الشعراء/للمرزباني، القاهرة ١٣٥٤هـ.
* المعجم الكبير/ للطبراني، بغداد ١٣٩٨هـ.
* معجم ما استعجم /للبكري، القاهرة ١٣٦٤هـ.
* مقاتل الطالبيين/لأبي الفرج الأصبهاني، القاهرة ١٣٦٨هـ.
* المقاييس/لابن فارس ـ الطبعة الثانية ـ، القاهرة ١٣٨٩هـ.
* المقتضب/ لياقوت الحموي، بيروت ١٩٨٧م.
* المنمق/ لمحمد بن حبيب، الهند ١٣٨٤هـ.
* منية الأدباء/لياسين العمري، الموصل ١٣٧٤هـ.
* المؤتلف والمختلف/للآمدي، القاهرة ١٣٥٤هـ.
* نثر الدر/للآبي، القاهرة ١٩٨٠م.

* النجوم الزاهرة/ لابن تغري بردي، القاهرة (طبعة مصورة).
* نسب بني أمية/ لمحمد عبدالله الخزرجي، بيروت ١٤١٦هـ.
* نسب قريش/ للمصعب الزبيري، القاهرة ١٩٥٣م.
* نظام الغريب/ للربعي الوحاظي، بيروت ١٤٠٠هـ.
* نهاية الأرب/ للنويري، القاهرة (طبعة مصورة).
* نهاية الأرب/ للنويري ج٢٠، القاهرة ١٣٩٥هـ.
* نهاية الأرب/ للنويري ج٢٠، القاهرة ١٩٧٥م.
* نهج البلاغة/ بشرح الشيخ محمد عبده ـ طبعة عيسى البابي، القاهرة (بلا تاريخ).
* وسائل الشيعة/ لمحمد بن الحسن الحر العاملي، طهران ١٣٨٧هـ.
* وقعة الجمل/ لمحمد بن زكريا الغلابي، بغداد ١٣٩٠هـ.
* وقعة صفين/ لنصر بن مزاحم، القاهرة ١٣٨٢هـ.

المحتويات

حَمزة بن عبد المطّلبْ ١١
حياته ١٣
جِهادُه ٢٨
مُصْعَبْ بن عُمَيرْ ٦١
سَعْدُ بن الرّبيع ٩١
سَعْد بن مُعاذ ١١٣
اسمه وقبيلته ١١٥
أُمُّه ١١٨
ذريته ١٢٠
زيدُ بن حَارثة ١٥٣
جعفر بن أبي طالب ١٨١
عَبدُ اللَّهِ بن رَوَاحَة ٢١٧
سعد بن عُبادة ٢٥٩
اسمه ونسبه ٢٦١
إخوته وأخواته ٢٦٢
الحُباب بن المُنذِر ٣٠١
عبادة بن الصَّامِت ٣٢٩

سلمانُ الخير ٣٤٧
أبو ذرٍّ الغفَّاري ٣٧٥
المِقداد بن عمرو ٤٢١
حُذَيفةُ بن اليمان ٤٤٩
زَيد بن صُوحان ٤٧٧
إخوته ٤٧٩
خُزيمة بن ثابت «ذو الشَّهادتين» ٥٠٧
أبُو الهَيْثم بنُ التَّيِّهان ٥٣١
المحتويات ٥٥٩